

الدكتور عصام محمد شبارو

قاضي القضاة في الإسلام

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت - ص.ب. ١١-٧١٩



حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٩٩٢

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
شودوت. ص ١١٠١١



* الإدارة: بيروت، شارع مدحت باشا، بناية

كريدية، تلمون: ٣٠٣٨١٦ /

٣٠٩٨٣٠

برقياً: داعضة، ص. ب ٧٤٩-١١

تلكس: NAHDA 40290 LE

29354 LE

* المكتبة: شارع البستاني، بناية اسكندراني

رقم ٣، غربي الجامعة العربية،

تلفون: ٣١٦٢٠٢

* المستودع: بترجسن، تلفون: ٨٣٣-١٨٠.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَمَنْ لَّمْ يُجِبْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ

(٤٥) المتاشدة

وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

(٧) الحشر

المقدمة

تندر المصادر التي عالجت خصوصية القضاء من خلال سيرة القضاة أو قضاة القضاة، بالرغم من تعدد المصادر التي تطرقت بشكل عام إلى القضاء في الإسلام. لذلك سعيت في هذا البحث إلى الإحاطة بمنصب قاضي القضاة، معتمداً على المصادر الإسلامية التي اهتمت مباشرة بالقضاء والقضاة، وتحمل عنواناً في هذا الموضوع مثل «أخبار القضاة» لوكيع القاضي (ت ٣٠٦/٩١٨)، و«الولاة والقضاة» للكندي (ت ٣٥٠/٩٦١)، وقضاة دمشق «الشجر البسام في ذكر من تولى قضاء الشام» لابن طولون، وقضاة الأندلس «المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا» للنباهي . . . وعلى المصادر الإسلامية التي اهتمت أيضاً بالقضاء والقضاة، ولا تحمل عنواناً في هذا الشأن، ولكن يلفت النظر إليها اسم مؤلفها الذي تقلد منصب القاضي أو قاضي القضاة، مثل «نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة» و«الفرج بعد الشدة» و«المستجد من فعلات الأجواد» للقاضي التنوخي (ت ٣٨٤/٩٩٤)، و«الأحكام السلطانية والولايات الدينية» لأقضى القضاة الماوردي (ت ٤٥٠/١٠٤٨)، و«وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» لقاضي القضاة ابن خلكان (ت ٦٨١/١٢٨٢) . . . فلا غرو أن تأتي بعض أو معظم أخبار القاضي التنوخي وأقضى القضاة الماوردي وقاضي القضاة ابن خلكان، عن القضاء والقاضي وقاضي القضاة، فقد تقلد كل منهم القضاء وعایش القضاء وقضاة القضاة، ومع ذلك كله، نلاحظ أن هذه المصادر جميعاً لا تحمل عنواناً يتعلّق بـ «قاضي القضاة» موضوع هذا البحث، ولكن أهميتها تكمن في تعلق هذه العناوين أو اسم المؤلف بالقضاء والقضاة مما يسهل عملية البحث والتنقيب عن قاضي القضاة.

هذا فضلاً عن المصادر الإسلامية الكثيرة مثل «الفهرست» لابن النديم (ت ٣٨٢/٩٩٣)، و«تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي (ت ٤٦٣/١٠٧١)، و«المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» لابن الجوزي (ت ٥٩٧/١٢٠١)، و«معجم الأدباء» لياقوت

الحموي (ت ٦٢٦/١٢٢٩)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (ت ٧٧٤/١٣٧٢)، و«صبح الأعشى في صناعة الإنشا» للقلقشندي (ت ٨٢١/١٤١٨)، و«الوافي بالوفيات» للصفدي، و«فوات الوفيات» لابن شاکر الکتبي . . . وغيرها، وهذه المصادر لا تختص مباشرة بالقضاء والقضاة أو قضاة القضاة، بل تتكلم عن الخلفاء والأمراء والوزراء والكتاب والتجار والعمال . . . إلى غير ذلك، مما أدى إلى ورود أسماء كثيرة وحوادث عديدة لن يعرف القارئ العادي أنها قد تتعلق بقاضي القضاة، وهذا يتطلب التدقيق والمقارنة حتى نعرف هويتها، مما أوجد بعض الصعوبات في تتبع أخبار قاضي القضاة من خلال هذه المصادر وغيرها، ثم إدراجها في صلب الموضوع. كما إن هذه المصادر تعتمد التواريخ الهجرية، وتسهيلاً للقارئ ذكرت ما يوافقها من التواريخ الميلادية معتمداً في ذلك على كتاب «التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية» للواء محمد مختار باشا (ت ١٣١٥/١٨٩٧).

ولا بد من الإشارة هنا، إلى أنه مع كثرة المراجع العربية والأجنبية التي نقلت عن المصادر الإسلامية في حديثها أحياناً عن القضاء، فإنها لم تسد الفراغ في موضوع قاضي القضاة^(١)، مما يزيد من أهمية هذا الكتاب الذي يتطرق مباشرة لأعلى منصب قضائي في الإسلام تحت عنوان «قاضي القضاة في الإسلام»، لنضيفه إلى كتابنا السابق «القضاء والقضاة في الإسلام»^(٢)، تكمة للفائدة المرجوة، ورداً على بعض الكتاب المستشرقين الذين يتخذون من سيرة بعض قضاة القضاة البعيدة عن آداب قاضي القضاة، مثلاً يعمّمونه على الكل، وذلك لتشويه صورة الإسلام، فإذا تأثر بعض قضاة القضاة بمجالس اللهو والرقص والشرب أو بقبول الرشوة والهدايا . . . فهذا لا يعني أبداً تشويه منصب قاضي القضاة، والواقع أن هؤلاء أقلية واستثناء، ومعظم قضاة القضاة كانوا يتعدون عن مثل هذه المجالس ويحافظون على تعاليم القرآن الكريم وآداب قاضي القضاة. ولتوضيح هذه الحقيقة تبعت سيرة عشرة أسماء ممن

(١) في جامعة بغداد، رسالة ماجستير بعنوان «منصب قاضي القضاة في الدولة العباسية منذ نشأته حتى نهاية العهد السلجوقي»، وقد أعدها عبدالرزاق علي الأنباري سنة ١٩٧١، وهي في ٥٢٤ صفحة وستة فصول، الأول عن القضاء والقضاة في العصر العباسي الأول، والثاني عن ظهور منصب قاضي القضاة في العصر العباسي الأول، والثالث عن مراسيم تقليد قاضي القضاة في العاصمة العباسية، والرابع عن ممارسة قاضي القضاة لسلطاته في إدارة القضاء والحكم، والخامس عن اضطلاع قاضي القضاة بمهام غير قضائية، والسادس يتعلق بآداب قاضي القضاة.

(٢) عصام شبارو: القضاء والقضاة في الإسلام «العصر العباسي» بيروت ١٩٨٣.

تقلد أصحابها منصب قاضي القضاة وهم: أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري «أول قاضي قضاة في الإسلام» (١١٣ - ١٨٢/٧٣١ - ٧٩٨)، وأبو عبدالله أحمد بن أبي دؤاد الأيادي (١٦٠ - ٢٤٠/٧٧٦ - ٨٥٤)، وأبو محمد يحيى بن أكثم (١٥٩ - ٢٤٢/٧٧٥ - ٨٥٧)، وأبو جعفر أحمد بن اسحق بن البهلول التنوخي (٢٣١ - ٣١٨/٨٤٥ - ٩٣٠)، وأبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب بن حماد الأزدي (٢٤٣ - ٣٢٠/٨٥٧ - ٩٣٢)، وابنه أبو الحسين عمر (٢٩١ - ٣٢٨/٩٠٤ - ٩٤٠)، وأبو الحسن محمد بن الحسن بن عبدالله بن علي بن محمد بن عبدالملك بن أبي الشوارب الأموي (عزل عن منصبه سنة ٣٣٥/٩٤٦)، وأبو السائب عتبة بن عبيدالله الهمداني (٢٦٤ - ٣٥٠/٨٧٧ - ٩٦٢)، وأبو العباس عبدالله بن الحسن بن عبدالله بن علي بن محمد بن عبدالملك بن أبي الشوارب الأموي (عزل عن منصبه سنة ٣٥٢/٩٦٣)، وابن خللكان أبو العباس أحمد بن محمد الأربلي الشافعي (٦٠٨ - ٦٨١/١٢١١ - ١٢٨٢). وقد ارتأيت إضافة اسم الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري (٣٦٤ - ٤٥٠/٩٧٤ - ١٠٥٨)، إلى هؤلاء العشرة رغم أنه لم يكن قاضي قضاة مثلهم، ولكنه كان أول من تقلد منصب «أقضى القضاة» في الإسلام، ولعب دوراً بارزاً في الدفاع عن الخلافة العباسية. ثم وزعت هذه الأسماء جميعاً على البابين الثاني والثالث، وذلك حسب الدور الذي لعبه كل منهم سواء في الحياة السياسية أو في الحياة الاجتماعية الخاصة، في حين أفردت الباب الأول للحديث عن دور قاضي القضاة في الحياة القضائية.

هذا وقد تعمدت ذكر أسماء كثيرة غيرها، تقلد أصحابها منصب قاضي القضاة في العواصم العربية الإسلامية، من بغداد إلى القاهرة ثم دمشق فقرطبة... وقد ترجمت معظمها أو تحدثت عنها في المكان المناسب وذلك تدعيماً للهدف المنشود. ومع الإشارة، بأنه لا يوجد حد فاصل بين أبواب هذا البحث التي تتداخل فيما بينها لتؤلف عنواناً واحداً هو قاضي القضاة في الإسلام، فقد حاولت المستطاع في التنسيق بين أبواب وفصول هذا العنوان بطريقة علمية وموضوعية قدر الإمكان، بهدف أن يكون تحليل الأفكار المختلفة مستنداً إلى مادة موثقة وليس نابعاً من فراغ، وأرجو أن أكون قد وفقت فيما سعيت إليه، والله الموفق.

عصام محمد شبارو

بيروت، عين المريسة، في ٢٩ شباط (فبراير) ١٩٨٨ الموافق ١٣ رجب ١٤٠٨

تمهيد

كان شيخ القبيلة يتولى القضاء عند العرب قبل الإسلام، معتمداً على العرف والتقاليد السائدة بين القبائل التي لم تعرف سلطة تشريعية تسن لها القوانين، وقد اشتهر في ذلك الوقت، أكثم بن صيفي «قاضي العرب»^(١).

وباجتماع القبائل العربية تحت راية الإسلام، كان القرآن الكريم الأساس الرئيس الذي جعل من النبي العربي ﷺ، أول من قضى في الإسلام. ثم أذن النبي لبعض الصحابة بالقضاء، وأتاب بعضهم في البلاد، مثل عتاب بن أسيد الذي وجهه على مكة يوم الفتح^(٢)، ومعاذ بن جبل والإمام علي بن أبي طالب على اليمن، ولكن دون أن يسمي هؤلاء بالقضاة.

واستمر الأمر على هذا المنوال، في خلافة أبي بكر الصديق، الذي حرص على الإشراف بنفسه على القضاء، رغم تكفل عمر بن الخطاب بأمر القضاء^(٣).

ومع ذلك لم يكن هناك منصب خاص بالقاضي، حتى كانت خلافة عمر بن الخطاب الذي شرع في تنظيم القضاء بعد اتساع الدولة العربية الإسلامية، فكان أول من عين القضاة في الإسلام، حيث عهد بالقضاء إلى شخص سمي لأول مرة بالقاضي. وقد ولي أبا الدرداء^(٤) على قضاء المدينة المنورة ثم دمشق، وسلمان بن

(١) أحمد أمين: فجر الإسلام ص ٢٢٥.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٤٩.

(٣) ابن خلدون: المقدمة، ص ٣٩١.

(٤) أبو الدرداء (ت ٦٥٢/٣٢): هو عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الأنصاري الخزرجي، صحابي من الحكماء الفرسان القضاة. ولاه معاوية قضاء دمشق بأمر من عمر بن الخطاب، وهو أول قاضي بها، مات بالشام.

الزركلي: الأعلام ج ٥ ص ٩٨.

ربيعة الباهلي على القادسية ثم المدائن^(١)، وأبا أمية شريح بن الحارث^(٢) على قضاء الكوفة، وأبا موسى الأشعري على قضاء البصرة، وكعب بن يسار بن ضنة ثم قيس بن العاص على قضاء مصر. وهكذا كان القضاء بسيطاً في عصر الخلافة الراشدة (١١ - ٤٠/٦٣٢ - ٦٦١).

وكان العصر الأموي (٤٠ - ٦٦١/١٣٢ - ٧٥٠)، امتداداً لعهد الخلافة الراشدة، في اختيار القضاة الذين يعتمدون على القرآن الكريم والسنة النبوية ثم الاجتهاد في القضاء بين المسلمين. وقد أنشأ عبد الملك بن مروان منصب صاحب المظالم للنظر في أحوال المتخاصمين في المشاكل العويصة التي يعجز عن حلها القاضي^(٣).

وفي العصر العباسي تعقد القضاء بسبب تعقد الحياة الاجتماعية في الدولة العربية الإسلامية، وخاصة في بغداد التي عرفت أساليب جديدة في الحياة الاجتماعية والثقافية والفكرية والاقتصادية. لكن هارون الرشيد نظم القضاء عندما استحدث منصب قاضي القضاة لأول مرة في الإسلام، وقلده لأبي يوسف يعقوب بن حبيب الأنصاري الذي استقل في أمور القضاء، وكانت له الرئاسة على جميع القضاة، وأصبحت بغداد، حاضرة الخلافة، هي مقر قاضي القضاة.

وبقيام الخلافة الفاطمية في مصر سنة ٩٧٣/٣٦٢، أوجد المعز لدين الله الفاطمي قاضي قضاة آخر في القاهرة. وبنشوء الدويلات داخل الدولة العباسية، أخذت كل دويلة تعين قاضي قضاة خاص بها.

(١) ابن قتيبة: عيون الأخبار ج ١ ص ٦١.

(٢) شريح بن الحارث بن قيس القاضي (ت ٧٠٧/٧٨): أدرك الجاهلية، استقضاه عمر بن الخطاب على الكوفة، فمكث بها قاضياً خمساً وستين سنة. كان عالماً عادلاً كثير الخير، حسن الأخلاق، فيه دعابة كثيرة، وكان كوسجاً لا شعر بوجهه.

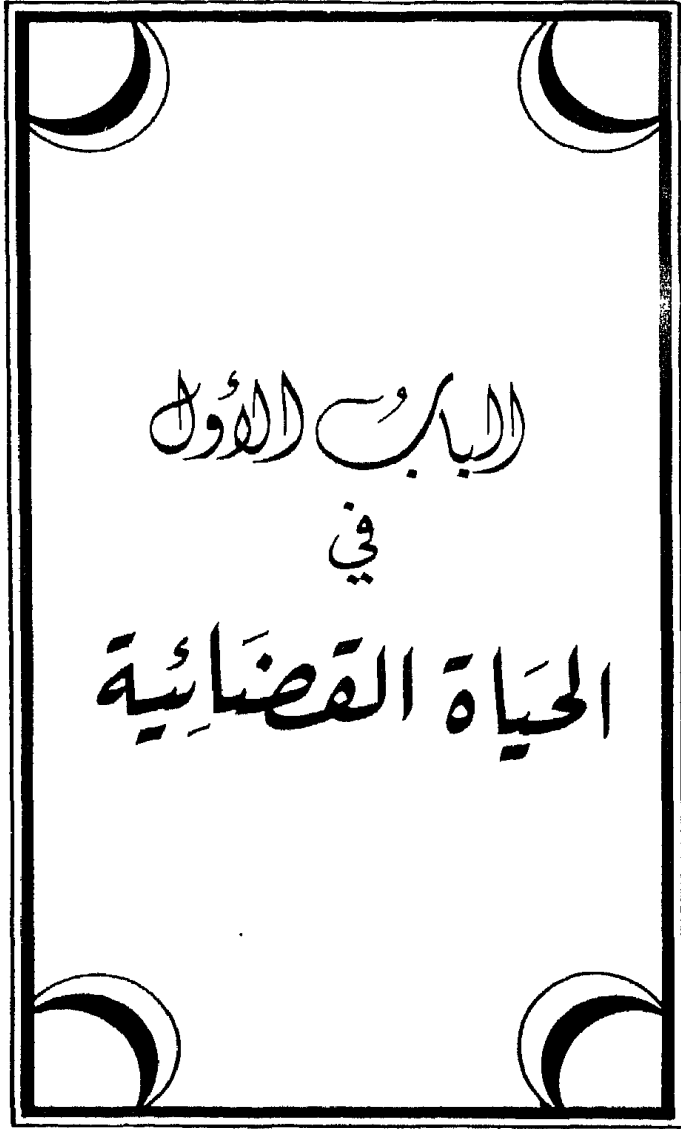
ابن قتيبة: عيون الأخبار ج ١ ص ٦١، ابن كثير: البداية والنهاية ج ٩ ص ٧٤.

(٣) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ٧٣ - ٧٤.

وفي الأندلس، كان قاضي القضاة يعرف بقاضي الجماعة، وذلك في عصر
الإمارة الأموية (٧٥٦-٩١٢/١٣٥٥-١٥٠٦)، ثم الخلافة الأموية
(٩٢٩-١٠٣١/١٥٢٣-١٦٢٢)، وللتين عاصرتا الخلافة العباسية في بغداد. وكان
قاضي الجماعة يقضي في قرطبة حاضرة الخلافة. وقد ظل هذا المنصب أرفع مناصب
القضاء حتى عصر بني الأحمر.

ويظهر الممالك الصغيرة، نتيجة ضعف الخلافة الأموية في الأندلس، عرفت
كل منها منصب قاضي الجماعة^(١). كما عرف المغرب أيضاً منصب قاضي الجماعة.

(١) . E I². T4P 391.



ابتكر الخليفة العباسي هارون الرشيد، منصب قاضي القضاة، وقَّده لأول مرة في الإسلام، إلى أبي يوسف الذي يعتبر أول من نَظَّم شؤون القضاء باستقلالية إلى حدٍّ ما عن السلطة التنفيذية، وأوجد الزي الخاص بالقضاة، وتحدّدت مهام قاضي القضاة في بغداد، كما كرَّس أبو يوسف مذهب أستاذه أبي حنيفة في القضاء. وكان يوجد قاضي قضاة واحد في بغداد، ومع قيام الدولة الفاطمية في مصر، أصبح هناك قاضي قضاة آخر في القاهرة على المذهب الشيعي الإسماعيلي. ومع دولة المماليك، أصبح لكل مذهب من المذاهب الأربعة عند أهل السنة، قاضي قضاة. وكان تقليد قاضي القضاة يتم في احتفال يقرأ فيه عهد الخليفة، وبعد ذلك يباشر سلطته القضائية، هذه السلطة التي أضيف إليها وظائف أخرى غير قضائية، مثل إمارة الحج والخطابة والنظر في الجوامع والتدريس ووكالة بيت المال والحسبة ومشيخة الشيوخ ودار الضرب والأسوار. . . مما يدل على المكانة التي كان يحتلها قاضي القضاة، سواء في بغداد أو القاهرة أو دمشق. . . وحتى في قرطبة حيث عرف بقاضي الجماعة.

الفصل الأول

نشوء منصب قاضي القضاة

كان النبي ﷺ هو القاضي الأعلى للمسلمين، وكذلك كان خليفته من بعده، وكان ولايته على البلاد يباشرون هذه السلطة بالنيابة عنه. ثم إن كثرة الواجبات تطلبت الاستعانة ببعض القضاة، وقد احتفظ الوالي لنفسه بما كان «يعجز عنه القاضي»^(١)، وإذا لم يقل الوالي حكم القاضي لم يكن أمام القاضي إلا أن ينصرف عن الحكم ويعتزل أو يجلس في منزله مضرِباً على الأقل^(٢)، حتى كان العصر العباسي حيث خرج القاضي من سلطان الوالي وصار يعينه الخليفة مباشرة أو يقر تعيينه^(٣).

وكان القاضي بمثابة حكم مهمته الفصل بين الناس في الخصومات حسماً للتداعي وقطعاً للتنازع، فيحل الخلافات بين المتخاصمين الذين يقصدونه، ويكون ذلك بالأدلة الشرعية، أي حسب الشريعة الإسلامية^(٤). وهو لا يملك سلطة تنفيذ الحكم، إلا أنه مخوّل بسلطة يشرف بموجها على جميع القضايا التي تؤثر في حياة الجماعة، والتي نظمها الشريعة كالزواج والطلاق والعناية بالأيتام والموارث وغيرها. وكان صاحب الشرطة ينفذ قرارات القاضي، ويطارد المجرمين ليجلبهم إليه. وعلى هذا الأساس كان منصب القاضي يتطلب معرفة تامة بالشريعة الإسلامية وبالنواحي الدقيقة فيها والتي عالجتها المذاهب الأربعة: الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية، كل منها بطريقتها الخاصة، وعندما كثرت الحاجة إلى القضاة لم يعد ممكناً إيجاد عدد كاف من الذين لهم معرفة واسعة بالفقه والشرع، فأصبحت الطريقة في اختيار القاضي

(١) المقرئزي. الخطط ج ٢ ص ٢٠٧

(٢) الكندي: الولاة والقضاة ص ٣٢٦ و ٣٢٧ و ٣٥٦ و ٤٢٧.

(٣) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ١ ص ٢٤٠ و ٢٥٣ و ٢٥٧؛ ج ٣ ص ١٣٦؛ ج ٤ ص ٢٣ و ٨٠ و ١١٣؛ ج ٥ ص ١٧٧ و ١٩٣ و ٢٠٤ و ٢٣٧؛ ج ٦ ص ٦٦ و ١٢٢ و ١٣١؛ ج ٧ ص ٣٢.

(٤) ابن خلدون: المقدمة ص ١٥٤.

تعتمد على اتصافه بالأمانة والقطرة السليمة، ويستطيع القاضي ضمان معرفة الفقه باختياره مستشارين مثقفين، أو تأخير حكمه حتى يزود برأي صائب من أحد الفقهاء أو القضاة الضالعين في القضاء^(١).

وهكذا يعتبر منصب القاضي هو الأساس الذي خرج منه منصب قاضي القضاة حيث يختاره الخليفة عادة من بين القضاة.

وكان الخليفة هارون الرشيد (ت ١٩٣/٨٠٩) أول من استحدث منصب قاضي القضاة، الذي يعتبر من مستحدثات الدولة العباسية والتي حاولت منذ عصر الخليفة المنصور تأكيد الحاجة إلى فصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية، وذلك بتدعيم الاستقلال القضائي والديني في الدولة، فاعتمدت في كثير من إداراتها على النظم الفارسية، ومن بين ذلك المنصب القضائي الساساني «موبدان موبد»^(٢)، وتعريبه قاضي القضاة أو رئيس القضاة وهو أعلى الوظائف الدينية قدراً ورتبة. ومنذ تعيين أبي يوسف في منصب قاضي القضاة لأول مرة في الإسلام، بدأ القضاء في العصر العباسي يأخذ شكل سلطة يتولاها قاضي القضاة، يليه وظائف قضائية مختلفة لتسهيل أمور القضاء في مناطق الدولة الواسعة، فاتساع الدولة أدى إلى إيجاد منصب قاضي القضاة يليه القاضي، فخليفة القاضي^(٣)، ثم مساعدو القاضي (أمين، كاتب، خادم)^(٤)، فالشهود

(١) التنوخي: نشوار المحاضرة جـ ٦ ص ١٩٦ و ١٩٧

(٢) Sourdel: Visirat Abbaside T 1 P 179-180.

(٣) خليفة القاضي: أدت الظروف الاجتماعية إلى زيادة أعباء القاضي، فاضطر إلى التنارل عن بعض مسؤولياته إلى مساعدين تحت سلطته يعينهم لإنجاز الواجبات التي كانت منوطة به، فكانت وظيفة خليفة القاضي، ومعظم القضاة كانوا خلفاء قضاة.

التنوخي: نشوار المحاضرة جـ ١ ص ٩٣ و ٢٣٥ و ٢٨٤ و ٢٨٥؛ جـ ٢ ص ٩ و ٨٧ و ١١٠، جـ ٣ ص ١٣٧ و ٢٥١، جـ ٤ ص ٤٧ و ٥ ص ١٥؛ جـ ٦ ص ٧٥ و ١١٨؛ جـ ٨ ص ١٨٦
الفرج بعد الشدة: جـ ١ ص ١٠٣ و ١٣٤؛ جـ ٢ ص ١٣١؛ جـ ٣ ص ٧٣ و ٣٢١؛ جـ ٤ ص ٢٠١ و ٣٥٨.

الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد جـ ٨ ص ١٠٣ و جـ ٩ ص ٣٣٥.

(٤) مساعدو القاضي: نتيجة ترايد الأعباء الملقة على عاتق القاضي، أخذ يعين بواباً عنه لإنجاز جميع الواجبات التي كانت منوطة به؛ وهي: أمين بيت المال، والمشرف على إدارة أملاك اليتامى والأوقاف، =

العدول^(١)، ثم الوكيل على أبواب القضاة^(٢)، وكل ذلك بهدف تنظيم القضاء الذي

= والوصي على أولئك الفاقدين الأهلية، وإمام خطبة الجمعة . . . وكان يساعد القاضي أيضاً الكاتب لتدوين قرارات الحكم وتسجيل أقوال الشهود، ويسمى كاتب القاضي «كاتب أحكام» ويشترط أن يكون «عالمًا بالحلال والحرام والإختلاف والإحتجاج والإجماع والأصول والفروع». وكان للقاضي أيضاً خدم يساعده.

التنوشي: نشوار المحاضرة ج١ ص ٢٠ و ٨٩؛ ج٢ ص ١٥٧ و ٢٧٠ و ٣٢٩ و ٣٣٠؛ ج٣ ص ١٥ و ٢٢١ و ٢٢٢؛ ج٤ ص ٤٧ و ٤٨؛ ج٥ ص ١١؛ ج٦ ص ١٦٣؛ ج٨ ص ٢٠٤ و ٢٠٦؛ ج٨ ص ٢٠ و ٢١ و ٢٢. الفرج بعد الشدة. ج١ ص ١٠٧ و ٢٩٣؛ ج٢ ص ٢٦٨ و ٣١٨؛ ج٣ ص ٧٣ و ٧٦ و ٢٦٥ و ٢٦٦ و ٢٦٧ و ٣٠٩؛ ج٤ ص ٧٥ و ١٠٨ و ١٣٥ و ١٤٨ و ٢٠١ و ٢٤١ و ٤٢٦.

الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج٣ ص ٣٩٠. ابن العماد: شذرات الذهب ج٢ ص ٢٧٥.

ياقوت الحموي: معجم الأدباء ج٣ ص ٥٤ و ٥٨.

(١) الشهود العدول: يمنح القاضي ثقة تامة وافية للشهادة، لذلك يصدر قائمة بأشخاص تكون أمانتهم مشهوراً بها في مفهوم العدالة، فيسمى الواحد منهم الشاهد العدل. وهؤلاء الأشخاص يختلف عددهم من عشرة إلى عدة آلاف، وهم الشهود العدول، وهم وحدهم لهم الحق بإداء الشهادة وتزويد القاضي بالمواد التي يبني عليها قراره ثم أصبح لدى القضاة أناس مخصوصون يقلونهم كشهد عدول، ولم يعد أي شخص يمكن قبوله شاهد عدل إلا إذا توافرت فيه شروط معينة مثل «قلة الحياء» وأن يكون فيه «سوء الظن» وأن يكون مثل شيطان الأنس في «التيقظ والذكاء والتحرز والفهم».

التنوشي: نشوار المحاضرة ج١ ص ٢٤٦ و ٢٦٢ و ٣٠٧ و ٣٥١؛ ج٢ ص ٩ و ١٢ و ١٧ و ٢٤ و ٧٧ و ١١٠ و ١١١ و ١٧٠ و ١٧١ و ٢٦٩ و ٣٣٣؛ ج٣ ص ٩ و ٥٧ و ٦٧ و ١٢٩ و ١٣٧ و ١٦٧ و ١٩٤ و ٢٢١ و ٢٥٢ و ٢٧٤؛ ج٤ ص ٧٩ و ٩٠ و ٩١ و ٢٠٤ و ٢٠٥؛ ج٥ ص ٤٥ و ٧٨ و ١٩٦ و ٢٢٢؛ ج٦ ص ١٣. الفرج بعد الشدة: ج١ ص ٢٢٢؛ ج٣ ص ٣٢١.

ابن الجوزي: المنتظم: ج٧ ص ١٥٤. الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج١٩ ص ٣٥.

ابن العماد: شذرات الذهب ج٣ ص ٩٧. ابن عبد ربه: العقد الفريد ج٨ ص ٧٦.

الماوردي: الأحكام السلطانية ص ١٢٨.

(٢) الوكيل على أبواب القضاة: وهو وكيل الدعاوي أو وكيل الحكم. ومهمته الحضور أمام القضاة وكالة من أحد المتخاصمين الذين لم تيسر لهم معرفة أحكام الشريعة أو لم تكن أعمالهم تسمح لهم أو نور عند القاضي في كل حين.

التنوشي: نشوار المحاضرة ج٢ ص ٩٥ و ٣٤٥؛ ج٣ ص ٩ و ١٢٠ و ٢٢١ و ٢٢٢؛ ج٤ ص ٦٨؛ ج٧ ص ١٨٦ و ٢٤١؛ ج٨ ص ٢٧٢. الفرج بعد الشدة: ج٢ ص ١٤٩ و ١٥٠ و ١٥١؛ ج٤ ص ١٥٢.

ابن الجوزي: المنتظم ج٦ ص ١٣٦. الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج٨ ص ٤٣٠.

تحول إلى هيئة يتدرج فيها المرشح للقضاء من خليفة قاضي إلى قاضي فقاضي قضاة، وهو أعلى منصب قضائي في الدولة.

وكان يوجد قاضي قضاة واحد في بغداد زمن الدولة العباسية، وحيث إن الدولة اتسعت كثيراً، فقد أصبح لأمصار الأقاليم التي غدت عواصم لإمارات مستقلة قاضي قضاة أسوة ببغداد، فكان قاضي قضاة القاهرة زمن الدولة الفاطمية، وكذلك زمن الدولة الأيوبية واضطرت الظروف إلى إيجاد قاضي قضاة لكل مذهب من المذاهب الأربعة عند أهل السنة سواء في القاهرة أو دمشق زمن دولة المماليك. أما في الأندلس والمغرب فكان قاضي القضاة يعرف باسم «قاضي الجماعة».

١ - في بغداد:

يعتبر أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم بن حبيب الأنصاري (ت ١٨٢/٧٩٨) أول من تقلد منصب قاضي القضاة في الإسلام^(١)، وذلك زمن الخليفة العباسي هارون الرشيد، وبعد وفاة أبو يوسف، تقلد هذا المنصب أبو البخترى وهب بن وهب القرشي (ت ٢٠٠/٨١٥)^(٢)، ثم قلّد الرشيد منصب قاضي القضاة إلى علي بن ظبيان (ت ١٩٢/٨٠٧)^(٣).

(١) التنوخ،: نشوار المحاضرة ج ١ ص ٢٥٣.

(٢) أبو البخترى وسب بن وهب بن وهب بن شير بن عبدالله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزي بن قصي بن كلاب، القرشي - سدي المدني. (ت ٢٠٠/٨١٥): كان فقيهاً إخبارياً جواداً سخياً، يحب المديح ويشب عليه العطاء الجزيل. انتقل من المدينة إلى بغداد في خلافة هرون الرشيد، فولاه القضاء بحسب المهدي في شرقي بغداد، ثم عزله وولاه القضاء بمدينة الرسول بعد بكار بن عبدالله الزبيري، وجعل إليه ولاية حربها مع القضاء، ثم عزله فقدم بغداد وأقام بها إلى أن توفي زمن المأمون وكان ضعيفاً في الحديث.

ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٣٧ - ٤٢؛ الاصفهاني: الأغاني، ج ٨ ص ٢٥٣؛ الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٤٥٥ وج ١٤ ص ٢٤٣؛ الذهبي: العبر ج ١ ص ٣٤٤؛ ابن العماد: شذرات الذهب ج ١ ص ٣٦٠؛ ياقوت الحموي: معجم الأدباء ج ١٩ ص ٢٦٠؛ ابن قتيبة: المعارف ص ٥١٦.

(٣) أبو الحسن علي بن ظبيان بن هلال بن قتادة العبي الكوفي (ت ١٩٢/٨٠٧): رجل جليل، دين، متواضع، حسن العلم بالفقه من أصحاب أبي حنيفة، تقلد قضاء الشرقية ثم قلده الرشيد قضاء القضاة، =

ومن الذين تقلدوا قضاء القضاة، نذكر أحمد بن أبي دؤاد، الذي جعله المعتصم (ت ٢٢٧/٨٤١) قاضي قضاة^(١)، وكان يسير بجانبه في المواكب لأنه يعتبره من «أكبر أهل مملكته»^(٢)، وبعد عزله تقلد يحيى بن أكثم منصب قاضي القضاة^(٣) سنة ٢٣٧/٨٥١ في سامراء^(٤)، وكذلك أصبح جعفر بن محمد الكوفي (ت ٢٥٠/٨٦٤)^(٥) قاضي قضاة سامراء^(٦). ويعتبر أبو جعفر أحمد بن اسحاق بن المهلول التنوخي من الذين تقلدوا منصب قاضي قضاة بغداد أطول فترة، فقد تقلده منذ سنة ٢٩٦/٩٠٨ وبقي فيه عشرين سنة حتى سنة ٣١٦/٩٢٨^(٧)، ثم تقلد هذا المنصب بعده أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب بن اسماعيل الحمادي الأزدي وذلك سنة ٣١٧/٩٢٩^(٨)، وبقي أبو عمر في منصبه هذا حتى وفاته سنة ٣٢٠/٩٣٢،

= وكان يخرج معه في أسفاره، ولما خرج إلى خراسان كان معه فمات في كرمشاه (قرميسين).

الخطيب العبادي: تاريخ بغداد ج ١١ ص ٤٤٥.

(١) التنوخي. المستحاد ص ١٤٨

(٢) التنوخي. شوار المحاصرة ج ٧ ص ٢١٤.

(٣) المصدر نفسه ج ٦ ص ١٠١

(٤) سامراء: بناها المعتصم وكانت عاصمة المملكة في عهد المتوكل، وهي مدينة شمالي بغداد تبعد عنها حوالي مائة كلم، بناها المعتصم سنة ٢٢١ هـ عندما ضاقت بغداد بجنوده الأتراك فانتقل إليها، وسكنها الخلفاء من بعده إلى أن استقر المعتضد ومن بعده ببغداد، فتقلصت سامراء وأصبحت بلدة بعد أن كانت حاضرة الدنيا

ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٣ ص ١٤ - ٢٢.

(٥) جعفر بن محمد بن عمار الرحمي الكوفي (ت ٢٥٠/٨٦٤): ولي قضاء الكوفة زمن المتوكل ثم عزل عن قضاء الكوفة وحمل إلى سامراء، فولي قضاء القضاة ومات بسامراء.

التنوخي: شوار المحاصرة ج ٦ ص ٥٢ - ٥٣، الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٧ ص ١٦٣.

(٦) التنوخي: شوار المحاصرة ج ٥ ص ٨٧؛ ج ٦ ص ٥٣.

(٧) المصدر نفسه: ج ٤ ص ٢٣٢؛ ج ٥ ص ٢١٣ و ٢١٥.

(٨) المصدر نفسه ج ٥ ص ٢٠٩

فخلفه ابنه أبو الحسين عمر في منصب قاضي القضاة^(١). كما تقلد حفيده أبو نصر يوسف بن عمر منصب قاضي القضاة سنة ٣٢٨/٩٣٩^(٢) وبقي فيه حتى سنة ٣٢٩/٩٤٠^(٣)، وكذلك تقلد أبو اسحاق اسماعيل بن اسحاق بن اسماعيل الحمادي الأزدي منصب قاضي القضاة في بغداد سنة ٢٦٢/٨٧٥^(٤).

ومن الذين اشتهروا بتقلد منصب قاضي القضاة عائلة عبد الملك بن أبي الشوارب الأموي، فالحسن بن محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب أصبح قاضي قضاة سامراء^(٥) زمن المعتز والمهتدي، ثم توفي سنة ٢٦١/٨٧٤، وتقلد أخوه علي بن محمد قضاء القضاة^(٦) بعد ذلك سنة ٢٨٣/٨٩٦^(٧). كما تقلد هذا المنصب أيضاً أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن اسحاق الخرقبي سنة ٣٣٠/٩٤١ زمن المتقي^(٨). وكذلك تقلده أبو السائب عتبة بن عبيد الله الهمداني سنة ٣٣٨/٩٤٩^(٩)، وبقي فيه حتى سنة ٣٥٠/٩٦١، حيث تولاه أبو العباس عبد الله بن الحسن بن عبد الله بن علي بن محمد بن أبي الشوارب^(١٠)، وبعد عزله سنة ٣٥٢/٩٦٣^(١١) تقلد منصب قاضي القضاة أبو بشر

-
- (١) التوخي نشوار المحاصرة : ج ٢ ص ٣٢٠، ج ٤ ص ٢١٠؛ ج ٦ ص ١٨١، ج ٧ ص ١٦.
 - (٢) المصدر نفسه ج ٤ ص ٢٠٣ وج ٧ ص ١٧.
 - (٣) المصدر نفسه : ج ٤ ص ٢٠٤ وج ١٧ ص ١٨.
 - (٤) المصدر نفسه ج ٦ ص ٢٣.
 - (٥) المصدر نفسه ج ٤ ص ١٣٣.
 - (٦) المصدر نفسه ج ٤ ص ١٣٤.
 - (٧) المصدر نفسه ج ٤ ص ١٣٧.
 - (٨) المصدر نفسه. ج ٤ ص ٢٤٣.
 - (٩) المصدر نفسه ج ٥ ص ٩ وج ٧ ص ٥٦.
 - (١٠) التوخي : نشوار المحاصرة ج ٣ ص ١٤٤؛ ج ٥ ص ٢٢١ - ٢٢٤؛ ج ٧ ص ٤٧؛ ابن مسكويه. تجارب الأمم ج ٢ ص ١٦؛ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ٤ ص ٢٣١.
 - (١١) التوخي : نشوار المحاصرة ج ٤ ص ٢٤٣ وج ٧ ص ٤٧.

عمر بن أكتثم بن أحمد بن حيان بن بشر الأسدي^(١)، زمن المطيع لله، وعزل سنة ٩٦٧/٣٥٦، فكانت مدة تقلده قضاء القضاة أربع سنين وأباماً^(٢).

أما قاضي القضاة أبو محمد عبيدالله بن أحمد بن معروف (ت ٩٩١/٣٨١)^(٣) فقد تقلد قضاء القضاة بعدد رمى المطيع لله وكذلك تقلده أبو الحسن محمد بن صالح الهاشمي سنة ٩٧٣/٣٦٣. وقد تقلد منصب قاضي قضاة بغداد ابن الأکفاني (ت ١٠١٤/٤٠٥)^(٤)، وكذلك تقلد هذا المنصب أبو عبدالله محمد بن علي الدامغاني^(٥)، في سنة ١٠٥٥/٤٤٧ وزمن المقتدر. وبعد وفاته سنة

(١) أبو بشر عمر بن أكتثم بن أحمد بن حيان بن بشر الأسدي: كان يكتب للقضاة ببغداد، وكتب لقاضي القضاة أبو السائب فاستحلفه علي بغداد عندما سافر إلى البصرة ولما عاد إلى بغداد عاد إلى كتاتبه. وحيان تقلد القضاء في نواح كثيرة وتقلد أصبهان ثم الشرقية، ثم قلده المطيع لله قضاء القضاة في بغداد خلفاً لابن أبي الشوارب سنة ٣٥٢ هـ وبقي في منصبه حتى سنة ٣٥٦ هـ.

التنوخي: شوار المحاضرة ج ٣ ص ٢٢١ - ٢٢٢ ج ٤ ص ٢٤٢ - ٢٤٤ ج ٧ ص ٤٧. الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١١، ص ٢٤٩.

(٢) التوحلي: شوار المحاصرة ج ٤ ص ٢٤٤

(٣) أبو محمد عبيدالله أحمد بن معروف (ت ٩٩١/٣٨١) ولد سنة ٩١٨/٣٠٦ وولي قضاء القضاة في بغداد، وكان يلامر الوزير المهلي، وكان مقرناً من الحليلة المطيع لله، وعندما تقلد الحلافة الطائع لله طلب منه تولي الوزارة فرفض. كان وسيم المظر، مليح اللبس، عميقاً عن الأموال

التنوخي: شوار المحاضرة ج ١ ص ١١٤ ج ٣ ص ١١٦ و ١٦٨ ج ٥ ص ١٦؛ ج ٦ ص ٢٥٥.

ابن الحوزي: المنتظم ج ٧ ص ٦٤ و ٧٦ و ١٦٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية ج ١١، ص ٢٩٥ و ٣٠٥ و ٣١٠.

(٤) أبو محمد الأسدي، ابن الأکفاني. عبدالله بن محمد بن عبدالله بن ابراهيم (ت ١٠١٤/٤٠٥): قاضي قضاء بغداد كان عميقاً نرها، صيب العرض. يقال أنه أفتق على طلب العلم مائة ألف دينار. ابن كثير: البداية والنهاية ج ١١ ص ٣٥٤

(٥) محمد بن علي بن محمد بن حسن بن عبدالوهاب بن حسنوية، أبو عبدالله الدامغاني (ت ١٠٨٥/٤٧٨): ولد سنة ٤١٨ هـ وحصل العلم على فقر. ولي قضاء القضاة للمقتدر بالله ولأبيه بعد أن كان يحرس في درب الرياح. كان مثل قاضي القضاة أبي يوسف في أيامه حشمة وعقلاً. دفن بدارة درب العلابيين.

الصفدي: الوافي بالوفيات ج ٤ ص ١٣٩؛ الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٣ ص ١٠٩، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٢١، ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٧ و ١٢٧ و ١٠٩ و ١٢٩.

١٠٨٥/٤٧٨ تقلّد أبو بكر الشاشي قضاء قضاة بغداد^(١)، وكذلك تقلّده أبو القاسم علي بن الحسين الزينبي (ت ١١٤٨/٥٤٣) زمن الراشد^(٢). وبعد وفاة الزينبي تولى أبو الحسن علي بن أحمد الدامغاني (ت ١١٨٧/٥٨٣) منصب قاضي قضاة بغداد، ثم عزل سنة ١١٦٠/٥٥٥ ليتقلّده من بعده أبو جعفر الثقفي عبدالواحد بن أحمد الذي توفي في السنة نفسها ليخلفه ابنه أبو البركات الثقفي جعفر (ت ١١٦٧/٥٦٣).

وسنة ١١٩٨/٥٩٥، تقلّد أبو الفضائل القاسم الشهرزوري^(٣) منصب قاضي قضاة بغداد، ثم عزل بعد سنتين وأربعة أشهر. وأيضاً يذكر القلقشندي اسم قاضي قضاة بغداد محيي الدين أبي عبدالله محمد بن فضلان^(٤).

٢ - في القاهرة:

قامت الدولة الفاطمية في مصر، بعد أن فتحها القائد جوهر (ت ٩٩٢/٣٨١)، وذلك سنة ٩٦٩/٣٥٨، حيث أسّس القاهرة في هذا العام. وفي سنة ٩٧٣/٣٦٢، وبعد أن أقام فيها أربع سنين وتسعة عشر يوماً^(٥)، حضر المعز لدين الله (٣١٩ - ٣٦٥/٩٣١ - ٩٧٦) ومعه خمسمائة جمل مملوءة ذهباً، وكان في استقباله

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ١٢٧.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٢٥؛ القلقشندي: صح الأعشى ج ١٠ ص ٢٦٤.

(٣) أبو الفضائل القاسم بن يحيى بن عبدالله بن القاسم الشهرزوري، (ت ١٢٠٢/٥٩٩): وهو ابن أخي قاضي قضاة دمشق كمال الدين الشهرزوري الذي أوصى له بالقضاء فوليه، ثم عزل عنه بابن أبي عصرون. ثم تولى قضاء الموصل، ثم استدعى إلى بغداد سنة ٥٩٥ هـ حيث تقلّد منصب قاضي القضاة لمدة سنتين وأربعة أشهر ثم عزل، وتقلّد قضاء حماه في أواخر أيامه حيث توفي فيها.

ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٠ و ٣٥.

(٤) القلقشندي ج ١٠ ص ٢٨٦.

(٥) ادريس عماد الدين: تاريخ الخلفاء الفاطميين ص ٧٣٧.

قاضي مصر أبو طاهر الذهلي البغدادي (ت ٣٦٧/٩٧٨)^(١)، الذي استخلفه جوهر على قضاء مصر. وبذلك يكون المعز أول خليفة فاطمي في مصر، وكان النعمان بن محمد (ت ٣٦٣/٩٧٤) بصحبته عند قدومه إليها، وهو قاضي قضاته ومؤسس النظام القضائي الفاطمي. وهكذا أصبح هناك قاضي قضاة آخر في القاهرة، إضافة إلى قاضي قضاة بغداد. وبعد وفاة النعمان اشترك ابنه أبو الحسن علي^(٢) (ت ٣٧٤/٩٨٥) مع أبي طاهر في القضاء، وعندما مرض أبو طاهر سنة ٣٦٦/٩٧٧، قلّد العزيز بالله الفاطمي (٣٤٤ - ٣٨٦/٩٥٥ - ٩٩٦)، منصب قاضي القضاة إلى أبي الحسن علي بن النعمان، وبعد وفاته سنة ٣٧٤/٩٨٥، تقلّد أخاه محمد بن النعمان (ت ٣٨٩/٩٩٩)^(٣) منصب قاضي القضاة، وقد ارتفعت رتبته زمن العزيز ثم زمن الحاكم بأمر الله الفاطمي (٣٧٥ - ٤١١/٩٨٥ - ١٠٢١)، الذي قلّد المنصب بعد وفاته إلى الحسين بن علي بن النعمان (ت ٣٩٥/١٠٠٥)^(٤)، ثم عزله من منصبه سنة ٣٩٤/١٠٠٤، وولّى مكانه ابن عمه عبدالعزيز بن محمد بن

(١) أبو طاهر محمد بن أحمد بن عبدالله بن نصر بن بحير بن صالح بن أسامة الذهلي (ت ٣٦٧/٩٧٨): قاضي مصر زمن المعز. كان القائد جوهر قد استخلفه على القضاء قبل محيء المعز إلى مصر. وقد اشترك معه أبو الحسن علي بن النعمان في القضاء. وعندما مرض أبو طاهر سنة ٣٦٦/٩٧٧، تفرد أبو الحسن بالقضاء. وكان أبو طاهر كثير الرواية، حسن المحالسة، شيخ مع الشيوخ، كهل مع الكهول، شاب مع الشباب. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٥ ص ٤١٧ و ٤٢٣.

(٢) أبو الحسن علي بن النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون (ت ٣٧٤/٩٨٥) ولد بالمغرب سنة ٣٢٩ هـ. قلده العزيز قضاء القضاة بمصر والشام والحرمين والمغرب. وكذلك الخطابة والإمامة والعيار في الذهب والفضة والموازين والمكاييل. وقد قرىء سجله في جامع القاهرة في احتفال عظيم. وقد سافر مع العرير إلى الشام سنة ٣٦٧ هـ فجلس أخوه محمد للحكم بين الناس. المصدر نفسه ج ٥ ص ٤١٧ - ٤١٩.

(٣) أبو عبدالله محمد بن النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون (ت ٣٨٩/٩٩٩): ولد بالمغرب سنة ٣٤٠ هـ، قرىء سجله بقضاء القضاة بعد صلاة الجمعة في الجامع العتيق سنة ٣٧٤ هـ، وسنة ٣٧٥ هـ عقد نكاح ولده أبي القاسم عبدالعزيز على ابنة القائد جوهر على صداق ثلاثة آلاف دينار. وازدادت رتبته من العزيز والحاكم بأمر الله. وقد لازمه النقرس والقولنج حتى مات، فصلى عليه الحاكم ووقف على دفنه. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥ ص ٤١٩ - ٤٢٢.

الصفدي: الوافي بالوفيات، ج ٥، ص ١٣١ - ١٣٢؛ الذهبي: العبر، ج ٣ ص ٤٥.

(٤) أبو عبدالله الحسين بن علي النعمان (ت ٣٩٥/١٠٠٥): ولاة الحاكم قضاء قضاة مصر سنة ٣٨٩ هـ، ثم عزل =

نعمان (ت ٤٠١/١٠١١)^(١)، ثم عاد وعزله سنة ٣٩٨/١٠٠٨، بعد أن فوّض
نقضاً إلى أبي الحسن مالك بن سعيد بن مالك الفارقي .

وتقيام الدولة الأيوبية مع الناصر صلاح الدين الأيوبي
(٥٣٢ - ٥٨٩/١١٣٧ - ١١٩٣)، انتهى الحكم الفاطمي سنة ٥٦٧/١١٧١،
وتوحدت مصر والشام، وأصبح قاضي القضاة على المذهب الشافعي .

وعندما قامت دولة المماليك، ومنذ عصر السلطان الظاهر بيبرس البندقداري
(٦٢٥ - ٦٧٦/١٢٢٨ - ١٢٧٧)، وتحديداً سنة ٦٦٣/١٢٦٥، أصبح هناك قاضي
قضاة لكل مذهب من المذاهب الأربعة في مصر حيث تولى قضاء قضاة الشافعية تاج
الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز، والحنفية شمس الدين سليمان، والمالكية شرف
الدين السبكي^(٢)، والحنابلة شمس الدين محمد المقدسي^(٣).

= سنة ٣٩٤ هـ. وفي سنة ٣٩٥ هـ، قتل الحاكم وأحرق جثته، وولي بعده ابن عمه عبدالعزيز .

الصفدي : إلوامي بالوفيات جـ ١٣ ص ١٩ ؛ المقرئ : اتعاظ الحنفاص ٣٠١ - ٣٠٣ ؛ السيوطي : حسن
المحاصرة جـ ٢ ص ١٤٧ ، الكندي : الولاة والقضاة ص ٤٩٥ ، ٥٩٦ - ٦٠٠ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان
جـ ٥ ص ٥٤ ؛ ابن العماد : تذرات الذهب جـ ٣ ص ١٣٢ ؛ الذهبي : العبر جـ ٣ ص ٤٥ .

(١) أبو القاسم عبدالعزيز بن محمد بن النعمان (ت ٤٠١/١٠١١) : عينه الحاكم بأمر الله في منصب قاضي
القضاة واستقل في الأحكام، وضم إليه النظر في المظالم، ولم يجتمعا قبله لأحد من أهله، وعلت رتبته
عند الحاكم وأصعده معه على المنبر يوم عيد الفطر بعد قائد القواد، وكذلك في عيد النحر، وتصلب في
الأحكام، وتشدد على من عانده من رؤساء الدولة . ثم صرفه الحاكم عن ذلك كله يوم الجمعة ١٦ رحب
٣٩٨ وفوّض القضاء إلى أبي الحسن مالك بن سعيد بن مالك الفارقي، وأحرجه عن أهل بيت النعمان^(١)
تم أمر الحاكم بقتل أبي القاسم عبدالعزيز بالسيف يوم الجمعة ٢٢ جمادى الثانية سنة ٤٠١ هـ .

ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٤٢٢ .

(٢) شرف الدين أبو حمص عمر بن عبدالله بن صالح بن عيسى السبكي المالكي (ت ٦٦٩/١٢٧٠) ولد سنة
٥٨٥ هـ، وسمع الحديث وتفقه وأفتى بالصلاحية، وولى حسيه القاهرة ثم تولى قضاء قضاة المالكية في
مصر سنة ٦٦٣ هـ، لما ولوا من كل مذهب قاضياً، وقد امتنع أشد الامتناع ثم أجاب بعد إكراه شرط أن لا
يأخذ على القضاء أجراً وكان مشهوراً بالعلم والدين .

ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦٠ .

(٣) شمس الدين الحنبلي : محمد بن الشيخ العماد أبي اسحق ابراهيم بن عبد الواحد بن علي بن سرور =

وسنة ١٣٦٦/٦٦٤، جعل الظاهر بيبرس بدمشق أربعة قضاة من كل مذهب قاض كما فعل بمصر^(١). وكان قاضي قضاة الشافعية شمس الدين بن حلکان، والحنفية شمس الدين عبدالله بن محمد بن عطا^(٢)، والحنابلة شمس الدين عبدالرحمن بن الشيخ أبي عمر، والمالكية رين الدين عبدالسلام بن الزواوي^(٣).

٣ - في قرطبة:

تقيام الإمارة الأموية (١٣٩ - ٧٥٦/٣٠٠ - ٩١٢)، ثم الخلافة الأموية (٣١٧ - ٤٢٢/٩٢٩ - ١٠٣١) في الأندلس، واللذين عاصرتا الخلافة العباسية في بغداد، كان أكبر القضاة الشرعيين يسمّى أول الأمر «قاضي الجند»، لأن المسلمين كانوا في تلك الفترة جنوداً. وعندما استقرت الإمارة الأموية زمن الأمير عبدالرحمن الأول «الداخل» (ت ٧٨٨/١٧٢)، وصارت قرطبة هي العاصمة، سمي بقاضي الجماعة، فمن كلمة جند خرجت كلمة الجماعة، والجماعة هنا تعني الجماعة

= المقدسي (ت ١٢٧٧/٦٧٦): أول من ولي قضاء قضاة الحنابلة بالديار المصرية، رحل إلى بغداد وانتقل بالفقه، وتفنن في علوم كثيرة، كان شجاعاً مهيباً كثير التواضع والبر والصدقة، وقد اشترط في قبول القضاء أن لا يأخذ عليه أحراً ليقوم في الناس بالحق في حكمه. وقد عزله السلطان الطاهر عن القضاء سنة ٦٧٠ هـ، واعتقله بسبب الودائع التي كانت عنده ثم أطلقه بعد ستين فرم مرله، ودفن بسفح جبل المقطم

ابن كثير · الدانة والنهاية ج ١٣ ص ٢٧٧.

(١) المصدر نفسه ج ١٣ ص ٢٤٦

(٢) شمس الدين أبو محمد عبد الله بن الشيخ شرف الدين محمد بن عطاء بن حسن بن عطاء بن حير بن جابر بن وعيب الأدرعي الحمصي : ولد سنة ٥٩٥ هـ وسمع الحديث وتفقه على مذهب أبي حنيفة، وناب الحكم عن الشافعي مدة، ثم استقل بقضاء قضاة الحنفية بدمشق أول ما ولي القضاء من المذاهب الأربعة سنة ٦٦٤ هـ، كان من العلماء الأحيار كثير التواضع، قليل الرغبة في الدنيا وبعد وفاته دفن بالقرب من المعظمية بسفح قاسيون

المصدر نفسه ج ١٣ ص ٢٦٨

(٣) رين الدين أبو محمد بن عبد السلام بن علي بن عمر الزواوي المالكي (ت ١٢٨٢/٦٨١) · قاضي قضاة المالكية بدمشق، وهو أول من باشر القضاء فيها على المذهب المالكي سنة ٦٦٤ هـ، وعزل نفسه عنها تورعاً وزهداً، وتوفي في ٨ رجب سنة ٦٨١ عن ثلاث وثمانين سنة

المصدر نفسه : ج ١٣ ص ٣٠٠.

الإسلامية التي استقرت في العاصمة الجديدة قرطبة، ومنصب قاضي الجماعة يقابل منصب قاضي القضاة في بغداد ثم في القاهرة.

وكان مركز قاضي الجماعة في قرطبة، وتقتصر سلطته على العاصمة وصواحيها، مما يعني أن القضاء اتسم بطابع اللامركزية في الأندلس، في حين اتسم بطابع المركزية في بغداد والقاهرة حيث قاضي القضاة هو قاضي الدولة كلها. وكان مرسوم الأمير أو الخليفة بولاية القضاء يسمّى «الظهير» في الأندلس، بينما يسمّى «التقليد» في بغداد

وفي الأندلس خصص المسلمون لأهل الذمة قاضياً يعرف بقاضي النصارى أو قاضي العجم، وكان يتكلم باللغة الإسبانية القديمة ويناقش بها المتهمين المسيحيين، وهذا يدل على ظاهرة اجتماعية جوهرها انتشار اللغة الإسبانية بين مسلمي الأندلس.

وفي زمن الأمير عبدالرحمن الثاني (ت ٢٣٨/٨٥٢) أصبح الفقيه يحيى بن الليثي (ت ٢٣٥/٨٤٩) إمام عصره ويده تعيين القضاة في مختلف مدن الأندلس، وتمكن من بسط نفوذه على جميع القضاة.

واستمر الأمر كذلك مع قيام الخلافة الأموية في قرطبة التي أعلنها عبدالرحمن الثالث في سنة ٣١٧/٩٢٩، وسمي بأمير المؤمنين الناصر لدين الله. وفي أيامه كان منذر البلوطي (ت ٣٦٦/٩٧٦)^(١) قاضي الجماعة بالأندلس. وبظهور الممالك الصغيرة نتيحة ضعف الخلافة الأموية في الأندلس، اتخذت كل منها قاضياً للجماعة^(٢).

(١) منذر البلوطي (ت ٣٦٦/٩٧٦). قاضي الجماعة بالأندلس، كان إماماً عالمياً فصيحاً حطياً شاعراً أديباً، كثير الفضل، جامعاً لصنوف من الحبر والتقوى والرهف، وله مصنفات واختيارات، منها أن الحة التي سكنها آدم وأهبط منها كانت في الأرض وليست بالجنة التي أعدها الله لعباده في الآخرة وكان يجلس الى جانب الناصر لدين الله عبدالرحمن الأموي.

ابن كثير. البداية والنهاية ج ١١ ص ٢٨٨ - ٢٨٩

(٢) E.I.². T4 P 390-391.

وفي قرطبة، تقلد أبو جعفر الثعلبي القرطبي^(١)، منصب قاضي الجماعة سنة ١١٣٤/٥٢٩، وكذلك أبو الوليد بن أبي عمر بن محمد بن عبدالله القرطبي^(٢).

وفي طليطلة، برز اسم قاضيها أبو القاسم القرطبي المعروف بالجياني^(٣) (ت ١٠٦٩/٤٦٢)، وقد استقضاه المأمون يحيى بن ذي النون.

وفي المغرب، عرف قاضي القضاة أيضاً بقاضي الجماعة، ففي مراكش، ولي أبو القاسم بن أبي الوليد القرطبي الأموي (ت ١٢٢٨/٦٢٥)^(٤) قضاء الجماعة، مضافاً إلى خطتي المظالم والكتابة العليا، وبعد صرفه تقلد قضاء الجماعة بقرطبة.

(١) أبو جعفر حمدين بن محمد بن علي بن محمد بن عبدالعزيز بن حمدين الثعلبي القرطبي (ت ١١٥٣/٥٤٨): سمع أباه، ولي القضاء سنة ٥٢٩، بعد مقتل أبي عبدالله بن الحاج. وعندما سيطر ابن قسي على غرب الأندلس، دعي له بالإمارة وتسمى بأمر المسلمين المنصور بالله، ودعي له على أكثر منابر الأندلس، وكانت مدة دولته أربعة عشر يوماً. ثم تكاثرت عليه المحن فنزل مألقة إلى أن توفي، أما ابن قسي فسلم إلى الموحدون وعفوا عنه.

الصفدي: الوافي بالوفيات ج ١٣ ص ١٦٧ - ١٦٨. الضبي: بغية الملتمس ص ٢٦١.
ابن الأبار. التكملة ج ١ ص ٢٨٦ - ٢٨٧؛ ابن السبكي: طبقات المالكية ص ١٤٢.

(٢) الصفدي: الوافي بالوفيات ج ٢ ص ١٤٤؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة ج ٣ ص ٣٥٠.

(٣) صاعد بن أحمد بن عبدالرحمن بن محمد بن محمد بن صاعد؛ أبو القاسم القرطبي (ت ١٠٦٩/٤٦٢): استقضاه المأمون يحيى بن ذي النون. له كتاب «طبقات الأمم» و«حركات النجوم».

الصفدي: الوافي بالوفيات ج ١٦ ص ٢٣٢. القرطبي: الصلة ص ٢٣٢.

الضبي: بغية الملتمس ص ٣١١

(٤) أحمد بن يزيد بن عبدالرحمن بن أحمد بن محمد بن مخلد بن عبدالرحمن بن أحمد (ت ١٢٢٨/٦٢٥) ولي قضاء الجماعة بمراكش مضافاً إلى خطتي المظالم والكتابة العليا، فجمدت سيرته ولم تزده الرفعة إلا تواضعاً ثم صرف عن ذلك كله وأقام إلى أن تلا قضاء بلده ثم صرف عنه قبل وفاته.

الصفدي: الوافي بالوفيات ج ٨ ص ٢٧٥.

المنذري: التكملة ص ١١٧، الباهي: المرقبة العليا ص ١١٥.

وفي تونس، كان العباس أحمد (ت ٦٩٣/١٢٩٤)^(١)، قاضي الجماعة وكذلك أبو إسحاق إبراهيم الربيعي^(٢) (ت ٧٣٤/١٣٣٤).

(١) أحمد بن محمد بن الحسن بن الغماز، أبو العباس (ت ٦٩٣/١٢٩٤)، ولد سنة ٦٠٩ هـ وكان إماماً محدثاً فقيهاً مقرئاً، كبير القدر، كني أبا العباس، كان والده من زهاد بلنسية وفقهائها. سمع من أبي الربيع ابن سالم، وأكثره أهل تونس، وكان أعلى أهل المغرب اسناداً في القرآن. وله معرفة بالفقهاء والحديث والشعر

الصمدي: الوافي بالوفيات ج ٧ ص ٣٨٦.

(٢) إبراهيم بن حسن بن الربيع الربيعي التونسي، أبو اسحق (ت ٧٣٤/١٣٣٤). قاضي الجماعة بتونس. ألف كتاب «معين الحكام» في مجلدين و«الرد على ابن حزم في اعتراضه على مالك» و«مختصر التنوير في المروع». وقد ولد سنة ٦٣٥/١٢٣٨.

الصمدي: الوافي بالوفيات ج ٥ ص ٢٦؛ ابن تغري بردى: المنهل الصافي ج ١ ص ٤٥ - ٤٦، حاجي خليفة: كشف الظنون ص ٤٢٧ و ١٠٣٦؛ عمر كحالة: معجم المؤلفين: ج ١ ص ٢٠.

الفصل الثاني

مذهب قاضي القضاة

كان قاضي القضاة يعين القضاة للقضاء بين الناس حسب الشريعة الإسلامية، وعليه أن يكون مسلماً عالماً بأصول الدين والفقه والحديث، خاصة وأن الإسلام هو الدين الرسمي للدولة العباسية التي عرفت منصب قاضي القضاة زمن الخليفة هارون الرشيد. وأمر بديهي أن يكون قاضي القضاة مسلماً، ولكن معرفته بأحكام القرآن الكريم والسنة^(١)، فيما سمي «بالفقه»^(٢)، هو أهم الشروط لتقلد القضاء والفصل بين الخصوم. والفقه الإسلامي هو ثمرة اجتهاد وجهود متواصلة تعتبر بمثابة حلقة الاتصال بيننا وبين المصادر التشريعية الأصلية وهي الكتاب والسنة. وهذا الفقه المستنبط من الأدلة الشرعية كثر فيه الخلاف بين المجتهدين، فاختلف مداركهم وأنظارهم خلافاً لا بد من وقوعه، واتسع ذلك اتساعاً عظيماً، وكان للمقلدين أن يقلدوا من شاؤوا منهم، حتى انتهى الأمر إلى أئمة المذاهب وهم طيبة من العلماء لجأ إليهم الناس للفتيا. وقد اشتهروا بالاجتهاد في فهم النصوص وتطبيقها. وشاعت فتاوى هذه الطبقة من الأئمة لإحاطتهم بآراء من سبقهم من الصحابة والتابعين ونابغيهم، ولذكائهم في حل المشكلات التي تعرض عليهم مع ورع وتقوى وإيمان. وقد كان لهؤلاء الأئمة تلاميذ عاشوا معهم وتلقوا عنهم ونشروا آراءهم هنا وهناك، وقد عرفت هذه الآراء وتلك

(١) القرآن الكريم هو كتاب الله، والسنة ما صدر عن النبي من قول أو فعل أو تقرير.

وقد تمثل ذلك في الآية: «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول» (سورة النساء، آية ٥٩). والآية: «وإن أحكم بينهم بما أنزل الله» (سورة المائدة آية ٤٩) والآية: «وما أناكم الرسول فحذوه وما نهاكم عنه فانتهوا» (سورة الحشر آية ٧).

(٢) الفقه: في اللغة هو الفهم أو معرفة باطن الشيء والوصول إلى أعماقه وتبيل ذو العلم وقد اصطلح على تعريف الفقه بأنه «العلم بالأحكام الشرعية الحسابية المكتسبة من أدلتها التفصيلية» والأحكام جمع كالم يراد به الثبات أمر لآخر أو نفيه عنه «ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء» (سورة النحل آية ٨٩). «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» (حديث شريف).

الاتجاهات بالمذاهب. وأصحاب المذاهب كثيرون بعضهم لا تزال مذاهبهم موجودة متبعة وبعضهم فنيت مذاهبهم لقلّة التلاميذ الذين نشروها وكتبوا فيها وأيدوها، وأهم المذاهب التي بقيت حتى الآن هي المذاهب الأربعة عند أهل السنة (الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية)، والمذهب الجعفري عند الشيعة.

ويعتبر أصحاب هذه المذاهب خاتمة سلسلة من المفكرين والمجتهدين في التشريع وسن القوانين الإسلامية، اقتصر المسلمون على تقليدهم ومنعوا من تقليد سواهم.

١ - المذهب الحنفي زمن الدولة العباسية :

كانت بغداد عاصمة الدولة العباسية، وقد ساد مذهب أبو حنيفة^(١) فيها حتى أصبح المذهب الرسمي للدولة العباسية، وبالتالي مذهب قاضي القضاة ومعظم القضاة، ومذهب أهل العراق^(٢).

وفي العراق كان أشهر أساتذة التشريع من الصحابة عبدالله بن مسعود الذي تلقاه عن النبي ﷺ، ومن أشهر تلاميذه علقمة بن قيس والقاضي شريح، وأشهر تلاميذهما إبراهيم النخعي وحماد بن أبي سليمان الأشعري وعنهما أخذ أبو حنيفة. وهكذا تلقى أبو حنيفة العلم والفقهاء من فقهاء العراق السابقين وهم أكثر من غيرهم معرفة بأحوال العراق وطبيعة أهله، إضافة إلى نشأة أبو حنيفة في الكوفة حيث كان يبيع الثياب بصدق

(١) الامام أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي (٨٠ - ١٥٠/٦٩٩ - ٧٦٧): فارسي الأصل وهو إمام الحنفية، الفقيه، المجتهد، المحقق، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. ولد بالكوفة سنة ٨٠ هـ ونشأ بها يبيع الخبز ويطلب العلم، ثم انقطع للتدريس والافتاء وكان حسن الوجه، حسن الثياب، شديد الكرم، حسن المواساة لإخوانه وكان رجلاً فقيهاً معروفاً بالفقهاء مشهوراً بالنور، كثير الصمت، قليل الكلام حتى ترد مسألة في حلال أو حرام فكان يحسن أن يدل على الحق، وكان من أعظم الناس أمانة. وقد طلب منه أن يتقلد القضاء أكثر من مرة فامتنع وكان عالماً زاهداً عابداً يؤثر رضاه ربه على كل شيء. مات ببغداد سنة ١٥٠ هـ وعمره سبعين سنة.

التنوخي: نشوار المحاضرة، ج ٦ ص ٢٠٢؛ ج ٧ ص ٣٥ - ٤٣.

ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٥ ص ٣٩.

الزركلي: الأعلام ج ٩ ص ٤. عصام شبارو: القضاء والقضاة ص ١٢٢ - ١٢٩.

(٢) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٥ ص ٢١٢ و ٢١٤؛ ج ٦ ص ٦٦ و ١٤٦ و ١٧١؛ ج ٧ ص ٣٢.

وأمانة وقناعة تم انتقاله إلى بغداد مع الفقهاء الذين استقدمهم الخليفة المنصور (ت ٧٧٥/١٥٨) بعد أن بنى هذه المدينة. وحيث أن أهل السنة ليسوا الأكثرية في العراق لذلك اعتمد أبو حنيفة في أحكامه على الاجتهاد وأصبح إمام أهل الرأي والقياس^(١)، فكان اعتدال مذهبه مساعداً على انتشاره في العراق. ومما زاد تقربه من الناس اضطهاد الحكام له، فقد عاصر سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية، ومن العجب أنه كان مغضوباً عليه من كليهما، فعندما طلبه عامل العراق زمن الأمويين يزيد بن عمر بن هبيرة^(٢) على بيت المال امتنع فجلد بالسوط^(٣). وفي رواية أخرى أنه أراد على القضاء فأبى فضربه بالسوط. كما حبسه المنصور لرفضه تقلد القضاء بعد أن عرض عليه عشرة آلاف درهم^(٤)، ثم مات في الحبس. وفي رواية أخرى أنه قبل القضاء^(٥) على كره، ثم مات بعد أيام أو مات مسموماً على يد المنصور^(٦). ولم يكن اعتذاره عن القضاء بموجب الجلد أو الحبس لكن اعتذاره كان دليلاً على عدم رضاه عن الحاكمين، ومن هنا كان ما وقع به من إيذاء، وهذا ساعد في كثرة معتنقي مذهبه فيما بعد. كما أن أبا حنيفة يعتبر أول الأئمة الأربعة فقد ولد سنة ٦٩٩/٨٠، بينما الإمام مالك ولد سنة ٧١١/٩٣، أي بعد ١٣ سنة، والإمام الشافعي ولد عند وفاة أبي حنيفة سنة ٧٦٧/١٥٠، والإمام ابن حنبل ولد سنة ٧٨٠/١٦٤، أي بعد ١٤ سنة من وفاة أبي حنيفة، وقد يؤدي ذلك ولو بحدود معينة إلى انتشار مذهبه في العراق. ولكن الفضل الأكبر في نشر مذهبه في العراق يعود إلى تلاميذه الذين نقلوا إلينا

(١) التنوخي: نشوار المحاضرة ج٧ ص ٣٧ و ٤٣.

(٢) أبو خالد يزيد بن عمر بن هبيرة (ت ٧٤٩/١٣٢): أمير، قائد، شجاع، خطيب، ولي قنشرين ثم العراقيين للأمويين وحاربه العباسيين ثم خرج إليهم بالأمان فقتلوه غدراً.

الزركلي: الأعلام ج ٩ ص ٢٤٠.

(٣) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٧ ص ٣٥.

(٤) مجهول: ألف ليلة وليلة ج ١ ليلة ١٠٣ ص ٣٥٥.

(٥) التنوخي: المستجد ص ٢١٨ - ٢١٩.

ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٧ ص ١٣.

(٦) التميمي: المحن ص ٢٥٥.

آراءه وفقهه، فأبو حنيفة لم يكتب كتاباً في الفقه، ولكن تلميذه أبا يوسف وصل أعلى المراتب زمن هارون الرشيد، فهو أول من عيّن في منصب قاضي القضاة^(٦)، وقد ساعده مركزه بأن لا يعين قاضي في أنحاء الدولة إلا إذا كان من أتباع أبي حنيفة، وهكذا بدأ الأمر يتحوّل إلى القضاء بمذهب معين وإن كان القضاء أنفسهم من المجتهدين، الأمر الذي جعل الراغبين في تولي القضاء ينتقلون من مذاهبهم إلى مذهب أبي حنيفة، حتى غدا المذهب الرسمي للدولة العباسية يسير القضاة عليه. كما ساعد أبو يوسف في تدوين آراء أبي حنيفة في كتب^(٧)، وصلنا منها كتاب «الخراج» وكتاب «اختلاف أبي حنيفة وابن أبي ليلى» وعلى هذا الأساس يمكن القول إن قاضي القضاة أبا يوسف هو الذي جعل مذهب أبي حنيفة مذهباً لقاضي القضاة، وبالتالي للدولة العباسية. وكل من تقلّد منصب قاضي القضاة بعد أبي يوسف كان على مذهب أبي حنيفة. وحيث أن الدولة اتسعت كثيراً في العصر العباسي فقد أصبح لأمصار الأقاليم التي غدت عواصم لإمارات مستقلة، قاضي قضاة أسوة ببغداد، فانتقل هذا النظام إلى مصر أيام الفاطميين حيث سمي كبير القضاة أيضاً «قاضي القضاة».

٢ - المذهب الشيعي الإسماعيلي زمن الدولة الفاطمية (٣٦٢ - ٩٧٣/٥٦٥ - ١١٦٩):

بقيام الدولة الفاطمية في مصر سنة ٩٧٣/٣٦٢، أصبح هناك قاضي قضاة آخر في القاهرة، وظهر الانقسام في الخلافة الإسلامية بوجود خليفتين عباسي في بغداد وفاطمي في القاهرة، ولكل منهما قاضي قضاة أحدهما على المذهب الخنفي والثاني على المذهب الإسماعيلي.

نشأ المذهب الإسماعيلي بسبب الظروف التي واثته بعد تسلّم العباسيين الحكم سنة ٧٥٠/١٣٢، وقد ظهر نتيجة الانشقاق بين فرعي الحركة الشيعية عند وفاة جعفر الصادق^(٣) سنة ٧٦٥/١٤٨ حيث اتبعت جماعة ابنه موسى الكاظم (ت ٧٩٩/١٨٣)

(١) التوحي: شوار المحاضرة ج ١ ص ٢٥٣.

(٢) ابن النديم: الفهرست ص ٢٠٣.

(٣) جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي. وهو الإمام السادس.

ومنها نشأت الشيعة الإثني عشرية المعتدلة، واتبعت جماعة أخرى ابنه الثاني اسماعيل (ت ١٤٥/٧٦٢)، ثم حفيده محمد بن اسماعيل، وأخوانهما أمتال أبا الخطاب (ت ١٣٨/٧٥٥)^(١)، وميمون القداح وعبدالله بن ميمون، وتعتمد الثورة أسلوباً للوصول إلى الحكم، ومنها نشأت الدعوة الإسماعيلية التي احتفظت بالتقاليد الرئيسية للتشيع الثوري. فقد كان اسماعيل ذا صلة وثيقة بالأوساط المتطرفة والثورية التي أوجدت الفرقة المسماة باسمه. ومن المحتمل أن أبا الخطاب واسماعيل أوجدا نظام عقيدة صارت أساساً للمذهب الإسماعيلي فيما بعد، وسعياً كذلك إلى خلق فرقة شيعية ثورية، لتجتمع كل الفرق الشيعية الصغرى على إمامة اسماعيل وذريته^(٢)، وبعد وفاة أبي الخطاب واسماعيل كثرت الفرق وتضاربت أفكارها لتلتقي حول محمد بن اسماعيل الذي استطاع أن يؤلف منها، وبفضل أعوانه المخلصين لا سيما المبارك^(٣)

(١) أبو الخطاب (ت ١٣٨/٧٥٥): من المؤسسين الأولين للإسماعيلية، كان المتبني لإسماعيل بن جعفر والأب الروحاني له. ويعرف بمحمد بن أبي زينب وبمقلاص ابن أبي الخطاب، من موالى بني أسد، وكان من المقربين للإمامين محمد الباقر وجعفر الصادق. وظل أحد أتباعهما المخلصين حتى تبرأ منه جعفر، بعد أن ادعى النبوة وأحل المحارم وأباح الشهوات وقال بالتقية. وقد حاربه والي الكوفة عيسى بن موسى وقبض عليه وقتله سنة ٧٥٥/١٣٨:

الكشي: معرفة الرجال ص ١٨٧ - ١٩٢؛

النوبختي: فرق الشيعة ص ٣٧، ٥٧ - ٦٠؛

الشهرستاني: الملل والنحل ص ١٣٦؛

Massignon: Salman Pak p.19.

(٢) برنارد لويس: أصول الاسماعيلية ص ٨٥.

(٣) المبارك: هو مولى محمد بن اسماعيل، فوضه اسماعيل بالإمامة، ومن المحتمل أنه كان معروفاً في الأوساط الإسماعيلية باسم آخر. وإليه يعزى تنظيم الفرقة التي التفت حول محمد بن اسماعيل وضممت إليها القسم الأكبر من الخطابية والفرق الإسماعيلية المخالفة، فأوجدت منها الدعوة الإسماعيلية الموحدة.

الأشعري: مقالات الإسلاميين ص ٢٧؛

البغدادي: الفرق بين الفرق ص ٤٧؛

الشهرستاني: الملل والنحل ص ١٦ و ١٢٨؛

المقريزي: الخطط ج ٢ ص ٣٥١؛

برنارد لويس: أصول الاسماعيلية ص ٨٢ - ٨٤.

وعبدالله بن ميمون القداح^(١)، حركة واحدة جلّها من أتباع اسماعيل وفيها القسم الأكبر من الخطابية، ونشأت حول محمد بن اسماعيل الحركة الإسماعيلية (أو الباطنية) المعروفة في التاريخ، وأصبح عبدالله بن ميمون القداح، بالتفويض، ابناً ووارثاً لمحمد بن اسماعيل، رغم أنه ليس ابناً طبيعياً له^(٢). وأوجدت الدعوة الإسماعيلية ما يهدد المجتمع السني حيث ظل دعواتها عدة قرون يثيرون الثورات على الخلافة العباسية في كل أنحاءها، وظل فلاسفتها يحكمون إنشاء مذهب ديني ليحل محل المذهب السني. وكانت الحركة الفاطمية استمراراً للدعوة الإسماعيلية، وقد بدأت في اليمن بزعامه منصور اليمن الشهير، واستمرت في شمال إفريقيا بزعامه أبي عبدالله الشيعي، أول خليفة فاطمي، حيث بلغت الذروة بتأسيس الخلافة الفاطمية في المغرب سنة ٢٨٨/٩٠١ وكان الهدف الرئيس منها تأسيس خلافة شيعية إسماعيلية تحل مكان الخلافة السنية العباسية في بغداد، وذلك بالسيطرة على المغرب والأندلس ومصر والشام والعراق. وحاول الفاطميون فرض مذهبهم الشيعي الإسماعيلي بقوة السيف، غير أن المغرب لم يقبل بهذه السيطرة المذهبية، فتطلع إلى الخلافة الأموية الجديدة التي أقامها عبدالرحمن الثالث (ت ٣٥٠/٩٦١) في الأندلس سنة ٣١٧/٩٢٩. وقام الصراع بين الخلافتين الفاطمية في المغرب والأموية في الأندلس،

(١) عبدالله بن ميمون القداح (ت ١٨٠/٧٩٦): عبدالله بن ميمون بن ديصان بن سعيد غضبان، كان أبوه فارسي الأصل، عرف بالقداح، وهي صناعته، كان يسري «القداح» وهي السهام. وكان عبدالله ووالده ميمون شيعيين من أصحاب جعفر الصادق. ويعتبر قاضي القضاة عبدالجبار أن مؤسس مذاهب الباطنية ومنظم عقائدها هو عبدالله بن ميمون، الذي عرف بابن القداح، وهو من رجال الحديث، يعتبره أهل السنة وأهل الحديث في حين يعتبر من الثقات عند الشيعة. ومن كتبه «مبعث النبي وأخباره» و«صفة الجنة والنار».

الخدادي: الفرق بين الفرق ص ١٦ و ٢٦٦ و ٢٧٧؛ عبدالجبار: تثبيت دلائل نبوة سيدنا محمد ص ١٤٣ - ١٥٣، ابن حجر العسقلاني: تهذيب التهذيب ج ٦ ص ٤٩، برنارد لويس: أصول الإسماعيلية ص ٨٩ - ٩٠ و ١٠٣ - ١٠٦ و ١١٥ - ١١٦؛ الزركلي: الأعلام ج ٤ ص ٢٨٦.

(٢) عندما بلغ عبدالله بن ميمون السابعة عشرة من العمر نادى والده ميمون بإمامته بعد أن اعتبره ابناً روحانياً لمحمد بن اسماعيل ووارثه الذي لا يتقدم عليه أحد، وبذلك يبرز التفويض في العقيدة الإسماعيلية. حيث يجعل الوارث الحقيقي التلميذ لا الابن الطبيعي. ومن هنا تبدو مشكلة نسب الخلفاء الفاطميين التي اختلف حولها المؤرخون إن كانوا علويين حقيقة، أم علويين بالتفويض من نسل ميمون القداح:

برنارد لويس: أصول الإسماعيلية ص ٨٩ - ٩٠؛ ١٠٣ - ١٠٦؛ ١١٥ - ١١٦.

مما جعل الفاطميين يتجهون شرقاً إلى مصر التي فتحها القائد جوهر الصقلي سنة ٩٦٩/٣٥٨، حيث أسس القاهرة. وبدأ يعمل لنشر الطقوس الشيعية الفاطمية شيئاً فشيئاً لعزل مصر عن الخلافة العباسية «السنية». ففي اليوم الأخير من شهر شعبان سنة ٩٦٩/٣٥٨، ركب قاضي مصر أبو طاهر في جمع عظيم لطلب الهلال كما جرت العادة قبل قدوم شهر رمضان. ثم ركب أبو طاهر في جمع عظيم أيضاً لرؤية هلال شهر شوال، فلم يره، في حين أصبح القائد جوهر مفطراً، فأقام صلاة العيد في عسكره حيث خطب قاضي عسكره علي بن الوليد الإشبيلي. وفي اليوم الثاني صلى القاضي أبو طاهر وأهل مصر صلاة العيد، وخطب فيهم رجل هاشمي يعرف بابن زبرج. وقد أنكر جوهر على أبي طاهر مسامرة أهل مصر في الاعتماد على رؤية الهلال، مع أنه أصبح من بطانته بعد أن أقره على منصب القضاء، لذلك كان يعيره أن يلتزم بطقوس الدولة الجديدة^(١). وهذا يوضح التباين بين مذاهب أهل السنة الذين يعتمدون على رؤية الهلال في الصوم والعيد، وبين المذهب الشيعي الفاطمي الذي يعتمد على الحساب من دون رؤية الهلال. والمعلوم أن الفاطميين يراوحون بين الأشهر القمرية شهراً ذا ٢٩ يوماً وشهراً ذا ٣٠ يوماً، وشهر رمضان له دوماً ثلاثون يوماً.

وتحوّل الأزهر منذ افتتاحه سنة ٩٧٢/٣٦١، إلى مركز للدعوة الفاطمية التي تدعو للتخلص من الخلافة العباسية. ثم حضر المعز لدين الله من المغرب سنة ٩٧٣/٣٦٢، فكان أول خليفة فاطمي في مصر، ثم دخل الفاطميون دمشق سنة ٩٧٤/٣٦٣. وهنا اتخذ الصراع مظهر العداء للخلافة العباسية في بغداد، والتي أصبحت مهددة من الخلافة الفاطمية في القاهرة القائمة على أساس الدعوة الشيعية الإسماعيلية.

وبقيام الخلافة الفاطمية في مصر، أصبح هناك قاضي قضاة آخر في القاهرة. ويعتبر النعمان بن محمد (ت ٩٧٤/٣٦٣) قاضي قضاة المعز هو المؤسس الحقيقي للنظام القضائي الفاطمي.

وقد تقلّد الكثيرون منصب قاضي قضاة مصر، على المذهب الشيعي الإسماعيلي، مثل علي بن النعمان (ت ٩٨٥/٣٧٤)، وأخوه محمد (ت ٩٩٩/٣٨٩)

(١) ادريس: تاريخ الخلفاء الفاطميين ص ٦٩١.

زمن العزيز بالله الفاطمي، والحسين بن علي النعمان (ت ٣٩٥/١٠٠٥) وابن عمه عبد العزيز بن محمد النعمان زمن الحاكم بأمر الله الفاطمي^(١).

وبذلك يكون النعمان وولده علي ومحمد وحفيدها الحسين والعزيز، قد تقلدوا جميعاً منصب قاضي قضاة الدولة الفاطمية. كما ساهموا في العمل للمذهب الإسماعيلي. وفي تلك الأثناء استمر الصراع بين الخلافة الفاطمية في مصر من جهة، والخلافة العباسية في بغداد والخلافة الأموية في الأندلس من جهة ثانية، وقد حاول رجل أندلسي اغتيال قاضي قضاة مصر، الحسين بن علي بن النعمان أثناء تأدية الصلاة في أحد مساجد القاهرة سنة ٣٩١/١٠٠١، ومنذ ذلك الحين اضطر القضاة لاتخاذ حرس خاص أثناء الصلاة.

كما أذيع في بغداد سنة ٤٠٢/١٠١١، البيان الشهير ضد الفاطميين، وقد كتبه جماعة من أعيان العلويين والقضاة وغيرهم، حيث أعلن للناس أن الخليفة الفاطمي الأول عبدالله المهدي، هو ثنوي كافر، اسمه سعيد من نسل ديصان مؤسس الفرقة الديصانية (ولم يذكر البيان اسم ميمون القداح أو ابنه عبدالله)^(٢)، وهذا قدح بنسب الفاطميين، ويعني أنهم ليسوا بعلويين.

واستمر الصراع المذهبي بين الخلافتين العباسية والفاطمية، في الوقت الذي خذت فيه الدعوة الإسماعيلية تتعرض للخطر من داخل الخلافة الفاطمية نفسها، حيث تصرف الحاكم بأمر الله (٣٧٥ - ٤١١/٩٨٥ - ١٠٢١)، بطريقة تدعو إلى تأليهه سنة ٣٩٣/١٠٠٣، وكانت خلافة الظاهر بالله (٤١١ - ٤٢٢/١٠٢١ - ١٠٣١)، ثم وفاة المستنصر بالله (٤٢٢ - ٤٨٧/١٠٣١ - ١٠٩٤)، بداية الانقسام بين أتباع الدعوة الإسماعيلية، حتى استطاع صلاح الدين الأيوبي (٥٣٢ - ٥٨٩/١١٣٧ - ١١٩٣)، في النهاية إنهاء حكم الفاطميين في القاهرة سنة ٥٦٧/١١٧١، والقضاء على المذهب الإسماعيلي، مما دعم الخلافة العباسية في بغداد.

(١) ابن حلكان: وفيات الأعيان ج ٥ ص ٤١٧ - ٤٢٢.

(٢) أبو الفداء: تاريخ أبو الفدا ج ٣ ص ١٤ - ١٧؛ المقرئ: الإمتاع ص ٢٢؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١١٢ - ١١٣؛ لويس برنارد: أصول الاسماعيلية ص ٣٩ و ١٠٧.

٣ - المذهب الشافعي زمن الدولة الأيوبية (٥٦٧ - ١١٧١/٦٤٨ - ١٢٥٠):

خلف صلاح الدين الأيوبي عمه شيركوه في وزارة مصر سنة ٥٦٥/ آذار ١١٦٩، وبعد وفاة الخليفة الفاطمي العاضد سنة ١١٧١/٥٦٧، أصبح صلاح الدين الحاكم الوحيد بمصر. وبذلك انتهت الخلافة الشيعية الفاطمية، وصار يذكر اسم خليفة بغداد في مساجد القاهرة.

ومع الدولة الأيوبية، أصبح قاضي القضاة الذي يلي مصر، على المذهب الشافعي، يعاونه نائب قاضي قضاة على المذهب الحنبلي. ويعتبر المذهب الشافعي مذهب أهل الحديث والرأي والقياس. وقد دَوَّن الإمام الشافعي^(١) مذهبه في كتابه «الأم». وقد زار الشافعي مصر حيث ساد مذهبه، ولم يكن له أتباع كثيرون في العراق رغم أن قاضي قضاة بغداد أبو السائب عتبة بن عبيدالله الهمداني، تفقه على مذهب الشافعي^(٢). ومن أبرز من تقلد منصب قاضي قضاة مصر على المذهب الشافعي.

(١) الإمام أبو عبدالله محمد بن ادریس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي (١٥٠ - ٢٠٤/٧٦٧ - ٨٢٠): أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة وهو عربي قرشي النسب، ولد في غزة وحمل إلى مكة وعمره ستان، وزار بغداد مرتين، وقصد مصر وتوفي فيها. وكان أشعر الناس وأدبهم وأعرفهم بالفقه والقراءات، وكان أحذق قريش بالرمي، كما برع في الشعر واللغة وأيام العرب وكان معرط الذكاء. أفتى وهو ابن عشرين سنة. له تصانيف كثيرة أشهرها كتاب «الأم»، و«المسند»، و«أحكام القرآن» و«السنن».

التنوشي نشوار المحاضرة ج٥ ص ١٩ وج٧ ص ١٢. المستجد ص ١٧٨ - ١٧٩.

السبكي: طبقات الشافعية ج ١ ص ٢٨٤؛ الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٢ ص ٥٦ - ٧٣، ياقوت الحموي: معجم الأدباء ج ٦ ص ٣٦٧ - ٣٩٨؛ ابن تغري بوردی: النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٦٠٦، ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٠ ص ٢٥١، ابن العماد: شذرات الذهب ج ٢ ص ٩٢؛ الزركلي: الأعلام ج ٦ ص ١٤٩؛ عصام شبارو: القضاء والقضاة ص ١٣٢ - ١٣٤.

(٢) التنوشي: نشوار المحاضرة ج ٧ ص ٥٥.

علي بن يوسف (ت ٦٢٢/١٢٢٥) (١).

وكذلك أبو المعالي عبد الرحمن بن مقبل الواسطي الشافعي (ت ٦٣٩/١٢٤١)،
الذي تقلد قضاء قضاء مصر زمن الخليفة الظاهر بن الناصر.

وكان أبو عبد الله الحراني الحنبلي (ت ٦٧٥/١٢٧٦) (٢)، أول من حكم من
الحنابلة في مصر نيابة عن قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز الشافعي.

وفي دمشق، تقلد كمال الدين الشهرزوري، أبو الفضل محمد بن عبد الله
(ت ٥٧٢/١١٧٦) منصب قاضي قضاء دمشق زمن نورالدين محمود بن زنكي. كما
تقلد ابن أبي عصرون أبو سعد شرف الدين (ت ٥٨٥/١١٨٩) قضاء قضاء دمشق،
عندما قدم إليها سنة ١١٨٧/٥٨٣ زمن صلاح الدين (٣).

وكذلك تقلد هذا المنصب ابن الزكي أبو المعالي القرشي (٤)

(١) علي بن يوسف بن عبدالله بن بندار الدمشقي، أبو الحسن (ت ٦٢٢/١٢٢٥): ولد سنة ١١٥٥/٥٥٠ وكان
والده مدرس النظامية في بغداد حيث تفقه عليه. سافر إلى الشام وهو شاب، وتوجه إلى مصر حيث استوطن
فيها. وولي بمصر قضاء القضاة مرتين، ثم عزل. وكان شيخاً حسن الأخلاق، محباً للعلم وأهله.

الصفدي: الوافي بالوفيات ج ٢٢ ص ٣٣٥ - ٣٣٦؛ الذهبي: العبر ج ٥ ص ٩١؛ المنذري: التكملة
لوفيات النقلة ج ٣ ص ١٤٩؛ السبكي: طبقات الشافعية ج ٨ ص ٣٠٤؛ ابن تغري بردي: النجوم
الزاهرة ج ٦ ص ٢٦٣؛ السيوطي: حسن المحاضرة ج ١ ص ٤١١؛ ابن العماد: شذرات الذهب ج ٥
ص ١٠١.

(٢) محمد بن عبد الوهاب بن منصور، شمس الدين أبو عبد الله الحراني الحنبلي (ت ٦٧٥/١٢٧٦): وهو أول
من حكم بالديار المصرية من الحنابلة نيابة عن قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز. ثم ولي شمس
الدين ابن الشيخ العماد قضاء قضاء الحنابلة فاستتاب به، ثم ترك ذلك ورجع إلى الشام يشتغل ويمتي إلى
أن توفي.

ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٧٣ - ٢٧٤.

(٣) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٣٣٣ - ٣٣٤.

(٤) ابن الزكي: محمد بن علي بن محمد بن يحيى بن عبدالعزيز أبو المعالي القرشي، محي الدين
(ت ٥٩٨/١٢٠١) ناب عن قاضي القضاة شرف الدين بن أبي عصرون في القضاء، ثم تقلد قضاء قضاء
دمشق وأضيف إليه قضاء حلب. حاول الاسماعيليون قتله فاتخذ له باباً من داره إلى الجامع ليخرج منه إلى
الصلاة. وكان يعتريه شبه الصرع في أواخر أيامه إلى أن توفي في شعبان سنة ٥٩٨ ودفن بترتبه بسفح
قاسيون.

المصدر نفسه ج ١٣ ص ٣٢ - ٣٣.

(ت ١٢٠١/٥٩٨)، وكان نائباً عن ابن أبي عصرون قبل تقلد قضاء القضاة. كما تقلد زكي الدين أبو العباس الشافعي^(١) (ت ١٢٢٠/٦١٧) منصب قاضي القضاة مرتين قبل ابن الحرستاني وبعده.

وبعد عزل الزكي ابن الزكي، ولي المعظم علي قضاء قضاة دمشق جمال الدين المصري^(٢) (ت ١٢٢٦/٦٢٣). وكذلك تقلد هذا المنصب شمس الدين الخوي الشافعي^(٣) (ت ١٢٣٩/٦٣٧).

(١) الطاهر بن محمد بن علي بن محمد، زكي الدين أبو العباس (ت ١٢٢٠/٦١٧): وهو ابن قاضي القضاة محي الدين أبي المعالي، ابن قاضي القضاة زكي الدين، ابن قاضي القضاة أبي المعالي، القرشي الدمشقي الشافعي. ولي القضاء مرتين قبل ابن الحرستاني وبعده. كان عريقاً في القضاء رئيساً. كانت بينه وبين المعظم عيسى، حزازات. واتفق أن قاضي القضاة زكي الدين طلب جابي العزيزية وطلبه بالحساب وأغلظ له في الكلام وأمر بضربه، فضرب بين يديه كما يفعل الولاة. مما جعل المعظم يأمره بلبس قباء أحمر وكلوثة صفراء من ملابسه ليحكم بن اثنين، ثم قام من مجلسه ودخل بيته ومرض حتى مات.

الصفدي: الوافي بالوفيات ج ١٦ ص ٤٠٨ - ٤٠٩.

السبكي: طبقات الشافعية ج ٨ ص ١٥٣.

(٢) جمال الدين المصري: يوس بن بدران بن فيروز (ت ١٢٢٦/٦٢٣): كان معتنياً بأمره، تولى وكالة بيت المال بدمشق، وترسل إلى الملوك والخلفاء، ثم ولاة المعظم قضاء القضاة بدمشق بعد عزله الزكي ابن الزكي. كان كثير المذاكرة للعلم كثير الاشتغال حسن الطريقة، لم ينقم عليه أنه أخذ شيئاً لأحد توفي في ربيع الأول سنة ٦٢٣ هـ، ودفن بداره في رأس درب الريحان.

ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ١١٤ - ١١٥.

(٣) أحمد بن خليل بن سعادة بن جعفر بن عيسى، شمس الدين الخوي الشافعي (ت ١٢٣٩/٦٣٧): ولد سنة ٥٣٨، ودخل خراسان وقرأ الأصول والكلام على الامام فخر الدين الرازي، والأصح أنه قرأ على قطب الدين المصري تلميذه. حضر إلى الشام فأكرمه الملك المعظم وجعله قاضي قضاة دمشق. وكان فقيهاً إماماً مناظراً بالكلام، أستاذاً في الطب، ديناً كثيراً، وله مصنف في «العروض». توفي بمدينة دمشق، ودفن بسفح جبل قاسيون.

ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٤ ص ٢٥٨؛ الصفدي: الوافي بالوفيات ج ٦ ص ٣٧٥ - ٣٧٦.

السبكي: طبقات الشافعية ج ٥ ص ٤٨؛ ابن العماد: شذرات الذهب ج ٥ ص ١٨٣. أبو شامة الدمشقي:

تراجم رجال القرنين ص ١٦٩. ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ص ٦٤٦ - ٦٤٧.

وفي سنة ١٢٤٣/٦٤٣، تولى صدر الدين بن سني الدولة^(١) قضاء قضا دمشق، ثم عزل بالكمال عمر التفليسي^(٢) (ت ١٢٧٣/٦٧٢).
وتقلد أبو المحاسن الشافعي^(٣) (ت ١٢٣٤/٦٣٢) قضاء قضاة حلب.

٤ - المذاهب الأربعة عند أهل السنة زمن دولة المماليك (٦٤٨ - ١٢٥٠/٩٢٢ - ١٥١٦):

بقيام دولة المماليك استمر المذهب الشافعي كمذهب لقاضي القضاة، ثم كان أهم تطور حدث في النظام القضائي على يد السلطان الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٥/٦٦٣، الذي قام بتحريم أي مذهب، عدا المذاهب الأربعة عند أهل السنة (الحنفية، المالكية، الشافعية، الحنبلية). ذلك أنه عندما تقلد ابن بنت الأعز الشافعي^(٤) منصب قاضي قضاة مصر سنة ١٢٦١/٦٥٩، اضطرت الأحوال بسبب

(١) صدر الدين أبو العباس بن سني الدولة الشافعي (ت ١٢٦٠/٦٥٨): أحمد بن يحيى بن هبة الله بن الحسين بن يحيى بن محمد بن علي يحيى بن صدقة بن الخياط، تولى قضاء قضاة دمشق سنة ٦٤٣ هـ، ثم نزل بالكمال عمر التفليسي، فسافر إلى هولاءولما أخذ حلب. ثم قصد بعلبك فقدمها وهو مريض فمات بها ودفن.

ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٢١ - ٢٢٤.

(٢) كمال الدين أبو المتح عمر بن بندار بن عمر بن علي التفليسي الشافعي (ت ١٢٧٣/٦٧٢): ولد بتفليس سنة ٦٠١ هـ وكان فاضلاً أصولياً مناظراً، ولي نيابة الحكم مدة ثم استقل بالقضاء في دولة هولاءولما. وكان عفيفاً نزهاً. ولما انقضت دولة المغول تغضب عليه بعض الناس، ثم ألزم بالمسير إلى القاهرة، فأقام بها إلى أن توفي بها.

المصدر نفسه ج ١٣ ص ٢٢٤ و ٢٦٧.

(٣) أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة بن محمد الأسدي (ت ١٢٣٤/٦٣٢): قاضي القضاة بحلب كان رجلاً فاضلاً أديباً، أقام بحلب وولي القضاء بها. وله تصانيف وشعر.

المصدر نفسه ج ١٣ ص ١٤٣.

(٤) تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز خلفه بن رشيد الدين بن محمود بن بدر العلامي الشافعي: ولد سنة ١٢٠٧/٦٠٤ وكان ديناً، عفيفاً نزهاً، لا تأخذه في الله لومة، ولا يقبل شفاعة أحد، جمع له قضاء الديار المصرية بكاملها، والخطابة، والحسبة ومشيخة الشيوخ، وناشر الوزارة في بعض الأوقات وكان السلطان يعظمه. تولى القضاء بعده تقي الدين ابن رزين.

ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٣١، ٢٣٤، ٢٤٥، ٢٤٨ - ٢٥٠.

القلقشندي: صبح الأعشى ج ١١ ص ١٧٥ - ١٧٧.

اختلاف المذاهب مما اضطر قاضي القضاة للتوقف كثيراً في أمور تخالف مذهب الشافعي، وتوافق غيره من المذاهب. فأشار الأمير جمال الدين أيد غدي العزيمي^(١) على السلطان الظاهر بيبرس بأن يولي من كل مذهب قاضياً مستقلاً يحكم بمقتضى مذهبه، فأجابه إلى ذلك عندما تم اجتماع في دار العدل يوم الاثنين ٢٢ ذي الحجة سنة ١٢٦٥/٦٦٣، حيث اقتضى رأي السلطان تعيين قاضي قضاة لكل مذهب من المذاهب الأربعة^(٢)، مع بقاء الرئاسة للشافعية، وأصبحت لا تقبل شهادة أحد، ولا يرشح لوظائف القضاء أو الخطابة أو الإمارة أو التدريس، إلا إذا كان من أتباع أحد هذه المذاهب. وسنة ١٢٦٦/٦٦٤، حذت دمشق حذو القاهرة وأصبح لكل مذهب قاضي قضاة، ثم أصبح في كل نيابة من نيابات الشام، أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة^(٣). واضطر المماليك للتهديد باستعمال القوة العسكرية للقضاء على المذاهب الأخرى، وخاصة رواسب المذهب الإسماعيلي الفاطمي^(٤).

(أ) المذهب الشافعي:

في مصر، أقر الظاهر بيبرس قضاء قضاة الشافعية لثاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز، وذلك سنة ١٢٦٥/٦٦٣. ومن الذين تقلدوا قضاء قضاة الشافعية في مصر، أبو عبدالله تقي الدين بن رزين الشافعي (ت ١٢٨١/٦٨٠). وفي سنة ١٢٧٩/٦٧٨، عزل السلطان قاضي القضاة الشافعي ابن رزين^(٥) وولّى عوضاً

(١) الأمير جمال الدين أيد غدي بن عبدالله العزيمي (ت ١٢٦٦/٦٦٤): من أكابر الأمراء وأحظاهم عند الملك الظاهر، لا يكاد الظاهر يخرج عن رأيه. كان متواضعاً لا يلبس محرماً، كريماً وقوراً رئيساً معظماً في الدولة، توفي بدمشق ودفن بسفح قاسيون.

ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٤٥ و ٢٤٨.

(٢) المصدر نفسه جـ ١٣ ص ٢٤٥.

(٣) المقرئ: الخطط جـ ٤ ص ١٦١؛ السلوك جـ ١ ص ٥٣٨ و ٥٣٩.

سعيد عاشور: مصر والشام عصر الأيوبيين والمماليك ص ٣٠٧.

عصام شبارو: تاريخ بيروت ص ١١٤.

(٤) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت ص ١٩٥.

عصام شبارو: تاريخ بيروت ص ١١٤.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٨٨.

عنه صدر الدين عمر (ت ٦٨٠/١٢٨١)^(١). كما تقلد برهان الدين الخضر بن الحسين بن علي السنجاري، قضاء قضاة الشافعية بمصر أكثر من مرة، ثم تقلدها عوضاً عنه تقي الدين عبدالرحمن ابن بنت الأعز في سنة ٦٨٦/١٢٨٧^(٢).

ومن الذين تقلدوا منصب قاضي قضاة مصر على المذهب الشافعي، ابن دقيق العيد (ت ٧٠٢/١٣٠٢)^(٣)، وكان مالكيّاً ثم صار شافعيّاً، ثم بدر الدين بن جماعة (ت ٧٣٣/١٣٣٢)^(٤)، الذي عزل سنة ٧٢٧/١٣٢٦ بقاضي القضاة جلال الدين بن

(١) صدر الدين عمر ابن قاضي القضاة تاج الدين عبدالوهاب بن خلف بن أبي القاسم الفلابي بن بنت الأعز (ت ٦٨٠/١٢٨١) كان فاضلاً بارعاً عارفاً بالمذهب الشافعي، متحريراً في الأحكام كأبيه، ودفن بالقرافة.

ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٩٧.

(٢) المصدر نفسه ج ١٣ ص ٣٠٩، ٣١٠.

(٣) الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد، محمد بن علي بن وهب بن مطيع المصري المالكي الشافعي (ت ٧٠٢/١٣٠٢): ولد بناحية ينبع سنة ٦٢٥ هـ، كان إماماً محدثاً فقيهاً أصولياً، أديباً شاعراً نحوياً، تام الورع شديد التدبّر، وكان سمحاً جواداً، قهره الوسواس في أمر المياه والنجاسات. وله التصانيف البديعة مثل «الإمام» و«الإمام» و«علوم الحديث» و«شرح عمدة الأحكام».

الصفدي: الوافي بالوفيات ج ١٦ ص ٤٥٨؛

ابن شاکر الكتبي: فوات الوفيات ج ٣ ص ٤٤٢ - ٤٥٠؛ ابن العماد: شذرات الذهب ج ٦ ص ٥؛ ابن تفردي: النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٠٦؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢١٠؛ السبكي: طبقات الشافعية ج ٦ ص ٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢٧.

(٤) محمد بن ابراهيم بن سعد الله بن جماعة بن علي بن حازم بن صخر، «بدر الدين أبو عبدالله الكناني الحموي الشافعي» (ت ٧٣٣/١٣٣٢): ولد بحماة، سنة ٦٣٩ هـ، كان قوي المشاركة في علم الحديث والفقه والأصول والتفسير، خطيباً، درس وأفتى. ولاة الوزير ابن السلوس قضاء مصر، ثم حضر إلى الشام قاضياً وولي خطابه الجامع الأموي مع القضاء، ثم طلب لمضاء مصر بعد ابن دقيق العيد. وعندما شاخ عزل بقاضي القضاة جلال الدين القزويني سنة ٧٢٧ هـ. وكثرت أمواله، وفي آخر أيامه باشر القضاء دون أجر، ثم أعيد بدر الدين ابن جماعة وولي مناصب كباراً. وله «رسالة في الكلام على الاسطرلاب».

ابن شاکر الكتبي: فوات الوفيات ج ٣ ص ٢٩٧ - ٢٩٨؛ ابن العماد: شذرات الذهب ج ٦ ص ١٠٥؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة ج ٣ ص ٣٦٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٦٣؛ ابن طولون: قضاة دمشق ص ٨٢؛ السبكي: طبقات الشافعية ج ٥ ص ٢٣٠.

عبدالرحمن القزويني (ت ٧٣٩/١٣٣٨) (١).

وفي دمشق، كان ابن خلكان (ت ٦٨١/١٢٨٢) أول من تقلد قضاء قضاة الشافعية، عندما جعل الظاهر بيبرس أربعة قضاة من كل مذهب قاض سنة ١٢٦٦/٦٦٤. وقد عزل ابن خلكان عدة مرات ليتولى مكانه عزالدين بن الصائغ وكذلك أبو المفاجر عز الدين محمد (٢) (ت ٦٨٣/١٢٨٤) الذي تقلد مرتين قضاء قضاة الشافعية بدمشق. وبعد عزله ولي القضاء بهاء الدين يوسف بن محيي الدين بن الزكي (ت ٦٨٥/١٢٨٧) (٣). وفي ١٣ ربيع الأول سنة ١٢٨٧/٦٨٦، قدم شهاب الدين محمد بن شمس الدين بن الخليل الخوي من القاهرة على قضاء قضاة الشافعية بدمشق (٤). وكان شهاب الدين يتولى قضاء القاهرة والوجه البحري، فلما مات بهاء الدين بن الزكي بدمشق نقل إليها وكان قد نشأ بها، وبذلك أصبح ذو الفنون شهاب

(٣) جلال الدين محمد بن عبدالرحمن القزويني الشافعي (ت ٧٣٩/١٣٣٨): وتولى الخطابة بدمشق سنة ٧٠٣ هـ، ثم تولى قضاء قضاة الشافعية بدمشق سنة ٧٢٥ هـ، وبقيت له الخطابة. ثم انتقل إلى مصر ليتقلد القضاء بعد أن عجز بدر الدين بن جماعة. ثم عزل سنة ٧٣٨ هـ، ثم أعيد إلى القضاء بعد موت شهاب الدين بن المعجد عبدالله سنة ٧٣٩، وتوفي في هذا العام.

القلقشندي: صحح الأعشى ج ١١ ص ١٨٩؛
ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٤، ص ١٨٥.

(٢) محمد بن شرف الدين عبدالقادر بن عفيف الدين عبدالخالق بن خليل الأنصاري الدمشقي، الإمام عز الدين أبو المفاجر (ت ٦٨٣/١٢٨٤). ولد سنة ٦٢٨ هـ، وولي قضاء قضاة دمشق مرتين، عزل بابن خلكان، ثم عزل ابن خلكان به ثانية، ثم عزل وسجن وولي بعده بهاء الدين ابن الزكي، وبقي معزولاً حتى وفاته، ودفن بسفح قاسيون. كان مشكور السيرة، له عقل وتدبير واعتقاد كثير من الصالحين.
ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣٠٤.

(٣) ابن الزكي الشافعي (ت ٦٨٥/١٢٨٧): يوسف بن محيي الدين أبي الفضل يحيى بن محمد بن علي بن محمد بن يحيى بن علي بن عبدالعزيز بن علي بن الحسين بن محمد بن عبدالرحمن بن أبان بن عثمان بن عفان القرشي الدمشقي. ولد سنة ٦٤٠ هـ، وسمح الحديث. كان فاضلاً مبرزاً. توفي ليلة الاثنين ١١ ذي الحجة ودفن بقاسيون وتولى بعده ابن الخوي شهاب الدين.

المصدر نفسه ج ١٣ ص ٣٠٨.

(٤) المصدر نفسه ج ١٣ ص ٣٠٩.

الدين الخوي الشافعي (ت ٦٩٣/١٢٩٤)^(١) قاضي قضاة دمشق، وكذلك جمال الدين الأذري الشافعي (ت ٧٣٤/١٣٣٣)^(٢)، الذي تقلد المنصب بعد نجم الدين بن صصري، وقبلهما تقلد علم الدين المصري الشافعي (ت ٧٣٢/١٣٣١)^(٣)، قضاء قضاة الشافعية بدمشق.

وفي حلب، تقلد محيي الدين الأسدي الشافعي (ت ٦٧٢/١٢٧٣)^(٤) منصب قاضي القضاة. وكذلك شمس الدين بن بهرام الشافعي (ت ٧٠٥/١٣٠٥)^(٥).

(١) محمد بن أحمد بن خليل بن سعادة بن جعفر، ذو الفنون شهاب الدين (ت ٦٩٣/١٢٩٤): وهو ابن قاضي القضاة شمس الدين الخوي الشافعي. ولد سنة ٦٢٦ هـ، وشأ بدمشق، اشتغل في صغره، فقد مات والده وله إحدى عشرة سنة. وصنف كتاباً كبيراً يحوي على عشرين علماً. ثم ذهب إلى القاهرة فولي قضاء القاهرة والوجه الحري. ولما مات القاضي بهاء الدين ابن الزكي بدمشق نقل الحوي إليها.

كان يعرف من العلوم التفسير والأصولين والفقه والمو والخلاف والمعاني والبيان والحساب والفرائض توفي في بستان صيف به، وصلي عليه بالجامع المظمري، ودفن عند والده بترتبه بالجبل.

ابن شاکر الکتبي. فوات الوفيات ج ٣ ص ٣١٣ - ٣١٤؛ الصفدي: الوافي بالوفيات ج ٢ ص ١٣٧؛ الذهبي: العبر ج ٥ ص ٣٧٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣٢٧؛ السيوطي: حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٤٣.

(٢) سليمان بن عمر بن سالم، جمال الدين الأذري (ت ٧٣٤/١٣٣٣) ولي قضاء شيزرمدة، ناب عن القاضي بدر الدين ابن جماعة بدمشق، ثم بمصر، ثم ولي قضاء دمشق بعد نجم الدين ابن صصري. وصرف بعد سنة بالقاضي جلال الدين القزويني. توفي عن تسع وثمانين سنة.

الصفدي: الوافي بالوفيات ج ١٥ ص ٤١٦؛

ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة ج ٢ ص ٢٥٥.

(٣) علم الدين أبو عبدالله محمد بن شمس السدين أبي بكر بن عيسى بن بدران المصري الشافعي (ت ٧٣٢/١٣٣١): كان عفيفاً نزهاً ذكياً، محباً للفضائل، سمع الحديث في العادلة الكبيرة. دفن بسفح قاسيون.

ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٦٠.

(٤) محمد بن محمد بن عبدالرحمن «محيي الدين الأسدي الشافعي» (ت ٦٧٢/١٢٧٣): ولد بحلب سنة ٦١٢ هـ، سمع وحدث ودرّس بالمدرسة المسرورية بالقاهرة. تولى قضاء حلب وأعمالها إلى حين وفاته، ودفن بترتبه جلة.

ابن شاکر الکتبي: فوات الوفيات ج ١ ص ١٨٣ - ١٨٤.

(٥) محمد بن محمد بن بهرام، «شمس الدين أبو عبدالله» (ت ٧٠٥/١٣٠٥): تفقه بمصر على الشيخ عزالدين ابن عبدالسلام، وبرع في المذهب الشافعي. كان محمود الأحكام، عزل بالقاضي زين الدين.

المصدر نفسه ج ١ ص ٢٠٩.

وأما أبو اليسر بن الصائغ^(١) (ت ١٣٣٨/٧٣٩) فقد تقلد قضاء قضاة حلب ثم استعفى، وهو ابن عم قاضي قضاة حلب نورالدين الصائغ الشافعي (ت ١٣٤٨/٧٤٩)^(٢)، الذي كان قاصياً للعسكر بدمشق.

وفي حلب أيضاً، برز اسم قاضي القضاة جمال الدين ابراهيم بن أبي جرادة المشهور بابن العديم^(٣) وابنه قاضي القضاة كمال الدين عمر^(٤). وكذلك قاضي القضاة ابن خطيب جسرين الشافعي^(٥) (ت ١٣٣٨/٧٣٩).

وفي طرابلس، تقلد ابن النقيب الحاكم بحمص، قضاء القضاة سنة ١٣٢٦/٧٢٧^(٦). وفي سنة ١٣٢٨/٧٢٩، تولى ابن المجد الشافعي^(٧) قضاء قضاة طرابلس وتوفي بعد أربعة أشهر فتولى ابنه تقي الدين.

(١) محمد بن محمد بن عبد القادر «أبو اليسر ابن الصائغ» (ت ١٣٣٨/٧٣٩). ولد سنة ٦٧٦ هـ. وهو ابن قاضي القضاة عزالدين أبي المفاخر الدمشقي الشافعي، واس عم قاضي القضاة نورالدين ابن الصائغ تولى قضاء قضاة حلب، ثم استعفى من القضاء فأحبه الناس واحترموه. مات بدمشق. ابن شاعر الكتبي: فوات الوفيات ج ١ ص ٣٣٢.

(٢) نورالدين بن الصائغ محمد بن محمد بن عبد القادر (ت ١٣٤٨/٧٤٩): ولد سنة ٦٧٦ هـ، وكان حياً وقوراً، ولي قضاء العسكر بالشام، ثم تولى قضاء قضاة الشافعية بحلب عوضاً عن ابن الخشاش سنة ٧٤٤ هـ.

المصدر نفسه ج ١ ص ٣٣٢ - ٣٣٣

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى ج ١٢ ص ٤٣٧.

(٤) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٤٤٠

(٥) فخر الدين عثمان بن الزين علي بن عثمان الحلبي، ابن خطيب جسرين الشافعي (ت ١٣٣٨/٧٣٩). كان إماماً تولى قضاء حلب بعد عزل الشيخ ابن النقيب وقد صنف شرح مختصر ابن الحاحب في الفقه؛ وشرح الديق لاس الساعاتي. وله فوائد غريبة ومصنفات جليلة

ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٨٤ - ١٨٥.

(٦) المصدر نفسه ج ١٤ ص ١٢٧.

(٧) شمس الدين محمد بن عيسى بن محمود العلبي (ت ١٣٢٨/٧٢٩). ويعرف بابن المجد الشافعي اشتغل ببلده وبرع في فنون كثيرة. ثم أقام بدمشق يدرس بالقوصية والجامع، ثم انتقل إلى قضاء طرابلس سنة ٧٢٩ هـ حيث توفي

المصدر نفسه ج ١٤ ص ١٥١

(ب) المذهب المالكي :

أما المذهب المالكي، فيعتمد على القرآن الكريم، ثم السنة وهي عنده وافرة كثيرة، ثم يلجأ إلى الإجماع. وقد دوّن الإمام مالك^(١) مذهبه في كتابه «الموطأ»، ليسود في الحجاز وخاصة المدينة المنورة.

ومع الترتيبات القضائية التي قام بها الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٥/٦٦٣، تقلّد قضاء قضاة المالكية في مصر شرف الدين السبكي (ت ١٢٦٩/٦٦٨)، وكذلك تقلّد هذا المنصب أبو يعقوب يوسف بن عبدالله بن عمر الرازي (ت ١٢٨٤/٦٨٣). وسنة ١٢٨٦/٦٨٥ تولى ابن مخلوف (ت ١٣١٨/٧١٨)^(٢) قضاء قضاة المالكية في مصر، لمدة تزيد عن الثلاثين عاماً، وبعد وفاته تقلّد قضاء القضاة تقي الدين

(١) الامام أبو عبدالله مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري (ت ٧٩٥/١٧٩): ولد سنة ٩٣ هـ أصله عربي يمني، وهو إمام أهل الحديث، عاش ومات في المدينة المنورة، وهو أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة وإليه ينسب المذهب المالكي. وقد وشي به إلى جعفر عم المنصور العباسي فضربه بالسياط. وقصده الرشيد فحدثه. وسأله المنصور أن يضع كتاباً للناس يملهم على العمل به فصنف «الموطأ». وله رسالة في «الوعظ»، وكتاب في «المسائل»، و«تفسير غريب القرآن».

التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٥ ص ١٨٨ - ١٨٩ وج ٦ ص ٩٨ - ٩٩ و ١٣٨. المستجاد ص ١٧٥.

ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٩٦؛ ابن العماد: شذرات الذهب ج ١ ص ٢٨٩ - ٢٩٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٧٤ - ١٧٥؛ الزركلي: الاعلام ج ٦ ص ١٢٨؛ عصام شبارو: القضاء والقضاة ص ١٢٩ - ١٣٢.

(٢) زين الدين علي بن مخلوف بن ناهض بن مسلم بن منعم بن خلف النويري المالكي (ت ١٣١٨/٧١٨): سمع الحديث، واشتغل وحصل، تولى قضاء قضاة المالكية في مصر بعد ابن شاش سنة ٦٨٥ هـ. كان غزير المروءة والإحسان إلى الفقهاء والشهود ومن يقصده. دفن بسفح المقطم، وتولى الحكم بعده تقي الدين الإخنائي المالكي.

الصفدي: الوافي بالوفيات ج ٢٢ ص ١٨٩ - ١٩٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٤ ص ٩٠؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة ج ٣ ص ١٢٧؛ السيوطي: حسن المحاضرة ج ٨ ص ٤٥٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٢٤٢؛ ابن العماد: شذرات الذهب ج ٦ ص ٤٩.

الإخنائي^(١) . وكذلك تقلد جمال الدين يوسف البساطي سنة ١٤٠١/٨٠٤^(٢) زمن السلطان الناصر فرج بن الظاهر برقوق (ت ١٤١٢/٨١٥) ، وأيضاً جمال الدين عبد الله الأفقهي المالكي^(٣) .

أما في دمشق ، وبعد أن قلّد الظاهر بيبرس قضاء قضاة المالكية سنة ١٢٦٦/٦٦٤ لزين الدين عبد السلام الزواوي (ت ١٢٨٢/٦٨١) ، تقلد الكثيرون هذا المنصب ، مثل قاضي القضاة جمال الدين الزواوي (ت ١٣١٣/٧١٧)^(٤) ، وكذلك قاضي القضاة معين الدين أبي بكر وابنه محمد (ت ١٣٤٧/٧٤٨)^(٥) ، وكانا على المذهب المالكي^(٦) . وسنة ١٣٤٨/٧٤٩ ، كان جلال الدين المسلاتي قاضي قضاة المالكية بدمشق^(٧) .

(ج) المذهب الحنفي :

وبتعيين قاضي قضاة لكل مذهب من المذاهب الأربعة في مصر سنة ١٢٦٥/٦٦٣ ، تقلد شمس الدين سليمان الحنفي قضاء قضاة الحنفية . وقد تقلد هذا

(١) الصفدي : الوافي بالوفيات ج ٢٢ ص ١٩٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٨٤ و ٢٢٥ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١١ ص ١٨١ - ١٨٧ .

(٣) المصدر نفسه ج ١١ ص ١٧٥ .

(٤) جمال الدين أبو عبدالله محمد بن سليمان بن يوسف الزواوي المالكي (ت ١٣١٧/٧١٧) : ولد بالمغرب سنة ٦٢٩ هـ ، جاء مصر من المغرب ، ثم قدم دمشق قاضياً سنة ٦٨٧ هـ . عزل عن القضاء قبل وفاته بعشرين يوماً ودفن بمقابر باب الصغير تجاه مسجد التاريخ . أقام شعار مذهب مالك ، وعمر الصمصامية وجدد عمارة النورية .

ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٤ ص ٦٠ .

(٥) محمد بن أبي بكر بن ظافر بن عبدالزهّاب (ت ١٣٤٧/٧٤٨) : قاضي القضاة بالشام ، وهو ابن قاضي القضاة معين الدين أبي بكر . كان وقوراً محتشماً ، يتجمل في ملبسه ومأكله . صلى عليه نائب دمشق يلبغا اليحيوي والقضاة والحجاب والأعيان في سوق الخيل .

الصفدي : الوافي بالوفيات ج ٢ ص ٢٧٠ .

ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة ج ٣ ص ٤٠٤ .

(٦) الصفدي : الوافي بالوفيات ج ٢ ص ٢٧٠ .

(٧) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢٢٥ .

المنصب أيضاً جمال الدين محمود القيسري المعروف بالعجمي زمن السلطان الظاهر برقوق^(١). وكذلك شمس الدين أحمد السروجي الحنفي (ت ١٣١٠/٧١٠)^(٢). وتقلد هذا المنصب حسام الدين الغوري حسن بن محمد سنة ١٣٣٨/٧٣٩^(٣)، وعلاء الدين بن التركماني الحنفي سنة ١٣٤٨/٧٤٩^(٤).

أما في دمشق وسنة ١٢٦٦/٦٦٤، فقد تقلد شمس الدين عبد الله بن محمد بن عطاء قضاء الحنفية. وبعد ابن عطاء، تولى مجد الدين عبد الرحمن بن العديم الحنفي (ت ١٢٧٨/٦٧٧)، ثم باشر صدر الدين سليمان القضاء عوضاً عن ابن العديم. وبوفاة صدر الدين سليمان سنة ١٢٧٩/٦٧٧، تولى قضاء الحنفية حسام الدين أبو الفضائل الحسن بن أنوشروان الرازي الحنفي، الذي كان فاضياً بملطية قبل ذلك^(٥). وسنة ١٢٩٧/٦٩٧ تقلد جلال الدين بن حسام الدين قضاء الحنفية بدمشق^(٦)، كما تقلده عماد الدين الطرسوسي^(٧) سنة ١٣٣٨/٧٣٩، ونجم الدين الحنفي^(٨) سنة ١٣٤٨/٧٤٩.

(١) القلقتندي. صح الأعشى ج ١١ ص ١٧٥ و ١٧٨ - ١٨١.

(٢) شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن عبد الغني السروجي الحنفي (ت ١٣١٠/٧١٠): كان بارعاً في علوم شتى، وولى الحكم بمصر مدة وعزل قبل موته بأيام. وله اعتراضات على الشيخ تقي الدين بن تيمية في علم الكلام، وقد رد عليه ابن تيمية وأبطل حجته

ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٤ ص ٦٠.

(٣) المصدر نفسه ج ١٤ ص ١٨٤.

(٤) المصدر نفسه ج ١٤ ص ٢٢٥.

(٥) المصدر نفسه ج ١٣ ص ٢٨٠.

(٦) المصدر نفسه ج ١٣ ص ٣٥٢.

(٧) المصدر نفسه ج ١٤ ص ١٨٤.

(٨) المصدر نفسه ج ١٤ ص ٢٢٥.

(د) المذهب الحنبلي :

يعتبر ابن حنبل^(١) إمام التعصب للسنة، لذلك أخذ على عاتقه نصره السنة إذ كان الحديث الضعيف أحب إليه من الرأي، وقد دَوَّن مذهبه بيده في كتابه «المسند»، الذي جمع فيه حوالي ٤٠ ألف حديث. ويذكر القلقشندي نسخة بتوقيع قضاء قضاة الحنابلة في مصر^(٢). حيث تقلد قضاء قضاة الحنابلة سنة ١٢٦٣/٦٦٥ شمس الدين محمد المقدسي (ت ١٢٧٧/٦٧٦).

كما تقلد هذا المنصب عز الدين المقدسي الحنبلي (ت ١٢٩٦/٦٩٦)^(٣)، ثم تولى بعده شرف الدين الحراني (ت ١٣٠٩/٧٠٩)^(٤)، ثم تقي الدين أبو العباس

(١) الامام أبو عبدالله، أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني الوائلي (ت ٨٥٥/٢٤١): أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وهو تلميذ الإمام الشافعي. وتميز الحنابلة بتدرة المحافظة والتقيّد بالحديث والسنة. ولد ابن حنبل في بغداد سنة ١٦٤/٧٨٠ وتوفي فيها وله كتاب «المسند»، سجن رمن المعتصم وأكرم زمن المتوكل. وصف «المسند» ويحتوي على ثلاثين ألف حديث وله كتب «التاريخ» و«الناسخ والمنسوخ» و«التفسير» و«الزهد».

التميمي المحن ص ٤٤٤؛ الخطيب البغدادي. تاريخ بغداد ج ٤ ص ٤١٢ - ٤٢٣؛ ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة ص ٣ - ١١؛ ابن حلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٦٤ - ٦٥؛ ابن العماد: شذرات الذهب ج ٢ ص ٩٦ - ٩٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٠ ص ٣٢٥ - ٣٤٠؛ الزركلي: الأعلام ج ١ ص ٢٠٣ - ٢٨٦. E.I.². T I P 280 - 286 عصام شبارو: القضاء والقضاة ص ١٣٤ - ١٣٩.

(٢) القلقشندي. صبح الأعشى ج ١١ ص ١٩٣ - ١٩٦

(٣) عز الدين عمر بن عبدالله بن عمر بن عوض المقدسي الحنبلي (ت ١٢٩٦/٦٩٦): سمع الحديث؛ وبرز في المذهب الحنبلي، وتقلد قضاء قضاة الحنابلة في مصر. كان مشكوراً في سيرته وحكمه توفي في شهر صفر سنة ٦٩٦ هـ وذلك بالمقطم. وتولى بعده شرف الدين عبدالعني بن يحيى بن محمد بن عبدالله بن نصر الحراني.

ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣٥٠.

(٤) شرف الدين أبو محمد عبدالعني بن يحيى بن محمد بن عبدالله بن نصر بن أبي بكر الحراني (ت ١٣٠٩/٧٠٩). قاضي قضاء الحنابلة بمصر، ولد بحران سنة ٦٤٥ هـ، سمع الحديث وقدم مصر، =

المقدسي الحنبلي^(١).

وسنة ١٣٣٨/٧٣٩، كان قاضي قضاة الحنابلة في مصر يسمى موفق الدين بن نجا المقدسي، وقد استمر في منصبه حتى سنة ١٣٤٨/٧٤٩^(٢).

أما في دمشق، فقد تقلد شمس الدين عبد الرحمن بن الشيخ أبي عمر، قضاء قضاة الحنابلة سنة ١٢٦٦/٦٦٤. وفي أول صفر سنة ١٢٨٠/٦٧٩ باشر قضاء الحنابلة نجم الدين ابن الشيخ شمس الدين بن أبي عمر (ت ١٢٩٠/٦٨٩)^(٣)، وقد كان المنصب شاغراً منذ أن عزل والده نفسه عن القضاء^(٤).

ومن الذين تقلدوا قضاء قضاة الحنابلة بدمشق أيضاً، قاضي القضاة تقي الدين سليمان بن حمزة بن أحمد بن عمر المقدسي الحنبلي (ت ١٣١٥/٧١٥). وبوفاته تقلد ابن مسلم الحنبلي (ت ١٣٢٦/٧٢٦)^(٥)، ثم جاء بعده قاضي

== فباشر نظر الخزانة وتدرّس الصالحية، ثم أصيف إليه القضاء، وكان مشكور السيرة كثير المكارم وبوفاته تولى بعده سعد الدين الحارثي.
ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٤ ص ٥٦.

(١) أحمد بن عمر بن عبد الله، تقي الدين أبو العباس: وهو ابن قاضي القضاة عزالدين أبي حفص المقدسي الحنبلي، تولى هو وأبوه قضاء قضاة مصر للحنابلة، وما زال قاضياً للقضاة إلى أن عزل السلطان محمد بن قلاوون القضاة الثلاثة دون المالكي فلم يبق به.

الصفدي: الوافي بالوفيات ج ٧ ص ٢٦٦؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة ج ١ ص ٢٢٥.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٨٤ و ٢٢٥.

(٣) نجم الدين أبو العباس بن الشيخ شمس الدين بن أبي عمر المقدسي (ت ١٢٩٠/٦٨٩). كان فاضلاً بارعاً خطيباً مدرساً بأكثر المدارس، وهو شيخ الحنابلة وابن شيخهم بدمشق. توفي في ١٢ رجب سنة ٦٨٩ هـ، فتقلد القضاء بعده ابن عمه شرف الدين حسن بن عبد الله بن أبي عمر المقدسي.
المصدر نفسه ج ١٣ ص ٣١٦، ٣١٧، ٣١٩.

(٤) المصدر نفسه ج ١٣ ص ٢٩٤.

(٥) ابن مسلم الحنبلي (ت ١٣٢٦/٧٢٦): شمس الدين أبو عبد الله محمد بن مسلم بن مالك بن مزروع بن جعفر الصالح الحنبلي، ولد سنة ٦٦٠ هـ ونشأ يتيماً فقيراً لا مال له، ثم اشتغل وحصل وسمع الكثير، ولما مات التقي سليمان سنة ٧١٥ هـ، ولي قضاء الحنابلة. رسنة ٧٢٦ هـ خرج إلى الحج فمرض في الطريق، ثم زار المدينة حيث مات هناك. وتولى القضاء بعده عزالدين بن التقي سليمان.

المصدر نفسه ج ١٤ ص ١٢٦.

القضاة عز الدين المقدسي (ت ٧٣١/١٣٣٠)^(١)، وبعد وفاته تولى القضاء نائبه شرف الدين بن الحافظ عبدالله بن الحسن بن عبدالله بن الحافظ المقدسي الحنبلي (ت ٧٣٦/١٣٣٥)^(٢). وسنة ٧٣٢/١٣٣١، خلع على علاء الدين بن الشيخ زين الدين ابن المنجا بقضاء قضاة الحنابلة عوضاً عن ابن الحافظ^(٣).

وتقلد علاء الدين بن المنجا الحنبلي (ت ٧٥٠/١٣٤٩) قضاء قضاة الحنابلة بدمشق، منذ سنة ٧٣٩/١٣٣٨، زمن السلطان الناصر محمد بن المنصور قلاوون، وحتى سنة ٧٤٩/١٣٤٨، زمن السلطان ناصر الدين حسن بن المنصور^(٤).

وفي القدس كان قاضي القضاة أبو اليمن مجير الدين (ت ٩٢٧/١٥٢٠)^(٥)، آخر من تقلد قضاء قضاة الحنابلة زمن المماليك.

(١) عز الدين المقدسي (ت ٧٣١/١٣٣٠): عز الدين أبو عبدالله بن محمد بن تقي الدين سليمان بن حمزة بن أحمد بن عمر المقدسي الحنبلي. ولد سنة ٦٦٥ هـ سمع الحديث واشتغل على والده. وبعد وفاة ابن مسلم، ولي قضاء الحنابلة بعده. وكان فيه تواضع وتودد وقضاء لحاجات الناس.

ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٥٤، ١٥٥.

(٢) المصدر نفسه ج ١٤ ص ١٥٩.

(٣) المصدر نفسه ج ١٤ ص ١٥٧.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى ج ١٢ ص ٥٥. ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٨٤ و ٢٢٥.

(٥) أبو اليمن مجير الدين (ت ٩٢٧/١٥٢٠): هو عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن بن محمد العليمي المقدسي الحنبلي، ولد بالقدس سنة ٨٦٠ هـ، وتلقى تعليمه في المسجد الأقصى والمدرسة الصلاحية ثم في مصر حيث أقام بين سنتي ٨٨٠ - ٨٨٩ هـ، وعكف على طلب العلم، ثم تولى قضاء القدس، وبقي فيه حتى وفاته سنة ٩٢٧ أو ٩٢٨ هـ، حيث دفن فيها وقبره ظاهر شرقي باب الأسباط قرب الجسمانية. وله مؤلفات كثيرة مثل «فتح الرحمن في تفسير القرآن» و«المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد» و«التاريخ المعبر في أنباء من غير» و«أتحاف الزائر وأطواف المقيم المسافر». وأشهر كتبه «الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل» الذي وضعه في ١٥ ذي الحجة سنة ٩٠٠ هـ، وهو المؤلف الأكثر شهرة في تاريخ القدس منذ فجر الخليقة حتى سنة ٩٠٠ هـ، وهو في جزئين الأول من أول الخلق وقصص الأنبياء حتى وفاة صلاح الدين الأيوبي، والثاني وصف القدس بمساجدها ومدارسها وشوارعها. . . ثم يذكر أعيان العلماء ومن تولى قضاء القدس منهم في المذاهب الأربعة.

محمد جميل الشطي: مختصر طبقات الحنابلة ص ٢٧٣؛ حاجي

٥ - مذهب الأوزاعي ثم المالكي في الأندلس :

الأوزاعي^(١) هو «إمام أهل الشام ولم يكن بالشام أعلم منه»^(٢). ومن بيروت انتشر مذهبه في بلاد الشام، ثم في المغرب والأندلس، حيث ظل الفقهاء يأخذون به مدة أربعين سنة^(٣). وزمن الأمير عبد الرحمن الأول الداخل (ت ٧٨٨/١٧٢)، مؤسس الإمارة الأموية في قرطبة، كان قاضي الجماعة على مذهب الإمام الأوزاعي، وقد أدخل صعصعة بن سلام هذا المذهب إلى الأندلس أثناء انتقاله إليها. ثم أدخل زياد بن عبدالرحمن القرطبي الملقب بـ «شبطون»، المذهب المالكي، في أيام الأمير هشام الأول بن عبدالرحمن (ت ٧٩٦/١٨٠). وأخذ المذهب المالكي ينتشر في الأندلس على حساب مذهب الأوزاعي حتى أصبح القضاء والفتيا على المذهب المالكي^(٤)، زمن الأمير الحكم بن هشام (ت ٨٢٢/٢٠٧). ومن أشهر من تقلد منصب قاضي الجماعة على المذهب المالكي، أبو جعفر الثعلبي القرطبي، وأبو الوليد القرطبي، وأبو القاسم القرطبي.

= خليفة كشف الظنون ج ١ ص ١٧٧، الزركلي: الأعلام ج ٤ ص ١٠٨، كامل جميل العسلي: مخطوطات فضائل بيت المقدس ص ١٠٥ - ١١٢

(١) الأوزاعي (ت ٧٧٤/١٥٧): عبدالرحمن بن عمرو بن محمد الأوزاعي، من قبيلة الأوزاع، أبو عمرو، إمام الديار الشامية في الفقه والزهد. ولد في بعلبك سنة ٨٨ هـ، ونشأ في البقاع، وسكن بيروت وتوفي بها. عرض عليه القضاء فامتنع. وله كتاب «السنن» في الفقه و«المسائل». ويقدر ما سئل عنه بسبعين ألف مسألة أجاب عليها كلها. وكانت الفتيا تدور بالأندلس على رأيه إلى زمن الحكم بن هشام.

ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٩٢؛ ابن النديم: الفهرست ج ١ ص ٢٢٧؛ صالح بن يحيى: تاريخ بيروت ص ١٣ - ١٥؛ الأصبخري: مسالك الممالك، ص ٦٥، ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٦٢؛ الزركلي: الأعلام ج ٣ ص ٣٢٠؛ عصام شبارو: تاريخ بيروت ص ٤٨ - ٥٢.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٩٢.

(٣) صالح بن يحيى: تاريخ بيروت ص ١٣.

عصام شبارو: تاريخ بيروت ص ٥١.

(٤) عصام شبارو: تاريخ بيروت ص ٥١.

الفصل الثالث

تقليد قاضي القضاة

الخليفة هو الذي يقلد القضاة^(١) أمر القضاة، وخاصة فيما يتعلق بأعلى منصب قضائي وهو منصب قاضي القضاة. وقد يقوم ممثله في الولايات وهو السلطان أو الوالي أو قاضي القضاة^(٢)، بتعيين القضاة وتقليدهم القضاة، والقاضي بدوره يعين مساعديه ليعاونوه في وظائفه المختلفة. ويسمى مرسوم الخليفة بتعيين قاضي القضاة بـ «العهد»، ويتم التعيين في احتفال هو «التقليد».

١ - شروط اختيار قاضي القضاة

لم تكن هناك شروط معينة في بادئ الأمر، لتقليد قاضي القضاة، فالظروف لعبت دورها عندما احتاج هارون الرشيد إلى أحد الفقهاء ليستفتيه في أمر يخصه، فجاء أبو يوسف حيث أعجب بفتواه وأصبح من المقربين إليه، حتى ابتكر له منصب قاضي القضاة لأول مرة في الإسلام^(٣). وهكذا كانت المعرفة بالشرعية والفقهاء والفطرة السليمة ضرورية في هذا الاختيار. والحقيقة أن الشروط التي يجب توافرها في القاضي تطابق شروط اختيار قاضي القضاة، مع مراعاة شرط الخبرة والسن.

وحدد الماوردي الشروط المعتبرة بالشرع، والتي يجب توافرها فيمن يلي القضاة، وهي على الإجمال سبعة^(٤):

- الذكورة والبلوغ: أي أن يكون رجلاً، ولا يمكن تقليد النساء للقضاة.

(١) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ١ ص ٢٤٠ و ٢٥٧؛ ج ٤ ص ٢٣ و ١١٣

(٢) المصدر نفسه: ج ٣ ص ١٣٦؛ ج ٤ ص ٨٠.

(٣) المصدر نفسه: ج ١ ص ٢٥١ - ٢٥٣؛ ج ٧ ص ٧٦ - ٧٧.

(٤) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ٦٥ - ٦٦. أدب القاضي ج ١ ص ٦١٨ - ٦٤٣.

- الذكاء: حتى يتمكن من التمييز وإيضاح ما أشكل من القضايا.
 - الحرية: فلا يجوز للعبد أن يتقلد القضاء، أما إذا نال العبد حريته فيجوز له تقلد القضاء إذا توافرت فيه الشروط الأخرى.
 - الإسلام: ويعني ذلك عدم جواز تقلد أهل الذمة وغيرهم القضاء بين المسلمين.
 - العدالة: وتشمل الصدق والأمانة والعفة والبعد عن الريب.
 - سلامة السمع والبصر: ليتمكن من التمييز بين الحق والباطل.
 - العلم بالأحكام الشرعية: ويعني ذلك العلم بكتاب الله وسنة رسوله والإجتihad.
- واعتبر الماوردي القضاة موازين العدل وحراس السنة باتباعها في أحكامهم، وهنا أضاف صفات لا بد من مراعاتها في اختيار القضاة بعد الشروط المعتبرة فيهم بالشرع، وهي «أن يكون القاضي حسن العلانية، مأمون السريرة، كثير الجِدِّ، قليل الهزل، شديد الورع، قليل الطمع»^(١). وعلى قاضي القضاة الإقتداء بالأئمة، ومشاورة أهل العلم والرأي^(٢).

وفي البداية كانت المعرفة بالمذهب الحنفي، مذهب أهل العراق، من أهم الشروط لتقلد القضاء، وقد عمل قاضي القضاة أبو يوسف في هذا الاتجاه، ولكن المعرفة بالمذاهب الأربعة تبدو ضرورية لتمييز قاضي القضاة وتدعيم مكانته.

ولا يوجد شرط السن في تقليد القضاء، فقد تقلد البعض منصب القاضي في سن العشرين^(٣)، أو الثانية والعشرين^(٤)، أو الثانية والثلاثين^(٥). ومع ذلك يبدو أن سن الأربعين كان يعتبر «حد التكهل والحنكة»^(٦)، فمن المستحب أن تبدو الهيئة والوقار والسن على القاضي حتى لا يقال إنه ما زال فتى قليل الحنكة. أما منصب

(١) الماوردي: تسهيل النظر ص ٢٠٤ - ٢٠٥.

(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ١ ص ٦٢.

(٣) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ١ ص ٢٤٠ - ٢٤١؛ ج ٤ ص ١٥٦؛ ج ٦ ص ١٨٠.

(٤) المصدر نفسه ج ٥ ص ١٩.

(٥) المصدر نفسه ج ٣ ص ١٣٦.

(٦) المصدر نفسه ج ٣ ص ١٣٧.

قاضي القضاة فلم يتقلده أحد في العشرين أو الثلاثين من عمره، وإن لم تحدد سناً معينة لتوليه، فقد جرت العادة على أن يتقلد هذا المنصب قاض له خبرته الطويلة في القضاء وله هيئته ووقاره وسنه، فأبو جعفر أحمد بن إسحاق بن البهلول التنوخي تقلد منصب قاضي القضاة في بغداد سنة ٢٩٦/٩٠٨^(١)، وهو في الخامسة والستين من عمره، وأبو عمر محمد بن يوسف الأزدي سنة ٣١٧/٩٢٩^(٢)، وأبو السائب عتبة بن عبيدالله الهمداني سنة ٣٣٨/٩٤٩، وهما في الرابعة والسبعين، وأبو جعفر الثقفي سنة ٥٥٥/١١٦٠، وقد ناهز الثمانين^(٣).

وفي دمشق، تقلد أبو الربيع الحنفي منصب قاضي القضاة الحنفية سنة ٦٧٧/١٢٧٨، وهو في الثالثة والثمانين^(٤).

وفي مصر، كان ابن دقيق الشافعي في السبعين عندما تقلد منصب قاضي قضاة الشافعية سنة ٦٩٥/١٢٩٥^(٥).

وبالرغم من ذلك، فقد تقلد البعض منصب قاضي القضاة في سن مبكرة، ويرجع ذلك إما لحظوتهم عند الخليفة أو لمكانتهم في القضاء. ويبدو أن أبا الحسين عمر بن محمد بن يوسف الأزدي هو أول من تقلد هذا المنصب في بغداد دون أن يبلغ الأربعين من عمره، فيذكر التنوخي أن الخليفة الراضي ذهب إلى الموصل سنة ٣٢٧/٩٣٨ ومعه قاضي القضاة أبو الحسين عمر^(٦) (ولد سنة ٢٩٠/٩٠٣)^(٧)، أي كان عمره وقتذاك سبعة وثلاثون، ويبدو أنه تقلد هذا المنصب قبل هذا التاريخ، وذلك نتيجة حظوته عند الخليفة الراضي^(٨).

(١) التنوخي: نشوار المحاضرة ج٤ ص ٢٣٢ ج٥ ٢١٥.

(٢) المصدر نفسه ج٥ ص ٢٠٩.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٢ ص ٢٤١-٢٤٣.

(٤) المصدر نفسه ج١٣ ص ٢٨١.

(٥) المصدر نفسه ج١٤ ص ٢٧ و ٧٩.

(٦) التنوخي: نشوار المحاضرة ج٧ ص ١٦.

(٧) المصدر نفسه ج٤ ص ١٥٦.

(٨) المصدر نفسه ج٤ ص ٢١٠.

وفي القاهرة، تقلد علي بن النعمان قضاء القضاة سنة ٩٧٧/٣٦٦، وهو في السابعة والثلاثين^(١)، كما تقلد شقيقه محمد بن النعمان هذا المنصب سنة ٩٨٥/٣٧٤، وهو في الرابعة والثلاثين^(٢)، وذلك نتيجة حظوتهما عند الخليفة الفاطمي، ولمكانة أبيهما النعمان الذي يعتبر مؤسس النظام القضائي في الدولة الفاطمية.

٢ - احتفال التقليد:

وبعد اختيار قاضي القضاة، يكتب له الخليفة «عهداً» بتولي منصبه، وبعد إنشاء «عهد» الخليفة، «يجتمع الخلق من الأشراف والقضاة والتهود والجند والتجار وغيرهم على باب الخليفة»^(٣)، حيث يجري احتفال «التقليد» لمنصب قاضي القضاة في موكب فخم. وعندما تقلد أبو الحسين عمر بن محمد قضاء القضاة، خرج من عند الخليفة الراضي وعليه الخلع، وسار الموكب وفيه زحمة^(٤)، في شوارع بغداد.

وفي مصر، عندما قلد العزيز بالله الفاطمي منصب قاضي القضاة إلى علي بن النعمان سنة ٩٧٧/٣٦٦، اجتمع الناس في احتفال كبير في جامع القاهرة حيث قرىء العهد بتوليته منصبه، ثم انصرف إلى داره تحيط به جموع الناس^(٥). وعندما تقلد أخوه محمد بن النعمان هذا المنصب سنة ٩٨٥/٣٧٤، قرىء عهد الخليفة العزيز بعد صلاة الجمعة في الجامع العتيق بالقاهرة^(٦).

وفي مصر أيضاً، وزمن المماليك، كان السلطان إذا ما قلد أحدهم قضاء القضاة على مذهب معين، فإنه يجتمع به ليوليه القضاء ويخلع عليه خلعة صوف ويعطيه بغلة

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٥ ص ٤١٧ - ٤١٩.

(٢) المصدر نفسه ج ٥ ص ٤١٩ - ٤٢٢.

(٣) التنوخي. نشوار المحاضرة ج ١ ص ٢٥٧ وج ٤ ص ٢٣.

(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٤٠.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٥ ص ٤١٧ - ٤١٩.

(٦) المصدر نفسه ج ٥ ص ٤١٩ - ٤٢٢.

لركوبه^(١). وأحياناً يطلب السلطان أحد القضاة من خارج مصر، بواسطة البريد، وذلك لتقلد قضاء القضاة في مصر. وهكذا كان ينقل قاضي قضاة أحد المذاهب من دمشق إلى مصر، وكذلك من مصر إلى دمشق وغيرها، ليتولى قضاء مذهبه^(٢). وعندما يخرج قاضي القضاة من دمشق إلى مصر لتولي القضاء، يخرج القضاة والأعيان لتوديعه^(٣)، وأحياناً يرسل عائلته قبل رحيله لتسبقه في قافلة من الجمال^(٤). وعند وصوله إلى مصر يتوجه إلى السلطان ليسلم عليه، ثم يمشي إلى دار الحديث ثم إلى المدرسة الركنية حيث يسلم الناس عليه^(٥).

وفي دمشق، كان التقليد يتم عند وصول البريد من مصر، ومعه كتاب السلطان بالتقليد والخلعة في قضاء قضاة مذهب معين، أو بتجديد توقيع قاضي القضاة^(٦).

وكان التقليد يتم في الجامع الأموي، حيث يجلس قاضي القضاة في محراب المقصورة، بعد أن يلبس الخلعة، علماً أن هناك مقصورة لكل قاضي قضاة من المذاهب الأربعة^(٧). ثم يقرأ كتاب التقليد بحضور القضاة والأعيان، ويجلس القارئ، ويكون أحد الشيوخ المحدثين عادة، على السلمة تجاه المحراب. وبعد ذلك يسير قاضي القضاة في موكب حافل إلى دار السعادة ليسلم على نواب السلطنة^(٨). وفي اليوم التالي، يباشر قاضي القضاة عمله حيث يحكم في النورية^(٩).

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢١، ١٣٤، ٢٨٩.

(٢) المصدر نفسه ج ١٣ ص ٣٣٦، ج ١٤ ص ٨٢، ٩٣، ١٠٦، ١٢٨، ١٣٤، ١٤٢، ٢٩٥، ٢٩٨.

(٣) المصدر نفسه ج ١٤ ص ٢٩٨.

(٤) المصدر نفسه ج ١٤ ص ٣١٠.

(٥) المصدر نفسه ج ١٤ ص ٢٩٦.

(٦) المصدر نفسه ج ١٤ ص ٢١، ٣٨، ٤١، ١٣٤، ٣٢١.

(٧) المصدر نفسه ج ١٤ ص ٣٢٠، ٣٢١.

(٨) المصدر نفسه ج ١٣ ص ٣٤٩. ج ١٤ ص ٤٢، ٧٦، ٨٢، ٩٣، ١٢٩، ١٥٧، ١٦٦، ٢٩٢، ٢٩٣.

٣٢٠، ٣٢١.

(٩) المصدر نفسه ج ١٤ ص ٤٢، ١٢٩، ٢٩٣.

أو الجوزية^(١)، أو العادلية^(٢)، وغيرها. وهناك يتلقى السلام والتهنئة من الناس الذين يتوافدون عليه^(٣).

ويمكن الإطلاع على «عهد» الخليفة أو السلطان، من نماذج مختلفة أنشئت بتقليد منصب قاضي القضاة في بغداد، والقاهرة، ودمشق، وحلب، وغيرها.

٣ - في بغداد :

كان يتقلد منصب قاضي القضاة في بغداد، قاضٍ على المذهب الحنفي، مذهب أهل العراق، وجاء في «عهد» المطيع إلى محمد بن صالح الهاشمي^(٤) (ت ٩٧٩/٣٦٩)، بتعيينه قاضياً للقضاة:

«هذا ما عهدته عبدالله الفضل الإمام المطيع لله أمير المؤمنين إلى محمد بن صالح الهاشمي، حين دعا إلى ما يتولاه من القضاء في مدينة المنصور والمدينة

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٤ ص ٧٦.

(٢) المصدر نفسه ج ١٤ ص ١٤٤، ٢٩٨.

(٣) المصدر نفسه ج ١٣ ص ٣٤٩. ج ١٤ ص ٢٦١، ٢٩٣، ٢٩٨، ٢٩٩.

(٤) أبو الحسن محمد بن صالح بن علي بن يحيى الهاشمي (ت ٩٧٩/٣٦٩): ويعرف بان أم شيان وهي والدة يحيى ابن عبدالله جد أبيه، وهي المكناة بأم شيان، واسمها كنيها. ولد أبو الحسن في الكوفة سنة ٢٩٤ هـ وبها نشأ وكتب الحديث وقدم بعدد سنة ٣٠١ هـ مع أبيه، ثم استقر فيها سنة ٣١٦ هـ، وصاهر قاضي القضاة أبا عمر محمد بن يوسف على بنت ابنته. وكان رجلاً عظيم القدر، وافر العقل واسع العلم، كثير الطلب للحديث، ينظر في فنون العلم والآداب، متوسط الفقه على مذهب مالك. ولا يوجد قاضياً تقلد القضاء بمدينة السلام من بني هاشم غيره. ثم قلده المطيع قضاء الشرقية مصافاً إلى مدينة المنصور سنة ٣٢٥ هـ، كما تقلد قضاء مصر وأعمالها والرملة وقطعة من أعمال الشام. توفي فجأة سنة ٣٦٩ هـ.

التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٥ ص ٧ - ٩.

ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ١٠٢.

الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٥ ص ٣٦٣.

الكندي: الولاة والقضاة ص ٥٧٣.

الشرقية من الجانب الغربي والجانب الشرقي من مدينة السلام^(١)، والكوفة وشقي الفرات وواسط وكوخي وطريقي الفرات ودجلة وطريقي خراسان وقرميسين وحلوان وديار مضر وديار ربيعة وديار بكر والموصل والحرمين واليمن ودمشق وحمص وجند قنسرين والعواصم ومصر والاسكندرية وجندي فلسطين والأردن وأعمال ذلك كلها، وما يجري مع ذلك من الإشراف على ما يختاره لثقابة العباسيين بالكوفة وشقي الفرات وأعمال ذلك، وما قلده إياه من قضاء القضاة وتصليح أحوال الحكام واستشراف ما يجري عليه أمر الأحكام، من سائر النواحي والأمصار والبلاد والأقطار التي تشتمل عليها المملكة وتنتهي إليها الدعوة وإقرار من يحمده هديه وطريقته، واستبدال من يذم سمته وسجيته نظراً منه للكافة، واحتياطاً للخاصة والعامة، وحنواً على الملة والذمة، عن علم أنه المقدم في بيته وشرفه، المبرز في عفافه وظلفه، المزكي في دينه وأمانته، الموصوف في ورعه ونزاهته، المشار إليه بالعلم والحجاء المجمع عليه في الحلم والنهي، البعيد عن الإدناس، اللابس من النقاء أجمل لباس، النقي الجيب المحبور بصفاء الغيب، العالم بمصالح الدنيا، العارف بما يفيد سلامة العقبي.

أمره بتقوى الله فإنها الجنة الواقية، وأن يجعل كتاب الله في كل ما يعمل فيه رويته ويرتب عليه حكمه وقضيته، إمامه الذي يفرع إليه، وعماده الذي يعتمد عليه، وأن يتخذ سنة محمد رسول الله ﷺ مطلوباً يقصده ومثلاً يتبعه، وأن يراعي الإجماع، وأن يقتدي بالأئمة الراشدين، وأن يعمل اجتهاده فيما لا يوجد فيه كتاب ولا سنة ولا إجماع، وأن يحضر مجلس قضاة من يستظهر بعلمه ورأيه، وأن يسوي بين الخصمين إذا تقدما إليه في لحظه ولفظه، ويوفي كلاً منهما نصيبه من إنصافه وعدله حتى يأمن الضعيف من حيفه ويأس القوي من ميله، وأمره أن يشرف على أعوانه وأصحابه ومن يعتمد عليه من أمنائه وأسبابه إشرافاً يمنع من التخطي إلى السيرة المحظورة ويدفع عن

(١) مدينة السلام: بناها الخليفة أبو جعفر المنصور سنة ١٤٥ - ١٤٦ هـ، واتخذها قاعدة ملكه وتقع في الجانب الغربي من دجلة ولها أربعة أبواب: باب الشام (الأنبار) وباب خراسان وباب الكوفة وباب البصرة. وقد سماها المنصور مدينة السلام تفاضلاً. ويذكر التنوخي أنه لم يمت فيها خليفة منذ بنيت إلا الأمين.

التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٥ ص ٤٠ - ٤٣.

ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ١ ص ٦٨٢ وج ٢ ص ٩٥٤ وج ٤ ص ٤٥٣.

الإسفاف إلى المكاسب المحظورة. «(١)».

وهذه نسخة بولاية قضاء حاضرة بغداد وسائر الأعمال(٢)؛ كتب به المسترشد بالله لقاضي القضاة أبي القاسم علي بن الحسين الزينبي (ت ١١٤٨/٥٤٣)(٣)، وهي:

هذا ما عهد عبدالله أبو منصور الفضل، الإمام المسترشد بالله أمير المؤمنين، إلى قاضي القضاة علي بن الحسين الزينبي: لَمَّا تَأَمَّلَ طَرِيقَتَهُ، وَشَحَذَ عَقِيدَتَهُ، وَأَحْمَدَ مَذَاهِبَهُ، وَأَرْتَضَى ضَرَائِبَهُ، وَتَكَاثَرَتْ دَوَاعِيهِ، وَحَسُنَتْ مَسَاعِيهِ، وَوَجِدَهُ عِنْدَ الْاِخْتِبَارِ، وَفِي مَضْمَارِ الْاِعْتِبَارِ، رَاجِعاً إِلَى عَقْلِ رَصِينٍ، وَدِينٍ مَتِينٍ، وَأَمَانَةٍ مَشْكُورَةٍ، وَنَزَاهَةٍ مَحْضُورَةٍ، وَوَرَعٍ يَمُرُّ الْمَشْرِعَ، عَارٍ مِنْ دِنْسِ الْمَطْمَعِ، وَعَلِمٍ تَوَفَّرَ مِنْهُ قَسْمُهُ، وَأَصَابَ فِيهِ سَهْمُهُ. وَحِينَ رَاعَى فِيهِ مَوْرُوثَ شَرَفِ النُّسَبِ، إِلَى شَرَفِ الْعِلْمِ الْمَكْتَسَبِ، مَعَ مَا سَلَفَ لَبِيْتِهِ مِنَ الْحُرْمَاتِ الْمَرْعِيَةِ الْمَتَأَكَّدَةِ، وَالْقُرْبَاتِ الْمَرْضِيَّةِ الْمَتَمَهَّدَةِ، وَالسَّوَابِقِ الْمُحْكِمَةِ الْمَرَاتِرِ، الْحَمِيدَةِ الْمَبَادِيءِ وَالْمَصَابِرِ، فَقَلَّدَهُ قَضَاءَ الْقَضَاةِ بِمَدِينَةِ السَّلَامِ وَسَائِرِ الْأَمْصَارِ، فِي الْآفَاقِ وَالْأَقْطَارِ، شَرْقاً وَغَرْباً، وَبُعْداً وَقُرْباً؛ إِنْافَةً بِهِ إِلَى مَا أَصْبَحَ لَهُ مُسْتَحَقّاً، وَاسْتَمَرَ اسْتِجَابُهُ مُسْتَرَقّاً، وَجَذْباً بَضْبَعِهِ إِلَى مَا يَتَحَقَّقُ نَهْوُضُهُ بِأَعْبَائِهِ، وَحُسْنِ اسْتِقْلَالِهِ بِهِ وَغَنَائِهِ؛ وَاقْتِفَاءً لِأَثَارِ الْأُئِمَّةِ الرَّاشِدِينَ فِي إِيدَاعِ الْوَدَائِعِ عِنْدَ مَسْنَحِهَا، وَتَفْوِيضِ الْأُمُورِ إِلَى أَكْفَائِهَا وَأَهْلِهَا؛ لَا سِيَّما أَوْلِيَاءَ دَوْلَتِهِمْ، وَأَغْذِيَاءَ نَعْمَتِهِمْ؛ الَّذِينَ كَشَفَتْ عَنْ سِجْفِ خَبْرَتِهِمْ التَّجَارِبِ، وَوَرَدُوا مِنَ الْخُلَالِ الرَّشِيدَةِ أَعْدَبَ الْمَشَارِبِ، وَانْتَهَجُوا الْجِدِّدَ الْوَاضِحَ، وَتَقَبَّلُوا الْخُلُقَ الصَّالِحَ، وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ يَقْرَنُ عِزَائِمَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْخَيْرَةِ فِي كُلِّ رَأْيٍ يَرْتَثِيهِ، وَأَمْرٍ يَوْمُهُ وَيَنْتَحِيهِ؛ وَيَصَدِّقُ مَخِيلَتَهُ فِي كُلِّ حَالٍ يَأْتِيهَا، وَيُمْضِي عِزْمَهُ فِيهَا؛ وَمَا تَوَفِيْقُهُ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ وَإِلَيْهِ يُنِيبُ.

(١) ابن الحوزي، المتظم ج ٧ ص ٦٤ - ٦٥.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج ١٠ ص ٢٦٤ - ٢٧٦.

(٣) علي بن الحسين بن محمد بن علي الزينبي، أبو القاسم (ت ١١٤٨/٥٤٣): قاضي القضاة ببغداد وغيرها، سمع الحديث وكان فقيهاً رئيساً، وقوراً حسن الهيئة، قليل الكلام، سافر مع الخليفة الراشد إلى الموصل، ثم عاد إلى بغداد فمات بها وقد جاوز الستين. وكانت جنازته حافلة.

ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٢٥.

أمره بتقوى الله التي لا يسعد أحد إلا بالتمسك بسببها، ولا يشقى إلا مع إضاعتها؛ فإنها الجناب المريع، والمعقل المنيع، والنجاة يوم الفزع الأكبر، والعدّة النافعة في المعاد والمحشر، والقصمة الحامية من نزغات الشيطان ومخايله؛ المنقذة من أشراكه وحبائله؛ وبها تُمحص الأوزار، وتُنال الأوطار، وتُدرك المآرب، وتنجح المطال، قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

وأمره باستشعار خشية الله سبحانه في قوله وفعله، واختلاف أطواره وأحواله، وتذكّر ما هو قادم عليه، ووافد إليه: ﴿يَوْمَ لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾. فلا يقوده الهوى إلى اتباع شهوة، أو إجابة داعي هفوة أو صبوة، إلا كان الخوف قادعه، والحدار مانعه؛ وأن يجعل التواضع والوقار شيمته، والحلم دأبه وخليقته، فيكظم غيظه عند احتدام أواره، واضطرام ناره، مجنباً عزة الغضب الصائرة إلى ذلّة الاعتذار، ومتوخياً في كل حال للمقاصد السليمة الإيراد والإصدار، وأن يتأمل أحوال غيره تأمّل من جعلها لنفسه مثلاً، واتخذها لسحة منوالاً، فما استحسنته منها فيأتيه، وما كرهه فيجتويه، غير ناهٍ عما هو من أهله، ولا آمر بما هو مُجانبٌ لفعله، قال الله جلّت عظمتة: ﴿اتَّامُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

وأمره بتلاوة كتاب الله مواظباً، والإكثار من قراءته دائماً، وأن يجعله إماماً يقتفيه، ودليلاً يتبعه فيهديه، ونوراً يستضيء به في الظلمات، وهادياً يسترشده عند اعتراض الشبهات؛ وموثلاً يستند إليه في سائر أحكامه، وحصناً يلجأ له في نقضه وإبرامه، عاملاً بأوامره، ومزدجراً بزواجه، ومنعماً نظره ببيءه، كم آياته، وصادع بيناته، ومعملاً فكره في خوض غماره، واستخراج غوامس أسراره؛ فإنه الحقّ الذي لا يجوز متبعه، والمتجر الذي لا يسور مبتضعه، والمار الذي به يُقنأى، والمنهج الذي بأعلامه يُهتدى؛ والمصدر الذي تغرى به الأمور في تنبس الإشكال، وتشرع معه الأحوال المستبهمة في ورود الوضوح السلسال؛ وينسوع الحكمة الذي ضرب الله فيه الأمثال، وفرّق فيه بين الحرام والحلال، والهداية والضلال؛ قال الله سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

وأمره بدراسة السنن النبويّة صلوات الله على صاحبها، والافتداء بما جاءت به

من مكارم الأخلاق التي ندب إليها، وحضّ عليها؛ وتتبع ما يتداخلها من الأخبار الجريحة، والروايات غير الصحيحة؛ والفحص عن طرقها وإسنادها، وتمييز قويمها وميادها؛ والبحث عن رواتها، منحوزها وثقاتها؛ فما ألفاه بريئاً من الطعن، آمناً من القدح والوهن، عارياً من ملابس الشك والارتباب، عاطلاً عن حلي الشبهة والاعتياب، أتبعه واقتفاه، وتمثله واحتذاه؛ وكان به حاكماً، ولأدواء الباطل باتباعه حاسماً؛ وما كان مترجحاً بين كفتي الشك واليقين، ولم تبد فيه مخايل الحق المبين، جعل الوقف حكمه، وردع عن العمل به عزمه؛ إلى أن يضح الحق فيه، فيعتمد ما يوجبه ويقتضيه: فإنه - عليه السلام - الداعي إلى الهدى، والرحمة التي عصم الله بها من عوادي الردى، والهادي الذي لم يفصل بين العمل بفرائض كتابه وسُننه في قوله تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ وَجَلَّتْ آوَاهُ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ .

وأمره بإقامة الصلوات الخمس المفروضة في أوقاتها، والمبادرة إليها قبل فواتها، والإتيان بشرائطها المحدودة وأركانها.

وأمره بمجالسة العلماء، ومباحثة الفقهاء، ومناقشة ذوي البصيرة والفهم، والفتنة والحزم؛ ومشاورتهم في عوارض الأمور المشككة، وسوانج الأحكام المستبهمة المعضلة، حتى يُصرَّح محضراً رأيه وآرائهم عن رُبدة الصواب، وتُنَجَّج أفكارهم باستجمامها نظراً شافياً بالجواب، رافعاً مُنسدل الحجاب، وإن في ذلك ثلجاً للصدور، واستظهاراً في الأمور، واحترافاً من دواعي الزلل، واستمرار الخلل، وأمناً من غوائل الانفراد، وحنطاً للتعويل على الإسبداد، فلرب ثقة أدت إلى خجل، وأمن أفضى إلى وجل، وما زالت الشورى مقرّنة بالإصابة، محكمة عرى الحق وأسبابه؛ حارسة من عواقب الندم، داعية إلى السلامة من زلة القدم؛ وقد أمر الله نبيه ﷺ، وأزّيف محلّه لديه، باناستظهار بالمسورة مع عظم خطره، وشرف فدره؛ فقال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ .

وأمره أن يختار للحكم الأماكن الفسيحة الأرجاء، الواسعة الفضاء، وينظر في أمور المسلمين نظراً تفتّر تُغور العدل فيه، وتلوح خشية الله من مطاويه؛ فبوصل إليه كافة الخصوم، ويبرز لهم على العموم، غير مشدد حجاب، ولا مرتج دون المترافعين إليه بابه؛ وأن يُولي كلاً من الإقبال عليه، وسُن الإصغاء إليه، ما يكون بينهم فيه

مساوياً، ولهم في مجمع الموازنة حاوياً؛ ولا يُعطى من التفاته [إلى] الشريف لشرفه، وذو الشارة الحسنة من أجل ثوبه ومطرفه، ما يمنعه من تقحمة العيون، وترجم في خموله الظنون: فإن ذلك مطمع لذي الرواء في دفع الحق إذا وجب عليه، والتماس الباطل وإن ضعفت الدواعي إليه، مؤسسٌ لذي الخمول من الانتصار لحقه، وإن أسفر صبح يقينه ونطقت ألسنة أدلته؛ فالناس وإن تباينوا في الأقدار والقيمة، وتفاوتوا في الأرزاق المقسومة، فالإسلام لهم مجتمع، والحق أحق أن يتبع؛ وهم عند خالقهم سواء إلا من ميزته التقوى، وتمسك بسببها الأقوى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾. وقال تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَّوْا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

وأمره أن يتأمل أحوال المترافعين إليه، والخصوم لديه؛ ويتطلب ما وقع نزاعهم لأجله في نص الكتاب، ويعدل إلى السنة عند عدمه من هذا الباب؛ فإن فقد من هذين الوجهين، فليرجع إلى ما اختاره السلف المهتدون، وأجمع عليه الفقهاء المجتهدون، فإن لم يُلَفَّ فيه قرلاً ولا إجماعاً، ولا وجد إليه طريقاً مستطاعاً، أعمل رأيه واجتهاده، وامتنى ركاب وسعه وجياده، مستظهِراً بمشورة الفقهاء في هذه الحال، ومستخلصاً من آرائهم ما يقع عليه الإتفاق الآمن الاعتلال: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾.

وأمره باستعمال الأناة عند الحكومات، واستماع الدعاوى والبيّنات؛ من غير سرعة تحدث خطأ، ولا إفراط في التأني يورث مللاً؛ فإن الحق بين ذينك على شفا خطر، وظهر غرر؛ ولا سيما إذا كان أحد الخصمين منطيقاً، ينمق كلامه تميقاً؛ فإنه يخلب ببلاغة نطقه مستمعه، ويُغطي وجه الباطل بالفاظه الموشعة؛ فإذا اتفق لديه ما هذا سبيله، شحذ له غرب فطنته، وأرهف غرار فكره وبصيرته، ومنح كلاً من الإنصات ما يجتلي وجه النصف منيراً، ويغدو لأشياء الجور مبيراً، وإن ذو اللسن روعة، وأوهمه أن الحق معه، بما يلفقه من كلام يقصر خصمه عن جوابه، ويحصر عن جداله واستيفاء خطابه؛ مع عدم البيّنة المشهودة، وتعذر الحجة الموجودة، استعاد كلامه واستنطقه، واستوضح مغزاه وتحققه؛ من غير إظهار إعجاب بما يذكره، ولا اغترار بما يطويه وينشره؛ ولا إصغاء يبدو أثر الرغائب من فحواه، ولا اختصاص له بما يمنع صاحبه شرواه: لئلا يولد ذلك اشتطاطاً، ويحدث له انطلافاً في الخصومة وانبساطاً؛ حتى إذا ابتسم الحق، وانتصر الصدق، وفلج أحدهما بحجته، ولحن بينته، أقر

الواجب في نصابه، وأداله من جنود الظلم وأحزابه؛ وأمضى الحكم فيه باعتزام صادق، ورأي محصد الوثائق؛ غير ملتفت إلى مراجعة الخصوم وتشاجرهم، وشكواهم وتنافرهم، اعتماداً للواجب، وانتهاجاً لجدد العدل اللأجب. قال الله تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾.

وأمره إذا انتدب للقضاء أن يفرغ باله، ويقضي أمامه أوطاره وأشغاله؛ ويخلى من أحوال الدنيا سره، ويشرح لما هو بصده صدره؛ فلا تنزع نفسه إلى تحصيل مأرب، ولا تتطلع إلى درك مطلب، فإن القلب إذا اكتفتته شجونه، وأحاطت به شؤونه، كان عرضة لتشعب أفكاره، وحمله على مركب اضطراره الجاري بضد إشارة واختياره، حرياً بالنقصير عن الفهم والإفهام، والضجر عند مشتجر الخصام.

وأمره بالثبوت في الحدود، والاستظهار عند إقامتها بمن يسكن إلى قوله من الشهود، والاحتياط من عجل يحيل الحكم عن بيانه، أو ريث يرجيه عند وضوحه وتبينه؛ وأن يتجافى عما لم يُصرح له بذكره وشرحه، ولا يُسرع إلى تصديق ساع وإن تشبه بالناصحين في نصحه؛ حتى يستبين له الحق فيمضيه، عاملاً بما يوجبه حكم الله فيه، وأن يدرأ من الحدود ما اعترضت الشبهة دليله، وكانت شواهد مدخوله؛ ويقيم منها ما قامت شهوده، ولم يمكن إنكاره وجحوده؛ قال الله تعالى: مكبراً لتجافياها، ومعظماً للتجاوز فيها: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

وأمره بتصفح أحوال الشهود المعدلين، المسموعة أقوالهم في أمور المسلمين وأحوال الدين؛ ومواصلة البحث عن طرائقهم، واستشفاف خلائقهم، مستخدماً في ذلك سره وجهره، وواصلاً بعوان دأبه فيه بكره؛ فمن علمه سليماً في فعله، غير ظنين في أصله، متحرراً في كسبه، مرضياً في مذهبه، حافظاً لكتاب الله سبحانه، متمسكاً من علم الشريعة بما يلوي عن مهاوي الخطأ عنانه، حالياً بالديانة المنيرة المطالع، حامياً نفسه عن الإسفاف إلى دنايا المطاعم، حاوياً من الظلف والأمانة، والقدر والصيانة، والاحتراس والتحفظ، والتحرز والتيقظ، ما تميز به على أشكاله وأترابه، وطال مناكب أمثاله وأضرابه، فقد كلمت صفاته، واقتضت تقديمه أدواته، ووجب أن يمضي كونه عدلاً، ويجعله لقبول الشهادة أهلاً، ومن رآه عن هذه الخلال مقصراً،

وبعضها مستظهاً، وكان موسوماً بديانة مشكورة، ونزاهة مأتورة، رضي بذلك منه قانعاً، وحكم بقوله سامعاً. ومن كان عن هذين الفريقين نائياً، ولأحوالهم المبيّن ذكرها نافياً، ألغى قوله مُطرحاً، وردّ شهادته مصرّحاً، فإنّ هؤلاء الشهود أعوان الحق على انتصاره، وحرب الباطل على تنبيره وبقاره، ومحجّة الحاكم إلى قضائه، ووزره الذي يستند إليه في سائر أحواله، فإذا أعذر في ارتيادهم، واستفرغ وسعه في انتقادهم، فقد خرج من عهدة الاجتهاد، واستحقّ من الله جزاء المجتهد يوم التّناد؛ ومتى غرّر في ذلك توجّهت اللائمة عليه، وكان قمناً بنسبة التقصير في الاحتياط إليه؛ والله يتولّى السرائر، ويبلو خفيات الضمائر، قال سبحانه: ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾. وقال جل ذكره: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيَسْأَلُونَ﴾.

وأمره أن يكل أمور اليتامى في أملاكهم وأموالهم، ومراعاة شؤونهم وأحوالهم، إلى الثقات الأعفاء، والكفاة الأتقياء، الذين لا تستهويهم دواعي الطمع، ولا يُوردهم الإسفاف موارد الطبع، وأن يتتبع أمورهم ويتصفّحها، ويشارفها بنفسه ويستوضحها، عالماً أنه عمّا في أيديهم مسؤول، فإنّ عُذره في إهمال يتخلّله غير مقبول، وهو سبحانه يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا﴾.

وأن يوعز إليهم بالإنفاق على أربابها بالمعروف: ليتّهبوا فيها جِدّد القصد المألوف، حتّى إذا بلغوا الحُلْم، وأونس منهم الرُّشد وعُلْم، وساغ لهم التصرف في نفوسهم، ووثق منهم باستدرار معاشهم، دفع إليهم أموالهم محروسة، ووقاهم إيّاها كاملة غير منقوصة، مستظهاً بالشهادة عليهم، والبراءة منها بتسليمها إليهم، أتباعاً لقوله تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾.

وأمره بتزويج الأيامي اللواتي فقدن الأولياء، واعتدى عليهن صرف الدَّهر وأساء، وأضرّ بهنّ طول الإرمال، وبدت عليهنّ آثار الخلة في الحال، فينكحهنّ أكفاءهنّ من الرجال، ويتمّ عقد نكاحهنّ على مهور الأمثال.

وأمره بتفويض أمر الوقوف الجارية في نظره إلى من يأمنه ويختاره، وتقرن

بإعلانه في ارتضائه أسراره، من أهل التجربة والحياء، ذوي الاضطلاع والغناء، فإنهم أقل إلى المطامع تشوّفاً، وأبعد في عواقب الأمور نظراً وتلطفاً، وأن يوسّع عليهم في الأرزاق، فيوصلها إليهم مهنةً عند الوجوب والاستحقاق، فبذلك يملك المرء نفسه ويستصلحها، ويتجنب مواقف التُّهم ويطحرها، وتجب عليه الحجّة إن ثلم أمانة، أو فارق خيانة، مستظهِراً بترتيب المشرفين الذين خبر أحوالهم وسبر أفعالهم.

وأن يتقدّم إلى المستنابين قبله بالإنفاق عليها حسب الحاجة من محصولها، حافظاً بما تعمده من ذلك لأصولها، وجباية ارتفاعها من مظانها، والتماس حقوقها في أوانها، وصرفها في وجوهها التي شرطها واقفوها، وعين عليها أربابها وأهلوها، غير مخلّ مع ذلك بالإشراف والتطلع، ولا مهمل للفحص والتبليغ، فمن ألقاه حميد الأثر، ورضي العيان والخبر، عزل عليه، وفوض مستنمياً إليه، ومن وجده قد مدّ إلى خيانة يده استبدل به وعزله، جزاء بما فعله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَيْمًا﴾.

وأمره أن يستخلف على ما نأى عنه من البلاد من جمع إلى الوقار الحلم، وإلى الدراية الفهم، وإلى التيقظ الاستبصار، وإلى الورع الاستظهار، ممّن لا يضيق بالأمور ذرعاً، ولا تحدث له مراجعة الخصوم ضجراً ولا تبرماً، ولا يتمادى في أسباب الزلّة، ولا يقصّر عن الرجوع إلى الحق إذا اتضح له، ولا يكتفي بأدنى معدلة عن بلوغ أقصاها، ولا تتهافت نفسه على طاعة هواها، ولا يُرجى الأخذ بالحجة عند انكشافها، ولا يعجل بحكم مع اعتراض الشبهة واكتنافها، ولا يستميله إغراء، ولا يزدهيه مدح وإطراء، وأن يعهد بمثل ما عهد أمير المؤمنين إليه، ويعذر في الإجهاد بإيجاب الحجّة عليه: ليرأ من تبعة بادرة عساه يأتيها، أو مزلفة تناديه فيهبّ ملبياً لداعيها، قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

وأمره أن يمضي ما أمضاه الحكماء قبله ولا يتعقّب أحكامهم بتأويل، مجتنباً تتبّع عثراتهم، والبحث عن هفواتهم، ومهما رفع إليه من ذلك مما الإجماع عليه موافق، ولسان الكتاب والسنة به ناطق، أمضاه وحكم به، وإن كان مابيناً لمذهبه، فإن الحكومات كلها ماضية على اختلاف جهاتها، مستمرة على تنافي صفاتها، محمية عن التأويل والتعليل، محروسة من التعيير والتبديل، ما كان لها مخرج في بعض الأقوال، أو وُجد لها عند الفقهاء احتمال، إلا أن يكون الإجماع منعقداً على ضدّها، آخذاً

بالغائها وردّها، فيستفرغ في إيضاها جهده، وينفق في تلافياها من الاستطاعة وجدده، حتّى يعيدها إلى مقرّها من الواجب، ويمضيها على الحقّ للأزب، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ .

وأمره أن تتخذ كاتماً بالظلب موسوماً، وبأدقّ ما يُناط به قشوماً، خبيراً بما يسطره، عالماً بما يذكره، عارفاً بالشروط والسجلات، وما يتوجّه نحوها من البوابات، وتداخلها من الشبه والتليسات، مطّلعاً على أسرارها وعللها، وبتصاريّف حيلها، محرّزاً في كل حال، متنزّهاً عن مذموم الفعال، متّخذاً خشية الله شعاراً، مسلاً دون عصيانه من التقي أستاراً: فإنها نظاماته التي يرجع إليها، وبده التي يبطن بها ويعوّل عليها؛ ومتى لم تكن له من نفسه وازع، ولا من عقله ودينه رادع، لم يؤمن أن تدبّ عقاربه ليلاً، ويسحب على الغوائل والمويقات ذيلاً، فيعمّ الضرر بمكانه، ويشرع أذاه إلى المسلمين حدّ سنانه، وأن يتخيّر حاجباً طاوياً كشحه دون الأشرار، جامعاً لأدب الأخبار، مدّرعاً جلابب الحياء، طلق الوجه عند اللقاء، سهل الجانب ليّنه، مستشعر الخير متيقّنه، غير متجهّم للناس، ولا معاملهم بغير البشاشة والإيناس، فإيه الباب إليه، والمعتمد في لقائه عليه، فليتنخبه انتخاب من علم أن حسن الثناء خير زاد. وأنفس ذخر وعتاد، ورأي طيب المحمّدة أجمل كسب مراد، وحظ مجدّد مستفاد، ومتي كان عن هذه الخلال متخليّاً، وبخلافها متخليّاً، اعتاض عنه بمن هو أسلم غيباً، وأمر ريباً، وأنقى حياء وأقلّ عيباً، قال الله سبحانه: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تُتَّخَذُونَ المُضِلِّينَ عَشُدًّا﴾ .

وأمره أن يتسلّم ديوان القضاء وما فيه من الحجج والسجلات، والوثائق والكفالات، والمحاضر والوكالات، بمحضر من العدول ليكونوا له مشاهدين، وعليه شاهدين؛ وأن يجعل خزائنها من يرتضيه، باجتماع أدوات الخير فيه، عاملاً في حفظها بما نفتضيه الأمانة التي أشفقت السموات والأرض والجبال منها، وأقرن بالعجز عنها؛ متهمرياً من أمر يبيء معه بالآثام، في دار المقام؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأمانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ والأَرْضِ والجبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ .

وأمره بمراعاة أمر الحسبة فإنها أكبر المصالح وأهمها، وأجمعها لنفع الناس وأعمها، وأدعاها إلى تحصين أموالهم، وانتظام أحوالهم، وحسم مواد الفساد وكفّ

يده عن الامتداد؛ وأن يتقدّم إلى المستناب فيها بمداومة الاطلاع على كمّية الأسعار، والفحص عن مادة المخلوقات في الانقطاع والاستمرار، ومواصلة الجلوس في أماكن الأقوات ومطابقتها: ليكون تسعيرها بمقتضى زيادتها ونقصانها، غير خارج في ذلك عن حدّ الاعتدال، ولا مائل إلى ما يجحف بالفريقتين من إكثار وإقلال، وأن يراعي عيار المكييل والموازن، ليميز ذوي الصّحة من المطفّفين، فيقول لمن حسن اعتباره مرحى ويقابل من ساء اختباره بما يجعله لأمتاله رادعاً، حتى يزنوا بالقسطاس المستقيم، ويتجنبوا التطفيف بقلب من إضمار المعاودة سليم، قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوا لَهُمْ أَوْ وَزَنُوا لَهُمْ يُخْسِرُونَ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

هذا عهد أمير المؤمنين إليك، وحجّته عند الله تعالى عليك، وقفك فيه على منهج الصّلاح، وأعلقك منه إن أتبعته بأسباب النّجاح، وأدرّ به عليك خلف السّعادة إلى أمريته بيد القبول، وجمع لك مع احتذائه بدائد المأمول، وعطف لديك متى تمثّلت شوارد السّول، وأوجدك ضالّة متاعك إن أصغيت إليه سامعاً مطيعاً، وأعاد إن ائتمرت بأوامره شمل أقوالك جميعاً، وأرادك مرعى النّجاة إن نهضت بأعبائه مريعاً، لم يدّخر في شفيفاً، ولا حقرك إرشاداً وتعريفاً، خلع به ربة الأمانة عن عنق اجتهاده، وأوضح لك ما يُسأل غداً عن فعله واعتماده.

فبادر إلى العمل به مسرعاً، وقمّ بالمحدود فيه مضطلعاً، واعلم أن لكل عالم هفوة، ولكل جواد كبوة، فاغضض عن مطامح الهوى طرفك، واثن عن أضاليل الدنيا الغزارة عطفك، واحش موقفاً تشخص فيه الأبصار، وتعدم الأعوان والأنصار، يوم ينظر المرء ما قدّمت يده، وتنقطع الوسائل إلا ممّن أطاع الله واتّقاها، ينعم عوفك، ويأمن يوم القيامة خوفك، ومهما عرض لك من شبهة لم تلف مخرجاً منها، ولا صدار عنها، ولا وجدت لسقمها هناء، ولدائها شفاء، فطالع حضرة أمير المؤمنين بحالها مستعلماً، وإنهها إليه مستفتحاً باستدعاء الجواب عما أصبح لديك مستغلقاً مبهماً، يمددك منه بما يريك صبح الحق منبلجاً، وضيق الشكّ منفرجاً، عن علم عنده البحر كالقياس، إلى أوशल الناس؛ والله تعالى يعضد آراء أمير المؤمنين بالصواب، ويمده بالتوفيق في سائر الأراب؛ ويقود لمراده أزمة جوامحها الصعاب، ما أنجم سحاب، وأثجم رباب، بمنّه وسعة فضله.

وهذه نسخة عهد بقضاء القضاة في مدينة السلام وجميع البلاد والأعمال والنواحي والأمصار، شرقاً وغرباً^(١)، كُتِبَ به عن الإمام الناصر لدين الله أحمد، للقاضي محيي الدين أبي عبدالله محمد بن فضلان:

هذا ما عهد به عبدالله وخليفته في العالمين، المفترض الطاعة على الخلق أجمعين، أبو العباس أحمد الناصر لدين الله أمير المؤمنين، إلى محمد بن يحيى بن فضلان: حين سبر خلاله واستقراها، واعتبر طرائقه واستبراها، فالفاه رشيداً في مذاهبه، سديداً في أفعاله وضرائبه، موسوماً بالرّصانة، حالياً بالورع والديانة، مبرز من العلوم في فنونها، عالماً بمفروض الشريعة المطهّرة ومسنونها، مدرعاً ملابس العفاف، قد أناف على أمثاله في بوارع الأوصاف، فقلّده قضاء القضاة في مدينة السلام وجميع البلاد والأعمال، والنواحي والأمصار: شرقاً وغرباً، وبعداً وقرباً، سكوناً إلى ما علم من حاله، واضطلاعه بالنهضة المنوطة به واستقلاله، وزكونا إلى قيامه بالواجب فيما أسند إليه، ونهوضه بعبء ما عوّل في حفظ قوانينه عليه؛ واستنامة إلى حلول الاصطناع عنده، ومصادفته منه مكاناً تبوّأه بالاستحقاق وحده؛ والله تعالى يعضد آراء أمير المؤمنين بمزيد التوفيق في جميع الأمور، ويحسن له الخيرة فيما يؤمّه من منازم الدين وصلاح الجمهور، وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكّل وإليه ينيب.

أمره بتقوى الله تعالى في إعلانه وإسراره، وتقمّص شعارها في إظهار أمره وإضماره؛ فإنها العروة الوثقى، والدُّخر الأبقى، والسعادة التي ما دونها فوز ولا فوقها مرقى؛ وهي حلية الأبرار، وسيما الأخيار، والمنهج الواضح، والمتجر الربح، والسبيل المؤدّي إلى النجاة والخلص، يوم لا وزر ولا ت حين مناص. وأنفع العدد والذخائر، وخير العتاد يوم تنشر الصحف وتبلى السرائر، يوم تشخص الأبصار، وتعدم الأنصار: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ سَرَّابِلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾. ولا ينجو من عذاب الله يومئذ إلا من كان زاده التقوى، وندسك منها بالسبب الأقوى، قال الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

(١) الفلقشندي: صبح الأعشى ج ١٠ ص ٢٨٦ - ٢٩١.

وأمره أن يجعل كتاب الله إماماً يهتدي بناره، ويستصبح بياهر أنواره، ويستضيء في ظلم المشكلات بمنير مصباحه، ويقف عند حدود محظوره ومباحه، ويتخذة منالاً يحتديه، ودليلاً يتبع أنره فيهديه، ويعمل به في قضايا وأحكامه، ويقتي بأوامره في نقضه وإبرامه؛ فإنه دليل الهدى ورائده، وسائق النجع وقائده، ومعدن العلم ومنبعه، ومنجم الرشد ومطلعه، وأحد الثقبين اللذين خلفهما رسول الله ﷺ في الأمة، والذكر الذي جعله الله تعالى تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة، فقال عز من قائل ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

وأمره بانتزاع الآثار النبوية صلوات الله على صاحبها وسلامه، والاهتداء بشمولها التي تتجلى بها دجنة كل مشكل وظلامه، والافتداء بسنة الشريعة النبوية، وتصفح الأخبار المسموعة، والعمل منها بما قامت أدلة صحته من جميع جهاته، واستحكمت الثقة بنقلته عنه - عليه السلام - ورواته؛ وسلمت أسانيده من قدح، ورجاله من ظنة وجرح، فإنها التالية للقرآن المجيد في وجوب العمل بأوامره، والانتهاج بروادعه وزواجره؛ وهو عليه الصلاة والسلام الصادق الأمين الذي ما ضل وما غوي، وما ينطق عن الهوى، وقد قرن الله سبحانه طاعته بطاعته، والعمل بكتابه والأخذ بسنته، فقال عز من قائل: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

وأمره بمجالسة العلماء، ومباحثة الفقهاء، ومشاركتهم في الأمور المشكلة، وعوارض الحكومات المعضلة، لتستبين سبيل الصواب، ويعرى الحكم من ملابس الشبه والارتباب؛ ويخلص من خطر الانفراد، وغوائل الاستبداد، فالمشورة باليمن مقرونة، والسلامة في مطلوبها مضمونة، وقد أمر الله تعالى بها نبيه ﷺ مع شرف منزلته وكمال عصمته، وتأيدته بوجيه وملائكته؛ فقال سبحانه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

وأمره بفتح بابه، ورفع حجابيه، وأن وأن يجلس الخصوم جلوساً عاماً، وينظر في أمورهم نظراً حسناً تاماً، مساوياً بينهم في نظره ولحظه، وإصغائه ولفظه، محترزاً من ذي اللسن وجرأة جنانه، متأنياً بذى الحصر عند إقامة برهانه، فربما كان أحد

الخصمين ألحن بحجته، والآخر ضعيفاً عن مقاومته، هذا مقام الفحص والاستفهام، والثبوت وإمضاء الأحكام: ليسلم من خديعة محتال، وكيد مغتال، مائلاً في جميع ذلك مع الواجب، سالكاً طريق العدل اللأحِب؛ غير فارق في إمضاء الحكم بين القوي والضعيف، والمشروف والشريف، والمالك والمملوك، والغني والصُّعلوك، قال الله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

وأمره أن يتصفح أحوال الشهود، المسموعة أقوالهم في الحقوق والحُدود، المرجوع إلى أمانتهم، المعمول بشهادتهم؛ الذين بهم تقام الحجج وتدحض، وتبرم الأحكام وتنقض؛ وتثبت الدعاوي وتبطل، وتُتمضي القضايا وتسجل؛ مجتهداً في البحث عن طرائقهم وأحوالهم، وانتقاد تصاريقهم وأفعالهم، وأستشفاف سجاياهم؛ وعرفان مزاياهم؛ مخصصاً بالتمييز من كان حميد الخلال، مرضي الفاعل؛ راجعاً إلى ورع ودين، متمسكاً من الأمانة والنزاهة بالسبب المتين، قال الله تعالى: «وأشهدوا ذوي عدل منكم».

وأمره بالنظر في أمور اليتامى وأموالهم، ومراعاة شؤونهم وأحوالهم؛ وأن يرتب سبب اتساق مصالحهم الثقات الأعفاء، والأمانة الأتقياء؛ ممن ظهرت ديانتهم وحسنت سيريرتهم؛ وأشتهر بالظلف والعفاف، والتنزه عن الطمع والإسفاف؛ ويأمرهم بحفظها من خلل يتخللها، ويد خائفة تدخلها؛ وليكن عليهم حديبا، وفي فرط الحنو أبا؛ وخلفا من آباءهم في الإشفاق عليهم، وحسن الالتفات إليهم؛ فإنه عنهم مسؤول، والعدو عند الله تعالى في إهمالهم غير مقبول؛ وأن يأذن لهم في الإنفاق عليهم بالمعروف من غير إسراف ولا تقتير، ولا تضيق ولا تبذير؛ فإذا بلغ أحدُهم النكاح، وأنس منه امارات الرشد والصلاح، دفع ماله إليه، وأشهد بقبضه عليه؛ على الوجه المنصوص، غير منقوص ولا منغوص؛ ممثلاً أمر الله تعالى في قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾.

وأمره بتزويج الأيتامى اللواتي لا أولياء لهن من أكفائهن، بمهور أمثالهن؛ وأن يشمل ذوات الغنى والفقير منهن بعدله، ويتحرى لهن المصلحة في عقده وحله.

وأمره أن يستنيب فيما بعدعنه من البلاد ودنا، وقرب منه ونأى، كل ذي علم

واستبصار، وتيقظ في الحكم واستظهار؛ ونزاهة شائعة، وأوصاف لادوات الاستحقاق جامعة؛ ممن يتحقق نهوضه بذلك واضطلاعه، ويأمن استزلاله وانخداعه؛ وان يعهد إليهم في ذلك بمثل ما عهد اليه ولا يأتوهم تنبيهاً وتذكيراً، وإرشاداً وتبصيراً؛ قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالتَّعَدَاوِينَ﴾ .

وأمره بامضاء ما أمضاه قبله الحكام، من القضايا والأحكام؛ غير متعقب أحكامهم بنقض ولا تبديل، ولا تغيير ولا تأويل؛ إذا كانت جائزة في بعض الأقوال، ممضأة على وجه من وجوه الاحتمال؛ غير خارقة للاجماع، عارية من ملابس الابتداع؛ وإن كان ذلك منافياً لمذهبه، فقد سبق حكم الحاكم به؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ .

وأمره أن يتخذ كاتباً قيماً بشروط القضايا والسجلات، عارفاً بما يتطرق نحوه من الشبه والتأويلات، ويتداخلها من النقص والتلبسات؛ متحرزاً في كل حال، متنزهاً عن ذميم الأفعال. وأن يتخير حاجباً نقي الجيب، مأمون المشهد والغيب؛ مستشعراً للتقوى، في السر والنجوى، سالخاً للطريقة المثلى؛ غير متجهم للناس، ولا معتمد ما ينافي بسط الوجه لهم والإيناس؛ فإنه وصلتهم اليه، ووجهه المشهود قبل الدخول عليه؛ فلينتخبه من بين أصحابه، وممن يرتضيه من أمثاله وأضرابه.

وأمره بتسلم ديوان القضاء والحكم، والاستظهار على ما في خزائنه بالإثبات والختم؛ والاحتياط على ما به من المال والسجلات، والحجج والمحاضر والوكالات؛ والقبوض والوثائق والاثبات والكفالات، بمحضر من العدول الامناء الثقات؛ وأن يرتب لذلك خزاناً يؤدي الامانة فيه، ويتوخى ما توجهه الديانة وتقتضيه.

وأمره بمراعاة أمر الحسبة؛ فإنها من أكبر المصالح وأهمها، واجمعها لمنافع الخلق واعمها؛ وادعائها الى تحصين أموالهم، وانتظام احوالهم؛ وأن يأمر المستناب فيها باعتبار سائر المبيعات فيها؛ من الأقوات وغيرها في عامة الأوقات؛ وتحقيق أسباب الزيادة والنقصان في الأسعار، والتصدي لذلك على الدوام والاستمرار؛ وأن يجري الأمر فيها بحسب ما تقتضيه الحال الحاضرة، والموجبات الشائعة الظاهرة؛ واعتبار الموازين والمكاييل، وإعادة الزائد والناقص منها إلى التسوية والتعديل؛ فإن اطلع لأحد من المتعاملين على خيانة في ذلك وفعل ذميم، أو تطفيف عدل فيه عن الوزن بالقسطاس المستقيم، أناله من التأديب، وأسباب التهذيب، ما يكون له رادعاً،

ولغيره زاجراً وازعاً؛ قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

وهذا عهد أمير المؤمنين إليك، وحجته عند الله تعالى عليك؛ قد أولاك من صنوف النعم والآلاء، وجزيل الكرم والحباء؛ ما يوجب عليك الاعتراف بقدره، واستيزاع شكره؛ ووقف بك على محجة الرشاد، وهداك إلى منهج الحق وسنن السداد؛ ولم يالك تثقيفاً وتبصيراً، وتنبهياً وتذكيراً. فتأمل ذلك متدبراً، وقف عند حدود أوامره ونواهيه مستبصراً؛ واعمل به في كل ما تأتيه وتذره، وتورده وتصدره؛ وكن للمخيلة في ارتيادك محققاً، وللمعتقد فيك مصداقاً؛ تفض من خير الدارين بمعلى القداح، وإحماد السرى عند الصباح؛ وحسب أمير المؤمنين الله ونعم الوكيل .

٤ - في القاهرة:

بقيام الدولة الفاطمية، ثم الدولة الأيوبية، كان يتولى أمر القضاء في مصر قاضي قضاة واحد. وبقيام دولة المماليك، ومع حلول سنة ٦٦٣/١٢٦٥، استقر الحال على أربعة قضاة من مذاهب الأئمة الأربعة: الشافعي ومالك وأبي حنيفة وابن حنبل^(١) ذلك أن الظاهر بيبرس رأى تقرير أربعة قضاة من كل مذهب قاض حتى لا تضطرب الأمور بسبب اختلاف المذاهب، وكتب لكل منهم «تقليد» بذلك، ولكنه خصَّ قاضي القضاة الشافعي بالتولية في بلاد الريف دون غيره من القضاة الثلاثة .

وقد رسم المكاتبه إلى القضاة الأربعة بمصر والشافعي خاصة، «المجلس العالي»، أما بقية القضاة: الحنفي والمالكي والحنبلي فرسم المكاتبه إليهم «المجلس السامي»^(٢). وللمقارنة، هذه نسخ عن تقليد قاضي قضاة كل مذهب على حدة:
(أ) تقليد قاضي قضاة الشافعية:

وهذه نسخة تقليد بقضاء القضاة الشافعية، كتب به لتساخي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز، حين استقر أحد القضاة الأربعة بعد انفراده بالسوظيفة سنة

(١) القلقشندي . صحح الأعشى، ج ٤ ص ٣٥ - ٣٦

(٢) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص ١١٥ - ١١٦

القلقشندي: صحح الأعشى، ج ١١ ص ١٧٤ .

١٢٦٥/٦٦٣، وهي من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر^(١) :

الحمد لله مجرد سيف الحق على من اعتدى، وموسع مجاله لمن راح إليه
واغتدى، وموضح طريقه لمن اقتاد واقتدى، ومزين سمائه بنجوم تستمد الأنوار من
شمس الهدى؛ الذي أعذب لشرعة الشريعة المحمدية ينبوعاً، وأقامها أصلاً مد بشمار
الرشد فروعاً.

نحمده على نعمه التي ألزمتنا لتشييد مبانيها شروعاً، ونشهد أن لا إله إلا الله
وحده لا شريك له شهادة نعمر بها من القلوب والأفواه ربوعاً. ونصلي على سيدنا
محمد الذي أرسله الله إلى الخلائق جميعاً، وقام بعبء الأمر يصنع حسناً ويحسن
صنيعاً، صلى الله عليه وعلى آله صلاة لا يبرح برقها ملموعاً، ولا ينفك وترها بالتسليم
مشفوعاً.

وبعد، فإن أحق من جدد له شرف التقريض، وخذ له إرضاء الأحكام وإمضاء
التفويض، وريش جناحه وإن لم يكن المهيض، وفسح مجاله وإن كان الطويل
العريض؛ ورفع قدره على الأقدار، وتقسمت من سحائبه الأنواء ومن أشعته الأنوار،
من غزر مده فجرت منه في رياض الحق الأنهار، وغدا تخشع لتقواه القلوب وتنصت
لقوله الأسماع وترنو لمحياء الأبصار، قد أوفد من إرشاده للأمة لطفاً لطفاً، وأوقد من
علمه جذوة لا تخبو وقبساً بالهوى لا يُطفي، وفات النظراء والنظار فلا يرسل أحدٌ معه
طرفاً ولا يمد إليه من حياته طرقات، واحتوى من علوم الشريعة على ما تفرق في غيره،
وغدا خير دليل إلى الحق فلا يقتدى في المشكلات إلا برأي اجتهاده ولا يهتدى في
المذاهب إلا بسيره؛ وكان لفلك الشريعة المحمدية قطباً، ولجثمانها قلباً ولسوارها
قلباً؛ ولدليلها برهاناً ولإنسانها عيناً ولعينها إنساناً؛ فكم أرضى بني الأنام عن الأيام،
وكم أغضى حياءً مع قدرته على الانتقام؛ وكم أمضى لله حكماً لا انفصال لعروته ولا
انفصام، وكم قضى بالجور في ماله وبالعدل في الأيتام؛ فلو استعداه الليل على النهار
لأنصفه من تعديه، ولم يداجه لما ستره عليه من تعديه في دجاجيه؛ فهو الصادع بما أمر
الله به ولو على نفسه، والمسترد الحقوق الذاهبة من غير محاباة حتى لغده من يومه
وليومه من أمسه.

(١) الفلقنشدي: صبح الأعشى، ج ١١ ص ١٧٥-١٧٧.

ولما كان قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب ممن هو في أحسن هذه السمات قد تصور، وكادت نجوم السماء بأنوازه تتكثر، وتجوهر بالعلوم فأصبح حقيقة هو التاج المجوهر؛ وله مزايا السؤدد التي لا يُشك فيها ولا يُرتاب؛ وسجايا الفضل التي إذا دخل [إليه] غيره من باب واحد دخل هو إليه من عدة أبواب؛ وهو شجرة الأحكام، ومصعد كلم الحكام؛ ومطلع أنجم شرائع الإسلام، ومهبط وحي المقدمات والارتسام، ومجتمع رفاق القضايا في الحلال والحرام، خرج الأمر الشريف بتجديد هذا التقليد الشريف له بقضاء القضاة بالديار المصرية، فليستصحب من الحق ما هو ملبيٌ باسئصحابه، وليستمر على إقامة منار الحق الذي هو موثق عُراه ومؤكد أسبابه، وليحتلب من أخلاف الإنصاف ما حفله اجتهاده ليد احتلابه؛ عالماً بأن كل إضاءة إنارتها من قبسه، وإن اسضاء بها في دياجى المنى، وكل ثمرة من مغترسه، وإن مد إليها يد الاجتنا؛ وكل جدول هو من بحره وإن بسط إليه راحة الاغتراف، وكل منهج هو من جادته وإن ثني إلى سلوكه عنان الانصراف لا الانحراف؛ وهو بحمد الله المجتهد المصيب، والمادة للعناصر وإن كان نصيبه منها أوفر نصيب؛ وسجاياه يتعلم منها، كيف يوصي ويعلم، ومزاياه تقوم الأود، كيف يقوم، والله الموفق بمنه وكرمه!

(ب) تقليد قاضي قضاة المالكية :

وهذه نسخة تقليد بقضاء قضاة المالكية^(١)، لقاضي القضاة جمال الدين يوسف البساطي، وذلك في شهر رجب سنة ١٤٠٢/٨٠٤، وهو:

الحمد لله الذي شذع جلال الإسلام بجماله، وناط أحكامه الشرعية بمن اقترن بحميد مقاله جميل فعاله، وخص مذهب عالم المدينة بخير حاكم ما جرى حديثه الحسن يوماً إلا وكان معدوداً من رجاله، وعندق النظر في أحكامه بأجل عالم لو طلب له في الفضل مثل لعجز الزمان أن يأتي بمثاله .

نحمده على أن أخلف من النبعة الزكية صنواً زاكياً، وأدال من الأخ الصالح أخاً للعلوم شافياً، ولمنصبه العلي ولله الحمد وافيةاً. ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له مجرد سيف الحق على كل مبطل معاند، ومرهف حده القاضب لكل ملحد عن سواء السبيل حائد؛ وأن سيدنا محمداً عبده ورسوله أفضل نبي فاق الأنام بفضله

(١) الفلقشدي . صبح الأعشى ج ١١ ص ١٨١ - ١٨٧ .

وعم البرية بعدله، وسد باب التوبة على متقصه فلم تكن لتقبل توبة مثله، وكان إلى مالك مصيره فلا جرم قضى بإهدار دمه وتحتم قتله؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين ذنوا عن حمى الدين وذاذوا، وسلوكوا سبيل المعدلة إذ حكموا فما ضلوا عن سنن الطريق ولا حادوا؛ صلاةً تبقى بقاء الدهور، ولا تزول بهجة جمالها بتوالي الأعوام والشهور، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد، فإن أولى ما قصر عليه النظر، واستغرقت فيه الفكر وعرا العيون فيه السهر؛ وصرفت إليه الهمم، ورغبت في البراءة من تخلفه الذمم - النظر في أمر منصب الشرع الشريف الذي يأوي الملهوف إلى ظله، ويلجأ المستجير إلى عدله، ويتعلق العفاة بوثيق عروته ومتمين حبله؛ وبرهته يكف الظالم عن ظلمه، وينتصفُ الخصمُ من خصمه، ويُذعن العاصي إلى طاعته وينقادُ الأبى إلى حكمه، ويأتم به الحائرُ في دجى الجهل فيستضيء بنوره ويهتدي بنجمه؛ لا سيما مذهب مالك الذي لم يزل للدين من أهل الإلحاد مثتراً، وللقصاص من أهل العناد مبتدراً، وبسل سيف الحق على الطغاة المتمردين مشتهراً؛ ففاز من سطوات الإرهاب بأرفع المراتب، وعلا رقاب المُلحدين بأهرف القواضب، وخص من سفك دماء المبطلين على البت بما لم يشاركه فيه غيره من المذاهب؛ فوجب أن يختار له من ينص الاختبار على أنه أهل للاختيار، ويقطع المنافس أنه الراجح وزناً عند الاعتبار، وتأخذ مناقبه البسيطة في البسط فلا تنفذ إذا نفذت مناقب غيره المركبة عند الاختصار؛ ويشهد له ضده بالتقدم في الفضل وإن لم تتقدم منه دعوى، ويعترف له بالاستحقاق خصمه فيتمسك من عدم الدافع فيه بالسبب الأقوى، ويحكم له بعلو الرتبة مناوئه فيرتفع الخلافُ وتقطع النجوى، ويسجل له حاسده بثبوت المفاخر المحكوم بصحتها فلا ينقضها حاكم وإن بلغ من تدقيق النظر الغاية القصوى؛ وتنفذ أحكامه في البرية فلا يُوجد لها مخالف، وتحذر شيعة الباطل سطوته فلا يرى الباطل مُخالفاً، وبشتهر عنه من نُصرة الحق ما يَأمن معه المستضعف الخائف، ويتحقق فيه من قيام العدل ما يرتدع به الظالم الخائف؛ ويستوى عنده في لزوم الحق القوى والضعيف؛ ولا يُفرق في لازمه بين المشروف والشريف؛ ولا يميز في حمل الأعباء الشرعية بين الشاق وغيره ولا بين الثقيل والخفيف؛ ولا يجابي قريباً لقرابته، ولا جليلاً لجلالته، ولا ظالماً خوفاً ظلمه ولا ذماً استتالة لاستطالته، ولا يستزله ذو لسن للسنة ولا بليغ لبلاغته، ولا يخالف بين

الصديق الملائف وغيره إلا في منع قبول شهادته .

ولما كان المجلس العالي القاضوي، الكبيريّ، الإماميّ، العالميّ، الصدريّ،
الرئيسيّ، الأوحديّ، العلاميّ، الكامليّ، الفاضليّ، المفيديّ، الفريديّ، الحجيّ،
القدويّ، الخاشعيّ الناسكيّ، الحاكميّ، الجماليّ؛ جمال الإسلام، شرف الأنام،
حاكم الحكام؛ أوحد الأئمة، مفيد الأمة؛ مؤيد الملة، معز السنة؛ شمس الشريعة،
سيف المناظرين، لسان المتكلمين، حكم الملوك والسلاطين، خالصة أمير المؤمنين،
أبو المحاسن «يوسف البساطي» المالكي - أدام الله تعالى نعمته - هو المراد من هذه
الصفات، التي وقعت من محله الكريم موقعها، والمقصود من هذه السمات، التي
ألفت من سيرته الفاضلة موضعها؛ وقارع صفاة هذه الذروة التي ما كان ينبغي لغيره أن
يقرعها؛ وشمس الفضل الحقيقي يمثلها أن لا يتوارى جمالها بحجاب الغروب، وفاضل
مشكلات القضايا إذا اشتد إشكالها وعظمت في فصلها الخطوب، ومتعين الولاية التي
إذا كانت في حق غيره على الإباحة كانت في حقه على الوجوب؛ وقد درب الأحكام
وخبرها، وعرف على التحقيق حالها وخبرها، وورد من مشاربها الرائقة أصفى المناهل
فأحسن وردها وصدورها؛ ونفست جواهر فوائده ففاقت جواهر المعادن، وغطت
محاسن فضله فضائل غيره ولا تنكر المحاسن لـ «يوسف» وهو «أبو المحاسن»، فعُلمه
المدونة بالبيان والتحصيل كافله، ومقدمات تنبيهاته بنتائج النواذر الحسنة متواصلة؛
وتهذيب ألفاظه المنقحة تؤذن بالتحريير، وعيون مسائله المتواردة لا تدخل تحت حصر
ولا تقدير؛ فلوراه «مالك» لقال: ما أعظم هذه الهمة، أو أدركه «ابن القاسم» لوفر من
الثناء عليه قسمه، أو عاصره «ابن عبد الحكم» لحكم له بأن سهمه قد أصاب الغرض
وغيره أطاش الريح سهمه؛ أو عاينه «أشهب» لقال قد ركب هذا الشهباء أتى يلحق، أو
سمع «ابن وهب» كلامه لقطع بأنه هبة ربانية وبمثله لم يسبق؛ أو بلغ «ابن حبيب»
خبره لأحب لقاءه، أو بصر به «سحنون» لتحقق أنه عالم المذهب ما وراءه؛ أو استشعر
بقدمه «ابن سيرين» لبشر به، أو جاوره «ابن عوف» لعاف مجاورة غيره أو مجاورة
طنبه؛ أو جالسه «ابن يونس» لتأنس بمجالسته، أو حاضره «أبو الحسن بن القصار»
لأشجى قلبه بحسن محاضرتة؛ أو جراه «القاضي عبد الوهاب» لقضى بعلو مكانته، أو
اتصل ذكره «بالمازري» لزرى على «مازر» لبعدها عن دار إقامته؛ أو اطلع «القاضي
عياض» على تحقيقاته لاستحسن تلك المدارك، أو ناظره «ابن عبد السلام» لسلم أنه

ليس له في المناظرة نظير ولا في تدقيق البحث مشارك؛ أو مر به «ابن الجلاب» لجلب فوائده إلى بلاده، أو حضره «ابن الحاجب» لتحقق أنه جامع الأمهات على انفراده.

هذا وقد حذف بجلال لا عهد لأحدٍ بمثله، ولا طاقة لفاضل بمقاومة فضله، ولا يسمح الزمان بنظيره من بعده كما لم يسمح به من قبله؛ فاجتمع من جمال الجلال، وجمال الجمال، ما لم يكن ليدخل تحت الإمكان، وعزز عددهما من أعلام الأئمة بثالث ورابع فقام بناءً الذين من المذاهب الأربعة على أربعة أركان؛ ولا عبرة بما يذهب إليه الذاهبون من كراهة التربيع تبعاً للمنجمين في اعتقادهم الفاسد، فقد ورد أن زوايا الحوض على التربيع وذلك فيه أعظم دليل وأقوم شاهد.

وكان مذهب مالك رحمه الله هو المراد من هذه الولاية بالتخصيص، والمجلس الجماليّ المشار إليه هو المقصود بهذا التفويض بالتخصيص، اقتضى حسنُ الرأي الشريف أن نوفي مرتبه السنوية حقها، ونبوء النعم مستحقها، ونملك رقاب المعالي مسترقها، ونقدم على طائفة المالكية من أضحى لهم جمالاً، ونتحفهم بمن أمسى لغزهم كمالاً، ونفوض قضاء مذهبهم إلى من إذا جرى في ميدان حكمه. قالت محاسن قضاياه: هكذا هكذا وإلا فلا لا. ونسند الأحكام الشرعية إلى من هو بها أعرف، ونقفها على من عرف أنه على الحقائق ماضٍ وعند السنة يتوقف، ونعقد أمرها بمن ألف النزاهة فنكرة المطامع عنده لا تتعرف؛ ونكل النظر فيها إلى من أمسى لشروط الاستيجاب جامعاً، ونقدم في ولاية هذا المنصب من شفع له استحقاقه وكفى بالاستحقاق شافعاً.

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لا زال يبسط لأوليائه من بساط الأنس ما كان مطويّاً، ويُبلِّغهم من رغائب الآمال ما كان عنهم في سالف الأزمان مزويّاً - أن يُفوض إليه قضاء قضاة مذهب عالم المدينة، وإمام دار الهجرة، مالك بن أنس الأصبحي: قدس الله تعالى روحه. فليتلق ما فوض إليه بأفضل تلق يلقى بمثله، ويتقبله تقبلاً يناسب رفعة محله، ويتهجج بأجل تفويض لم يسمح بتمنيه لآخر من قبله.

ومن أهم ما نوصيه به، ونوجه القول إليه بسببه؛ تقوى الله تعالى التي هي ملاك الأمر كله، وقوام الدين من أصله؛ والاشتغال عليها في سره وجهره والعمل بها في قوله وفعله، ثم بر الخلق والإحسان إليهم، والتجاوز عنهم إلا فيما أوجبه الشرع من الحقوق عليهم؛ ففي التقوى رضا الله. وفي البر رضا الخلق وناهيك بجمعهما من رتبة

فآخره، إذ لا شك أن من حصل رضا الله ورضا الخلق فقد حصل على خير الدنيا والآخرة؛ ووراء ذلك قاعدة في الوصايا جامعها، وتذكرة لذوي الذكرى نافعه؛ وهي أن يتأمل أحوال غيره تأمل من جعلها لنفسه مثلاً، ولنسجه منوالاً؛ فما استحسنته منها أتى مثله، وما استقبحة تجنب فعله؛ واقفاً في ذلك عند ما وردت به الشريعة المطهرة بنص صريح أو تأويل صحيح، معرضاً عن العقلية المحضنة فلا مجال للعقل في تحسين ولا تقييح.

وأما أدب القضاء الحارثي ذكر مثله في العهود، والنظر في أمر النواب وكتاب الحكم والشهود؛ فهو به أدرب وأدرى، وبمعرفة ذلك لهم وعليهم أحق وأحرى، غير أنا نوصيه بالتثبت في أمر الدماء وعلاقتها، وتحقق حكمها قبل الحكم بإراقتها؛ فإن ذلك لمادة القلق فيها أحسم، ومن تبعاتها في الدارين أسلم؛ والوصايا كثيرة ولكنها منه تستفاد، وعنه تؤخذ وإليه تعاد؛ والله تعالى يتولاه، ويحوطه فيما ولاه، ويدبر عليه هذه النعمة فما فوق منصبه منصب يتمناه؛ والاعتماد... إن شاء الله تعالى.

وكتب لست إن بقيت من شهر رجب الفرد عام أربع وثمانمائة، حسب المرسوم الشريف، بمقتضى الخط الشريف.

وهذه نسخة توقيع بقضاء قضاة المالكية^(١) أيضاً لقاضي القضاة جمال الدين البساطي المذكور عند عودته إلى الوظيفة، في ذي القعدة سنة ١٤٠٥/٨٠٧. وقد وافق عودته عود شيخ الإسلام جلال الدين عبد الرحمن البلقيني إلى قضاء قضاة الشافعية أيضاً، وهي:

الحمد لله الذي أعاد لرتبة القضاء رونق «جمالها» وأسعد جدها بأسعد قران طهرت آثار يمنه بما آثرته من ظهور «جلالها»، وأجاب سؤلها بأجل حاكم لم تعدل عنه يوماً في سؤلها، وأسعد طلبتها بأكمل كفاء لم تنفك عن خطبته وإن أطال في مطالها، وأكرم مآبها بأكرم كافي ما فاتها منال ماضٍ إلا أدركته به في مآلها.

نحمده على أن أعطيت القوس باريتها، واعيدت مياها الاستحقاق إلى مجاريها، وردت الشاردة إلى مالك ألفت منه بالآخرة ما ألفت من خيره في مبادئها.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يخفق بالإخلاص مناطها،

(١) الفلقشندي: صبح الأعشى، ج ١١ ص ١٨٩-١٩٣.

ويزداد مع طول الأمد نشاطها، ولا ينطوي على ممرّ الأيام - إن شاء الله تعالى - بساطها. ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أفضل نبيّ رفع قواعد الدين وشاد، وقام في الله حق القيام فحسم بسيف الشرع مادة الفساد، وأحكم بسد الذرائع سداد الأمور فحرت أحكام تريعته المطهرة على السداد؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين استشق من معدلتهم أطيّب عرف، وخصوا من صفات الكمال بأحسن حلية وأكمل وصف؛ صلاةً توهي عرا الإلحاد، وتفصمها، وتبك أعناق أهل العناد، وتفصمها، وسلم تسليمًا كثيرًا.

وبعد، فلا خفاء في أن الأبصار تتشوف لرؤية الهلال مع قرب الغيبة للأخذ منه نصيبها، والشمس يترقب طلوعها في كل يوم وإن قرب زمان مغيبها، والمسافر يسر بياابه وإن تكرر قدومه من بعيد المسافة وقريبها، والسهران يتطلع من ليلته الطويلة إلى طلوع فجرها، والمناصب السنية تآرز إلى مستحقها كما تآرز الحية إلى حُجرها.

ولما كان المجلس العالي، القاضوي، إلى آخر ألقابه أعزّ الله تعالى أحكامه هو الذي حُمدت في القضاء آثاره، وسارت بحسن السيرة في الآفاق أخباره، وحسن بحس تأتية في الورد والصدر إيراد وإصداره؛ وتنافس في جميل وصفه الطرس والقلم، وظهرت فضائله ظهور نار القرى ليلاً على علم؛ ونشرت الأيام من علومه ما تطوي إليه المراحل، وجادت مواطر فكره بما يخصب به جناب المربع الماحل؛ وعمرت من منصب القضاء بولايته معاهده، وجرت بقضايا الخير في البدء والعود عوائده؛ ونفذت بنفاذ أوامره في الوجود أحكامه، ورقم في صحائف الأيام على توالي الدهور نقضه وإبرامه؛ وسُجل بثبوت أحقيته فانقطعت دون بلوغ شاؤه الأطماع، وحكم بموجب فضله فانعقد على صحة تقدمه الإجماع؛ ففرائد فوائده المدونة تؤذن بالبيان والتحصيل، ومقدمات تنبهاته المحققة، تكفي نتائج إفضالها عن الإجمال والتفصيل؛ وجواهر ألفاظه الرائقة، نعم الذخيرة التي تقتنى، ومدارك معانيه الفائقة، حسبك من ثمرة فكر تجتني؛ وتهذيب إيراداته الواضحة تُغني في إدراكها عن الوسائل، وتحقيق مسائله الدقيقة تحقق فيها أنها عيون المسائل - وكانت وظيفة قضاء قضاة المالكية بالديار المصرية في رفيع رتبها، ووفر حرمتها، قد ألفت إليه مقاليدها، ورفعت بالانتماء إلى مجلسه العالي أسانيدها، وعرفت محله الرفيع فتعلقت منه بأعز منال، وحظيت بجماله اليوسفي المرة بعد الأخرى فقالت: لابراح لي عن هذا

الجمال؛ وعجمت بتكرر العود عوده فأعرضت عن السوى، وقرت بالإياب إليه عيناً «فألقت عصاها واستقر بها النوى» - اقتضى حسن الرأي الشريف أن نعيد الوظيفة المذكورة إليه، ونعول في استكشاف مشكلات الأحكام على ما لديه، إقراراً للأمر في نصابه، ورداً له بعد الشراد إلى مثابه، وإسعافاً للمصعب بطلبته وإن أتعب غيره نفسه في طلابه.

فلذلك رسم بالأمر الشريف، لا زال يبدىء المعروف ويعيده، ويوفر نصيب الأولياء ويزيده، أن يفوض إلى المجلس العالي المشار إليه قضاء القضاة بمذهب عالم المدينة وإمام دار الهجرة «مالك بن أنس الأصبحي» رضي الله عنه، على جاري عادته المتقدمة في ذلك. وأن يضاف إليه تدريس قبة الصالح والأنظار الشاهد بها توقيعه الشريف، وأن لا يقرر أحد في دروس المالكية من مدرس ومعيد إلا بتعيينه، على أتم العوائد وأجملها، وأعم القواعد وأكملها.

فليعد إلى رتبته السنوية برفيع قدره وعلى همته، ويقابل إحساننا بالشكر نتحفه بمزيد الإقبال إذ لا زيادة في العلو على رتبته، ثم أول ما نوصيه به، ونؤكد القول عليه بسببه، تقوى الله التي هي ملاك الأمور كلها، وأولى المفترضات في عقد الأمور وحلها؛ فهي العصمة التي من لجأ إليها نجا، والوقاية التي ليس لمن حاد عنها من لحاق قوارع الله ملتجاً. وتتبع ذلك بالتلويح إلى الاحتياط في المسائل التي تفرّد بها مذهبه الشريف ضيقاً وسعه، واختص بها إمامه الأصبحي دون غيره من الأئمة الأربعة، وهي مسائل قليلة، آثارها في الورى كثيرة جليلة؛ منها سفك دم المنتقص والساب، وتختم قتله على البت وإن تاب؛ فعليه أن يأخذ في ذلك بالاهتمام، ولا يعطي رخصة في حق أحد من الأنبياء والملائكة عليهم السلام، ليكون ذلك وسيلة إلى الخلوص عن القذى، وذريعة إلى سلامة الشرف الرفيع من الأذى؛ إلا أنا نوصيه بالتثبت في الثبوت، وأن لا يعجل بالحكم بإراقة الدم فإنه لا يمكن تداركه بعد أن يفوت؛ ومنها الشهادة على الخط وإحياء ما مات من كتب الأوقاف والأملاك، وتقريب ما شطّ فلا يقبل فيه إلا يقظ الواقف مع تحقّقه دون حدسه، ولا يطلق عنان الشهود فإن الكاتب بما اشتبه عليه خط نفسه؛ ومنها: ثبوت الولاية للأوصياء، فيجريها على اعتقاد. ولكن إذا ظهرت المصلحة في ذلك على وفق مراده؛ ومنها إسقاط غلة الوقف إذا استرد بعد بيعة مدة بقائه في يد المشتري، تحذيراً من الإقدام على بيع الوقف وعقوبة رادعة

لبائعه المجتري . إلى غير ذلك من مسائل الانفراد، وما شاركه فيه غيره من المذاهب لموافقة الاعتقاد، فيمضي الحكم فيه بأقوى العزائم، ويلزم فيها بما استبان له من الحق ولا تأخذه في الله لومة لائم .

وأما غير ذلك من الرصايا الراجعة إلى أدب القضاء فلديه منها الخبر والخبر، ومنه تستملى فوصيته بها كقل التيمر إلى هجر؛ والله تعالى يعامله بلطفه الجميل، ويحفه بالعناية الشاملة في المقام والرحيل؛ إن شاء الله تعالى؛ والاعتماد

(ج) تقليد قاضي قضاة الحنفية :

وهذه نسخة تقليد بقضاء قضاة الحنفية^(١) كتب به لشمس الدين سليمان الحنفي سنة ١٢٦٥/٦٦٣ وهي :

الحمد لله الذي اطلع في أفق الدين الحنيف شمساً منيره، ورفع درجة من جعله من العلم على شريعة ومن الحكم على بصيره؛ وقلد أمور الأمة لمن يعلم أن بين يديه كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، ووفى لفصل القضاء من مشي على قدم أقدم الأئمة فسار في مذهبه المذهب أحسن سيره، الذي ادخر للحكم في أيامنا الشريفة من نفائس العلماء أفضل ذخيره، وقضى بإرجاء أمره لنختار له من تحلى به بعد العطل وكل قضاء خيره، وأيقظ عنايننا لمن رقد الدهر عن فضله فباتت عين الاستحقاق باستقرار رتبته قريره .

نحمده حمد من توافت إليه النعم الغزيرة، وتوالت عليه المنن الكثيرة في المدد اليسيرة، وأخصبت في أيامه رياض الفضائل فهي بكل عالم عدم النظير نصيره؛ وافتتح دولته برفع منار العدل فأمال أهل الظلم عن تعاطيه قاصرة وأيدي أهل الباطل عن الامتداد إليه قصيرة، وخص المناصب في ممالكه بالاكفاء فإذا تلبست بها همم غيرهم عادت خاسنة أو امتدت إليها أبصار من دونهم رجعت حسيرة .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تصلح العلن والسريه، وتصبح بها القلوب موقنة والألسن ناطقة والأصابع مشيرة؛ ونشهد أن محمداً عبده

(١) الفلقشندي : صبح الأعشى ج ١١ ص ١٧٨ - ١٨١

ورسوله الذي بعث الله به الرسل مخبرة وأنزل الكتب بمبعثه بشيره، واجتنباه في خير أمهة من أكرم أرومة وأشرف عشيرة، وأظهر أنوار ملته إلا لمن أعمى الغي بصيرته وهل ينفع العمي شمس الظهيرة؛ وخصه بائمة الذين وفقهم للاستعانة بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة، وجعل علماءهم ورثة الأنبياء فلو ادعيت لأحكامهم العصمة لكانت بذلك جديرة؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تتقرب بدوامها إلى الله فيضاعفها لنا أضعافاً كثيرة، وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد، فإن أولى الأمور بأن تشاد قواعده، وتتعهد معاهده؛ ويعلى مناره، وتفاض بطلوع شمسه أنواره؛ ويحلى به بعد العطل جيده، وينظم في سلك عقود الأمة فريده؛ وتكمل به قوى الدين تكملة الأجساد بقوى الطبائع الأربع، وتعمر به ربوع الملة التي ليس بعدها من مصيف لملة ولا مربع، وتثبت به قوائم الشرع التي ما للباطل في إمالة بعضها من مطمع؛ وتجلي به عن ضاق عليه المجال في بعض المذاهب الغمة، ويستقر به عدد الحكام على عدد الأئمة المستقر على عدد الخلفاء الراشدين من خلفاء الأمة؛ ويمد به على الخلق جناح الرحمة وافر القوادم وارف الظلال، ويجمع به عليهم ما جمع الله في أقوال أئمتهم من الحق وما ذا بعد الحق إلا الضلال، أمر القضاء على مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت رضي الله عنه الذي اشتق الله له من الملة الحنيفية نسبة سرت في الآفاق، وأفاض عليه من مواد القياس الجلي كنوزاً نمت على الإنفاق، وعضد أيامه بولي عهدٍ قولهما حجة فيما تفردا به من الخلاف أو اجتماعاً به من الوفاق؛ وعد من التابعين لقدم عهده، وسمي «سراج الأمة» لإضاءة نوره بهما من بعده.

ولما خلا بانتقال مباشره إلى الله تعالى، توقف مدةً على ارتياد الكفاء، وارتياح من هو أهل الاصطفاء؛ واختيار من تكمل به رفعة قدره، ويعيد لدسته يتصدره على بساط سليمان بهجة صدره؛ ويغدو لسر إمامه بعد إماتة هذه الفترة باعناً، ويصبح وإن كان واحد عصره لأبي يوسف ثانياً ولمحمد بن الحسن ثالثاً، ويُسببه به البلخي زهداً وعلماً، والطحاوي تمسكاً بالسنة وفهماً؛ ويعترف القدوري من بحره، ويعترف الحصري بالحصر عن إحصاء فضله وحصره؛ ويقف من مذهب ابن ثابت، على أثبت قدم، وينتمي من فقه النعمان إلى فرع زاك وأصل ثابت، وينشر من أحكامه ما إن وافق الأئمة فهو حجة قاطعة ومحجة ساطعة؛ أو خالفهم بمذهبه فهو رحمة واسعة، ونعمة

وإن كانت بين الطرق فارقة فإنها على الحق جامعة .

ولما كان فلانٌ هو المنتظر لهذه الرتبة انتظار الشمس بعد الغسق، والمرتبب لبليغ هذه المنزلة التي تقدمت إليها بوادر استحقاقه في السبق، والمعطوف على من وصف من الأئمة وإن تأخر عن زمانه عطف النسق؛ وهو الذي ما دام يعدل دم الشهداء مداد أقلامه، وتضع الملائكة أجنحتها رضاً بما يصنع من نقل خطواته في طلب العلم وسعي أقدامه؛ ودخل من خشية الله تعالى في زمرة من حصر بإنما، وهجر المضاجع في طاعة الله لتحصيل العلم فلو عدت هجعاته لقلما؛ وهجر في إحراز الفضائل فقيده أوابدها، وأحرز شواردها؛ ولجج في بحار المعاني فغاص على جواهرها؛ ونظر نظرةً في نجوم العلوم فاحتوى على زهرها وراد خمائل الفضائل فاستولى على أزهرها؛ وانتهى إليه علم مذهبه فبرز على من سلف، وجارى علماء عصره فوقفت أبصارهم عن رؤية غباره وما وقف، ونحا نحو إمامه فلو قابله يعقوب مع معرفته في بحث لانصرف؛ وتعين عليه القضاء وإن كان فرض كفاية لا فرض عين، وقدمه الترجيح الذي جعل رتبته همزة استفهام ورتبة غيره بين بين؛ اقتضى رأينا الشريف اختصاصه بهذا التمييز، والتنبه على فضله البسيط بهذا اللفظ الوجيز .

فلذلك رسم أن يفوض إليه كيت وكيت . فليتول هذه الرتبة التي أصبح فيها عن رسول الله ﷺ نائباً وبشرعه قائماً، ويتقلدها تقلد من يعلم أنه قد أصبح على حكم الله مقدماً وعلى الله قادماً، ويتثبت تثبت من يعتصم بالله في حكمه فإن أحد الخصمين قد يكون الحن بحجته وإن كان ظالماً، ويلبس لهذا المنصب حلة تمنع المبطل من الإقدام عليه، ووتدفع الظالم عن التناول إلى أمر نزع الشرع من يديه، وتؤمن الحق من امتداد يدي الجور والحيثف إليه؛ وليسو بين الخصمين في مجلسه ولحظه، ويعدل بينهما في إنصاته ولفظه، ليعلم ذو الجاه أنه مساوٍ في الحق لخصمه، مكفوفٌ باستماع حجته عن الطمع في ظلمه؛ ولا ينقض حكماً لم يخالف نصاً ولا سنة ولا إجماعاً، وليشارك فيما لا يجهله من القضايا غيره من العلماء ليتزيد بذلك مع اطلاعه اطلاعاً، وليغتنم في ذلك الاستعانة بأرائهم فإن الله تعالى لا ينتزع هذا العلم انتزاعاً؛ وليسُد مسالك الهوى عن فكره، ويصرف دواعي الغضب لغير الله عن المرور بذكره؛ وليجعل العمل لوجه الله نتيجة علمه، وليحكم بما أراه الله والله يحكم لا معقب لحكمه، إن شاء الله تعالى .

(د) تقليد قاضي قضاة الحنابلة :

وهذه نسخة تقليد بقضاء قضاة الحنابلة^(١) جاء فيها :

الحمدُ لله الذي أطلع في أفق الدِّين القِيَمَ شمساً منيره، ورفع درجة من جعله من العلم على شريعةٍ ومن الحُكْم على بصيرة، وقلد أمور الأمة بمن يعلم أن بين يديه كتاباً لا يُغادر صغيرةً ولا كبيرة، ووفق لفضل القضاء من مشى على قدم إمامه الذي ادخَرَ منه للحكم في أيّامنا الشريفة من نفائس العلماء أفضل ذخيرة، وقضى بإرجاء أمره لنختار له من تحلى به بعد العطل وكل قضاء خيره، وأيقظ عنايتنا لمن رقد الدهر عن فضله فباتت عين الاستحقاق باستقرار رتبته قريوة.

نحمده حمد من توافت إليه النعم الغزيرة، وتوالت عليه المنن الكثيرة في المدد اليسيرة، وأخصبت في أيّامه رياضٌ فهي بكل عالم عدم النظر نضيره، وافتتح دولته برفع منار العدل فأمال أهل الظلم عن تعاطيه قاصرةً وأيدي أهل الباطل عن الامتداد. إليه قصيرة، وخص المناصب في ممالكة بالكفاء فإذا تلبست بها همم غيرهم عادت خاسئة أو امتدت إليها أبصارٌ من دونهم رجعت حسيرة.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تُصلح العلى والسريرة، وتصحح بها القلوب موقنةً والألسن ناطقةً والأصابع مشيرة. ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي بعث الله به الرسل مخبرةً وأنزل الكتب بمبعثه بشيره، واجتبه في خير أمة من أكرم أرومة وأشرف عشيرة، وأظهر أنوار ملته إلا لمن أعمى الغي بصيرته وهل تنفع العمى شمس الظهيرة، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةً تتقرب بدوامها إلى الله فيضاعفها لنا أضعافاً كثيرة، وسلم تسليمًا كثيرًا.

وبعد، فإن أولى الأمور بأن تُشاد قواعده، وتتعهد معاهده؛ ويعلى مناره، وتفاض بطلوع شمسه أنواره؛ وتكمل به قوى الدين تكملة الاجساد بقوى الطباع الأربع، وتعمر به ربوع الملة التي ليس بعدها من مصيف لملة ولا مربع، وثبتت به قوائم الشرع التي ما للباطل في إمالة بعضها من مطمع، أمر القضاء على مذهب الإمام الرباني «أحمد بن حنبل» رضي الله عنه، وكان قد خلا بانتقال مباشره إلى الله تعالى، وتوقف مدة على ارتياد الأكفاء، والإرشاد إلى من هو أهل الاصطفاء؛ واختيار من

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١١ ص ١٩٣ - ١٩٦.

تكمل به رفعة قدره، ويُعيد لدسته على بساط سليمان بهجة صدره.

ولما كان فلان هو المنتظر لهذه الرتبة انتظار الشمس بعد الغسق، والمرقب لبلوغ هذه المنزلة التي تقدمت إليها بوادر استحقاقه في السبق، والمعطوف على الأئمة من أصحاب إمامه - وإن تأخر زمانه - عطف النسق؛ وهو الذي ما زال يعدل دم الشهداء مداد أقلامه، وتضع الملائكة أجنحتها رضاً بما يصنع من نقل خطواته في طلب العلم وسعي أقدامه، ودخل من خشية الله تعالى في زمرة من حصر بإنما، وهجر المضاجع في طاعة الله لتحصيل العلم فلو عدت هجاته لقلما؛ وهجر في إحراز الفضائل فقيدها وأبدها، وأحرز شواردها؛ ولجج في بحار المعاني فغاص على جواهرها، ونظر نظرة في نجوم العلوم فاحتوى على زهرها وزار خمائل الفضائل فاستوى على أزهارها؛ وانتهى إليه علم مذهبه فبرز على من سلف، وجارى علماء عصره فوقفت أبصارهم عن رؤية غباره وما وقف؛ وتعين عليه القضاء وإن كان فرض كفاية لا فرض عين، وقدمه الترجيح الذي جعل رتبته همزة استفهام ورتبة غيره بين بين؛ أقتضى رأينا الشريف اختصاصه بهذا التمييز، والتنبيه على فضله البسيط بهذا اللفظ الوجيز.

فلذلك رسم أن يفوض إليه كيت وكيت. فليتول هذه الرتبة التي أصبح فيها عن رسول الله - ﷺ - نائباً وبشرعه قائماً، ويتقلدها تقلد من يعلم أنه قد أصبح على حكم الله تعالى مقدماً وعلى الله قادماً، ويتثبت تثبت من يعتصم بحبل الله في حكمه فإن أحد الخصمين قد يكون ألحن بحجته وإن كان ظالماً، ويلبس لهذا المنصب حلة تمنع المبطل من الإقدام عليه، وتدفع الظالم عن التطاول إلى أمر نزع الشرع الشريف من يديه، ويؤمن الحق من امتداد يد الجور والحيث إليه؛ وليسويين الخصمين في مجلسه ولحظه، ويعدل بينهما في إنصاته ولفظه، ليعلم ذو الجاه أنه مساو في الحق لخصمه، مكفوف باستماع حجته عن الطمع في ظلمه؛ ولا ينقض حكماً لم يخالف نصاً ولا سنة ولا إجماعاً، وليشارك فيما لا يجهله من القضايا غيره من العلماء ليتزيد بذلك مع اطلاعه اطلاعاً؛ وليغتنم في ذلك الاستعانة بأرائهم: فإن الله تعالى لا ينتزع هذا العلم انتزاعاً؛ وليس مسالك الهوى عن فكره، ويصرف دواعي الغضب لغير الله عن المرور بذكره؛ وليجعل العمل لوجه الله نتيجة علمه، وليحكم بما أراه الله ﷻ والله يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ﴿﴾.

(هـ) وصية جامعة لقاضي قضاة من أي مذهب كان :

كان أعلى القضاة في الرتبة هو الشافعي، ثم يليه الحنفي، ثم المالكي،
فالحنبلي (١).

وفي وصية جامعة تشمل القضاة الأربعة، يمكن أن نستخلص المهمات التي كانوا
يضطلعون بها بشكل عام، والمهمات التي اختص أو انفرد بها كل من القضاة الأربعة،
وهذه نسخة الوصية (٢) :

وهذه الرتبة التي جعل الله إليها منتهى القضايا، وإنهاء الشكايا؛ ولا يكون
صاحبها إلا من العلماء، الذين هم ورثة الأنبياء، ومتولّي الأحكام الشرعية بها كما
ورث عن نبيّ الله ﷺ علمه، كذلك ورث حكمه، وقد أصبح بيده زمام الأحكام،
وفصل القضاء الذي يعرض، بعضه على غيره من الحكام؛ وما منهم إلا من ينقذ نقد
الصيرفي، وينفذ حكمه نفاذ المشرفي؛ فليترو في أحكامه قبل إمضائها، وفي
المحاكمات إليه قبل فصل قضائها، وليراجع الأمر مرة بعد مرة حتى يزول عنه
الالتباس، ويعاود فيه بعد التأمل كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والاجماع والقياس؛ وما
أشكل عليه بعد ذلك فليجل ظلمه بالاستخارة، وليحل مشكله بالاستشارة، ولا ير
نقصباً عليه إذا استشار فقد أمر الله رسوله ﷺ وسلم بالشورى، ومر من أول السلف من
جعلها بينه وبين خطأ الاجتهاد سوراً، فقد يسبح للمرء ما أعيأ غيره وقد أكثر فيه
الدأب، وينفطن السخير لما لم يفطن إليه الكبير كما فطن ابن عمر رضي الله عنهما
للنخلة ما منعه أن يتكلم إلا صغر سنه ولزوماً مع من هو أكبر منه للأدب، ثم إذا وضح
له الحق قضى به لمستحقه، وسجل له به وأشهد على نفسه بثبوت حقه، وحكم له به
حكماً يسره يوم القيامة أن يراه، وإذا كتب له به، ذكر بخير إذا بلي وبقي الدهر ما
كتبت يده. وليسو بين الخصوم حتى في تقسيم النظر، وليجعل كل عمله على الحق
فيما أباح وما حظر؛ وليجد النظر في أمر الشهود حتى لا يدخل عليه زيف، وليتحرر في
استيلاء الشهادات قرب قاضٍ ذبح بغير سكين وشاهد قتل بغير سيف، ولا يقبل منهم
إلا من عرف بالعدالة، وألف منه أن يرى أوامر النفس أشد له؛ وغير هؤلاء ممن لم تجر

(١) الفلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ١٩٢.

(٢) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف ص ١١٦-١١٧.

الفلقشندي: صبح الأعشى ج ١١ ص ١٩٦-٢٠٣.

له بالشهادة عادة، ولا تصدى للأرتزاق بسحتها ومات وهو حي على الشهادة، فليقبل منهم من لا يكون في قبول مثله ملامة، فرب عدل بين منطقة وسيف وفاسق في فرجية وعماه؛ ولينقب على ما يصدر من العقود التي يؤسس أكثرها على شفا جرف هار، ويوقع في مثل السفاح إلا أن الحدود تدرأ بالشبهات ويبقى العار؛ وشهود القيمة الذين يقطع بقولهم في حق كل مستحق ومال كل يتيم، ويقلد شهاداتهم على كل أمر عظيم؛ فلا يعول منهم إلا على كل رب مال عارف لا تخفى عليه القيم، ولا يخاف معه خطأ الحدس وقد صقل التجريب مرآة فهمه على طول القدم. وليتأن في ذلك كله أناة لا تقضي بإضاعة الحق، ولا إلى المطاولة التي تفضي إلى ملل من استحق. وليمهد لرمسه، ولا يتعلل بأن القاضي أسير الشهود وهو كذلك وإنما يسعى لخلص نفسه. والوكلاء هم البلاء المبرم، والشياطين المسؤولون لمن توكّلوا له الباطل ليُقضَى لهم به وإنما تقطع من جهنم، فليكف بمهابته وساوس أفكارهم، ومساوي فجأهم؛ ولا يدع لمجنى أحد منهم ثمرة إلا ممنوعة، ولا يد اعتداء تمتد إلا مغلولة إلى عنقه أو مقطوعة. وليطهر بابه من دنس الرسل الذين يمشون على غير الطريق، وإذا رأى واحد منهم درساً ودّ لو حصل في يده ووقع في نار الحريق؛ وغير هذا مما لا يحتاج به مثله أن يوصى، ولا أن يحصى عليه منه أفراد عمله وهو لا يحصى، ومنها النظر في أمور أوقاف أهل مذهبه نظر العموم، فليعمرها بجميل نظره فربّ نظرة أنفع من مواقع الغيوم، وليأخذ بقلوب طائفته الذين خصّ من بينهم بالتقديم، وتفاوت بعد ما بينه وبينهم حتى صار يزيل عارض الرجل منهم النظرة [منه] ويأسو جراحه منه التكليم. وهذه الوصايا إنما ذكرت على سبيل الذكرى، وفيه - بحمد الله - أضعافها ولهذا وليناه والحمد لله شكراً؛ وقد جعلنا له أن يستنيب من يكون بمثل أوصافه أو قريباً من هذه المثابة، ومن يرضى له أن يحمل عنه الكلّ ويقاسمه ثوابه، وتقوى الله تعالى هي جماع الخير ولا سيّما لصاحب هذه الوظيفة، ولمن وليها أصلاً وفرعاً لا يستغني عنها ربّ حكم مطلق التصرف ولا خليفة.

ويُزاد الشافعي :

وليعلم أنه صدر المجلس، وأنه أدنى القوم وإن كانوا أشباهه منا حيث نجلس، وأنه ذو الطيلسان الذي يخضع له ربُّ كلِّ سيف وبيلس؛ وليتحقق أنه إنما رفعه علمه وتقاه، وأن سبب دينه لا دنياه هو الذي رقاها؛ فليقدر حق هذه النعم، وليقف عند حدّ منصبه الذي يودّ لو اشترى سواد مداده بحمر النعم.

ويقال في وصيته : وأمر دعاوي بيت المال المعمور، ومحاكماته التي فيها حق كل فرد فرد من الجمهور، فليحتزر في قضاياها غاية الاحتراز، وليعمل بما يقتضيه بها الحق من الصيانة والإحراز؛ ولا يقبل فيها كل بينة للوكيل عن المسلمين فيها مدفع، ولا يعمل فيها بمسألة ضعيفة يظن أنها ما تضر عند الله فإنها ما تنفع؛ وله حقوق فلا يجد من يسعى في تملك شيء منها بالباطل منه إلا اليأس، ولا يلتفت إلى من رخص لنفسه وقال : هو مال السلطان فإنه مالنا فيه إلا ما لواحد من الناس. وأموال الأيتام الذين حذر الله من أكل مالهم إلا بالمعروف لا بالشبهات، وقد مات آباؤهم ومنهم صغار لا يهتدون إلى غير الثدي للرضاع ومنهم حمل في بطون الأمهات؛ فليأمر المتحدثين لهم بالإحسان إليهم، وليعرفهم بأنهم سيجزون في بنيتهم بمثل ما يعملون معهم إذا ماتوا وتركوا ما في أيديهم، وليحذر منهم من لا ولد له: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾. وليقص عليهم في مثل ذلك أبناء من سلف تذكيراً، وليلت عليهم القرآن ويذكرهم بقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا﴾. والصدقات الموكولة إلى تصريف قلمه، المأكولة بعدم أمانة المباشرين وهي في ذممه، يتيقظ لإجرائها على السداد في صرفها في وجوه استحقاقها، والعمل بما لا يجب سواه في أخذها وإنفاقها. والمسائل التي تفرّد بها مذهبه وترجّح عنده بها العمل، وأعدّها عنها الجواب لله إذا سأل، لا يعمل فيها بمرجوح إلا إذا كان نصّ مذهب إمامه أو عليه أكثر الأصحاب. ورآه قد حكم به أهل العلم ممن تقدمه لرجحانه عنده وللأستصحاب. ونواب البر لا يقلد منهم إلا من تحقّق استحقاقه، فإنه إنما يوليّه على المسلمين لا علم لأكثرهم فهم إلى ذي العلم أشد فاقة؛ هذا إلى ما يتعرّف من ديانتهم ومن عفافهم الذي يتجرّع المرء منهم به مرارة الصبر من الفاقة وهو به يتحلّى، ثم لا يزال له عين عليهم فإن الرجال كالصناديق المقفلة لا يعرف الرجل ما هو حتى يتولى.

ويزاد الحنفي :

وليعلم أن إمامه أوّل من دوّن الفقه وجمعه، وتقدّم وأسبق العلماء من تبعه، وفي مذهبه ومذاهب أصحابه أقوال في المذهب، ومسائل ما لحقه فيها مالك وهو أوّل أذاها عن طريق مذهبه لتأمن السالكة عليه من عثارها؛ فتعالى الله أن يعرف بكيف، أو يجاوب السائل عنه بهذا إلا بالسيف؛ والانضمام إلى الجماعة والحذر من الإنفرد،

وإقرار آيات الصفات على ما جاءت، عليه من الاعتقاد، وأن الظاهر غير المراد، والخروج بهم إلى النور من الظلماء، وتأويل ما لا بد من تأويله مثل حديث الأمة التي سئلت عن ربها : أين هو فقالت في السماء؛ وإلا ففي البلية بإثبات الجهة ما فيها من الكوارث، ويلزم منها الحدوث والله سبحانه وتعالى قديم ليس بحادث ولا محلاً للحوادث؛ وكذلك القول في القرآن ونحن نحذّر من تكلم فيه بصوت أو حرف، فما جزاء من قال بالصوت إلا سوط وبالحد، فإلا حنّف؛ ثم بعد هذا الذي يزرع به الجهال، ويرد دون غايته الفكر الجوال، ينظر في أمور مذهبه ويعمل بكل ما صحح نقله عن إمامه وأصحابه : من كان منهم في زمانه ومن تخلف عن أيامه؛ فقد كان رحمه الله إمام حقّ نهض وقد قعد الناس تلك المدّة، وقام نوبة المحنة مقام سيد تيم - رضي الله عنه - نوبة الردّة؛ ولم تهبّ به زعازع المريسي وقد هبت مريساً، ولا ابن أبي دؤاد وقد جمع له كلّ ذود وساق إليه من كل قطر عيساً؛ ولا نكث عهده ما قدم له المأمون في وصيّة أخيه من المواتق. ولا روعه سوط المعتصم وقد صبّ عليه عذابه ولا سيف الواصل.

فليقف على أثره، وليقف بمسنده على مذهبه كلّ أو أكثره، وليقض بمفرداته وما اختاره أصحابه الأخيار، وليقلدهم إذا لم تختلف عليه الأخبار؛ وليحترز لدينه في بيع ما دثر من الأوقاف وصرف ثمنه في مثله، والاستبدال بما فيه المصلحة لأهله، والفسخ على من غاب مدة يسوغ في مثلها الفسخ، وترك زوجة لم يترك لها نفقة وخلأها وهي مع بقائها في زوجيته كالمعلقة؛ وإطلاق سراحها لتتزوج بعد ثبوت الفسخ بشروطه التي يبقى حكمها به حكم المطلقة، وفيما يمنع مضارة الجار، وما يتفرغ على قوله ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار»، وأمر وقف الإنسان على نفسه وإن رآه سوى أهل مذهبه، وطلعت به أهلة علماء لولا هم لما جلا الزمان جنح غيبه؛ وكذلك الجوائح التي يخفف بها عن الضعفاء وإن كان لا يرى بها الإلزام، ولا تجري لديه إلا مجرى المصالحة بدليل الإلتزام؛ وكذلك الدعاملة التي لولا الرخصة عندهم فيها لما أكل أكثر الناس إلا الحرام المحض، ولا أخذ قسم الغلال والمعامل هو الذي يزرع البذور ويحرق الأرض؛ وغير ذلك مما هو من مفرداته التي هي للرفق جامع، والرعايا في أكثر معاشهم وأسبابهم نافعة؛ فإذا استقرت الفروع كانت الأصول لها جامع. وفقهاء ما هبه هم الفقراء لقلّة المحصول رصف الأوقاف، وهم على الرقة كالرماح المعدّة

للثقاف؛ فخذ بخواطرهم، ومدّ آمالهم في غائب وقتهم وحاضرهم، وأشملهم بالإحسان الذي يُرغّبهم، ويقل به طلبهم لوجوه الغنى ويكثر طلبهم.

٥ - في دمشق :

وأسوة بمصر، أصبح لكل مذهب من المذاهب الأربعة قاضي قضاة في دمشق، وذلك منذ سنة ١٢٦٦/٦٦٤.

وهذه نماذج من نسخ عهد التقليد لكل مذهب، كما ذكرها القلقشندي، علماً أنه لم يذكر نسخة المذهب الشافعي :
(أ) تقليد قاضي قضاة المالكية :

هذه نسخة توقيع بقضاء قضاة المالكية^(١) من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي وهي :

الحمد لله جاعل المذاهب الشرعية في أيامنا الشريفة زاخية بأركانها الأربعة، مستقرّة على النظام الذي غدت به قواعد الحجّة محكمة ومواقع الرحمة متّسعة، فإذا خلا ركن من مباشرة أقمنا من تكون القلوب على أولويته مجتمعة، وانتقينا له من الأتقياء من تغدو به الأمة حيث كانت منتفعة، واستدعينا إليه من تغدو الأدعية الصالحة لنا بتفويض الحكم إليه برتفعة؛ الذي خصّ مذهب «إمام دار الهجرة» بكل إمام هجر في التبحر فيه دواعي السكون وبواعث الدعة، وجمل منصب حكمه بمن كمل بعلوم الدين فخره فإذا حكم غدت الأفضية لحكمه منقّدة وإذا قضى أضحت الأحكام لأفضيته متبعة.

نحمده على نعمه التي جعلت مهم الشرع الشريف لدينا كالأستفهام الذي له صدر الكلام، وبمثابة النيّة حتى على تكبيرة الإحرام؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أثبت الإخلاص حكمها، وأحكم الإيمان علمها، وأبقى اليقين على صفحات الوجوه والوجود وسمها المشرق واسمها، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أخذ الله ميثاق النبيين في الإقرار بفضله، وأرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على

(١) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ١٢ ص ٥٣ - ٥٥.

الدين كله»؛ وخصَّه بالكتاب الذي أخرج الأمام عن مجاراته فلو «اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله»؛ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ تَمَسَّكُوا بِسُنَّتِهِ وَسُنَّتِهِ، وَأَوْضَحُوا شَرْعَهُ الشَّرِيفَ لِمَنْ تَلَقَّاهُ بَعْدَهُمْ مِنْ أُمَّةٍ أُمَّةٍ، صَلَاةٌ لَا تَزَالُ بَقَاعَ الْإِيمَانِ لِأَحْكَامِهَا مِنْبَتِهِ، وَأَنْوَاءُ الْإِيْقَانِ لِأَوَامِهَا مَقْلَتِهِ؛ وَسَلِمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

وبعد، فإنه لما كانت الأحكام الشرعية تتوقف على ملاحظة قضاء قضائياتها في غالب الأمور، وتستند إلى مراجعة أصول حكامها في أكثر مصالح الجمهور، لم يكن بُدَّ من مراعاة أصولها التي إنما تنوب الفروع عنها، وتدبر أحوال أحكام حكامها التي تنشأ أفضية النواب منها؛ ولذلك لما أصبح منصب قضاء القضاة على مذهب الإمام «مالك بن أنس» رضي الله عنه بالشام المحروس لضعف مباشره الممتد، في حكم الخالي، وتعطل بعجزه المشتد، مما ألف به قديماً حال حكمه الحالي، وتمادى ذلك إلى أن ترقى الناس منه إلى درجة اليقين؛ وتناهى الحكم فيه إلى أن يعين أن يرتاد من يتعين لمثله من الأئمة المتقين، لثلا يحلو هذا المذهب من قاضي قضاة يقيم مناره، ويدبم أنواره، ويرفع شعاره، ويحيي مآثر إمامه وآثاره، ويؤمن كمال أفقه أن يعاود سراره؛ وكان المجلس السامي، القاضوي، الفخري، هو الذي لا يعدوه الارتياح، ولا يقف دونه الانتقاء والانتقاد، ولا تتجاوز الإصابة في الاجتهاد، لما عليه من علم جعله مخطوباً للمناصب، وعمل تركه مطلوباً للمراتب التي لا تدعن لكل طالب، وتقي أعاده مرتقياً لكل أفق لا يصلح له كل شارق، وورع فتح له أبواب التلقي بالاستدعاء وإن لم تفتح لكل طارق، وقد هجر الكرا في تحصل مذهب «إمام دار الهجرة» إلى أن وصل إلى ما وصل، وأنفق مدة عمره في اقتناء فوائده إلى أن حصل من الثروة بها على ما حصل؛ فسارت فتاويه في الإنفاق، ونمت بركات فوائده التي أنفقها على الطلبة فزكت على الإنفاق - اقتضت آراؤنا الشريفة أن نبقى فخر هذا المنصب الجليل بفخره، وأن نخص هذا المذهب النبيل بذخره؛ وأن نحلى جيده بمن نقلنا إلى وشام الوسام ما كان من حسن شنب العلم مختصاً بثغره.

فرسم بالأمر الشريف، لا زال لأحكام الشرع مقيماً، وللنظر الشريف في عموم مصالح الإسلام وخصوصها مديماً؛ أن يفوض إليه لما تقدّم من تعيينه لذلك، وتبين من أنه لحكم الأولوية بهذه الرتبة في مذهب الإمام مالك.

فليل هذه الوظيفة حاكماً بما أراه الله من مذهبه، مراعيّاً في مباشرتها حق الله في الحكم بين عباده وحقّ منصبه؛ مجتهداً فيما تبرأ به الذمة من الوقوف مع حكم الله في حالتي رضاه وغضبه، واقفاً في صفه القضاء على ما نصرّ فيه من شروطه وأوضح من قواعده وشرح من أدبه، ممضياً حقوق رسول الله ﷺ فيما يقتضيه رأى إمامه، متوجهاً بالحكم بنصوصه المجمع عليها من أئمة مذهبه في نقض كل أمر وإبرامه؛ جارياً في ذلك على قواعد أحكام هذا المذهب الذي كاف مشرقاً في ذلك الأفق بجسماله وزينه، واقفاً في ذلك جميعه مع رضا الله تعالى فإنه في كل ما يأتي ويذر بعينه، والله تعالى يسدده في قوله وعمله، ويبلغه من رضاه نهاية سوله وغاية أمله؛ بمئة وكرمه! إن شاء الله تعالى .

(ب) تقليد قاضي قضاة الحنفية :

وهذه نسخة توقيع بقضاء قضاة الحنفية^(١) بدمشق، من إنشاء القاضي ناصر الدين ابن النشائي، وهي :

الحمد لله الذي جعل منار الشّرع الشريف مستمراً على الدوام، وشمل منصب الحكم العزيز للعالم بعد العالم على ممر الأيام، وأجمل إنتخاب من يقوم بأعباء القضايا، ومن تدوم به مزايا السجايا، فيتخير لذلك الإمام بعد الإمام؛ وأقبل بوجه اجتهائه على وليّ نتأكد بإنصاته وإنصافه إحكام الأحكام، وعدل باعتنائه إلى تعيين من ترتفع به في العلوم أعلام الإعلام، ومن يتأيد به الحق في كل نقض وإبرام .

نحمده على نعمه الوافرة الأقسام، السافرة اللثام عن وجوه الزبادة الوسام، ونشكره على مننه الجسمام، ومواهبه التي لا تبرح ثغور إحسانها لذوي الاستحقاق واضحة الابتسام .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة كفيلة بالمرام، منيلة للإكرام، جميلة التلفظ والالتزام، جزيلة الكنف والاعتصام؛ ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أقام الله به شعائر الإسلام، وأظهر شرائع الدين الحنيف بحسام نصره الحسام، وأورث من أهله من أمته كنوز العلوم التي لا تنفذ فوائدها مع كثرة الإنفاق مدى السنين والأعوام، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين هدوا المؤمنين بإلهام الكلام، وعدوا

(١) القلقشندي: صحح الأعشى - ١١ ص ١٨٧ - ١٨٩ .

على المشركين بسهام الكلام، وأبدوا من إرشادهم إلى خفايا القضايا ما يظهر بتهذيبهم ظهور بدر التمام، صلاة دائمة باقية تجزل لقائلها الأجر التام، وترسل إليه سحائب المواهب هائلة الغمام، وسلّم تسليمًا كثيرًا.

وبعد، فإنّ أولى من تذهب به مذهبه، وتحلّى به محلّ الشرع الشريف ومنصبه، وأنار بنور إرشاده ليل الشك وغيهه، وسهل بتقريبه على فهم الطالب مطلبه، وهمي به وابل العلم وصييه، وأتيح به للمستفيد كنز الفوائد التي يدنو بها أربه، وشيم من برق شيمه بالشام ما وجد في الجود صادقة وفقد خلبه، من علا في العلوم نسبه، وتأكد في الدين سببه، وشيد مبني المعالي معربه، وصقل مرايا الأفهام سهذه، وزاحم منكب الجوزاء في ارتفاع القدر منكبه، وجمل مواكب المباحث في الأصول والفروع موكبه، وسحّت بدقائق الحقائق سحبه، واشتاق إلى قربه موطن الحكم العزيز فما زال يرتقبه، وارتاح الزمان إلى عفافه وإنصافه فأرشد حيث نختاره لذلك وننتخبه.

ولما كان المجلس العالي أيد الله أحكامه هو الذي أرشد الطالبين في البداية، وأفاد المنهين درجات النهائية، وأفهم المستفيدين صواب الهداية، وغدا سابقاً [في] حلبة العلماء إلى أفضى غاية. كم قرّب إلى الأذهان غامض المشكل وأوضح مفهومه، وكم أشاع فرائد فوائده التي طبّقت للأرض بها علومه، وكم أباح لقط ألفاظه المشحونة بالحكم فتحلّى الناس بدررها المنثورة والمنظومة، مع ماله من دين متين، واستحقاق للتقدّم مبين، رسلح بلغ به درجات المتّقين المرتقين، واتباع لسنن الحق في الحكم بين الخاق عن يقين؛ اقتضى حسن الرأي الشريف أن يقرن منصب القضاء بجماله، وأن يعرض عن إمامه المفتود بإمامه الموجود ليستمر الأمر على حاله.

فلذلك رسم لا زالت أئمة العلم الشريف في أيامه يخلف بعضهم بعضاً، وأقدارهم تدوم رفعتها مدى المدد فلا تجد نقصاً ولا نقضاً - أن يفوض

فليباشر ذلك بعلمه المأثور، وحكمه المشهور، وإنصافه الذي يعدل فيه، واتصافه بالحق الذي ما برح يوفيه، قاضياً بين الخصوم بما أمر الله عز وجل، مراقباً لخشية الله على عادته، مديعاً للملة الحنفية أنواع إفادته؛ قاطعاً بنصل نصّه مشكل الإلباس، جامعاً في أحكامه المسدّدة بمقتضى مذهبه بين الكتاب والسنة والقياس.

والوصايا كثيرة وملاكها التقوى وهي مادته، وطريقه المستقيم وجادته؛ وما زالت عمدته التي يعتمد عليها، وعدته التي يستند في إسناد أمره إليها؛ والله تعالى يجمل الأيام بأحكامه، ويبلغه من خير الدنيا والآخرة غاية مراده ومرامه؛ إن شاء الله تعالى.

(ج) تقليد قاضي قضاة الحنابلة :

وهذه نسخة توقيع بقضاء قضاة الحنابلة^(١) كتب بها للقاضي علاء الدين «منجي التنوخي» وهي :

الحمد لله الذي رفع بعلاء الدين قضاء قضائه، وأوضح الهدى في القيام في توليتهم بمفترضاته، وأعلى منار الشرع بما أوقفهم عليه من أحكامه ووقفهم له من مرضاته.

نحمده حمداً نستعيد من بركاته، ونستعيد به أن نضل في ضوء مشكاته، ونستعين إليه برب كل حكم يمدنا قلبه بسكونه وقلمه بحركاته، ويثبت من جميل محضره لدينا ما يرفع مس شكاته، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يستودع إخلاصها في قلوب تقاته، وتفوض أحكامها إلى ثقاته، ويحمي سرحها من أبطال الجلال والجدال بكل مشتاق إلى ملاقاته؛ ونشهد أن محمداً عبده ورسوله أفضل من حكم بما أنزل الله من آياته، وجاهد في الله برأيه ورايائه، وشرع من الدين ما ينجي المتمسك به من غواياته؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه السنين أقام شرعه منهم بكلماته، وجعل حكمهم دائم النفوذ أبداً بأقلام علمائه وسيوف حماته؛ وسلم تسليمًا كثيرًا.

وبعد، فمنصب الحكم الذي به تفصل الأمور، وتنفرج له الصدور، وتتسدد أقلام حكامه سهاماً، وتفيض غماماً، وتتعلم منه الأسود زئيراً، ويطول السيف صليلاً والرمح صريراً؛ وتنتصب بين يدي حكامه الأقدام، وتنتصف على أحكامه الخصام؛ وتنكس الرؤوس لهيبته إطراقاً، وتغض المقل فما تدير جفوناً ولا تغلب أحداً؛ ويجري بتصريفه قلم القضاء، ويجاري مرهفه البروق فتقر له بالمضاء، وقد شيد الله

(١) الفلشندي: صبح الأعشى جـ ١٢ ص ٥٥ - ٥٨

مبانيه في ممالكنا الشريفة مصرأً وشامأً على أربعة أركان، وجمع في قضائه الأئمة الأربعة لتكمل بهم فصول الزمان؛ ومذهب الإمام أبي عبد الله «أحمد بن حنبل» رضي الله عنه هو بالسنة النبوية الطراز المذهب، وطريقة السلف الصالح في كل مذهب، وقد تجنّب من سلف من علمائه التأويل في كثير، ووقف مع الكتاب والسنة وكل منهما هو المصباح المنير.

وكانت دمشق المحروسة هي مدار قطبهم، ومطلع شمسهم ونجومهم وشهبهم؛ وأهلها كثيراً ما يحتاجون إلى حاكم هذا المذهب في غالب عقد كل بيع وإيجار، ومزارعة في غلال ومساقاة في ثمار، ومصلحة في جوائح سماوية لا ضرر فيها ولا ضرار، وتزويج كل مملوك أذن له سيده بحرّة كريمه، واشتراط في عقد بأن تكون المرأة في بلدها مقيمة؛ وفسخ إن غاب زوجها ولم يترك لها نفقة ولا أطلق سراحها، وبيع أوقاف دائرة لا يجد أرباب الوقف نفعاً بها ولا يستطيعون إصلاحها.

فلما استأثر الله بمن كان قد تكمّل هذا المنصب الشريف بشرفه، وتجمّل منه ببقية سلفه؛ حصل الفكر الشريف فيمن نقله هذه الأمانة في عنقه، ونهنيء هذا المنصب بطلوع هلاله في أفقه؛ إلى أن ترجح في آرائنا العالية المرجح المرجى، وتعين واحداً لئلا ابتلي الناس بالقضاء كان المنجي ابن المنجي؛ طالما تطرزت له الفتاوي بالأقلام، والتفت به حلقة إمام، وخاف في طلب العلم من مضايقة الليالي فما نام. اقتضى حسن الرأي الشريف أن يفوض إليه قضاء القضاة بالشام المحروسة على مذهب الإمام الربّاني «أحمد بن حنبل» الشيباني، رضي الله عنه.

فليحكم في ذلك بما أراه الله من علمه، وآتاه من حكمه؛ ويبيئه له من سبل الهدى، وعينه لبصيرته من سنن نبيه ﷺ التي من حاد عنها فقد جار واعتدى، ولينظر في أمور مذهبه ويعمل بكل ما صح نقله عن إمامه، وأصحابه من كان منهم في زمانه ومن تخلف عن أيامه؛ وقد كان - رحمه الله - إمام حقّ نهض وقد قعد الناس تلك المدّة، وقام نوبة المحنة وقام «سيد تيم» رضي الله عنه نوبة الردّة، ولم تهب به زعازع «المريسي» وقد هبت مريسا، ولا «ابن أبي دؤاد» وقد جمع كل ذود وساق له من كل قطر عيسا؛ ولا نكث عهد ما قدم إليه «المأمون» في وصية أخيه من الموائق، ولا روعه صوت «المعتصم» وقد صبّ عليه عذابه ولا سيف «الوائق» فليقف على أثره، وليقف بمسنده على مذهبه كله أو أكثره؛ وليقض بمفرداته وما اختاره أصحابه الأخيار،

وليقلدهم إذا لم تختلف عليه الأخبار؛ وليحترز لدينه في بيع ما دثر من الأوقاف وصرف ثمنه في مثله، والاستبدال بما فيه المصلحة لأهله؛ والفسخ على من غاب مدة يسوغ في مثلها الفسخ وترك زوجة لم يترك لها نفقة، وخلاها مع بقائها في زوجيته كالمعاقبة وإطلاق سراحها للتزوج بعد ثبوت الفسخ بشروطه التي يبقى حكمها به حكم المطلقة؛ وفيما يمنع شأوة الجار، وما تفرغ على قوله ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار». وأمر وقف الإنسان على نفسه وإن رآه سوى أهل مذهبه، وطلعت به أهله علماء لولاهم لما جلا الزمان جنح غيبه. وكذلك الجوانح التي يخفف بها عن الضعفاء وإن كان لا يرى بها الإلزام، ولا تجري المصالحة دليل الالتزام. وكذلك المعاملة التي لولا الرخصة عندهم فيها لما أكل أكثر الناس إلا الحرام المحض، ولا أخذ قسم الغلال والمعامل هو الذي يزرع البذر ويحرث الأرض؛ وغير ذلك مما هو [محيط] بمفرداته التي هي للرفق جامعة، وللرعايا في أكثر معاشهم وأسبابهم نافعة، وإذا استقرت الأصول كانت الفروع لها تابعة؛ والخط الشريف أعلاه، إن شاء الله تعالى.

٦ - في حلب :

وهذا توقيع بقضاء قضاة حلب^(١) كتب به لقاضي القضاة جمال الدين إبراهيم بن أبي جرادة الشهير «بابن العديم» :

الحمد لله الذي رفع مراتب المناصب العلية وكساها من ملابس أهلها حلل الجمال، وجمع شملها فاقترلت بإلفها اقتران النيرين: شمس الضحى وبيت الكمال، ورفع عنها يد المتناول والمتناول فأصبح رقم طرازها الموشى منتسجاً على أحسن منوال، وقطع الأطماع عن إدراك؛ شأوها فلا يصل إليها إلا كُئِّلُ فحلٍ من الرجال.

نحمده على نعمه التي اعترف من اغترف من بحرها الوافر بالخير الكامل والفضل المديد، واقترف من اقتطف ثمار جودها جميل النوال المفيد، وجزيل الإحسان العديد؛ حمداً يوافي ويكافئ مزيده، ويعم بالإنعام الشامل نائله ومريده، ونشكره على مننه التي يقصر لسان الإطناب عن حصرها وتعدادها، وتعجز بنات الفكر عن إدراك وصفها وتردادها، شكراً ينال به العبد رضا المعبود، ويبلغ به من مقاصد الكرم والجود غاية المقصود؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا ضد، ولا

(١) القلقشندي . صبح الأعشى جـ ١٢ ص ٤٣٧ - ٤٤٠ .

والد له ولا ند؛ شهادة تبيض وجه قائلها عند العرض، وينطق بها لسان التوحيد يوم تبدل الأرض غير الأرض؛ ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي أظهر الله به الحق وأعلنه، وبهر بحقائق العقول فاعترف كلُّ بصحة ما عرفه وبيّنه؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين نصر الله بهم الإسلام وأبد أحكامه، وأحكم بهم مباني الإيمان المنيرة وأيد أحكامه؛ صلاة تتعطر بنفحات عرفها أرجاء المدارس، وينادي لسان فضلها لرائد فرائد المعالي على طول المدارس؛ وسلّم ومجد وكرم، وشرف وبجل وعظم.

وبعد، فإن أولى من لحظته عين العناية والقبول، وأجدر من بلغ من مقاصد المناصب العلية غاية القصد والسؤل؛ وأعز من رقى ذرا المعالي وارتقى، وأجل من وصف بالأوصاف الجميلة ونعت بالديانة والتقوى؛ من سارت سيرة فضله في الآفاق، ودل على صفاء السريرة منه حسن الأخلاق؛ واشتهر بالعلوم الجزيلة، والمناقب الجليلة، وعرف في الإنصاف بالأوصاف المحمودة والخصال الجميلة؛ وأظهر من العلوم الشريفة، ما حير العقول، وحقق من المسائل اللطيفة، ما جمع فيه بين المنقول والمعقول؛ ودقق المباحث حتى اعترف بفضله الخاص والعام، وفرق بين الحقيقة والمجاز فلا يحتاج إلى إستعارة إذا تشبه الأخصام، وحكم بما أراه الله فأحكامه مرضية، وقضاياه في الجملة قد أنتجت فهي مقدمة في كل قضية؛ وثابر على إلقاء الدروس في وقتها وأوانها، وفرر كل مسألة في محلها ومكانها، وأفاد طلاب العلم الشريف من فوائده الجمّة، وكشف لهم عن غوامض المباحث فجلا عن القلوب كل غمّة؛ وجال في ميادين الدروس فحير الأبطال، وحاز قصب السبق في حلبة اللقاء فردّ متأسفاً كل بطال، ونظر في أمور الأوقاف بما أراه الله فاتقن بحسن النظر وجه ضبطها، وأجرى أمور الواقفين على القواعد المرضية فوافق المشروط في شرطها، وجمع ما تفرق من شملها فأجمل وفصل، وحفظ أموالها فحصل وأصل؛ فهو الحاكم المشهور بالعدل والمعرفة، والناظر الذي حمدت الأمور تصرفه؛ والإمام الأنام بأقواله وأفعاله، والعالم الذي يحمّد الطالب إليه شد رحاله، والمدرس الذي أفاد بفقّه المفيد النافع، وترفع في البداية والنهاية فهو المختار في المنافع؛ وسلك منهاج الهداية، فنال من العلوم الغاية، فبدائع ألفاظه لعقائد الدّين منظومة، وكنز عرفانه عزيز المطلب ومحاسنه المشتملة على الكمال معلومة.

ولما كان فلان أعز الله تعالى أحكامه، وقرن بالتوفيق والسداد نقضه وإبرامه، هو المشار إليه بالأوصاف والنعوت، والمعول عليه إذا نطق بالفضائل والحاضرون سكوت، والمشكور أثر بيته المشهور، والمنشور علم علمه من السنة والشهور، ياله من بيت لم يزل معموراً بالتقوى والصّلاح، محمياً بأسلحة أهله فمن أحكامهم السيوف ومن أعلامهم الرماح، فهو العديم المثل وبيته العديم، وحرّم فضل يحج إليه الراحل والمقيم، فاستحق أن تقابل مقاصده بالإقبال، ويقابل بما يؤمّله مقابلة مثله ولا كسائر الأمثال.

فلذلك رسم بالأمر الشريف، لا زالت مراسمه المطاعة تقرّ الحق في يد مستحقّه، وتردّ الأمر إلى وليّه ومالك رقه؛ وتسوق هدى الإحسان إلى محله، وتضع الاستحقاق في يد مستحقّه والحق وضع الشيء في محله، أن يستقر... بحكم ظهور الحق بيده المباركة، وخفاء الباطل الذي ليس له في الحق مشاركة، استقراراً مباركاً ميموناً، بالخير والسعد مقروناً؛ لأنه الأحقّ بأمر وظائفه، والطاقف حول حرّمها الممنوع طائفه؛ وأولى من عقلت عليه عقيلته، وردّت إليه فريدته؛ وبأشر بنفسه الكريمة ما عهد إليه سلفه، وأنفرد به فلا يناله - إن شاء الله - إلا خلفه؛ طالما ألفت منه الأوقاف من الشفقة والخير، وحفظ جهاتها المحمية عن تطاول يد الغير؛ ونعم بحسن نظره من المدارس كل دارس، وفازت منه الدروس بالعالم العارف والبطل الممارس.

فليبشر ذلك على ما تقدم له من حسن المباشرة، وليجتهد على عوائده في تحصيل ريعه مثابر على الأجور أشد مثابرة، وليصرف أموال الأوقاف في مصارفها، بعد العماره والتمهير المبدئين في شرط واقفها؛ وليسو - على مقتضى معدلته - بين القوي والضعيف، والشاب الصغير والشيخ النحيف، على قدر تفاوتهم في العلم الشريف، ولبطلق لسانه في إلقاء الدروس على عادته، وليمهد للمشتغلين طريق الفهم لينالوا القصد من إفادته، وهو بحمد الله تعالى أولى من أدى الأمور على الوجه المستقيم، ووفى المناصب حقّها فإن انرفاء جدير به «إبراهيم».

والوصايا كثيرة وإليه مرجوعها، ومن بحار علمه ودينه ينبوعها؛ والله تعالى يؤيد به المناصب، ويرفع بعلوّ رتبته المراتب.

ومما يذكر أن قاضي القضاة «كمال الدين عمر» ابن قاضي القضاة جمال الدين إبراهيم بن أبي جرادة الحنفي، الشهير بابن العديم قد تقلد أيضاً منصب قاضي قضاة حلب وقد أورد له القلقشندي نسخة توقيع بخطابه جامع^(١).

٧- في طرابلس :

وبها أربعة قضاة من المذاهب الأربعة، من كل مذهب قاضي قضاة. وهذه نسخة توقيع بقضاء قضاة الشافعية^(٢) بها، ينسج على منواله تواقع القضاة الثلاثة الباقين، وهي :

الحمد لله الذي أعزّ الدين بعلمائه، وعضد الحكم بالمتقين من أوليائه؛ وأوضح الرشد للمقتدين بمن جعلهم في الهداية كنجوم سمائه، وجعل لكل من الأئمة من مطالع الظهور أفقاً يهتدى فيه بأنواره ويقتدى بأنوائه.

نحمده على أن جعل سهم اجتهادنا في الارتياح للأحكام مصيباً، وقسم لكل من أفقي مما لكنا من بركة علماء قسيمه الآخر نصيباً؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تعصم من الهوى في الحكم لعباده، وتفصم العرا ممن جاهر فيها بعناده، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أضاعت أنوار ملته، فاستشف العلماء لوامعها، ووضحت آثار سنته، فأحرز أئمة الأمة جوامعها؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين دعوا إلى الله فأجابوا، ودعوا إلى الحكم بسنته فأصابوا؛ صلاة لا تزال الألسن تقيمها، والإخلاص يديمها؛ وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد، فإن أولى ما أدّى فيه الاجتهاد جهده، وبلغ فيه الارتياح حدّه؛ واستضيء فيه بنور التوفيق، واستصحب فيه من استخارة الله خير رفيق، أمر الحكم العزيز وتفويضه إلى من وسع الله تعالى مجال علمه، وسدّد مناط حكمه؛ وطهر مرام قلبه، ونور بصره في الحكم وبصيرته فأصبح فيهما على بينة من ربه؛ فأجرى الحق في البحث والفتيا على لسانه ويمينه، ونزّهه عن إرادة العلم لغير وجهه الكريم، ونبّهه على ابتغاء ما عند الله بذلك والله عنده أجر عظيم.

ولما خلا منصب قضاء القضاة بطرابلس المحروسة على مذهب الإمام الشافعي

(١) القلقشندي: صبح الاعشى ج-١٢ ص ٤٤٠ - ٤٤٢.

(٢) المصدر نفسه ج-١٢ ص ١٨٢ - ١٨٤.

رضي الله عنه، وهو المنصب الذي يضيء بالأئمة الأعلام أفضه، وتلتقي بالفضلاء الكرام طرقه؛ وتحتوي على أرباب الفنون المتعددة مجالسه، وتزكو بالفوائد المختلفة مغارسه؛ وكان فلان هو الذي أشير إلى خصائص فضله، ونبه علي أن الاجتهاد للأمة أفضى إلى إسناد الحكم منه إلى أهله؛ وأنه واحد زمانه، وعلامة أوانه؛ وجامع الفضائل على اختلافها، وقامع البدع على افتراق شبهها منه وأتلافها؛ وحاوي الفروع التي لا تتناهى، والمربي على رب كل فضيلة لا يعرف غيرها ولا يالف سواها؛ اقتضت آراؤنا الشريفة أن نجزم من ارتياده لهذه الرتبة بهذا الرأي [السديد]، وأن نقرب سراه إلى هذا المنصب الذي ناداه بلسان الرغبة من مكان بعيد.

فلذلك رسم بالأمر الشريف، لازال إحسانه كالبدر، يملأ المشارق والمغرب، وبره كالبحر، يقذف للقريب الجواهر ويبعث للبعيد السحائب، أن يفوض إليه كذا.

فليطلع بذلك الأفق الذي يترقب طلوعه رقبة أهلة المواسم، ويسرع إلى تلك الرتبة التي تكاد تستطلع أنباءه من الرياح النواسم؛ وينشر بها فرائده التي هي أحق أن تطوي إليها المراحل، ويقدم بها على الأسماع الظامية لعذب فوائده قدوم الغمام على الروض الماحل؛ ويل هذا المنصب الذي هو فيه بين عدل ينشره، وحق يطهره، وباطل يرهقه، وغالب يرهقه، ومظلوم ينصره.

وليكن أمر أموال الأيتام المهم المقدم لديه، وحديث أوقاف البر من أول وأولى ما يصرف فكره الجميل إليه؛ ويتعاهد كشف ذلك بنفسه، ولا يكتفي في علمه فعل اليوم باطلاعه عليه بأمره في أمسه؛ وهو يعلم أن الله يجعله بذلك مشاركا للواقفين في الأجر المختص بهم والشكر المنسوب إليهم، خارجاً من العهدة في أمر اليتامى باستعمال الذين يخشون لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم؛ وليقم منار الحق على ما يجب وإن سر قوماً وساء قوماً، ويقم بالعدل على ما شرع فإن «عدل يوم خير للأرض من أن تمطر أربعين يوماً».

وأما ما عدا ذلك من أحوال الحكم وعوائده، وآداب القضاء وقواعده، فكل ذلك من خصائصه يستفاد، ومن معارفه يستزاد؛ وملاك ذلك كله تقوي الله وهي من أظهر حلاه الحسنة، وأشرف صفاته التي تتداولها الألسنة؛ فليجعلها وسيلة تسديده في القول والعمل، وذخيرة آخرته التي ليس له في غيرها أمل، وبقلد العلي فيما حدثته من أسباب نقلته فإن كمال العز في النقل؛ والله تعالى يمدّه بمواد تأييده وقد فعل، ويجعله

من أوليائه المتقين وقد جعل؛ بمنه وكرمه!، إن شاء الله تعالى .

٨ - في المدينة المنورة:

كان بها قاض واحد شافعي، ثم استقر بها قاضيان آخران، حنفي ومالكي .

وهذه نسخة تقليد بقضاء الشافعية بالمدينة المنورة^(١):

الحمد لله الذي جعل الشرع الشريف دافق السيول، وفي طيبة له الأصول؛ ومنها نشأ وتفرع فله في البسيطة عموم وشمول، وكل قطر به مشمول، وكل ربع به مأهول، وتأكد به المعلوم وتبّد به المجهول، وزالت الشرائع كلها وهو إلى آخر الدهور لا يزول .

نحمده وحمده يطول، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة عمرت بها طلوع، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أشرف رسول، وأكرم مأمول، وأفضل مسؤول، ومهند من سيوف الله مسلول، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الطيبي الفروع والأصول؛ وسلم تسليمًا كثيرًا .

وبعد، فإن الشرع الشريف معدنه في أرض ثوى خير الرسل فيها، ومنشأه في بلد ملائكة الله تحميها؛ فلا يلي أفضية الناس إلا من طالت ذوائب علمه، وأشرقت ثواقب فهمه؛ وبنيت على الأصول قواعد حكمه، وتحلّى بالورع فتجلّى في سماء النجاة كنجمه .

ولما كان فلان هو الذي جذبته السعادة إلى مقرها، وخطبته المغفرة إلى موطن برها، وأهله الأقدار إلى جوار نبي هو خاتم الأنبياء وفتح أمرها؛ وأصبح للحكم في المدينة، مستحقاً لما فيه من سكينه، وتحصيل للعلم ومن حصل العلم كان الله معينه .

فلذلك رسم أن يستقر

فليأشر منصباً جليلاً في محل جليل، وليعلم أن سائر الأمصار تغبطه وتحسده وما لمنصبه من مثل؛ أين يوجد سواه في كل سبيل؟ من قاض هو بسيد المرسلين نزيل، ومن يصبح ويمسي جاراً للمستجير في المحشر الطويل .

فأحكم بين ناس طيبة بورع وتأصيل، وتحريز في تحريم وتحليل، واتق الله في

(١) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ١٢ ص ٢٥٨ - ٢٦٠ .

كل فعل وقيل، واستقم على الحق حذار أن تميل، فصاحب الشرع أنت منه قريب
والنبي من الله قريب وحبيب وخليل، وماذا عسى أن نوصيه وهو بحمد الله تعالى
كالنهار لا يحتاج إلى دليل.

وأما الخطابة فارق درج منبرها، وشئف الأسماع من ألفاظك بدرها؛ وحررماً
تقوله من المواعظ فإن صاحب العظات يسمعك، وتواضع لله فإن الله يرفعك؛ وهذا
المرقى فقد قام فيه النبي الأمي سيد الثقلين، ومن بعده الخليفةان قرأنا العين، ومن
بعدهما عثمان ذوالنورين، وعلي رضي الله عنه أبوالحسنين؛ فاخشع عند المطلع،
واصدع بما ينفع؛ وانظر لما تقوله فإن رسول الله ﷺ هناك يسمع، وقاضي المدينة
وخطيبها يرجو أن ليس للشيطان فيه مطمع، والله تعالى يحوز له الخير ويجمع؛ بمنه
وكرمه! .

الفصل الرابع

مهام قاضي القضاة

بعد تقليد قاضي القضاة، وهو أعلى منصب قضائي، تكثرت المهام الملقاة على عاتقه، فبالرغم من أن مهمته الأساسية تتعلق بالقضاء والقضاة، إلا أن الظروف الإجتماعية أدت إلى زيادة أعبائه فكثرت مهامه غير القضائية. وبذلك يمكن تقسيم مهام قاضي القضاة إلى نوعين: قضائية وغير قضائية.

١ - مهام قضائية:

تحدد المهام القضائية التي يضطلع بها قاضي القضاة في تعيين القضاة وعزلهم ومحاكمة الوزراء والأشخاص الذين يهددون الحكم، وتسطير كتاب بيعة وخلع الخلفاء، وعقد خطبة وزواج الخلفاء والأمراء، وأحياناً الحسبة والنظر في المظالم، فضلاً عن الفتيا.

(أ) تعيين وعزل القضاة:

الخليفة هو الذي يعين قاضي القضاة، الذي يعتبر بمثابة قاضي الدولة كلها، ومن سواه من القضاة في الأقاليم والأمصار نواب عنه، لذلك كانت سلطة قاضي القضاة تسمح له بتعيين القضاة في مختلف المناطق، وعزلهم عند الضرورة^(١). وكان أبو يوسف أول قاضي قضاة يرشح القضاة للتعيين زمن هارون الرشيد^(٢). ثم عهد المأمون إلى قاضي قضاة يحيى بن أكثم بامتحان القضاة الذين يراد توليتهم من وجوه الفقهاء وأهل العلم في بغداد^(٣)، وقد امتحن أحد المرشحين للقضاء فقال له: ما تقول في رجلين زوج كل واحد منهما الآخر أمه فولد لكل واحد من إمرأته ولد، ما قرابة ما بين الولدين؟ فلم يعرفها. فقال له يحيى بن أكثم: كل واحد من الولدين عم

(١) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٣ ص ١٣٦ وج ٤ ص ١٨٠ و ١١٣ وج ٥ ص ١٩.

(٢) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ١ ص ٢٤٠.

المقري: الخطط ج ٢ ص ٣٣٣.

(٣) ابن قتيبة: عيون الأخبار ج ١ ص ٦٥.

ابن طيفور: تاريخ بغداد ص ٢٥٨.

الأخر لأمه^(١).

وأحياناً كان أحد المقربين من الخليفة يتمتع بنفوذ كبير يسمح له باختيار القضاة، فكان محمد بن عمران الضبي^(٢) يقوم باختيار القضاة للمعتز، فيقدم أسماء القضاة للخليفة، فيأمر بتقليدهم القضاء، لذلك كان يجتمع إليه القضاة والفقهاء لمكانته ونفوذه في تعيين القضاة^(٣).

(ب) محاكمة الوزراء والأشخاص الذين يهددون الخلافة والدين:

كان قاضي القضاة يشارك في محاكمة الوزراء إذا كانت التهمة تدبير مؤامرة ضد الدولة، وفي محاكمة الأشخاص الذين يدعون الألوهية أو النبوة، وكذلك الذين يتعرضون للنبذ والصحابة بالسب والشتم، وكل من يهدف إلى إفساد العقيدة الإسلامية.

ففي بغداد، وفي عهد المعتصم حوكم الأفيشين^(٤) بتهمة الزندقة^(٥) سنة

(١) ابن قتيبة : عيون الأخبار ج ١ ص ٦٥ .

(٢) أبو جعفر محمد بن عمران بن زياد بن كثير الضبي النحوي الكوفي : سكن بغداد، وكان مؤدب عبد الله بن المعتز بالله، ويختار القضاة للخليفة المعتز بالله .

التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٥ ص ٢٠٤ .

الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ٣ ص ١٣٢ - ١٣٣ .

(٣) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٥ ص ٢٠٤ .

(٤) أبو الحسن خيدر بن كاوس الملقب بالأفيشين (ت ٨٤٠/٢٢٦) : أصله من أشروسنة، وهو من أعظم القواد في الدولة العباسية، وهو الذي أخرج ثورة بابك الخرمي . اعتقله المعتصم في سنة ٢٢٥ هـ واتهم بالخيانة وحوكم، ثم أخرج ميتاً، فصلب بباب العامة في سنة ٢٢٦ هـ وكان طاغية، لجوراً، شديد الغربة .

الطبري : تاريخ الرسل ج ٩ ص ١٠٤ - ١١٤ .

ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٥١٠ - ٥١٨ .

(٥) الزندقة : تهمة غير واضحة المعالم، كان استعمالها نادراً زمن الأمويين، وقد نقشت زمن العباسيين .

والعامة أطلقت الزندقة على المستهتر الماجن المغرم بالخمر والغلمان، وتجرى على لسانه أبيات فيها مساس بالدين، بينما الخاصة أطلقت الزندقة على كل من اعتنق الإسلام ظاهراً وتدين بدين الفرس القديم باطناً، أي كل من أظهر الإيمان وأبطن الكفر، وكان هدفه إفساد العقيدة الإسلامية . لذلك تنطبق تهمة الزندقة على تفسير الخاصة لها، حيث انتشرت بعد أن أدرك الفرس أن الخلافة قد انتقلت من يد عربية (الأمويين) إلى أخرى عربية (العباسيين)، وبذلك لم يحقق الإسلام ولن يحقق السيطرة الفارسية، فأصبح هدفهم إفساد الإسلام وكثرت الزندقة، وكان الخليفة المهدي أول من عين «صاحب الزندقة» لمحاكمتهم .

التنوخي : نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٦٢ - ١٦٤ وج ٦ ص ٧٩ - ٩٢ .

أحمد أمين : ضحى الإسلام ج ١ ص ١٤٣ - ١٦٤ .

دائرة المعارف الإسلامية . ج ١٠ ص ٤٤٠ - ٤٤٦ .

٢٢٦/٨٤٠، وذلك بحضور قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد، وقد حكم عليه بالصلب بباب العامة.

وفي عهد المقتدر حوكم الحلاج بهذه التهمة سنة ٩٢١/٣٠٩٢ بحضور قاضي القضاة أبي جعفر، والقاضي أبي عمر قبل أن يتقلد قضاء القضاة. وقد شارك قاضي القضاة أبو جعفر أيضاً في محاكمة الوزير ابن الفرات سنة ٩١٨/٣٠٦، ثم في محاكمة الوزير ابن الجراح سنة ٩٢٣/٣١١.

كما شارك قاضي القضاة أبو السائب في محاكمة المتصوفة^(١) بعد أن تقلد أبو محمد المهلبي^(٢) الوزارة سنة ٣٣٩/٩٥٠^(٣)، وقبض على رؤساء الصوفية، وبعض أتباعهم وسجنهم خشية اندلاع الفتنة في بغداد، ذلك أن الأفعال والأقوال الكثيرة التي وردت عن الصوفيين، شغلت الخلفاء، الوزراء والقضاة.

فقد كان شيوخ الصوفية يعقدون حلقات صوفية في جامع المدينة ببغداد^(٤)،

(١) الصوفية : فئة من المعتدلين، والصوفي من مكان فانياً بنفسه، باقياً بالله، مستخلصاً من الطبائع متصللاً بحقيقة الحقائق. وسمى القاضي التنوخي علم التصوف بـ «علم الخرق» لأن الصوفية يلبسون العرقعات. وقد اهتم المتصوفون برياضة النفس والرهف، وإهمال البدن، وأثرت الفلسفة في التصوف فوجهته توجيهاً بعيداً عن الإسلام. ومن رؤساء الصوفية جعفر الحلدي، والخواص أبو اسحق (ت ٢٩١ هـ) والجبيدي بن محمد المعروف بالفواريري (ت ٢٩٨ هـ)، وسوي بن المعلس السقطي، والكتابي الكبير أبو بكر محمد (ت ٣٢٢)، والمزين الكبير أبو جعفر (ت ٣٢٨). وقد أورد التنوخي قصصاً كثيرة يسخر فيها من الصوفية.

التنوخي : شوار المحاضرة ج ١ ص ٩٩ و ١٠٠ و ١٨٩، ج ٢ ص ٣٤٥ و ٣٤٦ و ٣٥٦ و ٣٥٧، ج ٣ ص ٧٦ و ٧٧ و ١١٧ و ١٢٣ و ١٤٤ و ١٤٥ و ١٩٥ و ١٩٧ و ١٩٨ و ١٩٩ و ٢٢٧ و ٢٢٩. الفرج بعد الشدة ج ٣ ص ٣٦ و ٣٧.

المستجد ص ٤٣.

دائرة المعارف الإسلامية ج ٥ ص ٢٦٥؛ ت. ج دي بور : تاريخ الفلسفة ص ١٢٥ - ١٣٠، عصام شبارو : القضاء والقضاة ص ١٥٥ - ١٦٢.

(٢) الوزير أبو محمد الحسن بن محمد المهلبي (ت ٢٩٣/٣٥٢)؛ ولد سنة ٢٩١/٩٠٣. وزر لمعر الدولة سنة ٩٥٠/٣٣٩ واشتهر بالكفاية والمعرفة بمصالح الدولة، وقد أزال كثيراً من المظالم، وقرب أهل العلم والأدب، دامت وزارته ثلاثة عشرة سنة وثلاثة أشهر.

ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج ٣ ص ١٨٣ - ٢٠٠؛ ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٤٤٩ - ٥٤٦؛ ابن مسكويه : تحارب الأمم ج ٢ ص ٣٤ - ٩٧.

(٣) ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج ٣ ص ١٨٦.

(٤) التنوخي : شوار المحاضرة ج ١ ص ٩٩؛ ج ٣ ص ١١٩.

حيث يتحاورون على الخطرات والهواجس^(١) ومسائل تشبه الوسواس . وعندما قبض الوزير المهلبي عليهم أحضر قاضي القضاة أبا السائب، والقاضي أبا علي المحسن التنوخي، وجماعة من القضاة والفقهاء لمناظرتهم^(٢)، وإقامة الحجّة عليهم . وقد استعان الوزير بقاضي القضاة أبي السائب في محاكمة الصوفية لأنه ضليع في علم التصوف، وعالم بأهل الزهد في الدنيا^(٣). ومن رؤساء الصوفية الذين حوكموا أبي اسحاق بن ثابت، الذي كان ينزل بباب الشام^(٤)، ويعتبره أصحابه أحد الربّانيين^(٥)، وكانت التهمة الموجهة إليه أنه يقول في دعائه: «يا واحدي بالتحقيق، يا جاري اللصيق»، وهو بذلك يصف الله بأنه لصيق على الحقيقة، وبما أن الملاصقة من صفات الأجسام، فقد جعل الله جسماً وهذا كفر. كما اتهم بأنه يوهم الناس على أنه ربّاني، حيث يقول في جملة كلامه «أخذتني مني، ولم تبقيني علي، فها أنا بلا أنا»^(٦). وفي النهاية منع من إقامة الحلقات الصوفية والحديث إلى الناس بعد أن ضرب بالسياط. كما قبض على أبي الحسين الثوري الصوفي وجماعة من الصوفية، وأمر الخليفة بضرب أعناقهم بعد أن وجهت إليهم تهمة الزندقة، وطلب من القاضي أن يتعرف حالهم، فناظرهم في الفقه، وسرد أبو الحسين ألفاظاً وقال: «وبعد فإن الله عباداً إذا قاموا قاموا لله، وإذا نطقوا نطقوا بالله»، حتى أبكى القاضي الذي أرسل إلى الخليفة يقول: «إن كان هؤلاء زنادقة فما على وجه الأرض مسلم»^(٧)، فأمر الخليفة

(١) الخطرات والهواجس : من اصطلاحات الصوفية، والخواطر ما يرد على القلب والضمير في الخطاب ربانياً كان أو ملكياً أو نفسياً أو شيطانياً من غير إقامة، وقد يكون كل وارد لا تعمل لك فيه . والهاجس يعبرون به عن الخاطر الأول، ويسمى بقدر الخاطر، فإذا تحقق في النفس سموه إرادة، فإذا تردد ثلاثة سموه همة، وفي الرابعة سموه عزمًا، وعند التوجه إلى القلب إن كان خاطر فعل سموه قصدًا، ومع الشروع في الفعل سموه نية .

التنوخي: نشوار المحاضرة المصدر نفسه ج ١ ص ٩٩ .

(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ١٤٤ .

(٣) المصدر نفسه ج ٧ ص ٥٥ .

(٤) باب الشام : محلة كانت بالجانب الغربي من بغداد، ويسمى باب الأنبار .

ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ١ ص ٤٤٥ .

(٥) الربّاني : الحبر المتألّمة، والعالم الحكيم التقى، البصير بسياسة الأمور .

(٦) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٣ ص ١٤٥ .

(٧) التنوخي : المستحد ص ٤٣ و ٤٤ .

بإطلاق سراحهم .

وفي دمشق، جرت محاكمة عثمان الدكاكي، بعد الإدعاء عليه بعظائم من القول لم يرو مثلها عن الحلاج، وقامت عليه البينة بدعوى الألوهية والتنقيص بالأنبياء وذلك عندما عقد مجلس في دار العدل بدار السعادة حيث اجتمع القضاة والأعيان في شوال سنة ١٣٤١/٧٤١، ثم أعيد إلى السجن. ثم أحضر إلى دار السعادة في ذي القعدة وحوكم أمام الأمراء والقضاة. فسئل القاضي المالكي الحكم عليه، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم حكم بإراقة دمه وإن تاب. وقد ضربت رقبتة بسوق الخيل في دمشق، وقد حضر القضاة الثلاثة المالكي والحنفي والحنبلي قتل عثمان الدكاكي^(١).

وفي دمشق أيضاً، حوكم علي بن أبي الفضل بن محمد بن حسين بن كثير سنة ١٣٥٤/٧٥٥، وكان يسب ويلعن أول من ظلم آل محمد أمام جامع دمشق، وعندما سئل من الذي ظلم آل محمد قال: لعن الله أبا بكر وعمر وعثمان ومعاوية ويزيد، فسجن. ثم أحضره قاضي قضاة المالكية وجلده بالسياط، ومع ذلك استمر بالسب واللعن. وعقد المجلس لمحاكمته في دار السعادة حيث حضر القضاة الأربعة. وقد حكم عليه قاضي قضاة المالكية بالقتل، ف ضرب عنقه تحت القلعة، وطافوا برأسه في البلد وهم ينادون: هذا جزاء من سب أصحاب رسول الله ﷺ^(٢).

وعند الجامع الأموي أيضاً، كان محمود بن ابراهيم الشيرازي يسب أبا بكر وعمر سنة ١٣٦٤/٧٦٦، فسجنه قاضي قضاة الحنابلة أربعين يوماً، فلم تنفع العقوبة واستمر على موقفه. فحكم عليه قاضي قضاة المالكية بالضرب فلم ينفع ذلك أيضاً، حتى حكم عليه بإراقة دمه، ف ضربت عنقه وأحرقتة العامة^(٣).

وكان داود بن سالم، وهو نضرائي من قرية الرأس من معاملة بعلبك، يسب ويقذف رسول الله. وعقد مجلس الحكم في بعلبك سنة ١٣٥٥/٧٥٦، فحكم عليه

(١) اس كثير: البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٨٩ و ١٩٠.

(٢) المصدر نفسه ج ١٤ ص ٢٥٠

(٣) المصدر نفسه ج ١٤ ص ٣١٠.

قاضي قضاة المالكية جمال الدين المسلاتي بالقتل، وقد نفذ الحكم بسوق الخيل، وحرقه الناس^(١).

وفي مصر، حكم قاضي القضاة زين الدين بن مخلوف المالكي بضرب عنق الفتح أحمد بن الثقفي وذلك في ٢٤ ربيع الأول سنة ١٣٠١/٧٠١، بتهمة الإستهزاء بالشريعة، فقد كان يحل المحرمات من اللواط والخمر وغير ذلك، لمن كان يجتمع فيه من الفسقة من الترك وغيرهم من الجهلة. وأمر الوالي بتنفيذ الحكم، فضرب عنقه وطيف برأسه في البلد، ونودي عليه هذا جزاء من طعن في الله ورسوله^(٢).

وإذا كانت المحاكمة تتعلق بالسلطان، فإنه يحضر إلى دار العدل. ففي يوم الثلاثاء ٩ رجب سنة ١٢٦٢/٦٦٠، حضر السلطان الظاهر بيبرس إلى دار العدل بالقاهرة، ليفصل قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب بينه وبين أحد الأمراء في ملكية بئر، وكان الحق مع السلطان وانتزعت البئر من يد غريمه. ومما يجدر الإشارة إليه أنه عند حضور السلطان وقف الناس إحتراماً له، إلا قاضي القضاة الذي أشار عليه السلطان أن لا يقوم^(٣).

وبإمكان قضاة القضاة في مدينة ما عزل نائب السلطنة إذا ما أمعن في الظلم وسوء السيرة وأخذ الأموال بغير حق. ففي أوائل شهر ربيع الأول سنة ١٤١٨/٨٢١ كتب أهل طرابلس للسلطان المؤيد أبو النصر شيخ يشكون له سوء سيرة الأمير سيف الدين برد بك بن عبد الله الخليلي الظاهري المعروف بقصقا، والذي عين نائباً على طرابلس في ١٧ رجب سنة ١٤١٧/٨٢٠^(٤). وكان النائب وقتها خارج طرابلس، فلما عاد بلغه إتفاق قضاة طرابلس وهم : سراج الدين أبو حفص عمر بن موسى السراج الحمصي قاضي الشافعية، وشمس الدين محمد بن علي بن عمر الصفدي قاضي الحنفية، وناصر الدين محمد بن إسماعيل اللخمي الأندلسي قاضي المالكية، وأمرائها ورعيتهما على منعه من الدخول إلى طرابلس كراهية فيه لكثرة ظلمه وطمعه. فأقام بعد مراسلتهم في جهة من الجهات حتى ورد مرسوم السلطان ثم سار إلى جهة مصر.

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢٥٣.

(٢) المصدر نفسه ج ١٤ ص ١٨.

(٣) المصدر نفسه ج ١٣ ص ٢٣٩.

(٤) السخاوي : الضوء اللامع ج ١ ص ٢٧٩.

فكتب أهل طرابلس إلى السلطان يقبح سيرته، وأخذ الأموال بغير حق، فرسم السلطان بإحضاره^(١). وفي أواخر ربيع الأول سنة ١٤١٨/٨٢١ وصل «بردبك» إلى القاهرة بعد أن طلب بسبب الشكوى، وهناك قدم مالا جزئياً فعين نائباً على صند. ثم عين الأمير برسباي القماقي عوضاً عنه في نيابة طرابلس في ٢٣ ربيع الأول ١٤١٨/٨٢١^(٢). وهو الذي أصبح فيما بعد سلطاناً على مصر والشام باسم الأشرف برسباي.

وهكذا تمكن قضاة مدينة طرابلس وامراؤها من إبعاد نائب السلطنة عن طرابلس.

(ج) عقد بيعة وخلع الخلفاء:

كانت توكل إلى قاضي القضاة مهمة إحضار الشهود، ليكتب بنفسه كتاب خلع أحد الخلفاء ومبايعة آخر^(٣). وقد عمل قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد في عقد البيعة للمتوكل بعد وفاة الواثق^(٤). كما دخل قاضي القضاة أبو محمد عبيد الله بن أحمد بن معروف ومعه أربعة شهود، وشهدوا على المطيع لله بأنه قد خلع نفسه، وقرأوا عليه رقعة الخلع، ثم دخلوا على ولده الأمير أبي بكر عبد الكريم وباعوه بالخلافة، وأخيراً جلسوا في مجلس قريب من مجلسه ووقعوا بالشهادة في كتاب الخلع^(٥).

وكان قاضي القضاة يشرف بنفسه على غسل الخليفة بعد موته^(٦)، ففي بغداد، أشرف قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد على غسل الخليفة العباسي الواثق بالله، وفي القاهرة، أشرف قاضي القضاة محمد بن النعمان على غسل الخليفة الفاطمي العزيز بالله^(٧).

(١) المقرئزي : السلوك ج ٤ ص ٤٣٨ .

(٢) السخاوي : الضوء اللامع ج ٣ ص ٨-١٠ .

ابن العماد : شذرات الذهب : ج ٧ ص ٢٣٨ .

(٣) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٢ ص ٧٤؛ ج ٣ ص ٢٠٦-٢٠٧ .

ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٨٨ .

(٤) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٢ ص ٧٤ .

(٥) المصدر نفسه ج ٣ ص ٢٠٦-٢٠٧ .

(٦) المصدر نفسه ج ٢ ص ٧٤ .

(٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٥ ص ٤٢٢؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ج ٥ ص ١٣٢ .

(د) عقد خطبة وزواج الخلفاء والأمراء:

إذا كان القضاة يقومون بعقد الخطبة والزواج، فقد كان يستعان بقاضي القضاة لمثل هذا الأمر فيما يختص بأبناء الخلفاء والأمراء.

فقاضي القضاة أبو يوسف حضر زواج ابراهيم بن عبد الملك بن صالح من الغالية ابنة هارون الرشيد على مهر قدره ألفي ألف درهم^(١). وقاضي القضاة أبو عمر محمد بن يوسف الأزدي أنجز خطبة ولدين للأمير أبي بكر محمد بن رائق صاحب شرطة بغداد على إبتين أختين في حضور الخليفة المقتدر^(٢). وسنة ١٠٥٦/٤٤٨، حضر قاضي قضاة بغداد أبو عبد الله محمد بن علي الدامغاني عقد زواج الخليفة القائم بالله من خديجة بنت أخي السلطان طغرل بك، على صداق مائة ألف دينار^(٣).

وفي القاهرة، عقد قاضي القضاة محمد بن النعمان، زواج ولده عبد العزيز سنة ٩٨٥/٣٧٥ من إبنة القائد جوهر، على صداق قدره ثلاثة آلاف دينار^(٤).

(هـ) الحسبة:

وأحياناً يتولى قاضي القضاة وظيفة الحسبة، التي يتولاها عادة المحتسب^(٥).

(١) التنوخي: نشوار المحاصرة جـ ١ ص ٢٥٢. الفرج بعد الشدة: جـ ١ ص ٣٦٥؛ حـ ٢ ص ٣٨٨. المستجاد: ص ١٥٥-١٥٦.

(٢) التنوخي: نشوار المحاصرة جـ ٢ ص ٥٥-٥٦.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٢ ص ١٠٩.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٤٢٠ و٤٢١.

(٥) المحتسب: نشأت هذه التسمية كوظيفة مستقلة في العصر العباسي، وذلك تنزيهاً للقضاء وتخفيفاً من الأعمال الكثيرة التي كان يتولاها الخلفاء والأمراء والقضاة. ومهمة المحتسب مراقبة التجار وأرباب الحرف والأسعار والموازين والمكاييل، لمنع الغش والإتلاف على نظافة الأسواق والمساجد ومراقبة الأخلاق العامة... وكان للمحتسب دار خاصة تسمى دار الحسبة يقيم فيها ويصرف منها جميع أعماله. وكان أحياناً يخرج بنفسه ويطوف في الأسواق ويعاقب المخالفين. وكذلك امتدت سلطته إلى القاضي في حال إنقطاعه عن الجلوس في مقره للحكم بين الناس

التنوخي: نشوار المحاضرة جـ ١ ص ٣٢٧، وجـ ٢ ص ١٠٨-١١٠، ٢٩٣، وجـ ٤ ص ٢٤، ٢٥، ١٥٥، ٢١٣. المستجاد ص ١٧٧

ابن الجوزي: المنتظم جـ ٦ ص ١٦٦ وجـ ٨ ص ٢٩٤ وجـ ١٠ ص ٢٣٧.

ابن الأخوة: معالم القرية ص ٧ و٨.

ففي بغداد، كان جمال الدين بن عبد الحي بن إدريس الحنبلي قاضي قضاة الحنابلة ومحتسب بغداد^(١). وفي مصر، تولى قاضي قضاة الشافعية تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز الحسبة أيضاً^(٢).

(و) النظر في المظالم :

كذلك كان يضاف إلى مهام قاضي القضاة، النظر في المظالم^(٣)، رغم أن الناظر في المظالم ينظر في كل حكم يعجز عنه القاضي والمحتسب، وهو بذلك أقوى منهما يداً. وقد جمع قاضي القضاة أبي القاسم عبد العزيز بن محمد بن النعمان (ت ٤٠١/١٠١١)، بين القضاة والنظر في المظالم^(٤)، زمن الحاكم بأمر الله، وقد تصلب في الأحكام، وتشدد على من عانده من رؤساء الدولة.

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٤ ص ٣١٠.

(٢) المصدر نفسه ج ١٣ ص ٢٤٩، ٢٥٠.

(٣) النظر في المظالم : عهد الفصل في المشاكل القضائية العويصة إلى صاحب المظالم. ويرجع الفضل في إنشاء ديوان المظالم إلى الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان. وفي أيام العباسيين كان الخلفاء يجلسون بأنفسهم للنظر في المظالم، فلا يمنع عنهم أحد من المتظلمين. وكان يخصص في دار الخلافة، يوم في الأسبوع، لسماع المظالم. ثم أخذ الخليفة ينيط مهمة النظر في المظالم بالوزراء أو بأشخاص ذوي مكانة ومعرفة بالفقه والأحكام. وعندما اتسعت أعمال الدولة رتب للمظالم ديوان ونصب له موظفون، وأصبح هناك صاحب ديوان المظالم، ومهمته الفصل في المشاكل المستعصية على القاضي والمحتسب، وينعم سلطة قضائية أعلى من سلطتيهما، فهو ينظر في القضايا التي يقيما الأفراد على الأمرء والولاة والقضاة. وكان المتظلم يقدم تظلمته كتابة عن طريق رقعة أو قصة، يقال لها مخاصمة أو شكوى أو ظلامة، فتعرض على ديوان المظالم.

ثم تدهورت خطة المظالم عندما تقلدها أناس غير جديرين بها، ووصل الأمر إلى أن السيدة شغب أم المقننر عينت قهرمانتها ثمل صاحبة للمظالم سنة ٩١٨/٣٠٦، وكانت موصوفة بالشر والإسراف في العقوبة.

التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٢ ص ١٨ - ٢٠ ؛ ج ٥ ص ٥٧ و ٥٨ و ٦٣ و ٧٧ ؛ ج ٦ ص ٩ و ٦٣ و ١٩٥ ؛ ج ٧ ص ٢٦٢ . الفرج بعد الشدة ج ١ ص ٢٣٩ - ٢٤١ ؛ ج ٢ ص ٩٢ و ١٥٠ و ٣٨٩ .

ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٩٣ ؛ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ٥ ص ٤٠٩ ؛ ابن الجوزي : المنتظم ج ٦ ص ١٤٨ ؛ ابن الطقطقي : الفحري ص ٢٦٨ ؛ ابن عسكويه : تجارب الأمم ج ١ ص ٨٤ ؛ الصابي : الوزراء ص ٢٢ و ٢٧ و ١٢٢ و ١٢٤ و ١٧٦ و ٢٣٨ و ٢٤٣ ؛ المقرئ : الخطط ج ٢ ص ٢٠٧ ؛ الماوردي : الأحكام السلطانية ص ٧٣ و ١٤١ - ١٤٣ ؛ عصام شبارو : القضاء والقضاة ص ١١٤ - ١١٩ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٥ ص ٤٢٢ .

وفي الباب السابع من كتابه الأحكام السلطانية، يقارن الماوردي بين النظر في المظالم وبين القضاة من وجوه عشرة^(١)، هي :

- القاضي لا يتمتع بهيبة وقوة يد صاحب المظالم .
- صاحب المظالم أفسح مجالاً وأوسع مقالاً من القاضي .
- صاحب المظالم له حق استعمال القوة والبطش للوصول إلى الحقيقة .
- صاحب المظالم هو قاضي ومنفذ في نفس الوقت .
- يحق لصاحب المظالم عقد الصلح بين المتنازعين، ولا يحق للقاضي ذلك إلا عن رضى الخصمين بالرد .
- يحق لصاحب المظالم إلزام المتخاصمين بالتناصف، ولا يحق للقاضي ذلك .
- يستطيع صاحب المظالم أن يستمع إلى شهادة أناس لا يستطيع أن يتوصل إليهم القاضي .
- يمكن لصاحب المظالم أن يكثر من عدد الشهود وأن يعيد إستحلافهم، وليس هذا في مقدور القاضي .
- يجوز لصاحب المظالم أن يبدأ باستدعاء الشهود قبل الخصوم، أما القاضي فيجب أن يبدأ بالمدعي ثم يسأل الشهود .

وهذا ما يوضح في النهاية أهمية النظر في المظالم، وأن صاحب المظالم ينفذ ما يعجز القضاة عن تنفيذه، لذلك يرى الماوردي أن يكون صاحب المظالم جليل القدر نافذ الأمر عظيم الهيبة ظاهر الكفاءة قليل الطمع كثير الورع، لأنه يحتاج في نظره إلى تنفيذ وقضاء .

(ز) الفتيا:

اشتهر قاضي القضاة أبو يوسف بالفتاوي التي كان يقدمها للخليفة هارون الرشيد^(٢) .

وكان قاضي القضاة يفتي في الأمور التي تهم المصلحة العامة، فقد استفتى

(١) الماوردي الأحكام السلطانية ص ٦٦ - ٧١ .

(٢) التوخي : نشوار المحاضرة ج ٧ ص ٧٦ - ٧٧ .

ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٦ ص ٣٨٤ - ٣٨٦ .

مجهول : ألف ليلة وليلة م ٢ ليلة ٣٣٤ - ٣٣٥ ص ٣٢٨ - ٣٣٠ .

قاضي قضاة الشافعية بدمشق تقي الدين السبكي، في قتل الكلاب، فكتب جماعة من أهل البلد في ذلك، فرسم بإخراجهم في يوم الجمعة ٢٥ ذي الحجة ١٣٤٥/٧٤٥ إلى الخندق ظاهر باب الصغير. ويقول ابن كثير «وكان الأولى قتلهم بالكلية، وإحراقهم لثلاثين الناس بريحهم على ما أفتى به الإمام مالك بن أنس من جواز قتل الكلاب ببلدة معينة للمصلحة، إذا رأى الإمام ذلك، ولا يعارض ذلك النهي عن قتل الكلاب، ولهذا كان عثمان بن عفان يأمر في خطبته بقتل الكلاب وذبح الحمام»^(١).

٢ - مهام غير قضائية :

كان قاضي القضاة مقرباً من الخلفاء، لذلك التجأ إليه أصحاب الحاجات ليتوسط لهم عند الخليفة أو الوزير، مما يدل على المكانة التي وصل إليها والتي جعلته يرافق موكب الحج، فكثرت المهام غير القضائية التي كانت توكل إليه، مثل التدريس والخطابة والنظر في الجوامع ووكالة بيت المال ومشیخة الشيوخ، حتى وصل به الأمر أحياناً إلى تقلد الوزارة.

(أ) التوسط عند الخليفة أو الوزير :

كان قاضي القضاة يتقلد أعلى منصب قضائي، مما جعله مقرباً من الخليفة وذوي السلطة والنفوذ، وهذا ما دفع بأصحاب الحاجات للإلتجاء إليه عساه يتوسط لهم في بعض الحاجات، أو إنقاذ محكوم من السجن والإعدام. وقد ذاعت شهرة قاضي القضاة المعتزلي أحمد بن أبي دؤاد في إنقاذ المحكومين من السجن والقتل، فأنقذ أبي دلف القاسم بن عيسى العجلي من القتل على يد الأفسشين^(٢)، وشفع عند الخليفة المعتصم الذي قبض على أموال وضيع خالد بن يزيد وأراد معاقبته وتعذيبه فأنقذه منه^(٣)، كما شفّع عند الخليفة الواثق في رجل من اليمامة^(٤)، وفي بعض العمال

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢١٥ .

(٢) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٧ ص ٢٤٦ - ٢٤٧ . الفرج بعد الشدة : ج ٢ ص ٦٦ - ٧٥ . المستجاد ص ١٤٨ - ١٤٩ .

(٣) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٧ ص ١٩١ - ١٩٢ . الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٦٠ - ٦٢ . المستجاد ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(٤) التنوخي : المستجاد ص ٢٠٢ .

والكتاب الذين سجنهم الوزير محمد بن عبد الملك فأنقذهم من السجن^(١).

(ب) مرافقة موكب الحج :

كانت تولى أحياناً إلى قاضي القضاة، إمارة الحج، ففي سنة ١٠٢١/٤١٢،
تولى قاضي القضاة أبو محمد الناصحي إمارة الحج وسار الناس بصحبته^(٢).

وعندما حج السلطان الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٧/٦٦٩، كان معه قاضي القضاة
صدر الدين سليمان الحنفي^(٣)، فرافقه إلى الحج^(٤). كما كان قاضي القضاة يرافق
الركب الدمشقي إلى الحج^(٥)، ففي سنة ١٢٨٩/٦٨٨، حج قاضي قضاة الشافعية
بدمشق، شهاب الدين بن الخوي^(٦)، وكان يتقدم موكب الحج الدمشقي الأمير
بدر الدين بكتوت الدوباسي والوزير شمس الدين بن السلعوس، ومقدم الركب الأمير
عتبة، فتوهم منه أبو نمى، وكان بينهما عداوة، فأغلق أبواب مكة ومنع الناس من
دخولها، فأحرق الباب وقتل جماعة ونهب بعض الأماكن. ثم أرسل قاضي القضاة ابن
الخوي ليصلح بين الفريقين، ولما استقر عند أبي نمى رحل الركب وبقي هوفي

(١) التنوخي : الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٦٣ - ٦٦. المستجاد ص ١٤١ - ١٤٤

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ١١.

(٣) صدر الدين سليمان بن أبي العز بن وهيب، أبو الربيع الحنفي (ت ١٢٧٧/٦٧٧) : شيخ الحنفية في زمانه ولد
سنة ٥٩٤ هـ، أقام بدمشق مدة يفتي ويدرس، ثم انتقل إلى مصر يدرس بالصالحية، ثم عاد إلى دمشق فدرس
بالظاهرية. وتولى قضاء قضاة الحنفية بعد وفاة مجد الدين ابن العديم سنة ٦٧٧ هـ، ولمدة ثلاثة أشهر حيث
توفي، وله ثلاث وثمانون سنة ودفن بداره بسفح قاسيون.

المصدر نفسه ج ١٣ ص ٢٨١.

(٤) المصدر نفسه ج ١٣ ص ٢٥٤.

(٥) المصدر نفسه ج ١٣ ص ٣١٧؛ ج ١٤ ص ١٥٨، ١٧٤.

(٦) شهاب الدين، أبو عبدالله محمد بن قاضي القضاة شمس الدين أبي العباس أحمد بن خليل بن سعادة بن جعفر
بن عيسى بن محمد الشافعي (ت ١٢٩٤/٦٩٣) : أصله من خوى، اشتغل وحصل علوماً كثيرة، سمع
الحديث، درس وهو صغير بالداغية، ثم تولى على التوالي قضاء القدس وبنسنا وحلب والمحلة والقاهرة،
ثم قدم على قضاء دمشق مع تدريس العادلية والغزالية وغيرهما. كان عفيفاً نزهاً محباً للحديث وعلمائه.
توفي في ٢٥ رمضان سنة ٦٩٣ هـ، عن ٦٧ سنة ودفن بسفح قاسيون.

المصدر نفسه ج ١٣ ص ٣٣٧.

الحرم وحده، ثم أرسل معه أبو نؤمى من الحقه بالركب سالماً^(١).

(ج) التدريس والخطابة والنظر في الجوامع ومشیخة الشيوخ:

تكثرت المهام الأخرى التي كانت توكل إلى قاضي القضاة، وأهمها التدريس والخطابة والنظر في الجوامع^(٢) ومشیخة الشيوخ^(٣).

ففي بغداد، درس قاضي القضاة أبو المعالي^(٤) (ت ١٢٤١/٦٣٩) في بعض المدارس. وأما قاضي القضاة قطب الدين «الأحوس» (ت ١٣٣٥/٧٣٦)^(٥)، فقد درس بالمستنصرية وغيرها من مدارس بغداد. وعندما يقوم قاضي القضاة بالتدريس، يحضر عنده القضاة والأمراء والأعيان والفضلاء^(٦).

وفي مصر، جمع قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز سنة ١٢٦١/٦٥٩، بين القضاء والخطابة والحسبة ومشیخة الشيوخ، ونظر الأجيال وتدریس الشافعي والصالحية وإمامة الجامع، وكان بيده خمس عشر وظيفة، وبأشهر

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣ ص ٣١٧.

(٢) المصدر نفسه ج١٢ ص ٢٩٦، ٢٩٦؛ ج١٣ ص ١٥٨، ١٥٩، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٨٠، ٢٨٢، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٢٢، ٣٣٦، ٣٤٩؛ وج١٤ ص ١٢٨، ١٢٩، ١٦٣، ١٨١، ٢١٥، ٢٨٩.

(٣) المصدر نفسه ج١٣ ص ٢٤٩، ٢٥٠؛ ج١٤ ص ١٤٧، ١٦٣، ١٦٧، ١٦٨.

(٤) أبو المعالي عبد الرحمن بن مقبل بن علي الواسطي الشافعي (ت ١٢٤١/٦٣٩): اشتغل ببغداد، وحصل وأعاد في بعض المدارس، ثم استتابه قاضي القضاة عماد الدين أبو صالح بصرى بن عبد الرزاق بن عبد القادر في أيام الخليفة الظاهر بن الناصر، ثم ولي قضاء القضاة مستقلاً، ثم عزل. كان فاضلاً ديناً متواضعاً.

المصدر نفسه ج١٣ ص ١٥٨ - ١٥٩.

(٥) قطب الدين أبو الفضائل محمد بن عمر بن الفضل التبريزي الشافعي المعروف بالأحوس (ت ١٣٣٥/٧٣٦): سمع الحديث، واشتغل بالفقه والأصول والمنطق والبيان. درس بالمستنصرية وغيرها. كان حسن الخلق، كثير الخير، متواضعاً. توفي ردفن ببغداد.

المصدر نفسه ج١٣ ص ٢٨٢.

(٦) المصدر نفسه ج١٣ ص ٣٣٢؛ ج١٤ ص ٢١٥، ٢٨٩.

الوزارة في بعض الأوقات^(١). ومن الذين تقلدوا الوزارة في مصر أيضاً قاضي قضاة الشافعية برهان الدين الخضر بن الحسين بن علي السنجاري سنة ١٢٨٧/٦٨٦^(٢). وفي سنة ١٣٢٧/٧٢٧، خلع على القزويني الشافعي بقضاء قضاة مصر، مع تدريس الناصرية والصالحية ودار الحديث الكاملة^(٣).

وفي دمشق، تولى قاضي القضاة ابن خلكان الشافعي (ت ١٢٨٢/٦٨١) نظر الأوقاف والجامع والمارستان وتدريس سبع مدارس: العادلية والناصرية والفدرابية والفلكية والركنية والإقبالية واليهنسية^(٤). وعندما فتحت المدرسة النجيبية سنة ١٢٧٨/٦٧٧، حضر ابن خلكان تدريسها، ثم نزل عنها لولده كمال الدين موسى^(٥).

وسنة ١٣٢٦/٧٢٧، باشر صدر الدين المالكي مشيخة الشيوخ^(٦). كما تولى قاضي القضاة كمال الدين الشيرازي (ت ١٣٣٥/٧٣٦)^(٧) التدريس بالبادرائية ثم بالشامية ثم بالناصرية.

ومما يجدر ذكره، أن بعض قضاة القضاة تولوا القضاء والتدريس في مصر ودمشق، فكان أمراً مألوفاً، أن ينقل قاضي القضاة من مكان إلى آخر. وهكذا نجد قاضي قضاة دمشق مجد الدين عبد الرحمن الحنفي (ت ١٢٧٨/٦٧٧)^(٨). قد تولى

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٤٩ - ٢٥٠.

(٢) المصدر نفسه ج ١٣ ص ٣٠٩ - ٣١٠.

(٣) المصدر نفسه ج ١٤ ص ١٢٨.

(٤) المصدر نفسه ج ١٣ ص ٢٥٩ - ٢٦٠.

(٥) المصدر نفسه ج ١٣ ص ٢٨٠.

(٦) المصدر نفسه ج ١٤ ص ١٢٩.

(٧) كمال الدين أحمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن هبة الله بن الشيرازي الدمشقي (ت ١٣٣٥/٧٣٦): ولد سنة ٦٧٠ هـ سمع الحديث وتفقه على الشيخ تاج الدين الفزاري وبالشيخ زين الدين الفارقي. درس بالبادرائية ثم بالشامية البرانية ثم بالناصرية الجوانية. وتولى قضاء قضاة دمشق أكثر من مرة. دفن بسفح قاسيون.

المصدر نفسه ج ١٤ ص ١٧٥.

(٨) مجد الدين عبد الرحمن بن جمال الدين عمر بن أحمد بن العديس الحلبي ثم الدمشقي الحنفي (ت ١٢٧٨/٦٧٧): تقلد قضاء قضاة الحنفية بعد ابن عطاء بدمشق، وكان له إحسان وكرم أخلاق. وقد ولي

الخطانة بجامع القاهرة الكبير، وهو أول حنفي وليه. توفي بدمشق.

المصدر نفسه ج ١٣ ص ٢٨٢.

الخطابة بجامع القاهرة الكبير، وكذلك درس قاضي قضاة دمشق صدر الدين سليمان الحنفي (ت ١٢٧٧/٦٧٧) في الصالحية بمصر وفي الظاهرية بدمشق^(١). وأما قاضي القضاة تقي الدين محمد الشافعي (ت ١٢٨١/٦٨٠)^(٢) فقد تولى التدريس بالشامية، كما درس في عدة مدارس بمصر. وتولى قاضي القضاة علاء الدين القونوي (ت ١٣٢٨/٧٢٩)^(٣) مشيخة الشيوخ في مصر ودمشق. وتولى قاضي القضاة جمال الدين الزرعي (ت ١٣٣٣/٧٣٤)^(٤) مشيخة الشيوخ بدمشق، والتدريس وقضاء العسكر في مصر.

أما قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة (ت ١٣٣٨/٧٣٩)، فقد تولى قضاء قضاة الشافعية بدمشق، وجمع بين القضاء والخطابة ومشيخة الشيوخ^(٥)، فضلاً عن التدريس بالناصرية والعدلية^(٦) والقيمية^(٧). وعندما تقلد قضاء قضاة الشافعية بمصر

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٨٠.

(٢) تقي الدين أبو عداة محمد بن الحسين بن رزين بن موسى العامري الحموي الشافعي (ت ١٢٨١/٦٨٠): ولد سنة ٦٠٣ هـ، سمع الحديث وانتفع بالشيخ تقي الدين بن الصلاح، ودرس بالشامية، وولى وكالة بيت المال بدمشق، ثم سار إلى مصر فدرس بها بعدة مدارس، وولى الحكم بها. دفن بالمقطم.

المصدر نفسه ج ١٣ ص ٢٩٨ - ٢٩٩.

(٣) علاء الدين القونوي (ت ١٣٢٨/٧٢٩): أبو الحسن علي بن اسماعيل بن يوسف القونوي التبريزي الشافعي، ولد بمدينة قونية سنة ٦٦٨ هـ، واشتغل هناك، وقدم دمشق سنة ٦٩٣ هـ سمع الحديث ودرس الاقبالية، ثم سافر إلى مصر وولى مشيخة الشيوخ بها بدمشق. ثم قدم دمشق قاضياً عليها سنة ٧٢٧ هـ. وله تصانيف في الفقه وغيره. دفن بسفح قاسيون.

المصدر نفسه ج ١٤ ص ١٤٧.

(٤) جمال الدين الزرعي (ت ١٣٣٣/٧٣٤): أبو الربيع سليمان بن الخطيب مجد الدين عمر بن سالم بن عمر بن عثمان الأذري الشافعي، ولد بأذرعاع سنة ٦٤٥ هـ، واشتغل بدمشق، وناب في الحكم بزرع مدة، فعرف بالزرعي لذلك. ثم تاب بدمشق وانتقل إلى مصر حيث اشتغل بالقضاء لمدة سنة، ثم ولى قضاء دمشق مع مشيخة الشيوخ، ثم عزل. وتحول إلى مصر فولى بها التدريس وقضاء العسكر، وتوفي بها.

المصدر نفسه ج ١٤ ص ١٦٧ - ١٦٨.

(٥) المصدر نفسه ج ١٤ ص ١٦٣.

(٦) المصدر نفسه ج ١٣ ص ٣٣٦.

(٧) المصدر نفسه ج ١٣ ص ٣٤٩.

كان قد جمع بين القضاء وخطابة الجامع الأزهر وتدريس الصالحية، ثم صار يخطب بالقلعة عند السلطان^(١).

(د) دار الضرب والأسوار ووكالة بيت المال:

وأحياناً يوكل إلى قاضي القضاة أمر دار الضرب والأسوار أو وكالة بيت المال. ففى دمشق، فوض إلى قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري (ت ١١٧٦/٥٧٢)^(٢) النظر في الجامع ودار الضرب والأسوار. وتولى قاضي القضاة تقي الدين محمد الشافعي (ت ١٢٨١/٦٨٠)^(٣) وكذلك شهاب الدين الشافعي (ت ١٣٣٥/٧٣٦)^(٤) التدريس ووكالة بيت المال.

(هـ) الجهاد في سبيل الله:

رغم أن الخليفة هو الذي يدعو للجهاد في سبيل الله، فقد كان قاضي القضاة يساعد في هذا الأمر عن طريق الخطبة في الجوامع حيث يدعو الناس للجهاد. وعندما جاء الخبر إلى دمشق بأن مراكب العدو تقترب من ساحل بيروت سنة ١٣٦٥/٧٦٧، خطب قاضي القضاة تاج الدين الشافعي بالناس يوم الجمعة كعادته، وحرص الناس على الجهاد، وألبس جماعة من غلمانة الأمة والخوذ، وعزم المسير مع الناس، وكان قد نودي في دمشق أن لا يتخلف أحد من أجناد الحلقة عن السفر إلى

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ج٣ ص ٣٢٢.

(٢) محمد بن عبدالله بن القاسم، أبو الفضل (ت ١١٧٦/٥٧٢): كمال الدين الشهرزوري الموصلي، كان فاضلاً ديباً أميناً، ولى قضاء القضاة بدمشق لنورالدين الشهيد محمود بن زنكي الذي فوض إليه أيضاً نظر الجامع ودار الضرب والأسوار، وعمر له المارستان والمدارس. توفي بدمشق.

المصدر نفسه ج٢ ص ٢٩٦ - ٢٩٧.

(٣) المصدر نفسه ج٣ ص ٢٩٨ - ٢٩٩.

(٤) شهاب الدين محمد بن محمد بن عداالله بن الحسين بن علي الرازي الاربلي الشافعي (ت ١٣٣٥/٧٣٦): ولد سنة ٦٦٢ هـ، اشتغل وحصل وأفتى سنة ٦٩٣ هـ. درس في الإقبالية ثم الرواحية وتربة أم الصالح. وولى وكالة بيت المال، ثم صار قاضي قضاة دمشق إلى أن توفي بالمدرسة العادلية.

المصدر نفسه ج٤ ص ١٨١.

بيروت . وبعد أن ورد الخبر بأن المراكب التي شوهدت في البحر هي مراكب تجارية صرف النظر عن السفر^(١) .

ولم يكتف قاضي القضاة بذلك، بل كان أحياناً يشارك بنفسه في الجهاد في سبيل الله، كما فعل قاضي القضاة حسام الدين الرازي الحنفي^(٢) عندما اشترك مع السلطان في القتال ضد التتر في وادي الخزندار عند وادي سلمية سنة ٦٩٨/١٢٩٨، وفقد في المعركة حيث قتل جماعة من الأمراء وغيرهم من العوام خلق كثير^(٣). وهذا يدل على بطولة قاضي القضاة رغم تقدمه في السن، فقد بلغ السابعة والستين وقتها .
(و) ملازمة الخليفة :

هذه المهام جعلت قاضي القضاة مقرباً جداً من الخلفاء فيسمى أحياناً «قاضي الخليفة»^(٤)، ويستعين به الخليفة في الأمور الخاصة به، فيخرج معه في أسفاره . كما كان الخليفة يصطحب معه قاضي القضاة أثناء المواكب .

وهكذا كان قاضي القضاة أبو يوسف يلازم الخليفة هارون الرشيد في تجواله^(٥)، وقاضي القضاة علي بن ظبيان يخرج مع الرشيد أيضاً في أسفاره، فكان معه في خراسان عندما توفي سنة ١٩٢/٨٠٧^(٦) .

أما قاضي القضاة يحيى بن أكثم فقد رافق المأمون في أسفاره إلى دمشق سنة ٢١٥/٨٣٠، ومصر سنة ٢١٧/٨٣٢، وكذلك في زيارته فم الصلح وحتى أثناء غزوة

(١) ابن كثير . البداية والنهاية ج ١٤ ص ٣٢٢ .

(٢) حسام الدين أبو الفضائل الحسب بن أحمد بن الحسن الرازي الحنفي (٦٣١ - ٦٩٨/١٢٣٣ - ١٢٩٨) ولي قضاء ملطية عشرين سنة، ثم قدم دمشق فوليتها مدة، ثم انتقل إلى مصر فوليتها مدة، ثم صار إلى الشام فعاد إلى الحكم بها . كان فاضلاً بارعاً، له نظم حسن .

المصدر نفسه ج ١٤ ص ١٣ .

(٣) المصدر نفسه ج ١٤ ص ١٣ .

(٤) التنوخي . نتوار المحاصرة ج ٤ ص ٢١٣ .

(٥) التنوخي : الفرغ بعد التدة ج ٣ ص ٣٠٧ .

(٦) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١١ ص ٤٤٥ .

الروم سنة ٢١٦/٨٣١^(١). كما سافر قاضي قضاة بغداد أبو القاسم الزينبي مع الخليفة الراشد إلى الموصل^(٢).

وعندما خرج الخليفة الراضي إلى الموصل سنة ٣٢٧/٩٣٩ لمحاربة ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان، كان قاضي القضاة أبو الحسين عمر محمد بن يوسف برفقته^(٣).

وفي مصر، كان قاضي القضاة علي بن النعمان يرافق العزيز بالله الفاطمي، فسافر معه إلى الشام سنة ٣٦٧/٩٧٨^(٤).

وعندما اتجه السلطان قلاوون لحصار طرابلس التي فتحها سنة ٦٨٨/١٢٨٩، كان معه كثير من المتطوعة من دمشق يتقدمهم قاضي قضاة الحنابلة نجم الدين الحنبلي^(٥).

وكان المتوكل يجلس قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد إلى مائدته، ويسير بجانبه في المناسبات الرسمية التي تسمى «المواكب»^(٦) التي تضم القضاة والأشراف والقواد والوزراء. ومما يزيد من مكانة قاضي القضاة أنه كان يسير في موكب الخليفة من جانب والوزير من جانب آخر.

وفي سنة ٣٧٧/٩٨٧، سار قاضي القضاة أبو محمد عبيد الله بن أحمد بن معروف في موكب شرف الدولة بن عضد الدولة إلى دار الخليفة الطائع لله (ت ٣٩٣/١٠٠٢)، وقد زينت البلد وضربت البوقات والطبول^(٧). حتى إن العزيز

(١) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٦ ص ١٧٤

الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١١ ص ١٥٨

ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٦٢.

Sourdel: Visirat Abbaside TI P238

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٢٥

(٣) المصدر نفسه ج ١١ ص ١٨٩.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٥ ص ٤١٨

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣١٣.

(٦) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٧ ص ٢١٢، ٢٤٤، المستجد ص ٢٠٧.

ابن طاووس: فرج المهموم ص ١٩٠.

(٧) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١١ ص ٣٠٥.

بالله الفاطمي أصعد معه قاضي القضاة محمد بن النعمان، على المنبر يوم عيد النحر سنة ٩٩٥/٣٨٥، في القاهرة^(١) وكذلك فعل الحاكم بأمر الله الذي أصعد قاضي القضاة عبد العزيز محمد بن النعمان معه على المنبر، بعد قائد القواد، في يوم عيد الفطر وفي عيد النحر أيضاً^(٢). وكان القائم بأمر الله يكرم قاضي القضاة أبا عبد الله الدامغاني، كما كان السلطان طغرل بك يعظمه^(٣).

ورغم أن المعتصم اختار لنفسه سلموية بن بنان^(٤) الطبيب وقدمه على قاضي القضاة، وكان يسميه «أبي»، فهذا لا يعني الحط من مقام قاضي القضاة. فقد قال المعتصم: سلموية طيبني أكبر عندي من قاضي القضاة، لأن هذا يحكم في نفسي، ونفسي أشرف من مالي وملكي^(٥). فهذا الكلام يشير إلى المكانة العالية التي وصل إليها قاضي القضاة رغم تقديم الخليفة طيبه الخاص. وقد أدت هذه المكانة إلى أن يطلق الناس أحياناً على أحد القضاة لقب قاضي القضاة، دون أن يتقلد هذا المنصب، وذلك تقديراً لعلمه ومكانته، وعلى هذا الأساس أطلق هذا اللقب على قاضي الري عبد الجبار الهمداني (ت ١٠٢٥/٤١٥)^(٦).

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٥ ص ٤٢١؛

الصفدي: الوافي بالوفيات ج ٥ ص ١٣٢.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٥ ص ٤٢٢.

(٣) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٤ ص ٢٢ و ٣٢.

ياقوت الحموي: معجم الأدباء ج ١ ص ٨٥.

(٤) سلموية بن بنان: كان نصرانياً، حسن الاعتقاد في دينه، كثير الخير، محمود السيرة. اختاره المعتصم بعد تقلده الخلافة سنة ٢١٨ هـ، طبيباً خاصاً به. وكانت توقعات المعتصم في السجلات وغيرها بخط سلمويه. وكان له أخ يدعى إبراهيم ولاء المعتصم خزن بيوت الأموال. وكان سلمويه من أشهر الأطباء، وعندما اعتل زاره المعتصم وبكى عنده، ثم حزن كثيراً لوفاته.

ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص ٢٣٤ - ٢٤٠.

(٥) المصدر نفسه ص ٢٣٤.

(٦) عبد الجبار بن محمد بن عبد الجبار الهمداني، أبو الحسين (ت ١٠٢٥/٤١٥): كان تلميذاً لابن عياش وشيخ المعتزلة في عصره، وهم يلقبونه قاضي القضاة، ولا يطلقون هذا اللقب على غيره. ولي القضاء بالري، ومات فيها. له تصانيف كثيرة منها «تنزيه القرآن عن المطاعن» و«الأمالي». وله مخطوط في مكتبة شهيد علي باشا في اسطنبول اسمه «كتاب تثبيت دلائل نبوة سيدنا محمد»، ويحتوي على ٢٩٤ ورقة.

السبكي: طبقات الشافعية ج ٣ ص ٢١٩؛ الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١١ ص ١١٣؛

الزركلي: الأعلام ج ٤ ص ٤٧.

وهذا كله يدل على المكانة التي توصل إليها قاضي القضاة لدى الخلفاء سواء في بغداد أو مصر أو دمشق، هذه المكانة التي جعلت الخليفة الراضي يحزن حزناً شديداً على وفاة قاضي قضاة أبي الحسين عمر سنة ٣٢٨/٩٤٠. ويبيكي عليه^(١)، حتى مات بعده بفترة قصيرة. كما جعلت الحاكم بأمر الله الفاطمي يقف على دفن قاضي قضاة محمد بن النعمان في القاهرة سنة ٣٨٩/٩٩٩^(٢).

وعند وفاة قاضي القضاة كان السلطان أحياناً، ونائب السلطنة والقضاة والأعيان في معظم الأحيان، يصلون عليه ويسرون في جنازته. ففي سنة ٦٩٥/١٢٩٥، حضر نائب السلطنة والقضاة والأعيان جنازة قاضي قضاة الحنابلة شرف الدين المقدسي^(٣)، وعمل عزاءه بالجامع المظفري بدمشق. وفي سنة ٧٠٢/١٣٠٢، حضر نائب السلطنة والأمراء جنازة ابن دقيق الشافعي^(٤) وصلوا عليه بسوق الخيل، وفي المكان نفسه صلى نائب دمشق يلبغا اليعقوبي والقضاة والحجاب والأعيان عند جنازة قاضي قضاة دمشق محمد بن أبي بكر بن ظافر بن عبد الوهاب سنة ٧٤٨/١٣٤٧^(٥).

(١) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٤ ص ٢١٠؛

ابن الجوزي : المنتظم ج ٦ ص ٣٠٧

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٥ ص ٤٢٢.

الصمدي : الوافي بالوفيات ج ٥ ص ١٣٢؛

الذهبي : العبر ج ٣ ص ٤٥.

(٣) شرف الدين، أبو الفضل حسين بن شرف الدين أبي بكر عبد الله بن الشيخ أبي عمر المقدسي (ت ٦٩٥/١٢٩٥) سمع الحديث وتفقه وبرع في اللغة. مليح الشكل. تقلد قضاء الحنابلة بدمشق بعد نجم الدين بن الشيخ شمس الدين سنة ٦٨٧ هـ، ودرس بدار الحديث الأشرفية بالسفح. وعندما توفي وقد قارب الستين، دفن بمقبرة جده بالسفح. وحضر نائب السلطنة والقضاة والأعيان جنازته. وعمل عزاءه بالجامع المظفري. وياشر القضاء بعده تقي الدين سليمان بن حمزة. ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣٤٦.

(٤) ابن دقيق العيد الشافعي (ت ٧٠٢/١٣٠٢) : تقي الدين ابن دقيق العيد القشيري المصري : ولد بساحل مدينة ينبع من أرض الحجاز سنة ٦٢٥ هـ، سمع الكثير ورحل في طلب الحديث. درس في أماكن كثيرة، ورحل إليه الطلبة، ثم ولي قضاء قضاة الشافعية بمصر سنة ٦٩٥ هـ، ومشيخة دار الحديث الكاملة. كان قوفاً قليل الكلام، كثير العلوم، وله شعر رائق. وعندما توفي صلى عليه بسوق الخيل، وحضر جنازته نائب السلطنة والأمراء. وبعده تقلد ابنه أبو الحسن محب الدين القضاء. المصدر نفسه ج ١٤ ص ٢٧ و ٧٩.

(٥) الصفيدي : الوافي بالوفيات ج ٢ ص ٢٧٠.

الفصل الخامس

خصائص ومميزات قاضي القضاة

عند قيام قاضي القضاة بمهامه القضائية وغير القضائية، كان يتقيد بمذهب معين في القضاء، وبزي خاص به، كما كان يتقاضى أجراً على عمله، وأحياناً يرفض الأجر، مع الإشارة إلى تقلد بعض أفراد العائلة الواحدة لهذا المنصب. ومع ذلك كله كان قاضي القضاة يتعرض للمحاكمة والسجن والعزل من منصبه لأسباب مختلفة، دون أن ننسى أن البعض رفض تقلد هذا المنصب، كما أن البعض الآخر كان يتنافس على هذا المنصب مما يؤدي إلى وقوع الخلاف بينهم، وخاصة عندما أصبح لكل مذهب من المذاهب الأربعة قاضي قضاة.

١ - الزي الخاص بقاضي القضاة:

السواد هو شعار العباسيين الرسمي، ولباس الخلفاء كان قلنسوة محددة وقباء أسود وتاج مرصع بالجوهر. وكان الخليفة يلبس طوقاً وسوارين من الذهب المنظوم بالجوهر^(١). وكان لباس الوزراء يتألف من الدراعة^(٢) والقميص والمبطن والخف وعمامة سوداء^(٣). كما كان الكتاب والعلماء يرتدون الدرايع والطيلسان والعمامة التي يختلف حجمها باختلاف السن والمكانة. أما القضاة فلم يكن لهم زي مخصوص، وعندما تقلد أبو يوسف منصب قاضي القضاة زمن الخليفة هارون الرشيد، ميّز القضاة بلباس خاص يعرفون به. وأصبح القاضي يعتم بعمامة سوداء على قلنسوة

(١) متز: الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٥٥ - ٢٥٦.

(٢) الدراعة: جمعها دراريع، وهي جباب مشقوقة من الصدر مصنوعة من الصوف أو الديداج الموشى أو الديقي. وكانت اللباس الرسمي للكتاب، ثم شاع استخدامها حتى لبسها الحلفاء والوزراء وعمامة الناس.

الجهشياري: الوزراء ص ٨٩ و١٦١.

(٣) الجهشياري: الوزراء ص ٥٠.

ابن مسكويه: تجارب الأمم ح ٥ ص ٢١٤ وج ٦ ص ٤٤ - ٤٦.

طويلة^(١). وكان قاضي القضاة يلبس السواد^(٢) على هيئة عمال بني العباس في المناسبات الرسمية، وخاصة في احتفال يوم الجمعة حين ينوب عن الخليفة في ذلك. وكان قاضي قضاة بغداد يضع القلنسوة فوق رأسه^(٣)، ويلقي الطيلسان على كتفه^(٤). والقلنسوة^(٥) كانت تعتبر مظهراً من مظاهر الرجولة عند العرب وقد قال الإمام علي بن أبي طالب: «تمام جمال المرأة في خفها وتمام جمال الرجل في كتمته (أي قلنسوته)»^(٦). وتفنن الناس في شكل القلنسوة ومادتها، فسميت أحياناً بالبدنية لأنها مستديرة تشبه الدن في شكلها، وسميت بالطويلة عندما تكون القلنسوة طويلة وعالية، كما سميت بالطاقيّة لأنها تطوق الرأس وتمسك به. واستخدم في صناعة القلنسوة الكاغد والقصب أو السمر^(٧). وأشهرها القلانص الرصافية والقلانص السود الشاشية والقلانص المكية^(٨). أما الطيلسان فهو قطعة من القماش بشكل نصف دائرة أو مربع يجعل على الرأس فوق القلنسوة ويغطي به أكثر الوجه ثم يدار طرفان منه تحت الفم إلى أن يحيط بالرقبة وطرفاه الآخران يسبلان على الظهر. وأول من لبسه من العرب في الإسلام عبد الله بن عامر بن كريز (ت ٦٧٨/٥٩) وجبير بن مطعم (ت ٦٧٤/٥٤). وكان قاضي القضاة يفضل احتذاء النعال الهندية^(٩). وعندما يكون الطقس حاراً،

(١) الكندي : الوزراء ص ٣٧٨.

(٢) التوحي : المستجاد ص ٢١٩.

(٣) التوحي : نشوار المحاضرة ج ١ ص ٤٧، ٢٣٥، ٢٦٣.

(٤) التوحي : نشوار المحاضرة ج ٣ ص ٥٨ وج ٧ ص ١١٣. الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٥٤.

القلقشندي : صبح الأعشى ج ١١ ص ١٩٨.

(٥) القلنسوة : تشبه العمامة يلقون الطيلسان فوقها ليتدلّى على الكتفين ويقي الرقبة حرارة الشمس. وهي لباس الرأس عند العرب منذ الجاهلية وفي عهد المنصور سنة ١٥٣/٧٧٠ أمر بلبس القلنسوة الطويلة، وقد نقل أهل أوروبا في زمن الحروب الصليبية زي القلانص وجعلوها لباس النساء في الغرب. أما الرشيد فأمر بلبس العمامة العظيمة ثم أعاد المعتصم لبس القلانص تشبهاً بملوك العجم وسميت المعتصميات. وعاد المستعين سنة ٢٤٨/٨٦٢ وأمر بتصغير القلانص بعد أن كانت طويلة كأقباع القضاة.

السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٢٦؛ ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج ٢ ص ٤٩.

(٦) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٣ ص ٩٦.

(٧) ابن العماد : شذرات الذهب ج ١ ص ٢٣٤؛ المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٤٣٥.

(٨) ابن طيفور: تاريخ بغداد ص ٩٣؛ الجهشياري : الوزراء ص ١٢٤، ١٧١.

(٩) التوحي : نشوار المحاضرة ج ١ ص ٢٣٤.

يحمل قاضي القضاة مروحة بيده، وإذا وجد نفسه بعيداً عن أعين الخليفة والأمراء أو في منزله فإنه يضع قلنسوته جانباً بسبب الحر^(١).

وفي مصر، «حضر القاضي وعلى رأسه طرحة»^(٢)، ولعل الطرحة مماثلة للطيلسان. وكانت الطرحة لباس القضاة الخاص، بل شعار قاضي القضاة، وكان لا يحملها إلا قاضي القضاة الشافعي. وفي سنة ١٢٦٥/٦٦٣ من أيام حكم الظاهر بيبرس تلقى القضاة الثلاثة الآخرون «الحنفي والمالكي والحنبلي»، السماح لهم باتخاذ الطرحة، والطرحة عبارة عن قطعة من الشاش الموصلية، أو جزء من الشال، الذي ينساب إلى خلف الرأس بعد أن يكون قد التف عدة مرات حول القلنسوة أو العمامة، وهذا النوع من الخمار يقف بارتفاع الكتفين ويحدث تأثيراً جميلاً في هيئة قاضي القضاة، ويكون أحياناً مطرزاً أو مرصعاً بالذهب في حواشيه^(٣).

ومما يجدر ذكره أن الخطباء في الجوامع والمساجد المصرية، كانوا يلبسون الطرحة أيضاً. ويبدو أن طرحة قاضي القضاة كانت سوداء على الدوام^(٤).

وكان قاضي قضاة دمشق يلبس الطرحة والبركان والفوقانية. والبركان هو نوع غليظ من القماش أو رداء مصنوع من هذا القماش^(٥)، أما الفوقانية فهي الجبة ولم يكن يلبسها إلا القضاة^(٦). وقد اشتهر قاضي قضاة دمشق محمد بن أبي بكر بن ظافر بن عبد الوهاب بأنه كان يتجمل في ملبسه^(٧).

وكان قاضي القضاة يركب البغال النفيسة، ويجعل حول السرج فرجية من جوخ. وكان قاضي القضاة في الدولة الفاطمية يقدم له من اصطبلات الخليفة بغلة شهباء يركبها دائماً، وهو مختص بهذا اللون من البغال دون أرباب الدولة. وزمن المماليك، كان السلطان يخلع على قاضي القضاة، خلعه صوف ويعطيه بغلة لركوبه

(١) التنوخي: نشوار المحاضرة جـ ١ ص ٢٦٣.

(٢) رينهارت دوزي؛ المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب ص ٢١٢.

(٣) المرجع نفسه ص ٢١٣.

(٤) المرجع نفسه ص ٢١٤.

(٥) المرجع نفسه ص ٦٢ - ٦٤.

(٦) المرجع نفسه ص ٢٧٨ - ٢٧٩.

(٧) الصفدي: الوافي بالوفيات جـ ٢ ص ٢٧٠.

يصل ثمنها أحياناً إلى ثلاثة آلاف درهم^(١).

وبعد دخول الأتراك للشام ومصر سنة ٩٢٢-٩٢٣/١٥١٦-١٥١٧، تغيرت ملابس قاضي القضاة والقضاة أيضاً.

٢ - رواتب قاضي القضاة:

جعل العباسيون لقاضي القضاة منصباً رفيعاً مستقلاً، ويتقاضى راتباً شهرياً مثل سائر القضاة. فكان قاضي مصر يأخذ ثلاثين ديناراً كل شهر سنة ٧٧٢/١٥٥، ثم رفعه المأمون إلى مائة وستين ديناراً كل شهر سنة ٨١٣/١٩٨^(٢). وكان موظفو ديوان قاضي القضاة ببغداد سنة ٩٤٧/٣٣٦، هم الكاتب وقد رتب له ثلاثمائة درهم شهرياً، والحاجب له مائة وخمسون درهماً، ومن يعرض الأحكام له مائة درهم، وخازن ديوان الحكم ومن معه من الأعوان ولهم ستمائة درهم^(٣). وقد أدخل قاضي القضاة أبو العباس عبد الله ابن أبي الشوارب نظام الإلتزام في القضاء حين تقلد قضاء بغداد مقابل دفع مائتي ألف درهم كل سنة إلى خزانة الأمير معز الدولة سنة ٩٦١/٣٥٠^(٤). وبالمقابل كان يوجد قاضي قضاة يرفض تناول أجر لقاء منصبه، فعندما تقلد قضاء القضاة ببغداد محمد بن صالح الهاشمي سنة ٩٧٣/٣٦٣، اشترط عند تولي منصبه ألا يتناول على القضاء أجراً^(٥). وقد قبل شرف الدين السبكي المالكي قضاء قضاة المالكية في مصر سنة ١٢٦٥/٦٦٣ شرط أن لا يأخذ على القضاء أجراً^(٦)، وكذلك فعل شمس الدين المقدسي عندما تقلد قضاء قضاة الحنابلة في مصر في نفس العام حتى يستطيع الحكم بالحق^(٧).

(١) ابن كثير . البداية والنهاية ج٤ ص ١٤ ، ٢١ ، ١٣٤ ، ٢٨٩ .

(٢) الكندي : الولاة والقضاة ص ٣٦٩ و٤٢١ .

(٣) المصدر نفسه ص ٥٧٤ .

(٤) ابن الجوزي : المنتظم ج٧ ص ٢ و١٦ ؛ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج٢ ص ٨٢ .

ابن كثير : البداية والنهاية ج١١ ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ ؛ متر : الحضارة الإسلامية ج١ ص ٤١١ .

(٥) الكندي : الولاة والقضاة ص ٥٧٣ .

(٦) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ٢٦٠ .

(٧) المصدر نفسه ج١٣ ص ٢٧٧ .

وعندما تقلد ابن الحريري الحنفي (ت ١٣٢٧/٧٢٨)^(١) قضاء قضاء مصر، كان لا يقبل هدية من أحد. وأحياناً، عندما يترك قاضي القضاة منصبه بسبب عجزه وكبر سنه، يرتب له معاش شهري. فعندما ترك بدر الدين بن جماعة قضاء قضاء الشافعية في مصر سنة ١٣٢٦/٧٢٧ بسبب كبر سنه، جبروا خاطره عندما رتب له ألف درهم وعشرة أراذب قمح في الشهر^(٢). وقد تقلد البعض منصب قاضي القضاة، وهم يعانون من ضيق أحوالهم المادية. ففي بغداد، كان أبو يوسف (ت ٧٩٨/١٨٢) يعيش في فقر وشدة، وينام جائعاً في أغلب الأحيان، وقد تعلم حتى أصبح أول قاضي قضاء في الإسلام، وقاضي الخليفة الرشيد، حيث يأكل في حضرته «اللوزينج بالفستق»^(٣)، وهي من أطيب أنواع الحلوى.

وكذلك كان أبو عبد الله الدامغاني (ت ١٠٨٥/٤٧٨) فقيراً في صغره يطلب العلم، وهو يعمل في حراسة درب الرياح حتى أصبح قاضي قضاء الخليفة المقتدر^(٤). وفي دمشق اشتغل ذو الفنون شهاب الدين الخويي (ت ١٢٩٤/٦٩٣) في صغره، فقد كان عمره إحدى عشرة سنة عندما مات والده، وعندما كبر أصبح قاضي قضاء^(٥). وفي دمشق أيضاً نشأ ابن مسلم الحنبلي (ت ١٣٢٥/٧٢٦) يتيماً فقيراً لا مال له، ثم اشتغل وحصل وسمع الكثير، حتى تقلد قضاء الحنابلة سنة ١٣١٥/٧١٥^(٦).

٣ - تقلد بعض أفراد العائلة الواحدة لمنصب قاضي القضاة :

يبدو من مراجعة الأسماء التي تقلدت منصب قاضي القضاة، تعاقب الآباء

(١) تسمى الدين محمد بن صفى الدين عثمان بن عبد الوهاب الأنصاري، ابن الحريري الحنفي (ت ١٣٢٧/٧٢٧): ولد سنة ٧٥٣هـ، كان فقيهاً، درس بأماكن كثيرة في دمشق، ثم ولي القضاء بها، ثم تولى قضاء قضاء مصر وكان لا يقبل من أحد هدية، ولا تأخذه في الحكم لومة لائم. وعندما توفي دفن بالقرافة، فتولى القضاء مكانه برهان الدين بن عبد الحق.

ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٤٢ .

(٢) المصدر نفسه ج ١٤ ص ١٢٨

(٣) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ١ ص ٢٥١ . الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٢٨٧ - ٢٨٨ .

(٤) الصفندي : الوافي بالوفيات ج ٤ ص ١٣٩ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ٦٧ و ١٠٩

(٥) ابن شاکر الكتبي : فوات الوفيات ج ٣ ص ٣١٤ .

الصفندي : الوافي بالوفيات ج ٢ ص ١٣٧ .

ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٢٦ .

والأبناء والأحفاد والاخوة على هذا المنصب في بعض العائلات، وكان مهنة قاضي القضاة تورث. ومن العائلات الكبرى التي كان منصب قاضي القضاة من نصيب معظم أفرادها، نذكر عائلة محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب الأموي، وعائلة اسماعيل بن حماد الأزدي، وعائلة النعمان . . .

فقد تقلد الكثيرون من عائلة محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب الأموي، منصب قاضي القضاة. فالحسن بن محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب الأموي^(١) تقلد منصب قاضي القضاة في سامراء^(٢) زمن المعتز (ت ٢٥٥/٨٦٩) والمهتدي (ت ٢٥٦/٨٧٠).

وعندما توفي الحسن بن محمد سنة ٢٦١/٨٧٤^(٣)، أرسل الخليفة المعتمد (ت ٢٧٩/٨٩٢) وزيره عبيد الله بن يحيى بن خاقان (ت ٢٦٣/٨٧٦)^(٤) إلى علي بن محمد (ت ٢٨٣/٨٩٦)^(٥)، فعزاه بأخيه وهناك بتوليه القضاء، وكأنه ورث القضاء عن

(١) الحسن بن محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب الأموي (ت ٢٦١/٨٧٤) : ولي القضاء سامراء في أيام المتوكل وكان فقيهاً سخيماً، ذا مروءة وكرم، ولم يزل بيته بيت إمارة ورئاسة، كتب إلى والده محمد بأنه قد ولي القضاء فأجابه والده يقول : وصل إلي كتابك بتوليتك القضاء وحاشى لوجهك الحسن، يا حسن، من النار، ومات وهو قاضي القضاة في سنة ٢٦١ هـ.

ابن الجوزي : المنتظم ج ٥ ص ٢٧ .

(٢) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٤ ص ١٣٣ .

(٣) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٦ ص ٢٣ .

الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ٦ ص ٢٨٧ .

(٤) عبيد الله بن خاقان (ت ٢٦٣/٨٧٦) : استكتبه المتوكل سنة ٢٣٦ هـ، وكان حسن الخط له معرفة بالحساب والاستيفاء، كريماً، حسن الأخلاق وفيه تعفف، قتل المتوكل وهو وزيره. وفي زمن المعتمد ولي الوزارة على كره منه وتنصل وظل وزيراً للمعتمد حتى مات سنة ٢٦٣ هـ.

ابن الجوزي : المنتظم ج ٥ ص ٤٤٥ ؛ ابن الطقطقي : الفخري ص ٢٣٨ و ٢٥١ .

(٥) علي بن محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب الأموي (ت ٢٨٣/٨٩٦) : ولي قضاء سامراء وأعمالها بعد وفاة أخيه الحسن عندما وجه المعتمد بوزيره عبيد الله بن خاقان إليه فعزاه بأخيه وهناك بالقضاء فامتنع عن قبول ذلك، فلم يبرح الوزير عبيد الله من عنده حتى قبل في السنة ٢٦١ هـ. وتقلد قضاء القضاة في السنة ٢٨٣ هـ إلى أن توفي في نفس السنة. وهو رجل صالح ضيق الستر، عظيم الخطر، ثقة، أمين، على طريق الشيوخ المتقدمين، حمل الناس عنه حديثاً كثيراً.

التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٤ ص ١٣٣ - ١٣٤ .

الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ١٠ ص ٤٩ ؛ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١٢ ص ٥٩ ؛

أخيه حتى أصبح علي بن محمد قاضي القضاة سنة ٢٨٣/٨٩٦ وهي السنة التي توفي فيها^(١).

ومن أحفاد قاضي القضاة علي بن محمد، تولى عبد الله بن الحسن بن عبد الله بن علي منصب قاضي القضاة سنة ٣٥٠/٩٦١، فضلاً عن تقلد معظم أفراد عائلة محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، مهنة القضاء، مما يدل على أن تولي أحد أفراد العائلة منصب قاضي القضاة، يوطد مركز العائلة ويجعلها تحظى برضى الخليفة ويجعل إختيار أحد أفرادها لمنصب القاضي أو قاضي قضاة أمراً غير صعب المنال. أما في عائلة اسماعيل بن حماد الأزدي، فقد تقلد اسماعيل بن اسحاق بن اسماعيل بن حماد الأزدي^(٢) منصب قاضي القضاة سنة ٢٦٢/٨٧٥^(٣)، وكذلك تقلد هذا المنصب أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب بن اسماعيل بن حماد الأزدي سنة

= الصفدي: الوافي بالوفيات ج ٢٢ ص ٦٩؛ ابن الجوزي: المنتظم ج ٥ ص ١٦٤،
ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٨٤؛ الذهبي: العبر ج ٢ ص ٧١؛
ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٩٧؛ ابن طولون: قضاة دمشق ص ٣٢؛
ابن العماد: شذرات الذهب ج ٢ ص ١٨٥.

(١) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٤ ص ١٣٤ وج ٦ ص ٢٣.

(٢) أبو إسحاق اسماعيل بن إسحاق بن اسماعيل بن حماد الأزدي (ت ٢٨٢/٨٩٥): من أهل البصرة، ولد سنة ٢٠٠ هـ، وتولى القضاء في خلافة المتوكل سنة ٢٤٦ هـ ثم عزله المهدي محمد بن الواثق مع أخيه حماد بن إسحاق سنة ٢٥٥ هـ. وبعد مقتل المهدي سنة ٢٥٦ هـ أعاده المعتمد على قضاء الجانب الشرقي من بغداد، وبقي فيها حتى سنة ٢٥٨ هـ حيث أضيفت إليه الكرخ. وازدادت صلته بالخليفة الموفق فنقله إلى الجانب الغربي من بغداد، وظل قاضياً عليه حتى سنة ٢٦٢ هـ؛ حيث تقلد منصب قاضي القضاة وصار متقدماً على سائر القضاة. وتفقه على مذهب مالك وألف في القرآن كتناً كثيرة منها «أحكام القرآن» و«القراءات» و«معاني القرآن»، وحمل الناس عنه الحديث الحسن وكانوا يقصدونه ليحملوا عنه الحديث وعلم القرآن والفقه. وكان سديداً في قضاؤه، لا تلبس عليه أمور الأحكام ويقبل دائماً على العلم والحديث.

التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٦ ص ١٩ - ٢٣.

ابن الجوزي: المنتظم ج ٥ ص ١٥١.

الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٦ ص ٢٨٥ و ٢٨٧.

وله أخبار مختلفة في: التنوخي: نشوار المحاضرة ج ١ ص ٨٢، ج ٣ ص ١٢٠، ج ٤ ص ١٣٣

و ٢٢٩، ج ٥ ص ١٩٦ و ٢١٠، ج ٦ ص ١٩ - ٢٣ و ٢٠٥، ج ٨ ص ١٥١.

(٣) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٦ ص ٢٣.

٩٢٩/٣١٧^(١). وبعد وفاته سنة ٩٣٢/٣٢٠^(٢)، ترك أبو عمر منصب قاضي القضاة لإبنيه أبي الحسين عمر (ت ٩٤٠/٣٢٨)^(٣)، علماً أن أبا عمر كان قد مهد قبل وفاته بسنوات لأن يتولى إبنه القضاء، فعمل على تقليده قضاء مدينة المنصور سنة ٩٢٢/٣١٠، وهو في العشرين من عمره^(٤). وكان عظيم الحظوة عند الخليفة الراضي (ت ٩٤٠/٣٢٩)، لذلك استمر في منصبه حتى وفاته سنة ٩٣٩/٣٢٨^(٥). وقبل وفاته بعام واحد، عرف أبو الحسين عمر كيف يستغل حظوته عند الراضي الذي أمر بأن يستخلف ابنه أبا نصر يوسف بن عمر (ت ٩٦٧/٣٥٦)^(٦)، على قضاء مدينة بغداد في شهر محرم سنة ٩٣٨/٣٢٧^(٧)، وما زال أبو نصر يخلف والده على القضاء إلى أن توفي والده سنة ٩٣٩/٣٢٨، فخلفه في منصب قاضي القضاة نتيجة حظوته عند الراضي الذي قلده أيضاً أخاه أبا محمد الحسين بن عمر^(٨) قضاء البصرة وواسط. وبقي

(١) المصدر نفسه ج ٥ ص ٢٠٩ .

(٢) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٥ ص ٢١٠ .

(٣) المصدر نفسه ج ٦ ص ١٨١ .

(٤) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٤ ص ١٨٦، ج ٦ ص ١٨٠ .

ابن الجوزي : المنتظم ج ٦ ص ١٦٧ .

(٥) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٤ ص ٢٠٣ و ٢١٠، ج ٦ ص ١٨١

(٦) أبو نصر يوسف بن أبي الحسين عمر بن أبي عمر محمد بن يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن حماد الأزدي (ت ٩٦٧ / ٣٥٦): ولي القضاء بمدينة السلام في حياة أبيه زمن الخليفة الراضي، وبوفاة أبيه أبي الحسين عمر صلى عليه ودفنه إلى جانب جده أبي عمر. ثم خلع عليه الراضي منصب قاضي القضاة سنة ٣٢٨ هـ. كان رئيساً عفيفاً، نزهاً، نبيلاً، بارعاً في الأدب واللغة والشعر، تام الهيئة وكان عريقاً في القضاء، فقد كان هو وأخوه وأبوه وجده وأبوجده كلهم قضاة.

ابن الجوزي : المنتظم ج ٦ ص ٣٠٠ وج ٧ ص ٤٢، الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٣٢٢ وأخباره كثيرة في:

التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٤ ص ١٥ - ١٦ و ٢٠٣ - ٢٠٥ و ٢١٠ و ٢٥٦، ج ٥ ص ٢١١، ج ٧ ص ١٦ - ١٨ و ٢٤ .

(٧) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٧ ص ١٦ .

(٨) أبو محمد الحسين بن عمر بن محمد بن يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن حماد الأزدي : هو أخو أبو نصر يوسف بن عمر، قلده الخليفة الراضي القضاء وهو أصغر من أبي نصر بقليل وكان فتى جميل الأمر، متوسط في مذهبه وسداده، سليم الصدر، قريب من الناس وكان محبوباً من الناس لأنه يشبه أباه في الصورة والخلق ثم مات الراضي واستخلف المتقي لله فأقره على مدينة المنصور إلى جمادى الثانية سنة ٣٢٩ هـ ثم صرفه ومات وهو قاضي .

أبو نصر يوسف قاضي قضاة بغداد حتى سنة ٣٢٩/٩٤٠^(١).

وبذلك توصل أربعة من عائلة إسماعيل بن حماد الأزدي إلى منصب قاضي القضاة وهم : إسماعيل بن إسحاق، وأبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب، وابنه أبو الحسين عمر، وحفيده أبو نصر يوسف بن عمر. وكان منصب القاضي أو قاضي القضاة حكراً على عائلة أو إرثاً من حق العائلة يورث أباً عن جد. والحقيقة أنه لا وراثة في منصب القاضي أو قاضي القضاة، لكن الحظوة التي ينالها أحد أفراد العائلة لدى الخليفة تجعله يساهم في تقلد أفراد عائلته للقضاء. والحظوة التي نالها قاضي القضاة إسماعيل بن إسحاق، جعلته يتوسط لابن عمه يوسف بن يعقوب عند الخليفة الموفق لتقلد القضاء، وبالتالي يتقلد ابنه أبو عمر محمد منصب قاضي القضاة الذي تولاه أيضاً حفيده أبو الحسين عمر من بعده نتيجة حظوته عن الخليفة الراضي، فانتقل هذا المنصب أيضاً إلى ابن حفيده أبي نصر يوسف بن عمر.

ومن عائلة الدامغاني، تقلد قضاء قضاة بغداد أبو عبد الله محمد بن علي الدامغاني في يوم الثلاثاء ١٠ ذي القعدة سنة ٤٤٧/١٠٥٦^(٢)، وكذلك تقلد هذا المنصب ابنه أبو الحسن علي بن محمد الدامغاني^(٣) الذي لقب بـ «تاج الإسلام» في شهر صفر سنة ٤٩٥/١١٠١، ثم حفيده أبو الحسن علي بن أحمد بن علي الدامغاني^(٤) الذي تقلد منصب قاضي قضاة بغداد سنة ٥٤٣/١١٤٨.

= التنوحي : نشوار المحاصرة ج ٤ ص ٢٠٣ - ٢٠٤، ج ٦ ص ٧٤، ج ٧ ص ١٧.

الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ٨ ص ٨١ - ٨٢.

(١) التنوحي : نشوار المحاضرة ج ٤ ص ٢٠٤، ج ٧ ص ١٨.

اس الحوزي : المنتظم ج ٦ ص ٣٠٠.

الخطيب البغدادي . تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٣٢٢.

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ ص ٦٧.

(٣) أبو الحسن علي بن محمد الدامغاني : قاضي القضاة ابن قاضي القضاة، ولد في رجب سنة ٤٤٦ هـ، وولي القضاء بباب الطاق في بغداد وله من العمر ست وعشرون سنة، تولى الحكم أربعاً وعشرين سنة وستة أشهر وفي سنة ٤٩٥ هـ، قبل أبو الحسن شهادة أبي الحسين وأبي حازم ابني القاضي أبي يعلى ابن الفراء، وفي صفر من هذه السنة زيد في ألقاب قاضي القضاة أبي الحسن «تاج الإسلام»

المصدر نفسه ج ١٢ ص ١٦٢ و ١٦٣ و ١٨٥.

(٤) أبو الحسن علي بن أحمد بن علي بن الدامغاني (ت ١١٨٧/٥٨٣) : تقلد منصب قاضي قضاة بغداد سنة =

وبعد عزل أبو الحسن الدامغاني سنة ١١٦٠/٥٥٥، تقلد منصب قاضي قضاة بغداد أبو جعفر عبد الواحد الثقفي^(١)، وبعد وفاته في نفس السنة، تقلد ابنه أبو البركات جعفر الثقفي (ت ١١٦٧/٥٦٣)^(٢) قضاء القضاة.

وفي مصر تقلد أربعة من عائلة النعمان، مؤسس النظام القضائي الفاطمي، منصب قاضي القضاة زمن العزيز بالله والحاكم بأمر الله، وهم أبو الحسن علي بن النعمان (ت ٩٨٥/٣٧٤) وأخوه أبو عبد الله محمد (ت ٩٩٩/٣٨٩) الذي أرسل إليه العزيز يقول له بعد وفاة أخيه: «إن القضاء لك من بعد أخيك، ولا تخرجه عن هذا البيت»^(٣)، وهو يعني بذلك بيت النعمان، وكأنه يريد وراثته ضمن أفراد هذه العائلة التي تقلد منها منصب قاضي القضاة أبو عبد الله الحسين بن علي بن النعمان (ت ١٠٠٥/٣٩٥) وأبو القاسم عبد العزيز بن محمد بن النعمان (ت ١٠١١/٤٠١)^(٤)، والذي عزله الحاكم بأمر الله، فكان آخر من تقلد القضاء في مصر من عائلة النعمان.

وفي دمشق، اشتهرت عائلة قاضي القضاة أبي المعالي محمد القرشي الشافعي، بتقلد منصب قاضي القضاة، فمن بعده تقلد هذا المنصب ابنه زكي الدين علي ثم حفيده محي الدين أبي المعالي محمد فابن حفيده زكي الدين أبو العباس الطاهر^(٥) (ت ١٢٢٠/٦١٧). وكذلك تقلد منصب قاضي قضاة دمشق، شمس الدين

= ٥٤٣ هـ بعد وفاة علي بن الحسين الزبيبي، ثم عزل سنة ٥٥٥ هـ، وأعيد في أيام المستضيء وحكم للناصر حتى وفاته.

المصدر نفسه ج ١٢ ص ٢٢٤ و ٢٤١ و ٣٢٩.

(١) عبد الواحد بن أحمد بن محمد بن حمزة، أبو جعفر الثقفي (ت ١١٦٠/٥٥٥): كان شيخاً كبيراً، له سماع بالحديث. كان قاضياً بالكوفة، ثم أصبح قاضي قضاة بغداد بعد عزل أبي الحسن بن الدامغاني سنة ٥٥٥ هـ. وتوفي في ذي الحجة من هذه السنة وقد ناهز الثمانين، وولى بعده ابنه جعفر.

المصدر نفسه ج ١٢ ص ٢٤١ - ٢٤٣.

(٢) جعفر بن عبد الواحد، أبو البركات الثقفي (ت ١١٦٧/٥٦٣): ولد سنة ٥٢٩ هـ، وهو قاضي قضاة بغداد بعد أبيه. وسبب وفاته أنه طلب منه مال وكلمه الوزير ابن البلدي كلاماً خشناً فخاف فرمى الدم ومات.

المصدر نفسه ج ١٢ ص ٣٥٤.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٥ ص ٤١٩.

(٤) المصدر نفسه ج ٥ ص ٥٤ و ٤١٧ - ٤٢٢.

(٥) الصفدي: الوافي بالوفيات ج ١٦ ص ٤٠٨ - ٤٠٩.

السبكي: طبقات الشافعية ج ٨ ص ١٥٣.

الخويبي الشافعي (ت ٦٣٧/١٢٣٩) وابنه ذو الفنون شهاب الدين (ت ٦٩٣/١٢٩٣)^(١)، ثم معين الدين أبي بكر بن ظافر بن عبد الوهاب وابنه محمد (ت ٧٤٨/١٣٤٧)^(٢).

وفي حلب، تقلد منصب قاضي القضاة عز الدين أبي المفاجر الدمشقي الشافعي وابنه أبو اليسر ابن الصائغ (ت ٧٣٩/١٣٣٨) وابن أخيه نور الدين الصائغ (ت ٧٤٩/١٣٤٨)^(٣).

ومع ذلك يمكن القول أنه لا وراثة في القضاء، رغم تناقل منصب قاضي القضاة أو القضاة، في بعض الأحيان، من الأب إلى الإبن فالحفيد، أو الأخ وابن العم. ومما يذكر أن العديد من «البزازين»، الذين يعملون في خياطة الثياب قد أصبحوا قضاة^(٤)، وقد قلد المتقي لله (ت ٣٥٧/٩٦٨)، بغداد بأسرها إلى أحمد بن عبد الله بن إسحاق الخرقبي^(٥) سنة ٣٣٠/٩٤١^(٦)، وهو رجل من وجوه التجار البزازين، هو وأبوه وعمومته، وعندما تقلد القضاء لم تكن له خدمة للعلم، ولا مجالسة لأهله، وكان هدف المتقي من تقليده القضاء هو تكريمه وأن ينوه بإسمه ويبلغه إلى حال لم يبلغها أحد من أهله، لأنه كان يخدمه قبل أن يتولى الخلافة^(٧)، وأصبح يسمى بـ «قاضي المتقي لله»^(٨).

وهذا ما يدفعنا إلى القول في النهاية أن التقرب من الوزراء والخلفاء وأصحاب

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات ج ٣ ص ٣١٣-٣١٤؛ ج ٦ ص ٣٧٥-٣٧٦.

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٧٠.

(٣) ابن شاکر الکتبي: فوات الوفيات ج ١ ص ٣٣٢-٣٣٣.

(٤) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ١ ص ٢٣٢ وج ٥ ص ١٨٦.

(٥) أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن إسحاق الخرقبي: تقلد القضاء بواسط مصر والمغرب ثم ولي قضاء بغداد سنة ٣٣٠ هـ وكان من عائلة تجار البز خدم الخليفة المتقي فقلده القضاء وكان عفيفاً نزهاً. خرج إلى الشام سنة ٣٣٣ هـ، ومات هناك سنة ٣٣٤ هـ.

التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٥ ص ٢٢١-٢٢٢.

ابن مسكويه: تجارب الأمم ج ٢ ص ١٦.

الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٤ ص ٢٣١.

(٦) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٥ ص ٢٢١.

(٧) المصدر نفسه ج ٥ ص ٢٢٢.

(٨) المصدر نفسه ج ٤ ص ٢١٣.

النفوذ في الحكم كان طريقاً للوصول إلى تقلد منصب القاضي وقاضي القضاة، وبأباً يفتح أمام عائلة معينة لأن يتولى أفرادها هذه المهنة التي انحط كثيراً من قدرها عندما قلد الخلفاء البزازين على القضاء دون أن يلتفتوا إلى مستواهم العلمي والفقهية، فاختلف أمر القضاء وانحلت دولة بني العباس بإنحلال أمر القضاء^(١).

٤ - تقلد بعض العميان لمنصب قاضي القضاة :

ومن الظواهر النادرة، تقلد بعض العميان قضاء القضاة أو بالأحرى إصابة بعض قضاة القضاة بالعمى واستمرارهم في منصبهم.

ففي دمشق، تولى ابن أبي عصرون (ت ١١٨٩/٥٨٥)^(٢) قضاء قضاة دمشق سنة ١١٨٧/٥٨٣، وكان قد عمي قبل موته بعشر سنين، وقد جمع جزءاً في قضاء الأعمى وأنه جائز، وهو خلاف المذهب الشافعي، مذهب قاضي القضاة زمن الدولة الأيوبية. وفي حماه، تولى ابن البارزي^(٣) (ت ١٣٣٧/٧٣٨) قضاء القضاة، وعمي في آخر عمره ومع ذلك استمر مدة على القضاء. وهنا يجدر بنا الإشارة على أن «السلامة في السمع والبصر»^(٤) هي من أهم الشروط، التي ذكرها الماوردي، لتقلد القضاء، فكيف بقاضي القضاة، أعلى منصب قضائي في الإسلام.

(١) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ١ ص ٢٣٢.

(٢) عبد الله بن محمد بن هبة الله بن أبي عصرون، أبو سعد شرف الدين (ت ١١٨٩/٥٨٥)، كان من الصالحين والعلماء، أصله من الموصل، ورحل في طلب العلم إلى بلدان شتى. وولى قضاء سنجان وحران، ثم تدم دمشق أيام صلاح الدين فولى قضاءها. وقد صنف كتباً كثيرة منها صفوة المذهب في نهاية المطلب، والإنتصاف، والخلاف، والذريعة، والمرشد. ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٣٣ - ٣٣٤.

(٣) ابن البارزي، شرف الدين أبو القاسم هبة الله بن قاضي القضاة نجم الدين عبد الرحيم بن شمس الدين إبراهيم بن هبة الله بن مسلم الجهيني الحموي المعروف بابن البارزي (ت ١٣٣٨/٧٣٨) : ولد سنة ٦٤٥ هـ سمع الكثير، وصنف كتباً كثيرة. كان حسن الأخلاق كثير المحاضرة. تولى قضاء قضاة حماه. وعمي في آخر عمره وهو يحكم مع ذلك مدة، ثم نزل عن المنصب لحفيده نجم الدين عبد الرحيم بن إبراهيم.

المصدر نفسه ج ١٤ ص ١٨٢.

(٤) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ٦١، ٦٢.

٥ - رفض البعض تقلد منصب قاضي القضاة :

إذا كان البعض قضى عمره يحاول الوصول إلى منصب قاضي القضاة الذي كان قبله أنظار معظم القضاة، فإن البعض الآخر، اعتذر عن قبول هذا المنصب لما فيه من مسؤولية إحقاق العدل، خاصة بعد أن ورد في تقلد القضاة من الحديث ما يزهده فيه ويوجب الفرار منه. فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من ولي القضاء فقد ذبح بغير سكين» وعنه: «ما من أحدٍ حكم بين الناس إلا جيء به يوم القيامة ومَلَكٌ آخِذٌ بِقَفَاهُ حتى يقف به على شفير جهنم فإن أُمِرَ به هوى به في النار سبعين خريفاً» وعن ابن عمر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من كان قاضياً يقضي بجورٍ كان من أهل النار ومن كان قاضياً يقضي بجهل كان من أهل النار ومن كان قاضياً عالماً يقضي بالعدل فبالحرى أن ينقلب كفافاً». وقالت عائشة: سمعت النبي ﷺ يقول: «يُجَاءُ بِالْقَاضِيِ العَدْلِ يومَ القِيَامَةِ فيلقَى من شدة الحساب ما يتمنى أنه لم يقض بين اثنين في تمرّة قطّ»^(١) وهذا ما جعل الفقهاء والعلماء لا ينظرون بعين الرضا إلى منصب القاضي أو قاضي القضاة. وقد اختلف المسلمون في قبول القضاة فرفضه بعضهم رفضاً قاطعاً، وتقبله البعض الآخر إذا كان من يتقلده يصلح لذلك الأمر. وكان الصوفية يسمون القضاة علماء الدنيا ويرددون: «إن العلماء يحشرون في زمرة الأنبياء، والقضاة يحشرون في زمرة السلاطين»^(٢).

ويحكى عن ورع المسلمين وخوفهم من تقلد القضاة أن أحدهم بشر أباً محمد عبد الله المحرمي بتقلده قضاء بغداد، فأغلق بابه وقال: «بشرك الله بالنار»^(٣). كما أن أباً قلابة طلب لقضاء البصرة فهرب إلى الشام حيث أقام حيناً حتى لا يتقلد القضاء^(٤). ولم يقبل الإمام أبو حنيفة تولي القضاء رغم أنه ابتلي بالضرب والحبس^(٥). أما سفيان الثوري (ت ١٦١/٧٧٧) فقد أراده المنصور على القضاء فامتنع وغادر الكوفة إلى مكة والمدينة ثم طلبه المهدي فتواري، وكان ينكر على أصدقائه تولي القضاء^(٦). وكان جعفر بن محمد التنوخي (ت ٣٧٧/٩٨٧) محدثاً وأحد القراء للقرآن وقد «عرض

(١) النويري: نهاية الأرب م ٦ ص ٢٦٣، ٢٦٤.

(٢) متز: الحصار الإسلامية ح ١ ص ٤٠٣.

(٣) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٤ ص ١١٣.

(٤) ابن عبد ربه. العقد الفريد ج ١ ص ١٤.

(٥) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٧ ص ٣٥.

(٦) المصدر نفسه ج ٥ ص ٢٤٧.

عليه القضاء والشهادة فأباهما تورعاً وصلاًحاً^(١). وعندما طلب المقتدي من أبي الفضل الهمداني (ت ٤٨٩/١٠٩٦)^(٢) تقلد قضاء القضاة، أبي أشد الأباء واعتذر له. وقد عرض قضاء قضاة دمشق على العلامة برهان الدين أبو اسحق إبراهيم الفزاري (ت ٧٢٩/١٣٢٩)^(٣)، بعد ابن صصري وألح نائب دمشق بنفسه وأعوانه من الدولة فلم يقبل، وامتنع أشد الامتناع. وكذلك عرض قضاء قضاة المالكية بدمشق على الشيخ جمال الدين أبي بكر محمد، فلم يقبل^(٤).

٦ - الخلاف بين قضاة القضاة:

بتعيين قاضي قضاة لكل مذهب من المذاهب الأربعة سواء في مصر أو دمشق، كان يتوجب على قاضي قضاة مذهب معين أن لا يتدخل في قضايا وأمور قاضي قضاة من مذهب آخر^(٥)، ومع ذلك كان الخلاف يقع بين قضاة القضاة أنفسهم في أمور تتعلق بالوقف والهدم. ومثل هذا الخلاف كان يقع أحياناً بين قاضي قضاة الحنابلة من جهة وقضاة القضاة الحنفي والشافعي والمالكي من جهة ثانية^(٦)، أو بين قاضي قضاة الشافعية من جهة وقضاة القضاة الثلاثة الآخرين من جهة ثانية^(٧). فيضطر نائب السلطنة لعقد مجلس بهذا الخصوص في دار السعادة بدمشق للتوسط والصلح بينهم^(٨)، كما يضطر أحياناً السلطان لإصدار مرسوم يوفق بين قضاة القضاة^(٩).

(١) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٦ ص ٥٦.

(٢) عبد الملك بن إبراهيم بن أحمد، أبو الفضل المعروف بالهمداني (ت ٤٨٩/١٠٩٦): تفقه على الماوردي، كان عفيفاً زاهداً، طلبه المقتدي ليوليه قضاء القضاة فاعتذر له بالعجز وكبر السن. وكان ظريفاً لطيفاً. توفي في رجب سنة ٤٨٩ هـ ودفن عند قبر ابن شريح.

ابن كثير البداية والنهاية ج ١٢ ص ١٥٣.

(٣) برهان الدين أبو إسحق إبراهيم بن تاج الدين أبي عماد عبد الرحمن الفزاري المصري الشافعي (ت ٧٢٩/١٣٢٩) ولد سنة ٦٦٠ هـ. سمع الحديث، واشتغل على أبيه، ثم تولى مكان أبيه في التدريس بالبادرية، وأشغل الطلبة بالجامع الأموي. وله مصنفات كثيرة. كان كثير المطالعة وسماع الحديث والعبادة، حسن الأخلاق.

المصدر نفسه ج ١٤ ص ١٤٦.

(٤) المصدر نفسه ج ١٣ ص ٣٠٨.

(٥) المصدر نفسه ج ١٤ ص ١٨.

(٦) المصدر نفسه ج ١٤ ص ٢٣٩، ٢٥٤، ٣١٨.

(٧) المصدر نفسه ج ١٤ ص ٣١٦.

(٨) المصدر نفسه ج ١٤ ص ٣١٦، ٣١٨.

(٩) المصدر نفسه ج ١٤ ص ٢٣٩.

كما كان الخلاف يقع أيضاً بين قاضي القضاة والفقهاء، فعندما نقم قاضي القضاة تقي الدين السبكي الشافعي على الشيخ شمس الدين ابن قيم الجوزية بسبب إكثاره من الفتيا بمسألة الطلاق، تدخل الأمير سيف الدين بن فضل العرب، وأقام الصلح بينهما في بستان قاضي القضاة^(١).

٧ - محاكمة وسجن وعزل ونفي قاضي القضاة:

كانت الحظوة والتقرب من الوزراء والخلفاء خطوة كبيرة في تقلد القضاء، والوصول إلى أعلى منصب وهو قاضي القضاة. ولكن تقلد هذا المنصب لا يعني أن قاضي القضاة أصبح حاكماً بأمره، لا يطاله أحد، فهو في النهاية مثل أي «موظف» يعينه الحاكم عندما يكون راضياً عنه، ويعزله عندما يغضب منه، ذلك أن قاضي القضاة بحكم منصبه، يكون على قرب دائم من الخليفة أو الوزير، والحكم في العصر العباسي لم يكن دائماً مستقراً، فالمؤامرات والصراع على النفوذ كان دائماً يهدد رجال الحكم، فإذا ما تخلى الخليفة عن السلطة سارع خليفته إلى عزل الوزير وتعيين وزير له، وبالتالي يتأثر أحياناً وضع قاضي القضاة الذي يؤيد هذا الوزير أو ذلك. وفي ظل الصراع بين الوزراء على الحكم كان موقف قاضي القضاة حرجاً وهو يدرك أن نقمة الوزير تؤدي إلى نقمة الخليفة عليه، وبالتالي الوصول إلى ما لا تحمد عقباه. وعندما يتقلد أحدهم منصب قاضي القضاة يصبح قريباً من الخليفة وهنا عليه أن يكون دقيقاً جداً في مواقفه وآرائه، لأن غضب الخليفة أقسى وأشد مرارة من غضب الوزير.

ولعل قصة قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد (ت ٢٤٠/٨٥٤) من أهم القصص المأسوية التي ينتهي بها قاضي القضاة. وذلك أن أخبار ابن أبي دؤاد في كتب التاريخ والأدب كثيرة زمن المأمون ثم المعتصم^(٢) الذي جعله قاضي قضاة، ثم ارتفعت مكانته زمن الواثق^(٣). ولما مات الواثق أصر على مبايعة المتوكل^(٤)، وألبسه الطويلة وعممه

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢٣٢.

(٢) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٢ ص ١٠١-١٠٣؛ ج ٧ ص ١٩١-١٩٢ و ٢١٢-٢١٥ و ٢٤٣-٢٤٥. الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٦٠-٦٢ و ٢٩٤-٢٩٥، ج ٤ ص ٨٩-٩٠. المستجد ص ١٥٩-١٦٠ و ١١٧-١١٩ و ٢٠٦-٢٠٨.

(٣) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٢ ص ٧٣-٧٤. الفرج بعد الشدة ج ١ ص ٣٩٣، ج ٢ ص ٦٣-٦٦. المستجد ص ١٤١-١٤٤ و ٢٠١-٢٠٢.

(٤) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٢ ص ٧٣-٧٤.

بيده . وكان جزاؤه منه أنه عزله المتوكل وصادر ضياعه وضياع أولاده . وإذا علمنا أن قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد كان من زعماء المعتزلة^(١)، ندرك السبب الرئيسي في نقمة الخليفة المتوكل عليه .

ومن مهزلة الأمور أن المتوكل أرسل يحيى بن أكثم من بغداد إلى سامراء، بعد القبض على أحمد بن أبي دؤاد، وولاه قضاء القضاة مكانه سنة ٢٣٧/٨٥١ هـ. لكن المتوكل عاد وفعل به مثلما فعل بابن أبي دؤاد، فقد عزله وصادر أمواله فرحل إلى مكة^(٢).

وفي القاهرة، عزل الحاكم بأمر الله الفاطمي، قاضي قضاته الحسين بن علي بن النعمان سنة ٣٩٤/١٠٠٤، ولم يكتف بذلك بل قتله سنة ٣٩٥/١٠٠٥ وأحرق جثته^(٣). وكذلك فعل بعبد العزيز بن محمد بن النعمان حيث عزله من منصب قاضي القضاة سنة ٣٩٨/١٠٠٨، ثم أمر بقتله بالسيف سنة ٤٠١/١٠١١^(٤).

وعندما يتنازل السلطان عن الحكم، فإنه يثبت ذلك على القضاة بمصر ثم القضاة بدمشق، حيث يبايع غيره بالحكم. وطبعاً لا يجد القضاة مفرأً من إثبات ذلك، وإذا امتنع أحدهم فإنه يواجه العزل. فعندما عزل الناصر محمد بن قلاوون نفسه سنة ٧٠٨/١٣٠٨، أثبت ذلك على القضاة بمصر، وبويع الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير. ووصل كتاب الناصر إلى دمشق، فأثبت القضاة وامتنع الحنبلي من إثباته، وقال: ليس أحد يترك الملك مختاراً، ولولا أنه مضطهد ما تركه، فعزل وأقيم غيره^(٥).

وكان ظلم وقسوة الوزراء على قاضي القضاة أشد من ظلم وقسوة الخلفاء لأن علاقة قاضي القضاة بالوزراء مباشرة أكثر من علاقته بالخلفاء، فالوزير هو الذي يقلد قضاة القضاة باسم الخليفة، مما يجعل الطامعين في القضاء يتقربون منه، إضافة إلى أن الوزراء في صراع دائم لتولي الوزارة، وفي ظل هذا الصراع كان قضاة القضاة

(١) التنوخي . شوار المحاضرة ج ٥ ص ٢٢٠؛ ج ٦ ص ١٣١ و١٤٦ . الفرج بعد الشدة ج ١ ص ٣٦١ .

(٢) التنوخي : شوار المحاضرة ج ٦ ص ١٠١ .

(٣) ابن حلكان : وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٦٣ .

(٤) الصمدي . الوافي بالوفيات ج ١٣ ص ١٩ .

ابن حلكان : وفيات الأعيان ج ٥ ص ٥٤ .

(٥) ابن حلكان : وفيات الأعيان ج ٥ ص ٢٢٢ .

(٦) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٤ ص ٤٧ .

يقفون موقفاً حرجاً قد يرفع من منزلتهم أو يحط منها. والقلة القليلة منهم كانت قادرة على الوقوف موقفاً شجاعاً غير آبهة سوى بإحقاق الحق، كما فعل قاضي القضاة أبو جعفر أحمد بن اسحاق بن البهلول التنوخي (ت ٣١٨/٩٣٠). ونستطيع أن نستشف من موقفه أن القضاة كانوا يخافون نقمة الوزراء عليهم لذلك كانوا يسايرونهم عندما يكونون داخل أو خارج الحكم، وكان قاضي القضاة أبو عمر محمد بن يوسف الأزدي ذكياً في علاقته بالوزراء فامتنع عن الجلوس متقدماً على ابن عيسى، في مجلس الوزير علي بن مقله، وتعليه لذلك أن ابن عيسى كان وزيراً وترأس عليه^(١)، والحقيقة إنه يعلم أن الوزارة قد تكون من نصيب ابن عيسى وغيره مرة ثانية وثالثة مما يدل في النهاية على حرج موقف قاضي القضاة مع الوزراء.

وفي مصر عزل الوزير ابن السلعوس، في سنة ٦٩٠/١٢٩١، تقي الدين بن بنت الأعز، عن قضاء قضاة الشافعية، ولم يكتف بذلك بل عزله من مناصبه الأخرى ومنها الخطابة ونظر الأحباس ومشیخة الشيوخ، ونظر الخزانة، وصادره بنحو من أربعين ألف، غير مراكبه وأشياء كثيرة. ومع ذلك لم يظهر من قاضي القضاة استكانة ولا خضوع^(٢). فأعيد إلى القضاء، ثم عزل سنة ٦٩٥/١٢٩٥، فتولى مكانه تقي الدين بن دقيق العيد^(٣).

وقد تؤدي العداوة والبغضاء بين قاضي القضاة وأحد الأمراء أو النافذين إلى إهانة أو محاكمة قاضي القضاة، وعزله وحتى سجنه.

ففي دمشق، أدت العداوة إلى أن يأمر المعظم عيسى قاضي قضاة دمشق زكي الدين الطاهر بن محمد، بأن يلبس قباء أحمر وكلوته صفراء من ملابسه ليحكم بين الناس، بما أغاظه وأدى إلى موته سنة ٦١٧/١٢٢٠^(٤).

وسنة ٧٢٧/١٣٢٦، وقعت فتنة في الإسكندرية، ولتوطيد الأمن ضرب القاضي ونائبه ثم عزلا، فتولى القضاء بهاء الدين علم الدين الإخنائي الشافعي. وعزل قاضي قضاة الاسكندرية المالكي ونائبه، ووضعت السلاسل في أعناقهم وأهينوا^(٥).

(١) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٣ ص ٩٦ .

(٢) ابن كثير . البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣٢٢ .

(٣) المصدر نفسه ج ١٣ ص ٣٤٣ .

(٤) الصفدي . الوافي بالوفيات ج ١٦ ص ٤٠٩ .

(٥) اس كثير : البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٢٨ .

ويصل الأمر أحياناً، إلى محاكمة قاضي القضاة نفسه إذا ما وقف نائب السلطنة ضده. وكانت المحاكمة تدور بدار السعادة في دمشق، حيث يعقد نائب السلطنة مجلساً حافلاً بالقضاة وأعيان المفتيين من سائر المذاهب. فعندما وقع الخلاف بسبب تشديد قاضي القضاة ابن جملة الشافعي على الشيخ الظهير الذي تسلمه أعوان ابن جملة وطافوا به البلد على حمار وضربوه في ٢٧ رمضان سنة ٧٣٤/١٣٣٤، انعقد المجلس بدار السعادة، ولم يأذنوا لابن جملة بالجلوس إلا بعد ساعة من وقوفه إلى جانب الشيخ الظهير في طرف الحلقة. وأدعى الشيخ اعليه عند بقية القضاة أنه حكم فيه لنفسه واعتدى عليه في العقوبة، وقد ظهر أن نائب السلطنة كان إلى جانب الشيخ الظهير ضد قاضي قضاة الشافعية^(١). وهذا ما أدى إلى صدور حكم القاضي شرف الدين المالكي بفسقه وعزله وسجنه، فنقل ابن جملة إلى القلعة، وكان له في القضاء سنة ونصف. وقد أخطأ ابن جملة في حكمه على الشيخ الظهير فال مصيره إلى هذا، رغم أنه كان يباشر القضاء بصرامة وشهامة وإقدام ونزاهة^(٢).

وكذلك كان قاضي القضاة يدفع ثمن الصراع بين السلطان والأمراء، ففي سنة ٧٥٩/١٣٥٨، عزل صرغتمش، أتابك أمراء مصر، قضاة القضاة الثلاثة بدمشق وهم الشافعي والحنفي والمالكي وولى قضاء الشافعية بهاء الدين أبو البقاء السبكي، وقضاء الحنفية جمال الدين بن السراج، وقضاء المالكية شرف الدين أحمد بن شهاب الدين العراقي البغدادي^(٣). ولكن سرعان ما اعتقل صرغتمش فرسم السلطان بإعادة قضاء الشافعية لتاج الدين السبكي، والحنفية لشرف الدين الكفري، في حين استمر شرف الدين العراقي على قضاء المالكية، لأن السلطان هو الذي كان قد سيره من مصر لتقلد قضاء دمشق^(٤).

وأحياناً، لا ينتظر قاضي القضاة أن يعزله أحد عن القضاء، فيبادر هو لعزل نفسه عندما يشعر بالتعب من هذا المنصب. فقد عزل قاضي قضاة الحنابلة شمس الدين بن أبي عمر المقدسي نفسه عن القضاء^(٥)، وفعل مثله زين الزواوي قاضي قضاة المالكية

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ج٤ ص ١٦٥.

(٢) المصدر نفسه ج٤ ص ١٦٦.

(٣) المصدر نفسه ج٤ ص ٢٦١، ٢٦٢.

(٤) المصدر نفسه ج٤ ص ٢٦٢، ٢٦٣.

(٥) المصدر نفسه ج١٣ ص ٢٩٤.

ليتقلد القضاء مكانه نائبه جمال الدين الرازي (ت ٦٨٣/١٢٨٤)^(١). ووصل الأمر أحياناً إلى إلحاح نائب السلطنة الأمير يلغا على قاضي القضاة عز الدين عبد العزيز بن بدر الدين بن جماعة الشافعي، بأن لا يعزل نفسه عن قضاء قضاة الشافعية بمصر سنة ٧٦٦/١٣٦٤، لكنه أصر على موقفه فتولى مكانه بهاء الدين السبكي الشافعي^(٢).

وبالإضافة إلى المحاكمة والسجن والعزل، يتعرض قاضي القضاة أحياناً للنفي. ففي يوم الثلاثاء ١٢ شعبان سنة ٧٦٠/١٣٥٨، حمل البريد المرسوم الشريف بنفي قاضي القضاة بهاء الدين أبي البقاء الشافعي من دمشق إلى طرابلس بلا وظيفة، فشق عليه وعلى أهله، وتغمم له كثير من الناس. وسافر يوم الجمعة وقد أذن له في الاستنابة في جهاته، فاستناب ولده الكبير عز الدين^(٣). وفي يوم الخميس ١٨ صفر سنة ٧٦١/١٣٥٩، قدم قاضي القضاة بهاء الدين أبو البقاء من طرابلس بمرسوم شريف أن يعود إلى دمشق على وظائفه المبقاة عليه، فتلقاها كثير من الناس أثناء الطريق، وبرز إليه قاضي القضاة تاج الدين إلى حرستا، وراح الناس إلى تهنتته في داره، وفرحوا برجوعه إلى وطنه^(٤).

ولا بد من الإشارة أخيراً، إلى الضغوط التي يتعرض لها قاضي القضاة الذي لم ينج من تسلط النساء على الحكم ومن ثم تدخلهن في أمور القضاء. فالسيدة شغب أم المقتدر (ت ٣٢١/٩٣٣)^(٥) كانت تتدخل في أمور الوزراء وكبار الموظفين، وكانوا

(١) جمال الدين أبو يعقوب يوسف بن عبد الله بن عمر الرازي (ت ٦٨٣/١٢٨٤) : قاضي قضاة المالكية ومدرسهم بعد القاضي زين الزواوي الذي عزل نفسه، وقد كان ينوب عنه فاستقل بعده بالحكم، وكان عالماً فاضلاً قليل التكليف والتكلف. توفي وهو في طريق الحججاز.

ابن كثير : البداية والنهاية. ج ١٣ ص ٣٠٥.

(٢) المصدر نفسه ج ١٤ ص ٣١١.

(٣) المصدر نفسه ج ١٤ ص ٢٦٦.

(٤) المصدر نفسه ج ١٤ ص ٢٦٨، ٢٦٩.

(٥) السيدة شغب (ت ٣٢١/٩٣٣) : كانت وحدها يطلق عليها إسم السيدة. وكانت مولاة الخليفة المعتضد، وقد تنعمت بما لم يتنعمه أحد، وتملك أراضي واسعة وكان مدخولها السنوي من أملاكها ألف ألف دينار. كما كانت تحضر مجالس شرب ولدها المقتدر مع جواريه. وعندما قتل المقتدر قبض عليها القاهر فعذبها وأجبرها على الإقرار ببيع أملاكها وماتت بعد مقتل ولدها المقتدر بسبعة أشهر وثمانية أيام سنة ٣٢١ هـ.

التنوشي : نشوار المحاضرة : ج ١ ص ١٦٤ و ٢١١ - ٢٢٠ و ٢٤٢ - ٢٤٤ و ٢٨٧ و ٢٩٢ - ٢٩٤، ج ٢ ص ٧٦ - ٧٩، ج ٤ ص ١٤٥ - ١٤٩ و ١٧٧ - ١٩٠، ج ٥ ص ٥١ و ٥٢ و ٥٨ و ٦٧، ج ٦ ص ٨٠، ج

جميعاً يسعون إلى كسب رضاها ورضى القهرمانة أم موسى^(١) التي سيطرت أيضاً على أمور الدولة. وقد حاولت السيدة القهرمانة التدخل في شؤون القضاء والضغط على قاضي القضاة أبي جعفر الذي آثر أن يصرف من القضاء على أن يساعد السيدة والقهرمانة^(٢). وإن كان قاضي القضاة قد انتصر في وقفته الجريئة وناصره الخليفة المقتدر بذلك، فإن بعض القضاة عانوا الذل من النساء والقهرمانات. فقد كان للأخشيدي بمصر قهرمانة إسمها «سماية» بلغ من تأثيرها أن خصومة حصلت بين خليفة قاضي مصر الذي نصبه المطيع وبين أحد الشهود فأسقط القاضي شهادته وكتب حكماً بذلك، فشكا إليها الشاهد ذلك، فأحضرت القاضي وأمرته بإحضار السجل فأحضره، فمزقت الحكم الذي أسجل فيه إسقاط شهادة الشاهد^(٣). كما كان دار القهرمانة زيدان^(٤)، داخل دار الخلافة زمن المقتدر، بمثابة سجن يعتقل فيه وجوه الدولة والوزراء.

وهكذا نلاحظ أن من يعطي السلطة يستطيع أن يسحبها، فقاضي القضاة يعينه الخليفة أو نائبه ويستطيع عزله. والذي يتضح من مراجعة اختصاص منصب قاضي القضاة أن شاغل هذا المنصب أخذ صلاحياته لحماية القضاة من الولاة، والقضاة أصبحت صلتهم مرتبطة بقاضي القضاة تعييناً ومتابعة وعزلاً. وبهذا لم يعد للولاة ورجال السياسة سلطان عليهم. ومن الطبيعي أن القاضي إنسان ومن الممكن أن يزل أو يخطيء خطيئة تستوجب العزل، وهو بهذا يستحق العزل حرصاً على مصالح الحق والناس، وإلا فلا يجور عزله.

= ٧ ص ٢٣٣ - ٢٣٤، ج ٨ ص ٣٩ و ٢٦٨. الفرج بعد الشدة : ج ٢ ص ٤٤ - ٤٦ و ١٤١، ج ٣ ص ٣٢، ٩٩، ج ٤ ص ٣٧ و ٣١١ و ٣١٤ و ٣٦٢ و ٣٦٥ و ٣٦٦ و ٣٦٨.

ابن الجوزي : المنتظم ج ٦ ص ٢٥٣.

(١) القهرمانة أم موسى : أصل عمل القهرمانة في بلاط الخليفة أن تؤدي الرسائل عن الخليفة، ولكن ضعف الخلفاء واحتجابهم في قصورهم وتسلب النساء أدى إلى سيطرة القهرمانة. وعينت أم موسى قهرمانة في قصر الخليفة سنة ٢٩٩ هـ، وسيطرت سيطرة عظيمة وأثرت إثراء فاحشاً. وسنة ٣١٠ هـ سقط عليها الخليفة وقبض عليها وصادر منها ألف دينار بعد أن اتهمها بمحاولة إزاحته عن الحكم.

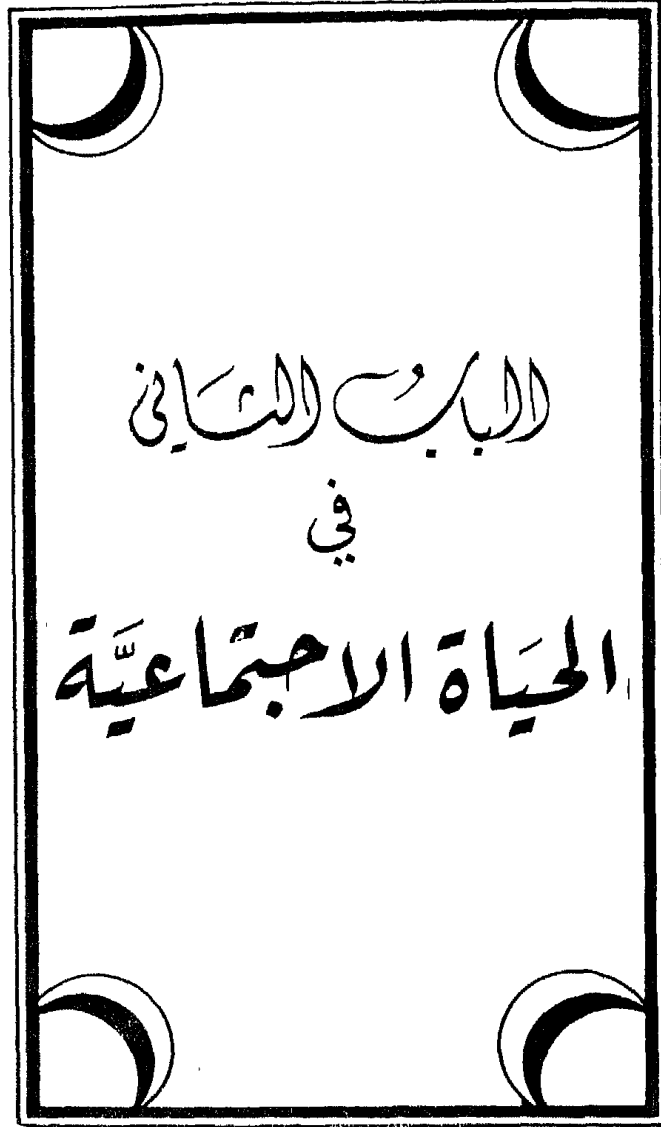
التنوخي . نشوار المحاصرة ج ٥ ص ٥١ - ٥٢؛ ج ٨ ص ٨٥ - ٨٦. الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٤٤ و ٤٦ : ابن مسكويه : تجارب الأمم ج ١ ص ٢٠ و ٨٣ و ٨٤.

ابن الجوزي : المنتظم ج ٦ ص ١٦٦.

(٢) التنوخي : نشوار المحاصرة ج ١ ص ٢٤٢ - ٢٤٣؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج ١١ ص ١٦٥.

(٣) الكندي : الولاة والقضاة ص ٥٦٨.

(٤) التنوخي : نشوار المحاصرة ج ٥ ص ٤.



كان قاضي القضاة رأس السلطة القضائية، وقد فرض عليه منصبه الكبير أدباً وسلوكاً معيناً في حياته الإجتماعية الخاصة من هيبة ووقار وأخلاق عالية، مما أحاطه بهالة من الجدية والرزانة. ولكن هذا الأمر لم يجعل قاضي القضاة متفوقاً ويعيش في عزلة، بل كان يحضر مجالس الشعر والأدب حيث يقول أو يقال فيه الشعر والنوادر، أو يميل إلى أهل العلم والتأليف حتى وضع هو بنفسه الكتب في الفقه والقضاء والتاريخ. . . ومع ذلك، لم يمنع هذا كله القلة القليلة من قضاة القضاة أن تحضر مجالس اللهو والشرب، وأن تتهم بالرشوة والفساد، مما أتاح الفرصة للمغرضين بالإفتراء واتهام بعض قضاة القضاة باللواط والولع بالغلمان.

الفصل الأول

أبو يوسف^(١)

من الفقر وملازمة أبي حنيفة
إلى أول قاضي قضاة وملازمة الرشيد .
(١١٣ - ١٨٢ / ٧٣١ - ٧٩٨)

يعتبر أبو يوسف أول من تقلد منصب قاضي القضاة في الإسلام، وذلك بسبب حظوته لدى الخليفة هارون الرشيد (ت ١٩٣/٨٠٨). وقد نظم القضاء فجعل مذهب أستاذه الإمام أبي حنيفة المذهب الرسمي للدولة العباسية.

١ - نشأته فقيراً وتلمذه على الإمام أبي حنيفة :

أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم بن حبيب بن حنيس بن سعد بن حسنة الأنصاري . وسعد بن حسنة هو أحد الصحابة، وحسنة هي أمه، وأبوه بجير بن معاوية^(٢).

ولد أبو يوسف في الكوفة سنة ١١٣/٧٣١^(٣) من أسرة فقيرة، كان صغيراً عندما

(١) ترجمته في .

التنوخي : نشوار المحاضرة جـ ١ ص ٢٥٦ - ٢٥٤ وجـ ٣ ص ٩٧ - ٩٨ وجـ ٦ ص ٢٠٢ - ٢٠٤ وجـ ٧ ص ٧٦ - ٧٧ الفرح بعد الشدة : جـ ١ ص ٣٦٢ - ٣٦٥ وجـ ٢ ص ٣٨٧ وجـ ٣ ص ٣٠٧ . المستجد ص ١٥٣ - ١٥٦ .

ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٦ ص ٣٧٨ - ٣٩٠ . ابن النديم : الفهرست ص ٢٠٣ . ابن العماد : شذرات الذهب جـ ١ ص ٣٩٨ . ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ١٠٧ . وكيع القاضي : أخبار القضاة جـ ٣ ص ٢٥٤ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١٨٠ - ١٨٢ ؛ الذهبي : العبر جـ ١ ص ٢٨٤ . الزركلي : الأعلام جـ ٩ ص ٢٥٢ ؛ عصام شبارو : القضاء والقضاة ص ٢٣٣ - ٢٤١ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٦ ص ٣٧٨ .

ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١٨٠ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٦ ص ٣٨٨ .

توفي والده فاشتغل قصاراً^(١)، عاش في فقر شديد ومع ذلك لم يمنعه سوء أحواله من ملازمة الإمام أبي حنيفة لطلب العلم، فكان ينقطع بملازمته له عن طلب الرزق مما زاد في تدهور وضع بيته، وعندما يعود إلى أمه^(٢) لا يجد ما يقتات به. وهذا يدل على تعلق أبي يوسف بالعلم وملازمته لأبي حنيفة حتى شغله هذا الأمر عن العمل في سبيل لقمة العيش، مما أثار أمه التي كانت تأخذه من مجلس أبي حنيفة وتقول له: لا تمد رجلك مع أبي حنيفة فإن خبزه مستوى وأنت تحتاج إلى المعاش^(٣)، وبذلك انقطع عن مجالسة أبي حنيفة وأثر طاعة أمه والعمل في سبيل الرزق. لكن أبا حنيفة تفقده وسأل عن انقطاعه عنه، فلما عرف أمره أعطاه صرة فيها مائة درهم وتعهدته حتى يتفرغ للجلوس معه، وكان يسري عنه ويقول له أنه سيأكل اللوزينج بالفسق المقشور^(٤) ذات يوم بعد تمرسه بالعلم والفقہ. وثابر على دروس أبي حنيفة حتى إنه مات له ولد فأمر من يتولى دفنه، ولم يدع مجلس أبي حنيفة خوفاً من أن يفوته منه يوم.

والواقع إن علاقة أبي يوسف بأستاذه أبي حنيفة وتمرسه بالفقہ أتاحت له الفرصة لأن يصبح فقيهاً حافظاً للقرآن والحديث وقد غلب عليه الرأي والقياس تأثراً بأبي حنيفة فقد كان تابعاً له، ومع ذلك كان يخالفه أحياناً ويبدى آراءً لم يقل بها أبو حنيفة، ذلك إنه جالس الكثير من الفقهاء وأبرزهم محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى^(٥).

ومرض أبو يوسف مرضاً شديداً كاد أن يقضي عليه فزاره أستاذه أبو حنيفة ومعه تلميذه محمد بن الحسن، فقال أبو حنيفة جملة المشهورة: «إن يميت هذا الفتى فإنه أعلم من عليها»، وأوماً إلى الأرض^(٦)، وهذه شهادة من الإمام بمكانة أبي يوسف في الفقہ. كما قال أيضاً لتلميذ له يدعى زفر أراد منافسة أبا يوسف: «لا تطمع في رئاسة

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٢٤٤.

ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ٣٨٠.

(٢) التنوخي: الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٣٨٧، وجاء أنها زوجته في نشوار المحاضرة ج ١ ص ٢٥١.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ٣٧٨.

(٤) التنوخي: الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٣٨٧.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ٣٧٩.

الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٢٤٢.

(٦) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٦ ص ٢٠٢.

ببلدة فيها أبو يوسف»^(١). وبالمقابل كان أبو يوسف يعترف بتفوق أستاذه فيقول: «ما رأيت أحداً أعلم بتفسير الحديث ومواضع النكت التي فيه من الفقه من أبي حنيفة»^(٢).

ومن أقواله المشهورة: من طلب المال بالكيما أفلس، ومن تتبع غرائب الحديث كذب، ومن طلب العلم بالكلام تزندق^(٣).

٢ - تحسن أحواله بعد تقربه من الرشيد:

وبعد وفاة أبي حنيفة ترك أبو يوسف الكوفة وقصد بغداد في أيام هارون الرشيد. وبدأت أحواله تتحسن عندما جيء به إلى أحد قواد الخليفة يستفتيه في حنث يمين فأفتاه أنه لم يحنث فوهب له دنانير وداراً بالقرب منه^(٤). ثم طلب هارون الرشيد فقيهاً يستفتيه بعد أن شاهد ابنه يزني، فجاء له هذا القائد بأبي يوسف فسأله: ما تقول في إمام شاهد رجلاً يزني هل يحده؟ قال أبو يوسف: لا يجب ذلك لأن الرسول قال: «ادروا الحدود بالشبهات»، وهذه شبهة يسقط الحد معها. فقال الرشيد: وأي شبهة مع المعاينة؟ قال أبو يوسف: ليس توجب المعاينة أكثر من العلم بما جرى، والحكم في الحدود لا يكون بالمعاينة ولا يكون بالعلم لأن الحد حق الله تعالى، والإمام مأمور بإقامة الحد، فكأنه قد صار حقاً له وليس لأحد أخذ حقه بعلمه ولا تناوله بيده، وقد أجمع المسلمون على وقوع الحد بالإقرار والبينة ولم يجمعوا على إيقاعه بالعلم»^(٥).

والواقع أن أبا يوسف كان على حق في فتواه فالحدود لا تقام بشهادة الإمام^(٦)، فإذا رأى الخليفة أو الحاكم أو القاضي رجلاً قد زنى لا ينبغي أن يقيم عليه حد

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ٣٨٣.

(٢) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٧ ص ٣٦.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٨٠.

(٤) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ١ ص ٢٥٢.

(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٥٣.

(٦) أحمد البهنسي: موقف الشريعة ص ١٣١ - ١٣٤.

الزنى^(١) برويته لذلك حتى تقوم عنده بينة وشهود، أو إذا أقر الزاني بفعله، وحيث إن الإبن لم يقر بفعله كما لم يثبت الزنى عليه بشهادة أربعة من الرجال فقد سقط عنه الحد. وهكذا سرّ هارون الرشيد من فتوى أبي يوسف، وأمر له بمال جليل ورزق في الفقهاء كل شهر. كما حصل أبو يوسف على هدية من الإبن الزاني وهدية أمه اعترافاً بفضله في عدم إقامة حد الزنى.

وتحسنت أحوال أبي يوسف وأخذ الرشيد يستفتيه في أموره الخاصة، ومنها على سبيل المثال أن الرشيد فقد عقد جوهر فاتهم جارية من جواريه وحلف بالطلاق والعتاق والحج حتى تعترف فأنكرت، وخاف الرشيد أن يكون قد حنث بيمينه فاستدعى أبا يوسف يستفتيه^(٢). وهنا تجلت براعة أبو يوسف عندما اتفق مع الجارية وطلب من الرشيد أن يسألها ثلاث مرات متوالية عن العقد، فلما سألها أنكرت في المرة الأولى، واعترفت في الثانية، ثم أنكرت في الثالثة. فاستغرب الرشيد وقال له أبو يوسف: لقد خرجت من يمينك لأنها أخبرتك أنها أخذته، وأخبرتكم أنها لم تأخذه فلا يخلو أن تكون صادقة في أحد القولين^(٣)، فسر الرشيد من فتوى أبي يوسف.

(١) حد الرمي . تدرج الشرع الإسلامي في فرض العقوبة على الزنى فأول ما نزل قوله تعالى : «واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت ، أو يجعل الله لهن سبيلاً» (سورة النساء آية ١٥) وهذا نوع من العقوبة فرضها الشارع على المرأة الرانية دبر الرجل وهو الحس بالمنزل حتى الموت . وعندما كثر الزناة نزلت الآية : «واللذان يأتياهما منكم فأذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان تواباً رحيماً» (سورة النساء آية ١٦) وهكذا أصبحت العقوبة تطال الزاني والزانية وتكون بالتوبيخ والتعير أو الصرب . كما نزلت الآية : «ولا تقربوا الزنى أنه كان فاحشة وساء سبيلاً» (سورة الإسراء آية ٣٢) . ثم نزلت الآيتان : «الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ، الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين» (سورة النور آية ٢ و٣) . كما نزلت آية «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله» وقد نسخت هذه الآية ولم ترد في المصاحف ومع ذلك بقي الحكم معمولاً بها .

وبذلك فرقت الشريعة الإسلامية بين حد غير المحصن (غير المتزوج) وحد المحصن (المتزوج) فخففت العقوبة في الأولى وجعلتها مائة جلدة، وغلظت العقوبة في الثانية فحعلتها الرجم بالحجارة حتى الموت . فالحل ثابت بالنص القرآني القاطع، وأما الرجم فقد ثبت بفعل النبي وقوله .

(٢) التوخي : نشوار المحاضرة ج ٧ ص ٧٦ .

(٣) المصدر نفسه ج ٧ ص ٧٧ .

وعندما أراد الرشيد شراء جارية من عيسى بن جعفر الذي كان قد حنط يميناً بالطلاق والعتاق وصدقة ما يملك أن لا يبيع الجارية ولا يهبها. فقال أبو يوسف في فتواه للرشيد: يهب لك نصفها ويبيعك نصفها فيكون لم يهب ولم يع. وعندها وهب عيسى للرشيد نصف الجارية وباعه النصف الباقي بمائة ألف دينار، وكانت الجارية مملوكة فرفض الرشيد أن يبيت معها، فقال أبو يوسف: اعتقها ثم تزوجها. وهكذا تزوجها على عشرين ألف دينار وأعطى أبو يوسف مائتي ألف درهم بعشرين تخناً ثياباً، كما أرسلت له الجارية التي تزوجها الرشيد نصف المهر. أي عشرة آلاف دينار عرفاناً بالجميل^(١).

وهكذا أصبحت فتاوي أبي يوسف للرشيد مشهورة حتى وردت إحداها في كتاب ألف ليلة وليلة^(٢)، مما يدل على المكانة التي وصل إليها أبو يوسف في الفقه، حتى سر منه الرشيد.

وأخذت مكانة أبو يوسف ترتفع عند الرشيد، فكان يلازمه في مجالسه وتجوّاله، وحضر زواج ابنته الغالية^(٣)، حتى أصبح من خاصته، فحضر يوماً إليه فقدم له طبقاً فيه لوزينج بالفستق فأكل منها أبو يوسف وبكى^(٤)، بعد أن تذكر أستاذه أبا حنيفة ونبوءته له بأكل اللوزينج بالفستق. وأصبح هارون الرشيد يأنس بأبي يوسف ولا يطيق فراقه، وبلغ من محله عنده أن طلبه يوماً فجاء وعليه بردة أنسابه فحين رآه الرشيد قال لمن حوله^(٥):

جاءت به معتجراً ببردته سفواء ترمي بنسيج وحده

وهذه المكانة، جعلته يصبح أول من تقلد منصب قاضي القضاة.

٣ - أول قاضي قضاة في الإسلام:

يذكر ابن خلكان أن أبا يوسف تقلد القضاء ببغداد أيام المهدي

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٦ ص ٣٨٤ - ٣٨٦.

(٢) مجهول : ألف ليلة وليلة م ٢ ليلة ٣٣٤ - ٣٣٥ ص ٣٢٨ - ٣٣٠.

(٣) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ١ ص ٢٥٢، الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٣٨٨.

(٤) التنوخي : الفرج بعد الشدة ج ١ ص ٣٦٤؛ المستجد ص ١٥٥. وجاء أن أبا يوسف «صحك» في ابن

خلكان : وفيات الأعيان ج ٦ ص ٣٨٠ و«تبسم» في ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٨٠.

(٥) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ١ ص ٢٥٤.

(ت ١٦٩/٧٨٥) والهادي (ت ١٧٠/٧٨٦)^(١)، في حين يذكر التنوخي أن الرشيد طلب فقيهاً يستفتيه ولما أعجب به قلده القضاء^(٢)، مما ينفي أنه ولي القضاء للمهدي والهادي. لذلك لا نستطيع الجزم متى تقلد القضاء. ولكنه من المؤكد أنه أول من تقلد منصب قاضي القضاة في الإسلام، لأنه عندما اتسعت الدولة العباسية وجد الرشيد ضرورة تنظيم القضاء، فابتكر منصب قاضي القضاة وقلده لأبي يوسف الذي يحتل مكانة خاصة عنده، وبذلك استقل أبو يوسف في أمور القضاء والقضاة في الدولة فهو الذي يعين القضاة ويراقب أعمالهم ويعزلهم عند الاقتضاء، حتى لقب بقاضي قضاة الدنيا^(٣)، لأنه كان يستنوب القضاة في سائر الأقاليم التي يحكم فيها الخليفة.

وكان زي القضاة والعلماء هو العمامة الفارسية، فكان أبو يوسف أول من ابتكر زياً خاصاً بالقضاة وهو عبارة عن «عمامة سوداء وطيلسان»^(٤)، بعد أن كان ملبوس الناس قبل ذلك شيئاً واحداً، لا يتميز أحد عن أحد بلباسه.

وكان أبو يوسف بعد توليته القضاء، يصلي مائتي ركعة كل يوم^(٥). ومما يذكر، أن الحسن بن عثمان الزياتي (ت ٢٤٢/٨٥٦)^(٦)، الذي أصبح قاضياً، كان من غلمان أبي يوسف.

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٦ ص ٣٧٩ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٨٠ .

(٢) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ١ ص ٢٥٣ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٨٠ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٦ ص ٣٧٩ .

(٥) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٦ ص ٢٠٤ .

(٦) القاضي أبو حسان الحسن بن عثمان الزياتي (ت ٢٤٢/٨٥٦) : كان من غلمان أبي يوسف، وتقلد القضاء قديماً، ثم تعطل. كما كان من خاصة قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد وقد قلده المتوكل القضاء سنة ٢٤١هـ، أي بعد وفاة ابن أبي دؤاد بسنة. ومما استلفت النظر أن القصص التي يوردها أبو حسان في مؤلفات التنوخي تشتمل على الثناء عليه والإطراء له وهو المخبر بها وحده، فيذكر اهتمام النبي به وتشده على الخليفة في العناية به، كما ادعى أنه رأى الله سبحانه وتعالى ولما طولب بالإيضاح قال : أنه رأى في منامه نوراً. ومات أبو حسان وهو قاضي الشرقية سنة ٢٤٢هـ .

التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٢ ص ٢٣٤ - ٢٣٩ ؛ الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٢٢٣ - ٢٣٢ .

الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ٧ ص ٣٥٧ .

٤ - تنظيم القضاء على مذهب أستاذه أبي حنيفة :

لم يفكر أحد في تقييد القاضي بالقضاء برأي معين، لأن القضاة كانوا يختارون من المجتهدين فقط، إلى أن تولى أبو يوسف منصب قاضي القضاة في بغداد، فأصبح لا يشير بتولية قاضي في أنحاء الدولة إلا إذا كان من أتباع أبي حنيفة، مما جعل كل راغب في تقلد القضاء ينتقل من مذهبه إلى مذهب أبي حنيفة، الذي أصبح المذهب الرسمي للدولة العباسية. وهكذا كان أبو يوسف وفياً لأستاذه فخلد اسم أبا حنيفة بأن نشر المذهب الحنفي مستغلاً سلطته القضائية ونفوذه لدى هارون الرشيد. ولم يكتف بذلك بل حفظ المذهب الحنفي من الضياع فأبو حنيفة لم يدون آراؤه في كتاب، بل كان أبو يوسف أول من دون من تلاميذ أبي حنيفة وأخرج كتاباً^(١) مثل كتاب الأثار وكتاب الرد على سير الأوزاعي وكتاب اختلاف الأمصار وكتاب الرد على مالك بن أنس، ولكن لم يصلنا منها إلا كتابان هما «الخراج» و«اختلاف أبي حنيفة وابن أبي ليلى». والخراج عبارة عن رسالة كتبها أبو يوسف إلى هارون الرشيد عن الخراج والعشور والصدقات والجزية، أما الكتاب الثاني فيحوي مسائل كثيرة اختلف فيها أبو حنيفة وابن أبي ليلى، ومنها إختلاف عن امرأة مجنوننة شتمت رجلاً قائلة: يا ابن الزانيين^(٢)، بحضور قاضي الكوفة ابن أبي ليلى الذي أدخلها المسجد وأقام عليها حد القذف^(٣) مرتين، حداً لأبي الرجل وحداً لأمه، فبلغ ذلك أبو حنيفة الذي قال: «أخطأ فيها في ستة مواضع، أقام الحد في المسجد ولا تقام الحدود في المساجد، وضربها قائمة والنساء يضربن قعوداً، وضرب لأبيه حداً ولأمه حداً، ولو أن رجلاً قذف جماعة كان عليه حد واحد، وجمع بين حدين، ولا يجمع بين حدين حتى يقطع أحدهما،

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٢٠٣ .

(٢) التنوخي : نشورا المحاضرة ج ٧ ص ٣٨ .

(٣) حد القذف : القذف لغة الرمي بالشيء وشرعاً الرمي بالزنى . لا تعاقب الشريعة الإسلامية على القذف إلا إذا كان كذباً وافترافاً ومخالفة للواقع، وفي هذه الحال يعتبر القذف جريمة من الجرائم الشنيعة التي حاربها الإسلام لذلك قال تعالى : «والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم» (سورة النور آية ٤ و٥).

فشروط إثبات القذف هي إقرار المقذوف نفسه أو وجود أربعة شهود من الرجال، وعند الشيعة تقبل شهادة ثلاثة رجال وإمرأتان، فإن لم يأت بأربعة شهود لإثبات الزنى، فإن الشرع يعاقب القاذف بالزنى بثمانين جلدة

والمجنونة ليس عليها حد، وحد لأبويه وهما غائبان لم يحضرا فيدعيان»^(١).
وعلى كل فموقف أبي حنيفة هو الصواب ويكفي أن المرأة مجنونة حتى لا يقام
عليها حد القذف، فأهم شروط إقامة الحد أن يكون المتهم «عاقلاً».
ويهمنا من هذه القصة أن الخلاف يقع دائماً بين الفقهاء والقضاة فلا عجب إن
اختلف أبو حنيفة وابن أبي ليلى، ولكن العجب أن ينتقل الخلاف إلى تلميذي أبي
حنيفة اللذين نشرا مذهبه وهما أبو يوسف ومحمد بن الحسن. فإذا كان أبو يوسف قد
تقلد أعلى منصب قضائي في الدولة فإن محمداً بن الحسن وصل إلى مكانة تضارع
مكانة أبي يوسف، حتى صار المرجع لأهل الرأي، وقد خلق ذلك وحشة بين الرجلين
وكان محمد بن الحسن يذكر أبا يوسف وآراؤه عندما يؤلف كتبه، وعندما استحكمت
الوحشة بينه وبين أبو يوسف كان يدون آخر كتبه «السير الكبير»، لذلك لم يذكره فيه
وكان كلما احتاج للرواية عن أبي يوسف قال حدثني الثقة.

ولا تقلل شهادته بعد ذلك إلا إذا تاب لله. ومن الشروط النطق بعبارة القذف بألفاظ صريحة تعبر عن الزنى،
ويجب أن تتوفر في القادف العقل والبلوغ والحرية فالحد عقوبته ٤٠ جلدة، أي النصف. ولا يشترط فيه أن
يكون مسلماً فالدمي يحد إن قذف، وثبتت جريمة القذف بشهادة رجلين أو إذا أقر القاذف بجريمته، أما إذا
كان القادف بالزنى هو الزوج، ولم يكن لديه تهود على تهمته فعليه أن يشهد أربع شهادات أنه صادق، ثم
شهادة حامية بأن لعنة الله عليه في حال كذبه، فإن اعترفت المرأة وقع عليها حد الزنى، وإن لم يتعرف
عليها أن تشهد أربع شهادات بأن زوجها كاذب تم شهادة حامية بأن لعنة الله عليها إن كان زوجها صادقاً،
وبذلك تتخلص من حد الزنى. لذلك قال تعالى: «والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهود إلا
أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين
ويدروا عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من
الصادقين ولولا فضل الله عليكم ورحمته وإن الله تواب حكيم» (سورة النور الآيات ٦ - ١٠). فالمصلحة
العامة تقتضي معاقبة القاذف بالزنى، ولا يستحق اعتبار شخصه في هذه الجريمة فإنه لا يستحق المراعاة،
فإنه كره إظهار الزنى والتكلم به، وتوعد من يحب إتباعه بين المؤمنين بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة،
فقال تعالى: «إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله
يعلم وأنتم لا تعلمون» (سورة النور آية ١٩). وكذلك قال تعالى: «إن الذين يرمون المحصنات الغافلات
المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم، يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا
يعملون» (سورة النور آية ٢٣ و ٢٤).

(١) التوحي : شوار المحاضرة جـ ٧ ص ٣٨ و ٣٩

وكان يحضر في مجلس حكم أبي يوسف، العلماء على طبقاتهم، حتى إن الإمام أحمد بن حنبل، وكان شاباً، حضر مجلسه^(١). وكذلك تناظر أبو يوسف مع الإمام مالك في المدينة بحضرة الرشيد في مسألة الصاع وزكاة الخضراوات. وقد احتج مالك ما استدعى به من تلك الصيصان المنقولة عن آبائهم وأسلافهم، وبأنه لم يكن الخضراوات يخرج فيها شيء في زمن الخلفاء الراشدين^(٢). فقال أبو يوسف: لو رأى صاحبي ما رأيت لرجع كما رجعت. وهذا انصاف منه^(٣).

وقال يحيى بن معين، كنت عند أبي يوسف فجاءته هدية من ثياب ديبقي وطيب وفانيل ند وغير ذلك، فذاكرني رجل في اسناد حديث «من أهديت له هدية وعنده قوم جلوس فهم شركاؤه». فقال أبو يوسف: إنما ذاك في الأقط والتمر والزبيب، ولم تكن الهدايا في ذلك الوقت ما ترون، يا غلام ارفع هذا إلى الخزانة، ولم يعطهم منها شيئاً^(٤). لذلك فلا غرو إن وصفه أبو حنيفة قائلاً: إنه أعلم أصحابه، وقال المزني: كان أبو يوسف اتبعهم للحديث، وقال ابن المديني: كان صدوقاً. وقال ابن معين: كان ثقة. وقال أبو زرعة: كان سليماً من التجهم^(٥).

٥ - موقفه من ابن جامع المغني:

بحكم تقربه من الخليفة هارون الرشيد، عرف أبو يوسف جماعة المغنين المقربين من الخليفة مثل إبراهيم الموصلي (ت ١٨٨/٨٠٤)^(٦) وابن جامع السهمي

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٨١ و ٣٢٦.

(٢) المصدر نفسه ج ١٠ ص ١٨٠.

(٣) المصدر نفسه ج ١٠ ص ١٨١.

(٤) المصدر نفسه ج ١٠ ص ١٨١.

(٥) المصدر نفسه ج ١٠ ص ١٨٠.

(٦) إبراهيم الموصلي (ت ١٨٨/٨٠٤) أبو إسحق النديم، ولد سنة ٧٤٣/١٢٥، وهو فارسي الأصل، أجاد الغناء الفارسي والعربي، كان الخليفة المهدي أول من سمعه، ثم أصبح من ندماء الرشيد الذي استصحبه معه إلى الشام. توفي ببغداد.

الزركلي: الأعلام ج ١ ص ٥٨ - ٥٩.

(ت ١٩٢/٨٠٨) ، ولكنه كان حذراً جداً في علاقته بهم . ويذكر أن أبا يوسف أعجب بابن جامع بعد أن حاوره واعتبره رجل من قريش وأهل مكة من الفقهاء . وعندما أخبر أنه ابن جامع المغني ، أخذ قاضي القضاة أبو يوسف يتعد عنه^(٢) ، ويتحاشى اللقاء به ، فرجع ابن جامع صوته مرة ، وقال : يا أبا يوسف مالك تنحرف عني ؟ أي شيء أنكرت ؟ .

وهذا يوضح موقف قاضي القضاة من المغنين ومن المولعين بالقمار ومهارشة الكلاب ، فقد اشتهر ابن جامع المغني بولعه بالكلاب^(٣) .

ومما يذكر أن أبا يوسف قال لأحد رجال المدينة المنورة : ما أعجب أمركم يا أهل المدينة في هذه الأغاني ، ما منكم شريف ولا ذنيء يتحاشى عنها . فغضب الرجل ، وقال : قاتلكم الله يا أهل العراق ما أوضح جهلكم وأبعد من السداد رأيكم ، متى رأيت أحداً سمع الغناء فظهر منه ما يظهر من غنائكم ، هؤلاء الذين يشربون المسكر فيترك أحدهم صلاته ويطلق امرأته ويقذف المحصنة من جاراته ويكفر بربه ، فأين هذا من هذا؟ فقال أبو يوسف : قطعتني ولم يحرجوا^(٤) .

وتوفي أبو يوسف سنة ١٨٢/٧٩٨ ببغداد^(٥) ، وعمره ٦٩ سنة وهو على القضاء في خلافة هارون الرشيد ، وعندما مات خلف في جملة كسوته مائتي سراويل خز دون غيرها من أصناف السراويلات^(٦) .

(١) ابن جامع (ت ١٩٢/٨٠٨) : هو إسماعيل بن جامع بن إسماعيل بن عبد الله ، ويكنى بأبي القاسم ويعرف بابن أبي وداعة . ولد بمكة ، وأمّه امرأة من بني سهم لذلك عرف أيضاً بابن جامع السهمي . انتقل إلى المدينة المنورة وكان حافظاً للقرآن ، متعبداً ، كثير الصلاة ومع ذلك انتقل إلى احترام العناء وذاعت شهرته حتى أصبح من كبار المغنين المقربين من هرون الرشيد . وكان ابن جامع مولعاً بالقمار ومهارشة الكلاب وقد اقتنى دفترأ قيد فيه أسماء الكلاب .

ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٦ ص ٩ و ٣١ و ٣٢ و ٣٧ .

الأصفهاني : الأغاني ج ٦ ص ٢٧٣ - ٣٠٧ ؛ النويري : نهاية الارب ج ٤ ص ٣٢٤ - ٣٢٦ .

ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٠ ص ٢٠٧ - ٢٠٨ ؛ الزركلي : الأعلام ج ١ ص ٣١١ .

(٢) الأصفهاني : الأغاني ج ٦ ص ٢٧٣ - ٢٧٧ .

(٣) المصدر نفسه ج ٦ ص ٢٧٨ .

(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٧ ص ٩ .

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٦ ص ٣٨٨ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٨١ .

(٦) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ١ ص ٢٥٤ .

وقبل وفاته بشهور قال: صحبت أبا حنيفة سبع عشرة سنة، ثم انصبت على الدنيا سبع عشرة سنة، وما أظن أجلي إلا أن اقترب^(١). كما يذكر أن أبا يوسف قال في اليوم الذي مات فيه:

«اللهم إنك تعلم أنني لم أجر في حكم حكمت به بين عبادك متعمداً، ولقد اجتهدت في الحكم بما وافق كتابك وسنة نبيك، وكل ما أشكل علي جعلت أبا حنيفة بيني وبينك وكان عندي - والله - ممن يعرف أمرك ولا يخرج عن الحق وهو يعلمه»^(٢).

وبالفعل فمن مآثر أبي يوسف أنه حكم لرجل في ملكية بستان كان بحوزة الخليفة هارون الرشيد^(٣).

ولما توفي أبو يوسف سمع الشاعر أبو يعقوب الخزيمي وكان صديقاً له، رجلاً يقول: اليوم مات الفقه، فأنشد الخزيمي^(٤):

يا ناعي الفقه إلى أهله	إن مات يعقوب ولا يدري
لم يمت الفقه ولكنه	حوّل من صدر إلى صدر
ألقاه يعقوب إلى يوسف	فزال من طيب إلى طهر
فهو مقيم فإذا ما ثوى	حلّ وحلّ الفقه في قبر

ويوسف^(٥) في هذه الأبيات هو ابن قاضي القضاة أبي يوسف وقد تولى القضاء في حياة أبيه على الجانب الشرقي من بغداد، ومع ذلك لم يخلفه بعد وفاته في منصب قاضي القضاة الذي عيّن فيه الرشيد أبا البخترى وهب بن وهب القرشي (ت ٨١٥/٢٠٠)، والذي يعتبر ثاني من تقلد منصب قاضي القضاة في الإسلام^(٦).

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٨١.

(٢) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٦ ص ٢٠٣؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ٣٨٨.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٨١.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ٣٨٩.

الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٢٩٧.

(٥) القاضي يوسف بن يعقوب بن حبيب الأنصاري (ت ٨٠٧/١٩٢): سمع الحديث، وتولى القضاء في الجانب الشرقي من بغداد في حياة أبيه، وصلى الناس الجمعة في مدينة المنصور بأمر هرون الرشيد. ولم يزل على القضاء حتى مات سنة ١٩٢ هـ ببغداد.

الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٢٩٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٠، ص ٢١٢.

(٦) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ٣٧-٤٢.

الفصل الثاني

يحيى بن أكثم^(١)

ومجالس اللهو والشرب والغلمان

(١٥٩ - ٢٤٢ / ٧٧٥ - ٨٥٧)

كان يحيى بن أكثم مقرباً جداً من المأمون، وقد تعرض لحملات اتهمته بأموور شاعت عنه وتناقلها الكتاب، من ولعه بالغلمان إلى تروده على مجالس اللهو والرقص، وإدمانه الخمر.

١ - نشأته وتقلده قضاء القضاة:

هو أبو محمد يحيى بن أكثم بن محمد بن قطن التميمي الأسدي المروزي، ويتصل نسبه بأكثم بن صيفي. حكيم العرب. ولد في مروسنة ٧٧٥/١٥٩، وكان دميم الخلق، وعندما أراد المأمون أن يولي رجلاً على القضاء، حضر يحيى فاستحققه المأمون لذلك، فعلم يحيى ذلك وقال: يا أمير المؤمنين، سلمي إن كان القصد علمي لا خلقي. وعندما سأله في مسألة وعرفها، قلده القضاء^(٢).

(١) ترجمته في:

ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٤٧ - ١٦٥، ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٠ ص ٢٧٥ - ٢٧٨
٣١٦ - ٣١٩ وكيع القاضي: أخبار القضاة ج ٢ ص ١٦١ - ١٦٧؛ الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١٤ ص ١٩١ - ٢٠٤؛ ابن الأثير: الكامل حوادث سنة ٢٤٢ هـ؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢١٧؛ ابن العماد: شذرات الذهب ج ٢ ص ١٠١.

الذهبي: العبر ج ١ ص ٤٣٩؛ الزركلي: الأعلام ج ٩ ص ١٦٦؛ Sourdel: Visirat T 1 P 238-239
وله أخبار في:

التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٥ ص ٢٣٠؛ ج ٦ ص ٤٢ و ٤٣ و ١٠١ و ١٧٤.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٤٨.

وقد ولي قضاء البصرة وعمره عشرون سنة، فاستصغره أهل البصرة، فقال لهم: «أنا أكبر من عتاب بن أسيد الذي وجه به النبي قاضياً على مكة يوم الفتح، وأنا أكبر من معاذ بن جبل الذي وجه به النبي قاضياً على أهل اليمن، وأنا أكبر من كعب بن سور الذي وجه به عمر بن الخطاب قاضياً على أهل البصرة». فجعل جوابه احتجاجاً^(١). وكان يحيى بن أكثم من أدهى الناس، وأخبرهم بالأمور.

وقال طلحة بن محمد بن جعفر: «يحيى بن أكثم أحد أعلام الدنيا، ومن قد اشتهر أمره وعرف خبره، ولم يستتر عن الكبير والصغير من الناس فضله وعلمه ورياسته وسياسته لأمره وأمر أهل زمانه من الخلفاء والملوك. . غلب على المأمون حتى لم يتقدمه أحد عنده من الناس جميعاً، ثم قلده قضاء القضاة وتدير أهل مملكته، فكانت الوزراء لا تعمل في تدبير الملك شيئاً إلا بعد مطالعة يحيى بن أكثم، ولا نعلم أحداً غلب على سلطانه في زمانه، إلا يحيى بن أكثم، وأحمد بن أبي دؤاد^(٢).

وهكذا أضاف المأمون إلى يحيى بن أكثم تدبير أمر مملكته فضلاً عن قضاء القضاة. فازدادت مكانته لديه. وكان حسن العشرة، حلو الحديث، استولى على قلب التأمون حتى أمر بأن لا يحجب عنه ليلاً ولا نهاراً.

وكان يحيى بن أكثم يرافق المأمون في أسفاره وغزواته. فرافقه إلى دمشق سنة ٢١٥/٨٣٠، وقد قدم عليه مال جزيل، فوردت عليه خزائن من خراسان ألف ألف درهم، فخرج يستعرضها وقد زينت الجمال والأحمال، ومعه يحيى بن أكثم^(٣). وكذلك رافقه في غزوة ضد الروم سنة ٢١٦/٨٣١^(٤). وعندما توجه المأمون إلى مصر سنة ٢١٧/٨٣٢، كان معه يحيى بن أكثم، فولاه قضاء مصر، وحكم بها ثلاثة أيام، ثم خرج مع المأمون^(٥).

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٦ ص ١٤٩.

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج١٤ ص ١٩٧؛

ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٦ ص ١٤٧ - ١٤٨.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٠ ص ٢٧٨.

(٤) Sourdél: Visirat T 1 P 238.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٦ ص ١٦٢.

وعندما خرج المأمون إلى فم الصلح^(١)، لحضور حفل زفافه من بوران^(٢)، ابنة وزيره الحسن بن سهل^(٣)، سافر يحيى بن أكثم معه^(٤)، فاستخلف مكانه على الجانب الشرقي من بغداد عيسى بن إبان (ت ٨٣٦/٢٢٢)^(٥). وبوفاة المأمون بويح أخاه المعتصم بالخلافة سنة ٨٣٣/٢١٨، فعزل يحيى بن أكثم عن القضاء ليلزم بيته، وقلد المعتصم منصب قاضي القضاة إلى أحمد بن أبي دؤاد، علماً أن يحيى بن أكثم كان قد ساعد ابن أبي دؤاد في الوصول إلى تقلد القضاء زمن الخليفة المأمون.

وبعد أن تولى المتوكل الخلافة، عزل أحمد بن أبي دؤاد عن منصب قاضي القضاة سنة ٨٥٢/٢٣٧، وأرسل مكانه يحيى بن أكثم من بغداد إلى سامراء، بعد أن قلده منصب قاضي القضاة^(٦).

-
- (١) فم الصلح: كورة فوق واسط، لها نهر مستمد من دجلة على الجانب الشرقي، يسمى فم الصلح، وهو نهر كبير فوق واسط بينها وبين جبل، عليه عدة قرى، وفيه كانت دار الحسن بن سهل وزير المأمون. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٣ ص ٤١٣ و ٩١٧.
- (٢) بوران بنت الحسن بن سهل (ت ٨٨٤/٢٧١): اسمها خديجة، ولقبها بوران. ولدت سنة ١٩١ هـ، وهي زوجة الخليفة المأمون، أنفق والدها الحسن بن سهل في زفافها خمسين مليون درهم. وهي من أكمل النساء أدباً وأخلاقاً.
- المسعودي: مروج الذهب ج ٢ ص ٣٤٨.
- الزركلي: الأعلام ج ٢ ص ٥٦.
- (٣) الحسن بن سهل (ت ٨٥٠/٢٣٦): أبو محمد، وزير المأمون، وأحد كبار القادة والولاة، اشتهر بالذكاء والكرم وحسن التوقيعات. ولد سنة ١٦٦ هـ.
- الزركلي: الأعلام ج ٢ ص ٢٠٧.
- (٤) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٦ ص ١٧٤.
- الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١١ ص ١٥٨.
- (٥) أبو موسى عيسى بن إبان بن صدقة (ت ٨٣٦/٢٢١): صحب محمد بن الحسن الشيباني وتفقه به، واستخلفه يحيى بن أكثم على القضاء بعسكر المهدي في عهد المأمون، ثم تولى القضاء بالبصرة سنة ٢١١ هـ. وكان خيراً فاضلاً سخياً مات سنة ٢٢١ هـ.
- التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٦ ص ١٧٤.
- الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١١ ص ١٥٧.
- (٦) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٦ ص ١٠١.
- الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٨ ص ٢٨٥.

٢ - مجالس الأنس والشراب وموقف الإسلام:

اتهم يحيى بن أكثم بأمور شاعت عنه، وتناقلها الناس في أيامه وتداولها الشعراء، وتتمثل هذه التهم بحضوره مجالس الأنس والشراب وشرب الخمر والولع بالغلمان. فكيف كانت هذه المجالس؟.

كانت مجالس الأنس والشراب^(١) تقوم بحضرة الخليفة أو الوزير أو الأمير والوالي وأصحاب الجاه والنفوذ، والذين يحضرون هذه المجالس يسمون الندماء. وقد وصف القاضي التنوخي الكثير من مجالس الشرب^(٢)، كما وصف ترتيب مجلس الشرب وما فيه من تماثيل العنبر وأواني ماء الورد والصواني والمغاسل وأقداح الشرب، وكيف يختار النبيذ^(٣) ومن يختاره، وكيف يتم السقي ومن يكون الساقى.

وقد اشتهر الخلفاء المتوكل والمقتدر والراضي، وكذلك الملك عضد الدولة البويهى، بمجالس الأنس والشراب^(٤) التي يحضرها القضاة والشعراء والندماء والمغنين. وكانت أكبر هذه المجالس يقيمها عضد الدولة. أما أعظم المجالس التي يتوافد عليها القضاة فكانت تلك التي يقيمها الوزير أبو محمد الحسن بن محمد المهلبى^(٥). وهؤلاء القضاة الذين ينادمون الوزير المهلبى، قال الشاعر السرى

(١) انظر، حبيب الزيات: الخزانة الشرقية ج ١ ص ٦٥ - ٧٣، حيث أفرد فصل خاص برقص القضاة والوزراء والأمراء.

(٢) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٣ ص ٣٩، ١٠٧، ١٠٨؛ ج ٨ ص ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٦.

المستجاد ص ٦٠، ٧٦، ١٥٤.

(٣) النبيذ: الخمر المعتصر من العنب أو التمر أو العسل، وسمي نبيذاً لأن الذي يتخذه يأخذ تمراً أو زيبياً فيلقه في وعاء ويصب عليه الماء وينبذه حتى يغور ويصير مسكراً، والمطبوخ منه هو الذي يعرض على النار، وخير أنواع النبيذ القطريلى من نتاج قطرئيل، وهي إحدى ضواحي بغداد وهي مشهورة بخمرها. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ٤ ص ١٣٣.

(٤) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ١ ص ٢٩٥ - ٣٠٢، ج ٤ ص ٨٢ - ٩١، ج ٥ ص ٢٦٧ - ٢٦٩.

ياقوت الحموي: معجم الأدباء ج ٦ ص ٢٥٤ و ٢٥٧.

(٥) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ١ ص ٢٧٤، ج ٣ ص ٢٨٦ و ٢٨٨، ج ٤ ص ٨٠.

الثعالبي: يتيمة الدهر ج ٢ ص ٣٣٦.

ياقوت الحموي: معجم الأدباء ج ٥ ص ٣٣٤.

الرفاء (ت ٩٧٢/٣٦٢)^(١) في مجالسهم:

مجالس يرقص القضاة بها إذا انتشوا في مخانق البرم^(٢) وهكذا كان القضاة يجتمعون عند الوزير المهلي، في الأسبوع ليلتين، على أطراح الحشمة والتبسط في القصف والخلاعة، ويوضع أمام كل شيخ من شيوخ القضاة طاس من الذهب وزنه ألف مثقال مملوء شراباً قطربلياً، فيشربون ويطربون ويرقصون، ويغمس كل واحد منهم لحيته في الشراب ويرش بها أصحابه. وفي الصباح يعود هؤلاء القضاة إلى عاداتهم أمام الناس، في التزم والتوقر والتحفظ بأبهة القضاء وحشمة المشايخ الكبراء^(٣).

وعن موقف القضاة أو قضاة القضاة العلني من الخمر وتحليله أو تحريمه، فقد علمنا أن بعض القضاة يحضر مجالس الشرب ويحتسي الخمر حتى الثمالة، في حين كان البعض الآخر لا يدخل مثل هذه المجالس. بالإضافة إلى أن قاضي القضاة أبا عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الأزدي، وجد رائحة الخمر طيبة، لذلك تردد في قبول الشهادة من شاهد تظاهر بالإنزعاج من رائحة الخمر^(٤)، فقد اعتبره منافقاً وهو يسد أنفه أمام برميل من الخمر كان مثقوباً ويقول: شه، شه، أفيه، أفيه، وهو تعبير عن الرائحة الكريهة، وكان وقتها يسير برفقة أبي عمر. ولما سألوه عن سبب عزله، قال: «هذا كذاب أو جاهل، وليس تحريم الخمر يقلب رائحتها من الطيب إلى التتن، حتى يقول هذا مما قاله، وما قاله إلا وهو يعلم أن رائحتها طيبة، فتمس وكذب، أو هو جاهل بهذا القدر فلا أقبله».

وعندما سأله الوزير حامد بن العباس: ما دواء الخمار؟ وكان قد علق به، قال أبو عمر: قال الله تعالى: ﴿وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾. وقال

(١) أبو الحسن السري بن أحمد بن السري الكندي (ت ٩٧٢/٣٦٢): ويعرف بالسري الرفاء الموصلية، كان

يطرز، وينظم الشعر ويجيد فيه، ثم اتصل بسيف الدولة والوزير المهلي فحسنت حاله.

التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٢ ص ٣٠٧، ج ٥ ص ١٧٥؛ ج ٧ ص ١١٤.

ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٠٤.

(٢) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٥ ص ١٧٥.

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٠٣.

(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٧١.

النبي ﷺ : استعينوا على كل صنعة بصالح أهلها، والأعشى وهو المشهور بهذه الصناعة في الجاهلية قال :

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

ثم تلاه أبو نواس في الإسلام فقال :

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء وداوني بالتي كانت هي الداء^(١)

وكان أبو عمر بهذا الجواب يريد أن لا يغضب الوزير حامداً بن العباس الذي ابتلى بالخمير. كما أن معرفة أبي عمر بآلات الموسيقى ومنها آلة الرباب^(٢) تدل على عدم ابتعاده عن مجالس الطرب والشرب، فقد أخذ يشرح لأحد شهوده عن آلة الرباب، وهي آلة موسيقية ذات وتر واحد، يجر عليه ما يشبه القوس، فيحدث أصواتاً حلوة لصاحب الغناء. حتى أن القاضي أبا حنيفة كان معجباً بجاره المغرم بالشراب والغناء في الليل، وعندما سجن لهذا السبب توسط له وأنقذه من السجن^(٣).

وكان قاضي القضاة يحيى بن أكثم، إذا تملكه السكر في مجلس المأمون،

يقول^(٤) :

يا سيدي وأمير الناس كلهم قد جاز في حكمه من كان يسقيني
إني غفلت عن الساقى فصيرني كما تراني سليب العقل والدين
فاختر لبغداد قاض إنني رجل الراح يقتلني والعود يحييني

وهذا يدل على أن قاضي القضاة يحيى بن أكثم كان يشرب حتى يسكر، فيشق له لحد في العود والرياحين ويعيد فيه.

وهنا يطرح السؤال: ما هو موقف الدين والتشريع الإسلامي من الخمر؟

لقد كثر القيل والقال، وقام الجدل الذي لا ينتهي حول تحريم أو تحليل

(١) التنوخي نشوار المحاضرة جـ ٢ ص ٨٩؛ الثعالبي: لطائف اللطف ص ٨٧ - ٨٨.

(٢) التنوخي: نشوار المحاضرة جـ ٢ ص ١٧٠.

(٣) التنوخي: المستجد ص ٢١٨ - ٢١٩.

ابن عبد ربه: العقد الفريد جـ ٧ ص ١٣.

(٤) ابن عبد ربه: العقد الفريد جـ ٨ ص ٥٢ - ٥٣.

الشريعة الإسلامية لشرب الخمر. والحقيقة أن شرب الخمر كان عادة متأصلة عند العرب قبل الإسلام، ولم يكن من السهل تحريمها دفعة واحدة، فلو حرمت عليهم دفعة واحدة لشق ذلك على نفوسهم، وربما لم يستجيبوا لذلك النهي. وهكذا وقف المشرع الإسلامي موقفاً حازماً من الخمر، لكنه سلك مسلك التدرج في التشريع فحرم الخمر على مراحل، ففي المرحلة الأولى فرق القرآن بين الرزق الحسن وغير الحسن واعتبر الخمر رزقاً غير حسن، كما جاء في الآية (١) :

﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً إن في ذلك لآية لقوم يعقلون﴾.

وفي المرحلة الثانية، ذكر القرآن مضار الخمر صراحة في الآية (٢): ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾.

وفي المرحلة الثالثة، نهى عن شرب الخمر قبل الصلاة في الآية (٣): ﴿يأءيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾.

وفي المرحلة الرابعة، نزلت آيات النهي المطلق عن شرب الخمر، بعد أن كثر من امتنع عن شرب الخمر، وأصبح تحريمها أمراً سهلاً، فقال تعالى (٤): ﴿يأءيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم متبهون﴾.

من ذلك يتضح لنا أنه قد ثبت تحريم الخمر بنص القرآن لكنه لم يرد في ذلك النص عقوبة (٥) لمخالفته، فترك ذلك باباً واسعاً للإجتihad. فما هو رأي الأئمة من ذلك؟ يرى أبو حنيفة أن الخمر هو الشراب المسكر من عصير العنب فقط، وأما

(١) سورة النحل آية ٦٧.

(٢) سورة البقرة آية ٢١٩.

(٣) سورة النساء آية ٤٣.

(٤) سورة المائدة آية ٩٠ و٩١.

(٥) حد شرب الخمر: لم يرد في نص القرآن عقوبة لشارب الخمر، وإنما هي سنة الرسول تحرى بها المصلحة

الشراب المسكر من غير العنب مثل التمر والزبيب والحبوب (شعير، حنطة، ذرة)، فلا يسمى خمراً بل نبيذاً. ورأي أبو حنيفة هو «يحد من شرب الخمر وإن لم يكن مسكراً، ولا يحد من شرب النبيذ حتى يسكر»، وهذا هو مذهب أهل العراق^(١).

في حين يجد الشافعي ومالك وابن حنبل أن الخمر اسم لكل شراب مسكر، سواء أكان من عصير العنب أو التمر أو الزبيب أو الشعير أو غيره، وينطبق عليه قول الماوردي^(٢): «كل ما أسكر كثيره أو قليله من خمراً أو نبيذاً حد شاربه سواء سكر منه أو لم يسكر»، وهذا هو مذهب أهل الحجاز.

وبذلك نجد أن هناك مدرستين، الأولى في العراق والثانية في الحجاز، وقد اتفقتا على تحريم الخمر المستخرج من العنب، واختلفتا في ما يستخرج من غير العنب، حيث سمته مدرسة العراق «نبيذاً» وشرب القليل الذي لا يسكر حلال عندها، في حين سمته مدرسة الحجاز «خمراً» وما يسكر كثيره فقليله حرام عندها. وبذلك نستنتج أن شرب الخمر المستخرج من العنب محرم كثيره وقليله باتفاق جميع الفقهاء، وأن السكر من باقي الأشربة محرم بالإتفاق كذلك، وأن خلاف الفقهاء بالنسبة إلى الشراب من غير العنب والذي قليله لا يسكر.

وبذلك يكون أبو حنيفة وحده هو الذي أوجد مثل هذا الخلاف، حيث اعتبر شرب «النبيذ» المستخرج من غير العنب حلالاً ما دام لا يسكر، مما سهّل الطريق أمام أهل العراق لشرب النبيذ بحجة أنهم لا يسكرون. وهنا نتساءل عن صعوبة إثبات السكر، ومدى تحمل كل شخص لشرب النبيذ دون أن يسكر؟ ولعل هذا ما جعل بعض القضاة في العراق، وهم على مذهب أبي حنيفة، يشربون النبيذ بحجة أنهم لا

= العامة. ولم تكن العقوبة مقدرة أيام الرسول ولا الخلفاء من بعده بمقدار معين، وكانت تتراوح بين ٤٠ - ٨٠ جلدة بحسب مقتضيات ظروف البيئة الاجتماعية حتى تؤدي إلى زجر الجاني. وحتى تثبت إدانة شارب الخمر يشترط فيه العقل والبلوغ والإسلام والإختيار ثم شهادة رجلان عدلان، ولا تقبل شهادة النساء، أو بالإقرار، أي أن يعترف الشارب بجريمته، وبذلك يقع عليه الحد. ولا يجوز التشهير بشارب الخمر، أما المد من المعتاد المشهور بالفسق فلا بأس أن يطاف به ويفضح ويسجن.

أحمد بهنسي: العقوبة في الفقه ص ١٩١ - ١٩٤.

(١) محمد علي الصابوني: روائع البيان ج ١ ص ٢٧٧.

(٢) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ١٩٩.

يسكرون بشرب القليل منه، وبذلك لا يقع الحدّ عليهم . وإذا سكر القاضي من يحدّه؟ الوالي أو الأمير أو الخليفة، فهؤلاء كانوا يقيمون مجالس الأناج والشراب، ويطلبون من القضاة وغيرهم مؤانستهم فيها. ولكن يجدر بنا أن لا نظلم أبا حنيفة، فهو في النهاية فقيه مجتهد هدفه الوصول إلى الحقيقة وليس تشجيع الناس على شرب النبيذ، فهو نفسه لا يرى ضرورة في شربه عندما قال: «لو أعطيت الدنيا بحدافيرها لا أفتي بحرمته، لأنه فيه تفسيق بعض الصحابة، ولو أعطيت الدنيا بحدافيرها ما شربته لأنه لا ضرورة فيه»^(١).

٣ - اللواط وموقف الإسلام :

يحكى عن قاضي القضاة يحيى بن أكثم أنه تنكر مع المأمون، وحضرا إلى رجل ادعى النبوة، فجلس المأمون عن يمينه ويحيى عن يساره، وعندما سألاه عن نبوته، قال إن جبريل أتاه وأوحى إليه أنه سيدخل عليه رجلان يجلس أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره، والذي عن يساره الوط خلق الله (يقصد بذلك يحيى بن أكثم)، فقال له المأمون: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وخرجا يضحكان^(٢).

وعندما دخل عليه رجل من خراسان وناظره في الأصول قال: أحفظ عن شريك عن أبي اسحاق عن الحارث أن علياً رضي الله عنه رجم لوطياً. فأمسك ولم يكلمه^(٣).

وقال الخطيب: دخل على يحيى بن أكثم إنا مسعدة وكانا على نهاية الجمال، فلما رأهما يمشيان في الصحن أنشأ يقول^(٤):

يا زائرنا من الخيام حيّاكما الله بالسلام
لم تأتيابي وبي نهوض إلى حلال ولا حرام
يحزنني أن وقفتما بي وليس عندي سوى الكلام

ثم أجلسهما بين يديه وجعل يمازحهما حتى انصرفا. ويقال إنه عزل عن الحكم

(١) أحمد بهنسي: العقوبة في الفقه ص ١١٦.

(٢) ابن عبد ربه، العقد الفريد ج ٧ ص ١٣٩.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٥٢.

(٤) المصدر نفسه ج ٦ ص ١٥٢.

بسبب هذه الأبيات . كما مازح الحسن بن وهب ، وهو يومئذ صبي ، فلاعبه ثم جمشه ، فغضب الحسن ، فأنشد يحيى (١) :

أيما قمرأ جمشته فتغضبا وأصبح لي من تيهه متجنباً
إذا كنت للتجميش والعض كارهاً فكن أبداً يا سيدي متنقبا
ولا تظهر الأصداغ للناس وتجعل منها فوق خديك عقربا
فتقتل مسكيناً وتفتن ناسكا وتترك قاضي المسلمين مضربا

وقيل إن زيدان الكاتب كان يكتب بين يدي يحيى بن أكثم ، وكان غلاماً جميلاً ، فقررص يحيى خذّه ، فخجل الغلام واستحيا وطرح القلم من يده ، فقال له يحيى : خذ القلم واكتب ما أملي عليك ، ثم أملى الأبيات المذكورة (٢) .

كما هجا الشاعر أحمد بن أبي نعيم قاضي القضاة يحيى بن أكثم بقوله (٣) :

يا بؤس للدهر لا يزال كما يرفع ناساً يحطّ من ناس
لا أفلحت أمة وحق لها بطول نكس وطول إتعاس
ترضى بيحيى يكون سائسها وليس يحيى لها بسواس
قاض يرى الحد في الزناء ولا يرى على من يلوط من باس
أميرنا يرتشي وحاكمننا يلوط والرأس شر ما راس

وقيل إن المأمون امتحنه مع أحد مماليكه ، وكان في غاية الحسن ، وعبث به المملوك ، وسمعه المأمون وهو يقول : لولا أنتم لكننا مؤمنين ، فدخل المأمون وهو ينشد (٤) :

وكنا نرجي أن نرى العدل ظاهراً فأعقبنا بعد الرجاء قنوط
متى تصلح الدنيا ويصلح أهلها وقاضي قضاة المسلمين يلوط

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٥٢ - ١٥٣ .

(٢) المصدر نفسه ج ٦ ص ١٥٣ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٥٣ - ١٥٤ .

ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ١٠٤ وج ٨ ص ١١١

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٥٤ - ١٥٥ .

الاصفهايي : الأغاني ج ٢٠ ص ٢٢٤ .

ويذكر المسعودي جملة أخبار عن يحيى بن أكثم ضمن هذا الموضوع^(١). وعلى هذا الأساس هجا دعبل الخزاعي رجال المأمون، ومنهم قاضي القضاة يحيى بن أكثم «المستطيل»، في هذه الأبيات^(٢):

ومن يشتري مني ملوك المخرم أبع حسناً وابني هشام بدرهم
وأعطي رجاءً فوق ذلك زيادة وامنح ديناراً بغير تندم
فإن طلبوا مني الزيادة زدتهم أبا دلف والمستطيل ابن أكثم
وهو يريد بالحسن: الحسن بن سهل، وزير المأمون، وبابني هشام، أحمد
وعلي من رجال الدولة العباسية، وبرجاء: رجاء بن أبي الضحاك، ابن عم الفضل بن
سهل وزير المأمون، وبأبي دلف: القائد العربي القاسم بن ادريس بن معقل العجلي.
وقد شكى يحيى بن أكثم نفسه، قاضي مدينة المنصور أبا الوليد بشر بن الوليد
الكندي (ت ٢٣٨/٨٥٢)^(٣)، إلى الخليفة المأمون، وقال: إنه لا ينفذ قضائي، فدعا
المأمون القاضي بشر بن الوليد وسأله عن عدم تنفيذه لأحكام يحيى بن أكثم، فقال: يا
أمير المؤمنين، سألت عنه بخراسان، فلم يحمد في بلده ولا في جواره. فصاح به
المأمون: أخرج، فخرج بشر^(٤). وهذا يدل على السيرة السيئة التي شاعت عن قاضي
القضاة يحيى بن أكثم، والتي تركت أثراً على مركزه في القضاء وتعامله مع القضاة،
كما يدل على المكانة التي يتمتع بها لدى المأمون.

وإذا افترضنا أن قاضي القضاة يحيى بن أكثم كان لواطياً^(٥)، فما هو موقف

(١) المسعودي: مروح الذهب ج ٤ ص ٢١ - ٢٤.

(٢) التنوخي: الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٣٤٨.

(٣) أبو الوليد بشر بن الوليد بن خالد الكندي (ت ٢٣٨/٨٥٢): كان عالماً من أعلام المسلمين، ديباً،
حشناً في باب الحكم، واسع الفقه، وهو صاحب أبي يوسف، ومن المقدمين عنده، وحمل الناس عنه في
الفقه والمسائل مالا يمكن جمعه. ولي القضاء بعسكر المهدي ثم قضاء مدينة المنصور. توفي ببغداد سنة
٢٣٨ هـ عن ٩٧ سنة.

التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٦ ص ٤٢.

الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٧ ص ٨٠ - ٨٢.

(٤) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٦ ص ٤٣.

الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٧ ص ٨٢.

(٥) الثعالبي: يتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٨٨.

ابن عبد ربه: العقد الفريد ج ٤ ص ١٠٤؛ ج ٧ ص ١٣٩؛ ج ٨ ص ١١١.

الشريعة الإسلامية من اللواط؟.

اعتبرت الشريعة الإسلامية اللواط فاحشة، فقال تعالى^(١): ﴿ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾، وقال^(٢): ﴿ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون﴾.

والواقع أن القرآن الكريم لم يذكر عقوبة اللواط، ولكن اجتهاد الأئمة أدى إلى قيام ثلاثة آراء في عقوبة اللواط^(٣)، فالشافعي يعتبر اللواط مثل الزنى ويجب فيه ما يجب في الزنى، أي الجلد أو الرجم، في حين أن مالك وابن حنبل يشددان أكثر، ويريان ضرورة قتل الفاعل والمفعول به، وذلك إما بالسيف أو بالرجم أو الرمي من علو شاهق. أما أبو حنيفة فلم يعتبر اللواط حداً مثل الزنى ولا يجب فيه حد الزنى، لأنه ليس بمحل الوطء في شبه غير الفرج، ويرى فيه التعزير^(٤)، وعقوبته السجن حتى يموت أو يتوب، ولو اعتاد اللواط قتله الإمام سياسة لا حداً.

وإذا كان القاضي شريك (ت ١٧٧/٧٩٣)^(٥)، حدّد علامات الفاسق بـ «شرب الخمر، وسماع المعازف، وارتكاب المحظورات»^(٦)، فكيف نحكم على قاضي القضاة الذي كان لواطاً مشهوراً، وإذا ما شرب الخمر يصبح «سليب العقل

(١) سورة العنكبوت آية ٢٨ .

(٢) سورة النمل آية ٥٤ .

(٣) أحمد بهنسي: الجرائم في الفقه ص ١٠٥ - ١٠٦ .

محمد علي الصابوني: روائع البيان ج ٢ ص ٤١ - ٤٥ .

(٤) التعزير: أصل كلمة التعزير من العزر بمعنى الرد والردع على ذنوب لم تشرع فيها الحدود. والتعزير ميدان واسع لتفريد العقوبة ومنه ما يكون بالتوبيخ والزجر والكلام، ومنه ما يكون بالحبس أو تسويد الوجه وإركابه دابة مقلوبة أو الضرب أو النفي، ومنه ما يكون بالقتل أو إتلاف المال.

أحمد بهنسي: الجرائم في الفقه ص ١٣٦ و ١٣٧ و ٢٤٥ و ٢٥١ و ٢٥٢ .

(٥) أبو عبد الله شريك بن عبد الله بن الحارث النخعي القاضي (ت ١٧٧/٧٩٣): ولد سنة ٩٥ هـ. وهو فقيه عالم بالحديث ذكي، سريع البديهة ولاه المنصور قضاء الكوفة سنة ١٥٣ هـ ثم عزله، وأعاد المهدي وعزله موسى الهادي. وكان غادلاً، ولد ببخاري، وتوفي بالكوفة.

الزركلي: الأعلام ج ٣ ص ٢٣٩. وأخاره في:

التنوخي: الفرج بعد الشدة ج ٤ ص ٨٧ - ٨٨. المستجاد ص ٢٥٣ و ٢٥٦ و ٢٦٤ .

(٦) التنوخي: الفرج بعد الشدة ج ٤ ص ٨٧ .

والدين»^(١)؟، وكيف يحكم القاضي على الزاني والزانية وهو لا يرى إثماً في اللواط؟.

٤ - الدفاع عن التهم المنسوبة إليه :

ومع ذلك كله، يمكن القول إن هذه الأمور قد شاعت عن قاضي القضاة يحيى بن أكتم حتى تناقلها الناس في أيامه وتداولها الشعراء. وعندما ذكر شيء منها الإمام أحمد بن حنبل، قال: سبحان الله! من يقول هذا؟، وأنكر ذلك إنكاراً شديداً، ونسب إلى حسن الناس له. كما أن القاضي أحمد البرتي (ت ٢٨٠/٨٩٣)^(٢)، كان يفتن أصحابه عابداً من خيار المسلمين وكان من أصحاب يحيى بن أكتم.

ويبدو أن شرب الخمر والولع بالغلغان كان منتشرًا في العراق وبغداد خاصة وليس في جميع أنحاء الخلافة العباسية^(٣). وهذا ما جعل التهم تحوم حول كثير من القضاة وخاصة قاضي القضاة يحيى بن أكتم.

وإذا ما أدركنا محنة خلق القرآن الكريم التي بدأها الخليفة المأمون في أواخر أيام حكمه سنة ٢١٨/٨٣٣ لتستمر زمن المعتصم والواثق حتى سنة ٢٣٤/٨٤٩، وكذلك سيطرة المعتزلة في تلك الفترة التي أبعد فيها يحيى بن أكتم عن مكانته في القضاء ليتولى أحمد بن أبي دؤاد، أحد زعماء المعتزلة، منصب قاضي القضاة زمن المعتصم والواثق، ندرك السبب الرئيسي وراء الحملة التي شنت على قاضي القضاة يحيى بن أكتم، حيث اتهم بأمور شاعت عنه. ذلك أن المتوكل الذي وقف بقوة ضد المعتزلة قد أعاد يحيى بن أكتم إلى منصب قاضي القضاة بعد عزل أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي عن هذا المنصب. وحيث إن الإمام أحمد بن حنبل أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة قد دافع بدوره عن قاضي القضاة يحيى بن أكتم، ونفى عنه التهم التي شاعت، وقد تصدى بقوة للمعتزلة، ندرك أيضاً أن يحيى بن أكتم كان من زعماء أهل

(١) اس عد ربه: العقد الفريد ج ٨ ص ٥٣.

(٢) أبو العباس أحمد بن محمد بن عيسى البرتي القاضي (ت ٢٨٠/٨٩٣): ولي القضاء، بعد وفاة أبي هشام الرفاعي سنة ٢٤٩ هـ، وكان قد تقلد القضاء في واسط وقطعة من أعمال السواد. وكان ديباً عنيفاً، على

مذهب أهل العراق، وكان من أصحاب يحيى بن أكتم

التنوحي نساوار المحاضرة ج ٥ ص ٢٣٠.

الخطيب البغدادي تاريخ بغداد ج ٥ ص ٦٢.

(٣) اس عد ربه: العقد الفريد ج ٧ ص ٩.

السنة^(١) الذين اتخذوا موقفاً مغايراً للمعتزلة، وقد ترك كتباً في «الأصول» و«التنبيه»، وكانت بينه وبين داود بن علي مناظرات. فلا غرو أن يشن زعماء المعتزلة، وهم من كبار المفكرين والأدباء والمؤرخين، حملتهم على قاضي القضاة يحيى بن أكثم، وينالونه بالتشنيع بعد النكبة التي حلت بهم على يد المتوكل الذي قلده منصب قاضي القضاة سنة ٢٣٧/٨٥١.

وقد ذكر الخطيب البغدادي أن يحيى بن أكثم كان سليماً من البدعة، ينتحل مذهب أهل السنة^(٢).

وكذلك يذكر ابن خلكان أن يحيى كان سليماً من البدعة، ينتحل مذهب أهل السنة، بخلاف أحمد بن أبي دؤاد المتعصب للمعتزلة. وكان يحيى يقول: القرآن كلام الله، فمن قال إنه مخلوق يستتاب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه^(٣).

ويذكر ابن كثير أن المأمون كان في الشماسية وقد أجرى الحلبة فجعل ينظر إلى كثرة الناس فقال ليحيى بن أكثم: أما ترى كثرة الناس؟ فأجاب: حدثنا يوسف بن عطية عن ثابت عن أنس أن النبي ﷺ قال: الخلق كلهم عيال الله فأحبهم إليه أنفعهم لعياله^(٤). كما يذكر أن يحيى بن أكثم قال: سمعت المأمون يوم عيد خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ، ثم قال: عباد الله! عظم أمر الدارين وارتفع جزاء العالمين، وطالت مدة الفريقين، فوالله إنه للجد لا اللعب، وإنه للحق لا الكذب، وما هو إلا الموت والبعث والحساب والفصل والميزان، والصراط ثم العقاب أو الثواب، فمن نجا يومئذ فقد فاز، ومن هوى يومئذ فقد خاب، الخير كله في الجنة، والشر كله في النار^(٥).

وهكذا يعتبر يحيى بن أكثم من أئمة السنة، وعلماء الناس، ومن المعظمين للفقهاء والحديث واتباع الأثر. مما جعل المعتزلة ينتقدونه حتى في تعيينه للقضاة، فيذكر

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١٤ ص ١٩١.

ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٤٧ - ١٤٨.

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١٤ ص ١٩١.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٤٨.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٠ ص ٢٧٥.

(٥) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٢٧٦.

أنه وُلِّي من جهته حبان بن بشر قضاء الشرقية، وسوار بن عبدالله قضاء الجانب الغربي من بغداد، وكان كلاهما أعوراً، فقال في ذلك بعض المعتزلة^(١):

رأيتُ من العجائب قاضيين هما أحدثُ في الخافقين
هما اقتسما العمى نصفين قدماً كما اقتسما قضاء الجانبين
ويحسب منهما من هزُّ رأساً لينظر في مواريتُ ودين
هما فألَّ الزمانُ بهلك يحيى إذ افتتح القضاء بأعورين

هذا فضلاً عن الموقف المتشدد لقاضي القضاة يحيى بن أكثم من تحليل المتعة. فعندما كان المأمون في طريق الشام، أمر فنودي بتحليل المتعة، فدخل عليه يحيى بن أكثم مغتاضاً، وعندما سأله المأمون عن حاله، أجاب: هو غمُّ يا أمير المؤمنين لما حدث في الإسلام. ويقصد بقوله النداء بتحليل المتعة، الذي وصفه للمأمون قائلاً: نعم المتعة زنى. وقد استطاع إقناعه بذلك، حتى قال المأمون: استغفر الله، نادوا بتحريم المتعة، فنادوا بها^(٢).

ويبدو أن مثل هذه المواقف جعلته يتعرض للتهم التي شاعت وتناقلها الناس. والجدير بالذكر أن المتوكل عاد وعزل يحيى بن أكثم عن منصب قاضي القضاة سنة ٢٤٠/٨٥٥، وصادر أمواله وأسلاكه، بما يبلغه ثمانون ألف دينار، وأخذ منه أراضي كثيرة في البصرة، وألزمه منزله، وولَّى مكانه جعفر بن عبدالواحد^(٣). ثم حجَّ إلى مكة وحمل أخته معه^(٤). وعندما عفا عنه المتوكل حاول يحيى بن أكثم العودة، لكن المنية أدركته عند الربذة^(٥) - من قرى المدينة المنورة - سنة ٢٤٢/٨٥٧، وقيل سنة ٢٤٣/٨٥٨، وأيضاً سنة ٢٤٦/٨٦١، ودفن هناك.

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٠ ص ٣١٧.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٤٩ - ١٥٠.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٠ ص ٣١٩.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٦٣.

(٥) الربذة: قرية من قرى المدينة على طريق الحج، ينزلونها عند عبورهم عليها، وهي التي نفى عثمان بن عفان. أبا ذر الغفاري إليها، وأقام بها حتى مات. وقبره ظاهر هناك يزار.

المصدر نفسه ج ٦ ص ١٦٤ - ١٦٥.

الفصل الثالث

أبو الحسين عمر^(١) أصغر قاضي قضاة وحظوته عند الراضي (٢٩١ - ٣٢٨/٩٠٤ - ٩٤٠)

يعتبر أبو الحسين عمر أصغر من تقلد منصب قاضي القضاة في الإسلام بفضل حظوته لدى الخليفة الراضي . وكان أبو الحسين عمر يحب العلم وأصحابه حتى وضع بنفسه كتاب الفرج بعد الشدة .

١ - نشأته وتقلده القضاء سنة ٩٢٢/٣١٠ :

أبو الحسين عمر، هو ابن قاضي القضاة أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب بن اسماعيل بن حماد الأزدي . وقد ولد سنة ٩٠٤/٢٩١ ، وكان والده في الثامنة والأربعين من عمره . وعندما بلغ أبو الحسين العشرين من عمره، قلده المقتدر بالله القضاء سنة ٩٢٢/٣١٠ ، وكان قبل ذلك يخلف أباه على القضاء بالجانب الشرقي

(١) ترجمته في .

الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١١ ص ٢٢٩ - ٢٣١ . ابن الجوزي : المنتظم ج ٦ ص ١٦٧ و ٢٥٣ و ٣٠٧ . ابن كثير : البداية والنهاية ج ١١ ص ١٨٩ و ١٩١ و ١٩٤ . الزركلي : الأعلام ج ٥ ص ٢٢١ و ٢٢٢ .

وأخباره كثيرة في :

التنوخي : تشوار المحاضرة: ج ١ ص ٢٤٠ - ٢٤١ ؛ ج ٢ ص ٧٧ - ٧٩ و ٣٢١ - ٣٢٢ ؛ ج ٣ ص ٢٣٣ - ٢٣٥ ؛ ج ٤ ص ١٥٦ و ٢١٠ ؛ ج ٦ ص ١٨٠ - ١٨٢ ؛ ج ٧ ص ١٦ .

الفرج بعد الشدة: ج ١ ص ٥٣ و ١٠٨ و ١٧٢ و ١٧٧ و ٢٦٤ و ٢٨٨ و ٢٩٤ و ٢٩٦ و ٢٩٧ و

٢٩٩ و ٣٠٤ و ٣٠٧ ؛ ج ٢ ص ٢٠٦ و ٢٦٨ ؛ ج ٣ ص ٥٢ و ١٥٠ و ٢١٣ و ٢١٦ و ٢١٩ و

٢٢٢ و ٢٢٣ و ٢٢٧ و ٢٢٨ و ٢٣٣ و ٢٣٤ و ٢٣٨ و ٢٤١ و ٢٤٧ و ٢٥٩ و ٢٦٨ و ٢٧٣ و ٢٨١ و ٢٨٣ و

٢٨٥ و ٢٩٣ و ٢٩٧ و ٣٠٠ و ٣٠٦ و ٣٦٢ ؛ ج ٤ ص ٧١ و ٨١ و ٨٣ و ١٢٦ و ٢١٥ و ٢١٦ ؛

ج ٥ ص ٩٤ - ١٠٠

والشرقية وسائر ما كان إليه^(١)، ثم استقضي بعد استخلاف أبيه له على أعمال كثيرة، حتى تقلد قضاء مدينة المنصور في حياة أبيه، في موكب حافل اجتمع فيه خلق كثير من الأشراف والقضاة والشهود والجنود والتجار وغيرهم. وكان الناس يتعجبون من تقلده القضاء، وهو فتى في العشرين من عمره. ويبدو أن الناس يسرعون دائماً إلى العجب مما لم يألفوه، وقد تعجبوا من قبل أضعاف هذا العجب يوم الاحتفال بتقليد والده أبي عمر القضاء^(٢).

٢ - أصغر قاضي قضاة في الإسلام سنة ٩٣٢/٣٢٠:

عندما توفي أبو عمر سنة ٩٣٢/٣٢٠، تقلد أبو الحسين منصب قاضي القضاة مكانه. وكان عمره وقتذاك تسعة وعشرين عاماً، فكان أصغر من تقلد منصب قاضي القضاة في الإسلام. وقد دخل محمد بن عبدالواحد الزاهد (ت ٩٥٦/٣٤٥)^(٣)، على قاضي القضاة أبي الحسين معزياً له بوفاة أبيه، فلما شاهده قال: وما مات من تبقى له بعد موته ولا غاب من أمسى له منك شاهد وقد قام قاضي القضاة أبو الحسين بكتابة هذا البيت، فور سماعه^(٤). مما يدل على مدى اهتمامه بالأدب والعلم.

٣ - كتاب الفرج بعد الشدة:

رزق أبو الحسين عمر جودة القريحة، وقوة الفهم، وشرف الإخلاص، وله كتاب «الفرج بعد الشدة»، وقد اطلع عليه القاضي التنوخي فكان من أسباب نشاطه لتأليف كتابه وهو بنفس العنوان. ويذكر التنوخي أن كتاب أبو الحسين عمر يقع في

(١) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٤ ص ١٥٦ وج ٦ ص ١٨٠.

ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ١٦٧. الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١١ ص ٢٢٩.

(٢) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ١ ص ٢٤٠ - ٢٤١.

(٣) أبو عمر محمد بن عبد الواحد بن أبي الهاشم الزاهد المعروف بسلام نعلب (ت ٩٥٦/٣٤٥): كان غزير العلم، كثير الزهد، أملى من حفظه ثلاثين ألف ورقة لغة.

ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ٣٨٠.

(٤) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٦ ص ١٨٢.

الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١١ ص ٢٣١.

مقدار خمسين ورقة، وقد سماه: كتاب الفرج بعد الشدة، وأودعه أكثر ما رواه المدائني، وجمعه، وأضاف إليه أخباراً أخرى، أكثرها حسن، وفيها غير مماثل عندي لما عناه، ولا مشاكل لما نحاها وأتى في أثنائها بأبيات شعر يسيرة، من معادن لأمثالها جمّة كثيرة^(١).

ولم ينفرد قاضي القضاة أبو الحسين عمر بتأليف كتاب في موضوع الفرج بعد الشدة، فقد سبقه إلى ذلك كتّاب آخرون، فهناك كتاب الفرج بعد الشدة والضيق^(٢) للمدائني (ت ٨٣٩/٢٢٥)^(٣)، وكتاب الفرج بعد الشدة^(٤) لابن أبي الدنيا (ت ٨٩٤/٢٨١)^(٥).

وروى قاضي القضاة أبو الحسين عمر في كتابه بعض الأبيات الشعرية^(٦) عن بعض الأصدقاء والإخوان، ولكن أبرزها ما ذكره بقوله: «وجد في عذبة سيف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، سلام الله عليه وتحياته، رقعة فيها^(٧) :

غنى النفس يكفي النفس حتى يكفها وإن أعسرت حتى يضرب بها الفقر
فما عسرة - فاصبر لها إن لقيتها - بدائمة حتى يكون لها يسر
ومن لم يقاس الدهر لم يعرف الأسى وفي غير الأيام ما وعد الدهر

(١) التنوخي: الفرج بعد الشدة ج ١ ص ٥٣.

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٥٢.

(٣) أبو الحسن علي بن محمد بن عبدالله المدائني (ت ٨٣٩/٢٢٥): راوية، مؤرخ ولد سنة ١٣٥ هـ. من أهل البصرة، سكن المدائن فنسب إليها، ثم انتقل إلى بغداد، أورد ابن النديم في الفهرست أسماء ٢٠٠ مؤلف من مؤلفاته.

اسماعيل البغدادي: هدية العارفين ج ١ ص ٦٧٠ - ٦٧١. الزركلي: الاعلام ج ٥ ص ١٤٠.

(٤) التنوخي: الفرج بعد الشدة ج ١ ص ٥٢.

(٥) أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان المعروف بابن أبي الدنيا (ت ٨٩٤/٢٨١): حافظ، مؤلف، أدب المعتضد ثم أدب ابنه المكتفي، ولد سنة ٢٠٨ هـ في بغداد، له ١٦٤ مصنفاً من ضمنها الفرج بعد الشدة.

ابن النديم: الفهرست ص ٢٣٦ - ٢٣٧. الزركلي: الاعلام ج ٤ ص ٢٦٠.

(٦) التنوخي: الفرج بعد الشدة ج ٥ ص ٩٤ - ١٠٠.

(٧) المصدر نفسه ج ٥ ص ٩٥ - ٩٦.

وقال أبو بكر الصولي (ت ٣٣٦/٩٤٧)^(١)، عن قاضي القضاة أبي الحسين عمر: «كان هذا القاضي قد بلغ من العلم مبلغاً عظيماً، وقرأ عليّ من كتب اللغة والأخبار، ما يقارب عشرة آلاف ورقة»^(٢).

وقد وصفه طلحة بن محمد بن جعفر الشاهد (ت ٣٨٠/٩٩٠)^(٣): بقوله: «وهذا رجل يستغني باشتهار فضله، عن الاطناب في وصفه. . . إذ كان الله تعالى جعله نسيج وحده، ومفرداً في عصره ووقته، في حفظ القرآن، والغلم بالحلال والحرام، والفرائض، والكتاب، والحساب، والعلم باللغة، والنحو، والشعر، والحديث، والأخبار، والنسب، وأكثر ما يتعاطاه الناس من العلوم، وأعطاه من شرف الأخلاق، وكرم الأعراق،. . . ومن محمود الخصال، والفضل والكلام، ما يطول شرحه»^(٤).

وكان قاضي القضاة أبو الحسين عمر فقيهاً على مذهب مالك وأهل المدينة، مع معرفته بكثير من الاختلاف في الفقه^(٥).

-
- (١) أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس بن محمد بن صول المعروف بالشطرنجي (ت ٣٣٦/٩٤٧): سمي بالصولي نسبة إلى جده صول تكين، كان بارعاً في الشطرنج، نادم ثلاثة خلماء الراضي والمكتفي والمقتدر، وكان أحد العلماء بفنون الآداب، حسن المعرفة بأخبار الملوك وأيام الخلفاء، وكان له بيت عظيم مملوء كتباً، وقد وصف سير الخلفاء الذين نادمهم في كتابه «الأوراق».
- ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ٣٥٩، الزركلي: الأعلام ج ٨ ص ٤.
- (٢) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٤ ص ٢١٠.
- ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ٣٠٧.
- (٣) أبو القاسم طلحة بن محمد بن جعفر، المعروف بغلام ابن مجاهد (ت ٣٨٠/٩٩٠): المقرئ، الشاهد، المعتزلي. وهو تلميذ ابن مجاهد. كان مقدماً على الشهداء، وكان أحد الشهداء الذين شهدوا على خلع المطيع لله نفسه من الخلافة. ونقل عنه القاضي التنوخي في نشواره أخباراً عدة. وقد ولد سنة ٢٩٠ هـ.
- الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١٩ ص ٣٥. ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ١٥٤.
- (٤) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٦ ص ١٨٠ - ١٨١. الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١١ ص ٢٢٩.
- (٥) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٦ ص ١٨١.
- الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١١ ص ٢٢٩.

٤ - حبه أهل العلم:

كان أبو الحسين عمر يحب العلم وأصحابه، فعندما توفي يزيد المائي^(١)، وهو من الأطباء المشهورين، حزن أبو الحسين عمر حزناً عظيماً لموته، وقال جملته المشهورة: «قد مات ولا خلف له ولا أحد يقاربه في حذقه؟، وهل فخر البلد إلا بكثرة كون رؤساء الصنّاع، وخذّاق أهل العلم فيه؟. فإذا مضى رجل لا مثل له في صناعته ولا بد للناس منها، فهل يدل هذا إلا على نقصان العالم وانحطاط البلدان؟»^(٢).

ثم أقبل يعدّد فضائله، والأشياء الطريفة التي عالج بها، والعلل الصعبة التي زالت بتدبيره، فذكر من ذلك أشياء كثيرة. ثم قال: «فهل في بغداد اليوم، من له من الصناعة مثل هذا، أو ما يقاربه؟ فكيف لا أغتم بموت من هذا بعض حذقه»^(٣).

وعندما أراد القاهر (ت ٣٣٩/٩٥٠) توكيل السيدة شغب أم المقتدر له في بيع أملاكها، طلب شاهدين على ذلك، فأرسل له أبو الحسين عمر شاهدين، وهما أبو محمد بن عياش، وابن حباب الجوهرى. وقد دخلا إلى القاهر وهو جالس في قصره وحوله الخدم، فدفع إليهما أحد الخدم كتاباً أوله: أقرت شغب، مولاة أمير المؤمنين المعتضد صلوات الله عليه، أم جعفر المقتدر رحمة الله عليه. وهذا الكتاب عبارة عن وكالة ببيع أملاكها في سائر النواحي، وقد أقرت السيدة شغب بما في الكتاب، ووقع كل من الشاهدين عليه، وانصرفا عند قاضي القضاة أبي الحسين عمر حيث أقاما الشهادة عنده، وهما يدركان أن السيدة شغب وكلت القاهر رغماً عنها^(٤).

(١) يريد المائي: من أشهر الأطباء سمي كذلك نسبة إلى الماء، لأنه يعرض عليه ماء المريض (أي بوله)، فيشخص المرض، ويصف الدواء. وكانت له مكانة خاصة عند قاضي القضاة أبي الحسن عمر الذي ذكر له قصة معالجته لامرأة كانت تشعر بألم كبير في فرجها فيخرج الدم فيه وليس هناك جرح ظاهر، وعندما كشف عليها يزيد المائي، علم أنها كانت تجلس في بستان البقر يوم أصابها العلة، فأدرك إمكانية دخول القراد الذي يكون على القر في فرجها، فأدخل يده، فوجد القراد وأخرجه، وبرئت المرأة.

التنوخي نشوار المحاضرة جـ ٣ ص ٢٣٣ - ٢٣٥. الفرج بعد الشدة جـ ٤ ص ٢١٥ - ٢١٧.

(٢) التنوخي: نشوار المحاضرة جـ ٣ ص ٢٣٣ الفرج بعد الشدة جـ ٤ ص ٢١٥ - ٢١٦.

(٣) التنوخي. بشوار المحاضرة جـ ٣ ص ٢٣٥.

(٤) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٧٧ - ٧٩.

وفي شهر محرم سنة ٣٢٧/٩٣٨، خرج الخليفة الراضي إلى الموصل، وأخرج معه قاضي القضاة أبا الحسين عمر، وأمره أن يستخلف ابنه أبا نصر يوسف على مدينة السلام بأسرها، لعلمه أنه لا أحد يجاربه بعد أبيه، ولا إنسان يساويه، وقد قرىء عهد الخليفة بذلك في جامع الرصافة^(١).

٥ - مرضه ووفاته سنة ٣٢٨/٩٤٠:

مرض أبو الحسين عمر في أواخر أيامه، فزاره أبو الحسين بن عياش بصحبة القاضي أبو طاهر بن نصر، وفي الطريق إليه التقيا بثلاثة من الأعراب تنبأ كل منهم بموته، فقد سمعوا غراباً ينعب على حائط دار أبي الحسين قاضي القضاة، فقال الأول: إن هذا الغراب ليخبرني بموت صاحب الدار، وقال الثاني: أجل إنه ليموت بعد ثلاثة أيام، وقال الثالث: نعم ويدفن في داره^(٢). وقد سخر أبو الحسين وأبو طاهر من كلام الأعراب. وبعد ثلاثة أيام توفي قاضي القضاة أبو الحسين عمر، فتملكهما العجب بعد أن حضرا جنازته ودفن في داره^(٣)، في قبر إلى جانب قبر أبيه قاضي القضاة أبي عمر، وصلى عليه ابنه القاضي أبو نصر يوسف، وكان ذلك في يوم الخميس من شهر شعبان سنة ٣٢٨/٩٤٠. وقد حزن عليه الخليفة الراضي حزناً شديداً، حتى كان يبكي في مجلسه ويقول: «كنت أضيّق بالشيء ذرعاً فيوسعه علي». وقال أيضاً: «لا بقيت بعده»^(٤).

وبوفاته عن سبعة وثلاثين عاماً، يعتبر أبو الحسين عمر أصغر من تقلد هذا

(١) التنوخي: شوار المحاضرة ج ٧ ص ١٦.

الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٣٢٢.

(٢) وقد أصر القاضي أبو طاهر، وأبو الحسين بن عياش على معرفة سر هؤلاء الأعراب. فعلمنا أنهم من بني العائف، وقد شرحوا لهم نبوءه موت قاضي القضاة بأنهم يعرفوا نعيماً للغراب بعينه، لا ينعبه في موضع إلا مات ساكه، وحيث أنه كان ينعب ثلاثاً متتابعات ثم يسكت، فذلك يدل على أنه يموت بعد ثلاثة أيام، وبما أن العراب كان يحفر الحائط بمنقاره ورجليه، ويحشو على نفسه التراب، فإن ذلك يدل على أنه يدفن في داره.

التنوخي: شوار المحاضرة ج ٢ ص ٣٢١.

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٢٠.

(٤) التنوخي: شوار المحاضرة ج ٤ ص ٢١٠؛ ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ٣٠٧.

المنصب وأصغر من توفي وهو على قضاء القضاة في الإسلام، وكل ذلك بسبب*
حظوته عند الرازي الذي حلع على ابنه أبي نصر يوسف بن عمر، وقلده قضاء بغداد
بأسرها، الجانب الشرقي والغربي، والمدينة، والكرخ، وقطعة من أعمال السواد،
وخلع على ابنه الآخر أبي محمد الحسين بن عمر^(١) لقضاء أكثر السواد والبصرة
وواسط^(٢).

(١) أبو محمد الحسين بن عمر بن محمد بن يوسف الأزدي: ابن قاضي القضاة أبي الحسين عمر وأخو أبي نصر
يوسف. ولي القضاة للرازي والمتقي.
الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٨ ص ٨١.
(٢) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٤ ص ٢٠٣ وج ٧ ص ١٧.
ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ٣٠٠؛ الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٣٢٢.

الفصل الرابع

قاضي القضاة والرشوة والفساد

(٣٣٣ - ٣٥٢ / ٩٤٤ - ٩٦٣)

تميزت الفترة (٣٣٣ - ٣٥٢ / ٩٤٤ - ٩٦٣) بالرشوة والإغراء بالمال والفساد الذي تعرض له منصب قاضي القضاة. ففي تلك الأثناء قوي النفوذ البويهى بدخول الأمير أحمد بن بويه^(١) بغداد من الجانب الغربي ومعه جيش عظيم سنة ٩٤٥/٣٣٤، حيث قتل الكثيرون، «وكانت العذراء، والمخبأة المترفة من ذوات النعم، والصبيبة، والأطفال، والعجائز، وسائر الناس، يخرجون على وجوههم، يتعادون يريدون الصحراء، وكان ذلك اليوم حاراً، فلا يطيقون المشي»^(٢). وقد بلغ ما انتهب من بغداد في ذلك اليوم، مقدار عشرة آلاف دينار^(٣). ثم لقي الأمير أحمد بن بويه الخليفة العباسي المستكفي (ت ٣٣٨/٩٤٩) الذي منحه لقب معز الدولة، لكنه عزله ونصب مكانه المطيع لله (٣٣٤ - ٣٦٣/٩٤٥ - ٩٧٤)، فأصبح الخليفة العباسي ضعيفاً والحكم لبني بويه^(٤). ثم دخل الأمير البويهى معز الدولة والخليفة العباسي المطيع لله إلى البصرة، دخول الفاتحين سنة ٩٤٧/٣٣٦^(٥).

وقد تقلد منصب قاضي القضاة في تلك الفترة الشقيقان أبو الحسن وأبو

(١) الأمير معز الدولة أبو الحسين أحمد بن بويه (ت ٩٦٧/٣٥٦) : أصغر الأخوة الثلاثة أولاد بويه الذي لقبهم المستكفي بالله بعماد الدولة (أبو الحسن علي) وركن الدولة (أبو علي الحسن) ومعز الدولة الذي استمرت إمارته في العراق ٢٢ سنة فخلفه ابنه عز الدولة بختيار.

ابن الجوزي : المتنظم ج ٧ ص ٣٨

(٢) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ١ ص ٣٥٢. ابن مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ٩٠.

(٣) التنوخي . نشوار المحاضرة ج ٤ ص ٢٢٠. ابن الجوزي : المتنظم ج ٦ ص ٣٤٩.

(٤) ابن مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ٩٤. ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٤٥٥.

(٥) ابن الطقطقي : الفخري ص ٢٨٩.

ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٥ ص ٣٥٢، ٣٥٣.

(٦) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٤ ص ٢٤٢.

ابن مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ١١٢.

العباس، من عائلة أبي الشوارب الأموي، واللذين اتهما بالرشوة، ولم يكتف أبو العباس بذلك، بل أدخل نظام الإلتزام في القضاء. كما تقلده أيضاً أبو السائب عتبة بن عبيد الله الهمداني الذي كان يميل إلى المتصوفة وأهل الزهد فإذا به يستغل منصبه الكبير في الرشوة والفساد حتى أنه لم يتورع عن محاكمة المتصوفة أنفسهم إكراماً للنفوذ البويهبي. وقد كان للشاعر ابن سكرة الهاشمي^(١) الفضل في كشف الرشوة عن طريق هجائه هؤلاء قضاة القضاة الثلاثة.

١ - أبو الحسن محمد بن أبي الشوارب الأموي^(٢)
(٣٣٣ - ٣٣٥ / ٩٤٤ - ٩٤٦):

منذ صغره كان أبو الحسن يخرج مع والده القاضي الحسن (ت ٩٣٦ / ٣٢٥)^(٣)، ويدخل معه ليلة الموكب عند الوزير سليمان بن الحسن^(٤)، حيث يجتمع القضاة والأشراف والكتاب ووجوه القواد وأهل الحضرة. وفي هذه

(١) ابن سكرة الهاشمي (ت ٩٩٥ / ٣٨٥) : هو أبو الحسن محمد بن عبدالله بن محمد، شاعر متسع الناع، جاري في ميدان المجون والسخف ما أراد.

ابن خلكان. وفيات الأعيان ج ٤ ص ٤٠.

(٢) أبو الحسن محمد بن الحسن بن عبد الله بن علي بن محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب الأموي (ت ٩٥٧ / ٣٤٦):

التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٤ ص ١٤٠ - ١٤٢.

ابن الجوزي : المنتظم ج ٦ ص ٣٨٩ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج ١١ ص ٢٣٣ و ٢٣٤.

(٣) أبو محمد الحسن بن عبد الله بن علي بن محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب الأموي (ت ٩٣٦ / ٣٢٥) : استقضاة المقتدر على مدينة المنصور سنة ٣١٦ هـ. وهو رجل حسن السمعة، جميل الطريقة، قريب الشبه من أبيه وجدّه في باب الحكم والساداد. ثم صرفه المقتدر عن القضاء سنة ٣٢٠ هـ.

التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٤ ص ٢٠٠ وج ٦ ص ٥٩.

الخطيب البغدادي . تاريخ بغداد ج ٧ ص ٣٤٠.

ابن الجوزي : المنتظم ج ٦ ص ٢٩٠.

(٤) أبو القاسم سليمان بن الحسن بن محمد (ت ٩٤٣ / ٣٣٢) وزر للمقتدر سنة ٣١٨ هـ بعد عزل ابن مقلة، واستوزره الراضي سنة ٣٢٤ هـ فمجز عن إدارة الحكم لتغلب أصحاب السيوف، مما أدى إلى عزله. ثم أعيد إلى الوزارة، ولما تولى المتقي أقره على الوزارة أربعة أشهر ثم عزله.

ابن الطقطقي : الفخري ص ٢٧١ و ٢٨١.

ابن الجوزي : المنتظم ج ٦ ص ٣٣٨.

المناسبة شاهد أبو الحسن قاضي القضاة أبو عمر وابنه أبو الحسين عمر الذي أصبح فيما بعد قاضياً للقضاة^(١).

وفي سنة ٩٤٤/٣٣٣ قَلَّده المستكفي بالله، قضاء مدينة المنصور والشرقية^(٢). ويذكر التنوخي أن قاضي القضاة أبا الحسن «كان رجلاً واسع الأخلاق، كريماً، جواداً، طلبة للحديث»^(٣). ثم يعود ويذكر رأياً مخالفاً تماماً بقوله في موضع آخر: «وكان قبيح الذكر فيما تولاه من الأعمال، منسوباً إلى الاسترشاء في الأحكام، والعمل فيها بما لا يحوز، وقد شاع ذلك عنه، وكثر الحديث به»^(٤).

وقد نظم ابن سكرة قصيدة في هجائه يتهمه بالرشوة وعدم تطبيق الشريعة، ذكرها الكندي بقوله^(٥) :

ولقد جنى قاضي القضاة (حسين نجل؟) أبي الشوارب
هذا الذي هتك الشرايع بالبدايع والمتاعب
هذا المضمّر للفروج وللدماء بغير راكب

ويبدو أن الكندي يقصد بالحسين «نجل» قاضي القضاة محمد بن الحسن (أو الحسين) بن عبدالله. وبسبب هذه التهم أمر المستكفي بالقبض عليه في شهر صفر سنة ٩٤٥/٣٣٤^(٦)، ونفاه إلى سامراء، وقسم أعماله فولّى الشرقية أبا طاهر محمد بن أحمد بن نصر، وولّى مدينة المنصور أبا السائب عتبة بن عبيد الله.

وبعد خلع المستكفي بالله في رجب سنة ٩٤٦/٣٣٤^(٧)، أعاد المطيع لله أبا الحسن إلى القضاء، وقَلَّده الشرقية والحرمين واليمن ومصر وسامراء وقطعة من أعمال

(١) التنوخي : نشوار المحاضرة ج١ ص ٢٤٩ .

(٢) التنوخي . نشوار المحاضرة ج٤ ص ١٤٠ .

ابن الجوزي : المنتظم ج٦ ص ٣٨٩ .

(٣) التنوخي : نشوار المحاضرة ج٤ ص ١٤٠ .

(٤) التنوخي : نشوار المحاضرة ج٤ ص ١٤٢ .

ابن كثير : البداية والنهاية ج١١ ص ٢٣٣ - ٢٣٤ .

(٥) الكندي : الولادة والقضاء ص ٥٤٥ - ٥٤٦ .

(٦) التنوخي : نشوار المحاضرة ج٤ ص ١٤٠ و١٤٢ .

(٧) ابن مسكويه : تجارب الأمم ج٢ ص ٨٦ .

السواد(٢)، وبعض أعمال الشام وسقي الفرات وواسط. تم عزل عنها جميعاً في شهر رجب سنة ٩٤٧/٣٣٥^(٣).

٢ - أبو السائب عتبة بن عبيدالله الهمداني^(٣) (٣٣٨ - ٩٤٩/٣٥٠ - ٩٦١):

هو أبو السائب عتبة بن عبيدالله بن موسى بن عبيدالله الهمداني، ولد في همدان سنة ٨٧٧/٢٦٤، كان أبوه تاجراً مستوراً ديناً، يؤم جماعة من الهمدانيين حوالى الثلاثين سنة في مسجد خاص بهم. نشأ أبو السائب يطلب العلم، وغلب عليه علم التصوف والميل إلى أهل الزهد في الدنيا، ثم ترك همدان وسافر إلى بغداد حيث لقي العلماء، وعني بفهم القرآن الكريم، وكتب الحديث، ونفقه على مذهب الشافعي، وكثرت أسفاره، فدخل المراغة، وتوسط له صديقه عبدالرحمن الشيزي فاتصل بالأمير أبي القاسم بن أبي الساج، فقلده قضاء مراغة ثم أضاف إليها قضاء أذربيجان بأسرها. وعظمت حاله، وتقلد قضاء همدان. ثم عاد إلى بغداد، فقطن بها، وتقدم عند السلطان، وعرف الرؤساء فضله وعقله، حتى تقلد أعمالاً جليلاً بالكوفة وديار مضر

(١) السواد وهو رستاق العراق ويمتد من حديثه الموصل إلى عبادان، ومن العديب بالقادسية إلى حلوان وسمي

بالسواد لسواده بالزرع والخيل والأشجار والعرب يسمون الحصرة سوادا، والسواد حصرة

ياقوت الحموي معجم البلدان ج ٣ ص ١٧٤

(٢) التوخي: شوار المحاصرة ج ٤ ص ١٤١

اس مسكويه: تحارب الأمم ج ٢ ص ١١٠.

ابن الجوري المتظلم ج ٦ ص ٣٥٠

(٣) ترجمته وأخباره في

التوخي شوار المحاصرة ج ١ ص ٢٠٨ و ٢٤٦ - ٢٤٧ ج ٢ ص ٢٦٩ و ٣٠٨ - ٣٠٩ ج ٣ ص

١٤٤ - ١٤٥ ج ٤ ص ١٩ - ٨١ و ٢٣٩ و ٢٤٢ - ٢٤٤ ج ٥ ص ٧ - ١٢ و ٢٦ ج ٧ ص

٥٤ - ٥٨ العرج بعد الشدة. ج ٤ ص ١٥٤ و ١٨٦ - ١٨٧.

الخطيب البغدادي. تاريخ بغداد ج ٥ ص ٣٦٣، ج ٧ ص ١١٩، ج ١١ ص ١١١ ج ١١ ص ٢٤٩، ج ١٢ ص

٣٢٠ ياقوت الحموي معجم الأدياء ج ٦ ص ٢٥٣ و ٢٥٨

اس الجوري المتظلم ج ٢ ص ١٥٣، ج ٧ ص ٥ و ٦ و ١٠٢

والأهواز وعامة الجبل وقطعة من السواد. وتقدم عند قاضي القضاة أبي الحسين عمر،
وسمع شهادته، واستشاره في كثير من أموره.

وعندما قبض الخليفة المستكفي على قاضي القضاة محمد بن الحسن بن أبي
الشوارب الأموي، وكان قاضياً على الجانب الغربي بأسره، قلّد أبا السائب على مدينة
أبي جعفر المنصور، وذلك في شهر صفر سنة ٣٣٤/٩٤٥^(١). وفي هذا العام خلع
المستكفي، ودخل الأمير معز الدولة البويهبي والخليفة الطائع العباسي إلى البصرة
دخول الفاتحين، فخرج القاضي أبو السائب مهتئاً لهما، واستخلف عند خروجه، أبو
بشر عمر بن أكثم، على قضاء الجانب الشرقي من بغداد^(٢). ثم تقلّد أبو السائب
قضاء بغداد بأسرها، وهو بالبصرة مع المطيع لله في شهر ربيع الأول سنة
٣٣٦/٩٤٧^(٣). وبعودته إلى بغداد، أخذت منزلته تزداد حتى تقلّد منصب قاضي
القضاة سنة ٣٣٨/٩٤٩.

ومنذ أن تقلّد أبو السائب القضاء، اتهم بالرشوة والأعمال المخالفة لأدب
القاضي. لذلك تعرض لسخرية الشاعر ابن سكرة الهاشمي الذي دخل عليه وهو
جالس للحكم، فكتب أبياتاً شعرية في رقعة ودفعها إليه، فلما قرأها أبو السائب ردّ
عليها نثراً^(٤):

يا عبّنة بن عبيد	حوشيت من كل عيب	لبيك يا مختصر
وأبعد الله قوماً	رموك عندي بريب	وأنت فحوشيت من كل سوء
قالوا بأنك تهوى	زبيبة بن شعيب	كذبوا
فقلت هذا محال	أصبوة بعد شيب؟	أحسن الله جزاءك وقلت
		ما يشبهك وربما كانت
لقد هتفتم بشيخ	تقيّ ذيل وجيب	بئس ما فعلوا، والحمد لله على ذلك
رأيتم الأير فيه؟	فلما شهدتم بغيب؟	جهلاً منهم بطرق الشهادة

(١) التنوخي : نشوار المحاضرة جـ ٧ ص ٥٤.

الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد جـ ١٢ ص ٣٢٠.

(٢) التنوخي : نشوار المحاضرة جـ ٤ ص ٢٤٢؛ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد جـ ١١ ص ٢٤٩.

(٣) التنوخي : نشوار المحاضرة جـ ٤ ص ٢٤٣ وجـ ٥ ص ٩؛ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد جـ ٥ ص ٣٦٣.

وجـ ١١ ص ٢٤٩؛ ابن الجوزي : المنتظم جـ ٧ ص ١٠٢.

(٤) التنوخي : نشوار المحاضرة جـ ٥ ص ٢٦.

ولم يكتف ابن سكرة بذلك، بل هجاه أيضاً قائلاً^(١) :

إن شئت أن تبصر أعجوبة من جور أحكام أبي السائب
فاعمد من الليل إلى صرة وقرر الأمر مع الحاجب
حتى ترى مروان يقضي له على علي بن أبي طالب
وهذا اتهام صريح بالرشوة عن طريق الحاجب محمد^(٢)، الذي اشتهر بتهتكه
وعهره.

ومما يذكر أن أبا السائب قبل شهادة محمد بن جعفر^(٣) بعد أن أغراه بالمال،
فأقره على أموال زوجته التي ماتت فتركت ثلاثمائة ألف دينار.

ولا غرو في ذلك، فإن قاضي القضاة أبا السائب حدّد ثلاث صفات من صفات
أهل النار، يجب توافرها في الشاهد، وإلا برأيه صار هو من أهل النار، وأولها: قلة
الحياء، لأن الشاهد، إذا كان مستحيّاً، أجب إلى كل محال يُسألُه، فيذهب دينه،
ويصير من أهل النار، والحياء في الأصل من الإيمان، وأهل الإيمان في الجنة، كما
روى في الخبر، فقلة الحياء من خصال النار. والثانية: إنه يحتاج أن يكون فيه سوء
الظن، لأنه متى أحسن ظنه تمت عليه الحيلة والتزويرات، فيشهد بالمحال، فيدخل
النار، وإذا كان سيء الظن سلم، وسوء الظن في الأصل إثم، كما قال الله تعالى،
والإثم من خصال أهل النار. أما الثالثة فلم يذكرها التنوخي لأنها غابت عن باله.

(١) التنوخي: نشوار المحاصرة ج ٥ ص ٢٦؛ ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ١٨٦.

(٢) الحاجب محمد: هو حاجب قاضي القضاة أبي السائب، كان عاهراً يتعرض لحرم الناس. وكان مرسوماً بمحبة
القضاة فكانت لا تمتنع عليه من لها خصومة أو حاجة عند قاضي القضاة، وكان جيلاً مقبول الصورة، وتصنع
مع ذلك ويتهم بفواحش مع صاحبه. وبعد وفاة قاضي القضاة أبو السائب ٣٥٠ هـ، صودر محمد الحاجب
وضربه الوزير أبو محمد المهلب، لما كان بلغه عه من التحزم والتهتك.

ابن مسكويه: تجارب الأمم ج ٢ ص ١٨٤.

(٣) محمد بن جعفر: عمل في مطبخ ابنة الأمير بدر مولى المعتضد، بعد مقتل زوجها الخليفة المقتدر بالله.
وارتفعت مكانته عندها حتى تزوجت منه. وبعد موتها ورث عنها ٣٠٠ ألف دينار أوصت له في مالها
ووقوفها. وعرف بزواج الحرّة.

التنوخي: نشوار المحاصرة ج ٥ ص ١٠-١٢.

الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٧ ص ١١٩.

ابن الجوزي: المنتظم ج ٢ ص ١٥٣.

ويضيف أبو السائب قائلاً: «ما ظنكم ببلد فيه عشرات ألوف ناس، ليس فيهم شهود إلا عشرة أنفس أو أقل أو أكثر، وأهل ذلك المصر كلهم يريدون الحيلة على هؤلاء العشرة، كيف يسلمون إن لم يكونوا شياطين الإنس في التيقظ والتحرز والفهم^(١) . وفي العام التالي لتقلد أبي السائب قضاء القضاة، تولى أبو محمد المهلبي الوزارة لمعز الدولة سنة ٩٥٠/٣٣٩، ثم قبض على رؤساء الصوفية وسجنهم في بغداد، واستعان بأبي السائب في محاكمتهم، رغم أنه كان في مطلع شبابه يميل إلى المتصوفة وأهل الزهد^(٢) . وفي سنة ٩٦٠/٣٤٩، وقبل وفاته بعام واحد، قام أبو السائب بتقليد القاضي التنوخي (ت ٩٩٤/٣٨٤)^(٣)، قضاء القصر وبابل وسورا، بعد أن حظي باهتمامه

(١) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٢ ص ٢٦٩ .

(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ١٤٤ .

(٣) أبو علي المحسن بن علي التنوخي (ت ٩٩٤/٣٨٤) : قاص، أديب، شاعر، نثر وإخباري . ولد في البصرة سنة ٩٣٩/٣٢٧، ونشأ فيها وقد ساعده الوزير المهلبي في تقلد القضاء سنة ٣٤٩ هـ وكان من ملازمي مجلسه . وارتفعت مكانته عند عضد الله فحضر مجالس شربه وأنسه . وأشهر مؤلفاته نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة والفرج بعد الشدة والمستجد من فعلات الأجواد . وله ديوان شعر وعنوان الحكمة والبيان توفي ببغداد .

التنوخي : نشوار المحاضرة : ج ١ ص ١٩٢ ؛ ج ٢ ص ٢٦٥ - ٢٦٨ و ٣٠٢ ، ٣٢٩ - ٣٣٠ ، ج ٣ ص ١٤٤ - ١٤٨ ؛ ج ٤ ص ١٠ - ١٣ و ٤٩ - ٥١ و ٥٦ - ٥٧ و ٧٩ - ٨٨ و ٩٣ - ١٠١ و ١٥٩ و ٢٥٩ - ٢٦١ ، ج ٥ ص ١٥ و ١٩ و ٢٩ و ٣٦ و ٣٩ و ٤٩ و ٢٢٦ و ٢٦٧ - ٢٦٩ ؛ ج ٦ ص ٧٥ و ٢٥٢ و ٢٥٣ ، ج ٧ ص ١١٣ و ١٢٠ و ١٨٦ - ١٨٩ . الفرغ بعد التسلة : ج ١ ص ١٠٦ و ١٥٢ - ١٥٤ ، ١٧٣ - ١٧٦ و ٢٣٦ - ٢٤٢ ، ج ٢ ص ٢٨٢ - ٢٨٨ ، ج ٣ ص ٢٦٢ - ٢٦٧ ، ج ٥ ص ٣٧ و ٤٩ و ٥١ و ٨٦ .

ابن الجوزي : المنتظم ج ٧ ص ٢ و ٢٥ و ١٠٨ و ١٧٨ و ١٨٦ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ج ٣ ص ١١٢ ؛ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ٥ ص ٤٦٦ ، ج ٨ ص ١٤ و ١٠٣ ، ج ١٢ ص ٧٧ ، ١١٥ ، ج ١٣ ص ١٥٥ ؛ الثعالبي : يتيمة الدهر ج ٢ ص ١١٥ و ٣٤٦ ؛ ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج ٥ ص ٣٠١ و ج ٦ ص ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٦٠ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٦٨ ؛ المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٥٥٨ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٤٥ ، ج ٣ ص ٣٠١ ؛ يوسف سرقيس : معجم المطبوعات ج ١ ص ٦٤٣ و ٦٤٤ ؛ عمر كحالة : معجم المؤلفين ج ٨ ص ١٨٥ و ١٨٦ ؛ الزركلي : الإعلام ج ٦ ص ١٧٦ ؛ إسماعيل البغدادي : هدية العارفين ج ٥ ص ٦ ؛ حاجي خليفة كشف الظنون ج ٢ ص ١٢٥٢ و ١٢٥٣ ، عصام شبارو : القضاء والقضاة ص ٢٩٥ - ٣٢١ .

ورعايته، بناء لرغبة أبو محمد المهلبي^(١). فقد كان أبو السائب يتردد على المجالس العامة التي يقيمها الوزير، وقد دخل ذات مرة ليشاهد القاضي التنوخي يتقدم ويقبل يد الوزير، الذي دبر هذه الخطة حتى يشعر قاضي القضاة أن التنوخي مع الوزير في أمر من أمور الدولة، فيرهبه ويكرمه. خاصة وأنه كانت هناك عداوة بين أبي السائب ووالد التنوخي. فأدرك الوزير أن قاضي القضاة لا يجيء إلا بالرهبة، وقد انطلت عليه الحيلة. وعندما قصده التنوخي في اليوم التالي، كاد أن يحمله على رأسه، وأخذ يجاذبه بضروب من المحادثة والمباينة^(٢). وكان التنوخي يذكر دائماً حكايته مع قاضي القضاة أبي السائب، وحديث تقربه منه، ومسارته إياه في المجلس ليُعظم بذلك قدره، وتكبر منزلته، في عين قاضي القضاة أبي السائب^(٣).

وقد بدا الضعف على قاضي القضاة أبي السائب في أواخر أيامه، وذلك بسبب تقدمه في السن، وقد ذكر ذلك أبو منصور عبدالعزیز بن محمد بن عثمان المعروف بابن أبي عمرو الشرايبي، حاجب المطيع لله، عندما دخل عليه يوماً، فقَصَّرَ قاضي القضاة في القيام، وأظهر ضعفاً عنه للسن، والعلل المتصلة به، فتطاول له، فجذب يديه بيده، حتى أقامه القيام التام. وقال الحاجب عاتباً عليه في بعض الأمور، وكان الشر في وجهه، لكن أبا السائب بادره بالقول: رويانا عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾^(٤)، قال: عفو بلا تقريع، فإن رأيت أن تفعل ذلك، فعلت. وهكذا استحي الحاجب^(٥).

وتوفي أبو السائب في ربيع الثاني سنة ٩٦١/٣٥٠.

وقد ذكر أبو بكر أحمد بن علي الذهبي المعروف بابن القطان أنه رأى في المنام قاضي القضاة أبا السائب بعد موته، فسأله: ما فعل الله بك، مع تخليطك؟ فأجاب:

(١) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٤ ص ٨١.

(٢) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٤ ص ٧٩ - ٨١.

ياقوت الحموي: معجم الأدباء ج ٦ ص ٢٥٣.

(٣) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٤ ص ٩١ - ٩٢.

ياقوت الحموي: معجم الأدباء ج ٦ ص ٢٥٨.

(٤) سورة الحجر آية ١٥.

(٥) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ١ ص ٢٤٧.

غفر لي . ثم سأله : فكيف ذلك؟ فأجاب : إن الله تعالى عرض علي أفعالي القبيحة ، ثم أمر بي إلى الجنة ، وقال : لولا أني آليت علي نفسي أن لا أعذب من جاوز الثمانين ، لعذبتك ، ولكني قد غفرت لك ، وعفوت عنك ، اذهبوا به إلى الجنة ، فأدخلتها^(١) . وهذا يدل على أن سيرة قاضي القضاة أبا السائب لم تكن محمودة .

٣ - أبو العباس عبدالله بن أبي الشوارب الأموي^(٢) .

(٣٥٠ - ٣٥٢ / ٩٦١ - ٩٦٣) :

هو أبو العباس عبدالله بن الحسن بن عبدالله بن علي بن محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب الأموي ، ويقال إنه «من ولد خالد بن أسيد الأموي ، أخي عباد بن أسيد صاحب النبي ﷺ»^(٣) . وقد تقلد منصب قاضي القضاة في شعبان سنة ٩٦١/٣٥٠^(٤) ، بعد وفاة أبي السائب ، وبعد مرور خمسة عشر عاماً على عزل أخيه أبو الحسن محمد عن قضاء القضاة . وبذلك يكون الشقيقان أبو الحسن وأبو العباس قد تقلدا هذا المنصب واتهما بالرشوة .

وكان القاضي أبو علي المحسن التنوخي ، يحضر مجلس قاضي القضاة أبي العباس ، فيكتب له على الحكم والوقوف ببغداد ، مضافاً إلى ما كان يخلفه عليه بتكريت ، ودقوقا ، وخانيجار ، وقصر بن هبيرة . والجامعين ، وسوراء ، وبابل ، والإيفارين^(٥) ، وخطيرينة .

-
- (١) التنوخي : نشوار المحاضرة جـ ٤ ص ٢٣٩ . ابن الجوزي : المنتظم جـ ٧ ص ٦ .
(٢) ترجمته في : ابن الجوزي : المنتظم جـ ٧ ص ٢ و ١٦ ؛ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد جـ ١٢ ص ٨٢ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١١ ص ٢٣٧ .
(٣) التنوخي : نشورا المحاضرة جـ ٣ ص ١٥٦ .
(٤) التنوخي : نشوار المحاضرة جـ ٤ ص ٢٤٣ ؛ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد جـ ١١ ص ٢٤٩ ؛ ابن الجوزي : المنتظم جـ ٧ ص ٢ .
(٥) الإيفاران : اسم لعدة ضياع في الكرج والبرج . والكرج بين همدان وأصبهان ، والبرج من قرى أصبهان .
ياقوت الحموي : معجم البلدان جـ ١ ص ٤٢٠ ، ٥٤٨ .

نظام الالتزام، وبعد أن تعهد بدفع مائتي ألف درهم سنوياً إلى معز الدولة البويهبي، مقابل حصوله على منصب قاضي القضاة في احتفال كبير سنة ٩٦١/٣٥٠، وكأنه بذلك استأجر السلطة القضائية من البويهبيين مقابل مبلغ معين من المال، وعليه في هذا الحال أن يحصل على أضعاف هذا المبلغ، وكان هدف قاضي القضاة هو جني الأرباح، وهنا تضيع العدالة في إصدار الأحكام. وهذا ما جعل الخليفة المطيع لله العباسي يغضب منه ويرفض الإذن له بالحضور عنده أو بمرافقته في المواكب الرسمية^(١).

وكان الشاعر ابن سكرة الهاشمي، مولعاً بهجو قاضي القضاة أبا العباس فعندما تقلد قضاء القضاة، كانت العامة تلقبه بحدندل لأنه لم يكن محموداً في القضاء، منسوباً إلى الإرثاء في الأحكام، فقال فيه ابن سكرة^(٢) :

خلعت على حدندل من مديحي قميصاً لا أكتسي رجل كساه
على نفسي دعوت لأن جهلي دعائي أن شرهت إلى نداه
وكيف رجوت جوداً من عدوي ولم أغسل حسامي من دماه

وبسبب الرشوة وإدخال نظام الالتزام في القضاء، عزل المطيع لله قاضي القضاة أبا العباس من منصبه في سنة ٩٦٣/٣٥٢^(٣).

وهنا، يمكن القول إن الفترة (٣٣٣ - ٩٤٤/٣٥٢ - ٩٦٣)، والتي برزت فيها أسماء قضاة القضاة أبو الحسن وأبو السائب وأبو العباس، قد تميزت بالرشوة والإغراء بالمال، مما أدى إلى قيام الخلل في الأحكام، فتأثر بذلك القضاء، وخاصة أعلى مرجع قضائي في الدولة، أي قاضي القضاة.

وعندما يثبت على قاضي القضاة تهمة الرشوة، فإنه يحاكم. ففي جمادى الأولى سنة ١٢٠٤/٦٠٠، عقد مجلس لقاضي قضاة بغداد أبو الحسن علي بن عبدالله بن سليمان الجبلي، بدار الوزير، وثبت عليه محضر بأنه يتناول الرشوة، فعزل وفسق

(١) ابي كثير : البداية والنهاية ج ١١ ص ٢٣٧ .

(٢) التنوخي : نشورا المحاضرة ج ٣ ص ١٥٦ .

(٣) ابن الجوزي : المتنظم ج ٧ ص ١٦ .

ونزعت الطرحة عن رأسه ، وكانت مدة ولايته سنتين وثلاثة أشهر^(١) .

وبالرغم من ذلك كله نؤكد أن ذكر بعض قضاة القضاة، ممن تأثر بمجالس اللهو والرقص والشرب مثل يحيى بن أكثم، أو الرشوة والهدايا مثل أبو الحسن وأبو السائب وأبو العباس، لا يعني أهدأ التعرض لمنصب قاضي القضاة، بقدر ما يعني توضيح حقيقة قلة قليلة من قضاة القضاة توجد في كل منصب وفي كل مكان وزمان، والتي يركز عليها من يريد تشويه الإسلام من الكتاب. المحدثين وبعض المستشرقين، بادعائهم البحث عن الحقيقة المجردة.

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٧ .

الفصل الخامس

ابن خلكان^(١)

من كتاب وفيات الأعيان إلى الولوج بالغلما

(٦٠٨ - ٦٨١/١٢١١ - ١٢٨٢)

كان ابن خلكان أول قاضي قضاة للشافعية بدمشق عندما أصبح لكل مذهب من المذاهب الأربعة قاضي قضاة. وقد اشتهر بكتابه وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. وقد دفع ثمن الشهرة والمكانة، فوقع في الفقر، واتهم بتعاطي الحشيشة والولوج بالغلما.

١ - نشأته وتقلده قضاء قضاة الشافعية سنة ١٢٦٦/٦٦٤:

أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان بن باول بن عبدالله بن شاكل بن الحسين بن مالك بن جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك البرمكي، الأربلي، الشافعي (شمس الدين أبو العباس)، فقيه، مؤرخ، أديب، شاعر.

ولد بإربل في ١١ ربيع الثاني سنة ١٢١١/٦٠٨، وتفقه على والده بمدرسة إربل وسمع بها «صحيح البخاري» من أبي محمد بن هبة الله بن مكرم الصوفي، ثم انتقل إلى الموصل حيث تفقه على كمال الدين بن يونس، ثم إلى حلب حيث أخذ عن القاضي بهاء الدين بن شداد. ثم قدم دمشق، ثم إلى القاهرة التي سكنها وتأهل بها وناب بها في القضاء عن القاضي بدر الدين السنجاري، ثم قدم دمشق حيث تقلد

(١) ترجمته في :

ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٧ ص ٣٥٣، ٣٥٤؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ٢٣٩، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٩٠، ٢٩١، ٣٠١، ٣٠٢؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ج٧ ص ٣٠٨ - ٣١٦. السبكي . طبقات الشافعية ج٥ ص ١٤، ١٥. الذهبي : مختصر دول الإسلام ج٢ ص ١٤٢؛ أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج٤ ص ١٧؛ ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ج١ ص ١١٠ - ١١٨؛ ابن العماد : شذرات الذهب ج٥ ص ٣٧١؛ ابن طولون : قضاة دمشق ص ٧٦؛ اليافعي : مرآة الجنان ج٤ ص ١٩٣ - ١٩٧؛ السيوطي : حسن المحاضرة ج١ ص ٣٢٠؛ الزركلي : الإعلام ج١ ص ٢١٢ - ٢١٣؛ حاجي خليفة : كشف الظنون ص ٢٠١٧؛ عمر كحالة : معجم المؤلفين ج٢ ص ٥٩، ٦٠.

قضاءها في ذي الحجة سنة ١٢٦١/٦٥٩ بعد عزل قاضي دمشق نجم الدين بن سني الدولة^(١). ثم أصبح ابن خلكان قاضي قضاة الشافعية في دمشق، عندما جعل الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٦/٦٦٤ قاضي قضاة لكل مذهب من المذاهب الأربعة، فكان شمس الدين عبدالله بن محمد بن عطاء الحنفي وزين الدين عبد السلام الزواوي المالكي وشمس الدين عبد الرحمن بن الشيخ أبي عمر الحنبلي، فضلاً عن شمس الدين بن خلكان الشافعي^(٢). والملاحظ اجتماع ثلاثة من قضاة القضاة لقب كل واحد منهم شمس الدين في زمن واحد. واتفق أن ابن خلكان استناب نائباً عنه لقبه أيضاً شمس الدين، فقال بعض الأدباء^(٣):

أهل دمشق استرابوا من كثرة الحكام
إذ هم جميعاً شمسٌ وحالهم في الظلام
وقال أيضاً:

بدمشق آيه قد ظهرت للناس عاماً
كلما ازدادوا شمساً زادت الدنيا ظلاماً

وكان وجيه الدين بن سويد صاحبه، وكان يسومه قضاء أشغال كثيرة ويقضيها. وعندما اعتذر مرة عن قضاء حاجة له، قال وجيه الدين: ما يكون الصاحب صاحباً حتى يعرق جبينه مع صاحبه في جهنم. فقال له ابن خلكان: يا وجيه الدين، صرنا معك 'قشل قشل (قشلمشا) وما ترضى^(٤).

(١) نجم الدين بن سني الدولة: أبو بكر بن قاضي القضاة صدر الدين أحمد بن قاضي القضاة شمس الدين يحيى بن هبة الله بن الحسن بن يحيى بن محمد بن علي الشافعي من سني الدولة (ت ١٢٨٠/٦٨٠) : ولد سنة ٦١٦ هـ، سمع الحديث وبرع في المذهب الشافعي، وناب عن أبيه فشكرت سيرته، واستقل بقضاء قضاة الشافعية في الدولة المظفرية، كان شديداً في الأحكام متحريراً. باشر قضاء حلب، وعاد إلى دمشق، وولاه سنجر قضاء قضاة الشافعية بدمشق، ثم عزل بابن خلكان. وتوفي في محرم سنة ٦٨٠.

ابن كثير: البداية والنهاية ج٣ ص ٢٣٩ و ٢٩٧

(٢) ابن شاعر الكتبي : فوات الوفيات ج١ ص ١١٠، الصفدي : الوافي بالوفيات ج٧ ص ٣٠٩.

(٣) الصفدي : الوافي بالوفيات ج٧ ص ٣٠٩.

(٤) ابن شاعر الكتبي : فوات الوفيات ج١ ص ١١١. الصفدي : الوافي بالوفيات ج٧ ص ٣١٠ - ٣١١.

وأضيف إلى ابن خلكان، مع قضاء قضاة الشافعية، نظر الأوقاف والجامع
والمارستان وتدرّس سبع مدارس: العادلة والناصرية والفدراوية والفلكية والركنية
والإقبالية والبهنسية.

وكان منصب قاضي قضاة الشافعية بدمشق بين ابن خلكان وبين عز الدين بن
الصائغ، يعزل هذا تارة ويولى هذا، ثم يعزل هذا فيولى هذا... ففي سنة
١٢٧٠/٦٦٩، دخل السلطان الظاهر بيبرس إلى دمشق، وعزل ابن خلكان وكان له
في القضاء عشر سنين، وولّى مكانه ابن الصائغ وخلع عليه. وسار ابن خلكان إلى
مصر^(١).

وفي سنة ١٢٧٨/٦٧٧، عزل ابن الصائغ من منصبه، وعاد ابن خلكان إلى
قضاء قضاة دمشق بعد عزل استمر سبع سنوات. فقدم من مصر ودخل دمشق دخولاً لم
يدخله غيره من الحكام، وكان يوماً مشهوداً، خرج الناس فيه للقائه، يتقدمهم نائب
السلطنة عز الدين أيدير وجميع الأمراء والمواكب^(٢).

وفي ذي العقدة سنة ١٢٧٩/٦٧٧، فتحت المدرسة النجيبية، وحضر تدرّسها
ابن خلكان بنفسه، ثم ترك التدريس لولده كمال الدين موسى^(٣).
وسنة ١٢٨٠/٦٧٩، أضيفت حلب إلى ولاية ابن خلكان^(٤).

وعندما دخل الأمير سنجر الحلبي منتصراً على سنقر الأشقر، جاء ابن خلكان
ليسلم عليه فاعتقله ثم عزله في شهر صفر سنة ١٢٨٠/٦٧٩، ورسم للقاضي نجم
الدين بن سني الدولة بالقضاء مباشرة، لكن ابن خلكان عاد إلى القضاء بعد تدخل
السلطان المنصور قلاوون الذي عفا عن الجميع^(٥).

٢ - كتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان سنة ١٢٥٦/٦٥٤ :

كان ابن خلكان بارعاً متفنناً، عارفاً بالمذهب الشافعي، حسن الفتاوي، بصيراً

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٧٩ . ابن شاعر الكتبي : فوات الوفيات جـ ١ ص ١١١ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٨٠ .

(٤) المصدر نفسه جـ ١٣ ص ٢٩٠ .

(٥) المصدر نفسه جـ ١٣ ص ٢٩١ .

بالعربية، علامة في الأدب والشعر وأيام الناس، كثير الاطلاع، حلوا المذاكرة. له مجاميع أدبية، وصنف كتاب «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان»^(١) الذي اشتهر كثيراً. ويبدأ ابن خلكان كتابه هذا بالبسملة وحمد الله والصلاة على النبي محمد وآله وأزواجه^(٢). ثم يقول عن سبب تصنيف الكتاب أنه كان «مولعاً بالاطلاع على أخبار المتقدمين من أولي النباهة وتواريخ وفياتهم وموالدهم، ومن جمع منهم كل عصر، فوقع لي شيء منه حملني على الاستزادة وكثرة التتبع». ومن أجل تحقيق هذا الأمر يقول ابن خلكان: «فعمدت إلى مطالعة الكتب الموسومة بهذا الفن، وأخذت من أفواه الأئمة المتقنين له ما أجده في كتاب، ولم أزل على ذلك حتى حصل عندي منه مسودات كثيرة في سنين عديدة»^(٣). ونعت كتابه بقوله: «هذا مختصر في التاريخ»، ولم يذكر فيه أحداً من الصحابة ولا من التابعين والخلفاء، إلا جماعة يسيرة تدعو حاجة كثير من الناس إلى معرفة أحوالهم. وبرر عمله هذا بالمصنفات الكثيرة التي وضعت في هذا المجال. وقد وضع الكتاب في القاهرة سنة ١٢٥٦/٦٥٤^(٤)، بعد أن سمّاه «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مما ثبت بالنقل أو السماع أو أثبتته العيان»، ليستدل على مضمون الكتاب بمجرد العنوان.

ومما يذكر أن نجم الدين بن صصري الشافعي^(٥)، كتب عن ابن خلكان كتابه «وفيات الأعيان» وسمعها عليه، حيث كان له يد في الإنشاء وحسن العبارة، وذلك قبل أن يتقلد قضاء قضاة الشافعية بدمشق سنة ١٣٠٢/٧٠٢ أي بعد وفاة ابن خلكان بنحو عشرين عاماً.

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: نشر هذا الكتاب فرديناند وستفيلد في ثلاثة عشر جزءاً بين عامي ١٨٣٥ و١٨٥٠ معتمداً على عدة مخطوطات أشهرها المخطوطة التي كتبت بعد وفاة المؤلف بـ١٢ سنة وكان يملكها القاضي علاء الدين علي بن شمس الدين محمد بن غانم وقد نسخت سنة ١٢٩٣/٦٩٢ وهي موجودة في غوطا. وهناك مخطوطة بليدن وأخرى في برلين نسخت سنة ١٠٨٣/١٦٧٣ وكذلك نسخة المتحف البريطاني. ومن هذه المخطوطات حقق إحسان عباس الكتاب في ثمانية أجزاء سنة ١٩٧٠ - ١٩٧٢.

ابن خلكان: وفيات الأعيان مقدمة المحقق ج ١ ص ١٥ - ١٧.

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٩.

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ١٩ - ٢٠.

(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٢١.

(٥) نجم الدين بن صصري (ت ٧٢٣/١٣٢٣): ولد سنة ٦٥٥ هـ، وهو أبو العباس أحمد بن العدل عماد الدين =

ويقال إن ابن خلكان عمل تاريخاً للظاهر بيبرس ووصل نسبة بجنكيزخان، فلما وقف عليه قال: هذا يصلح أن يكون وزيراً. لكن صاحب بهاء الدين بن حنا، سعى لدى السلطان وأفسد عليه. فبقي ابن خلكان في القاهرة وازداد فقراً، حتى لم يبق له غير البغلة لركوبه، وكان له عبد يعمل بواباً ويطعمه. وهذا ما جعل بدر الدين بيليك الخازن دار يأمر له بألفي درهم ومائة إردب قمح، فأبى عن قبولها وقال: تجوع الحرة ولا تأكل بثديها^(١). ولم يقبل وأصر على الامتناع مع الفاقة الشديدة. ثم تحسنت أحواله بعد أن طلب لتقلد القضاء في دمشق.

٣ - اتهامه بتعاطي الحشيشة والولع بالغللمان :

وقيل لابن خلكان: إنك تكذب في نسبك، وتأكل الحشيشة، وتحب الصبيان. فرد على ذلك بقوله: أما النسب والكذب فيه فإذا كان لا بد منه كنت أنتسب إلى العباس، أو إلى علي بن أبي طالب، أو إلى أحد الصحابة، وأما النسب إلي قوم لم يبق لهم بقية، وأصلهم قوم مجوس، فما فيه فائدة. وأما الحشيشة فالكحل ارتكاب محرم، وإذا كان لا بد فكننت أشرب الخمر لأنه ألد. وأما محبة الغلمان فإلى غد أجيبك^(٢).

= بن محمد بن العدل أمين الدين سالم بن بهاء الدين بن هبة الله بن محفوظ بن الحسن بن محمد بن الحسن بن أحمد بن محمد بن مصري التغلبي الشافعي، سمع الحديث واشتغل، تفقه بالشيخ تاج الدين الغزاري وعلى أخيه شرف الدين في النحو. وكان له يد في الإنشاء وحسن العبارة، درس بالعمادية الصغيرة سنة ٦٨٢ هـ، وبالأمينية سنة ٦٩٠ هـ، وبالغزالية سنة ٦٩٤ هـ، وتولى قضاء العساكر، ثم تولى قضاء دمشق سنة ٧٠٢ هـ، بعد ابن جماعة حين طلب لقضاء مصر. ثم أضيفت إليه مشيخة الشيوخ مع تدريس العمادية والغزالية والأتابكية. وعند وفاته. صل عليه بالجامع المظفري، وحضر جنازته نائب السلطنة والقضاة والأمراء والأعيان.

ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(١) ابن شاکر الکتبی : فوات الوفيات ج ١ ص ١١٢ .

الصمدي : الوافي بالوفيات ج ٧ ص ٣١١ .

(٢) ابن شاکر الکتبی : فوات الوفيات ج ١ ص ١١٣ .

الصفدي : الوافي بالوفيات ج ٧ ص ٣١٣ .

ولابن خلكان شعر كثير^(١)، وما يهمننا تلك التي تغمز إلى ولعه بالغلمان . وقد ورد أن ابن خلكان كان يهوى الملك المسعود وكان قد تيممه حبه، كما أن القاضي جمال الدين عبد القاهر التبريزي كان ينام عنده في العادلية، وذات ليلة قام ابن خلكان يدور حول البركة ويكرّر هذين البيتين^(٢) :

أنا والله هالك آيس من سلامتي
أو أرى القامة التي قد أقامت قيامتي
وكان لابن خلكان ميل إلى أحد أولاد الملوك، وله فيه أشعار رائقة، ويقال إنه أول يوم زاره بسط له الطرحة وقال له: ما عندي أعز من هذه، طأ عليها. ولما فشا أمرهما وعلم به أهله منعه من المجيء إليه، فقال ابن خلكان^(٣) :

يا سادتي إنني قنعت وحقكم
إن لم تجودوا بالوصال تعطفاً
لا تمنعوا عيني القريحة أن ترى
لو لم أكن في رتبة أرعى لها الـ
لهتكت ستري في هواك ولدّ لي
لكن خشيت بأن تقول عواذلي
وقال ابن خلكان في ملامح أربعة يلقب أحدهم بالسيف^(٤) :

مُلاك بلدتنا بالحسن أربعة
تملكوا مهج العشاق وافتتحوا
بحسنهم في جميع الخلق قد فتكوا
بالسيف قلبي ولولا السيف ما ملكوا
كما ذكر ابن خلكان في وفيات الأعيان، أن قاضي القضاة أبا البختری وهب بن وهب القرشي كلما دخل على هارون الرشيد وابنه القاسم الملقب بالمؤمن بين يديه،

(١) ابن شاعر الكتبي : فوات الوفيات ج ١ ص ١١٢-١١٨

الصفدي : الوافي بالوفيات ج ٧ ص ٣١٢-٣١٦ .

(٢) ابن شاعر الكتبي : فوات الوفيات ج ١ ص ١١٣ .

الصفدي : الوافي بالوفيات ج ٧ ص ٣١٢ .

(٣) ابن شاعر الكتبي : فوات الوفيات ج ١ ص ١١٢ .

الصفدي : الوافي بالوفيات ج ٧ ص ٣١١ و ٣١٢ .

(٤) ابن شاعر الكتبي : فوات الوفيات ج ١ ص ١١٥ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ج ٧ ص ٣١٤ .

كان يدمن النظر إليه سواء عند دخوله أو خروجه، مما أثار انتباه الرشيد، فقال له ذات مرة: أراك تدمن النظر إلى ابني القاسم، تريد أن تجعل انقطاعك إليه. فقال أبو البختري: أعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن ترميني بما ليس فيّ، وأما إدماني النظر إليه فلأن جعفر الصادق رضي الله عنه روى بإسناده عن آبائه إلى رسول الله «ثلاث يزدن في قوة النظر: النظر إلى الخضرة، وإلى الماء الجاري، وإلى الوجه الحسن»^(١).

فهل يعني ذكر مثل هذه الأمور، فضلاً عن الأبيات التي ذكرت، الوله بالغلتمان بالنسبة لابن خلكان، الذي قال في النهاية يطلب الشفاعة من الله^(٢):

يا رب إن العبد يخفي عيبه فاستر بحلمك ما بدا لي من عيبه
ولقد أتاك وما له من شافع لذنوبه فاقبل شفاعة شيبه

ولكن ما تذكره المصادر أن ابن خلكان كريم جواد ممدوح، فيه ستر وحلم وعفوة، وقد درس بالأمينية إلى أن مات عشية نهار السبت ٢٦ رجب ١٢٨٢/٦٨١، وذلك في المدرسة النجيبية جوار النورية، وشيَّعه الناس ودفن بسفح قاسيون. وبعد وفاته تقلد ابن الصائغ قضاء القضاة^(٣).

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٦ ص ٤١-٤٢ .

(٢) ابن شاکر الکتبي . فوات الوفيات ج١ ص ١١٧ .

(٣) ابن شاکر الکتبي : فوات الوفيات ج١ ص ١١١ ؛ الصفدي : الرافي بالوفيات ج٧ ص ٣١٠ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ٣٠١-٣٠٢ .

الفصل السادس

مجالس الشعر والنوادر

كان ميل بعض قضاة القضاة للشعر يدفعهم إلى إقامة مجالس شعر، وهذه المجالس أقامت علاقة مميزة بين قضاة القضاة والشعراء وبين قضاة القضاة أنفسهم حيث كان قاضي القضاة يقول أو يقال فيه الشعر، فضلاً عن النوادر التي تصادفه رغم الجدية والرزانة التي يتصف بهما عادة.

١ - شعر قاضي القضاة:

كان التنافس بين قضاة القضاة في ميدان القضاء ينتقل إلى مجالس الأدب التي تضمهم أحياناً. وأبرز هذه المجالس كانت في بغداد حيث تجمع بين قاضي القضاة أبي جعفر (ت ٣١٨/٩٣٠) وبين القاضي أبي عمر (ت ٣٢٠/٩٣٢) قبل أن يتقلد منصب قاضي القضاة، فكانا يتذاكران الشعر والأدب والعلم، في حضور الكثيرين، الذين يلتفون حولهما كما يلتف الناس حول القصاصين في ذلك الوقت، استحساناً لما يجري بينهما. وذات مرة أنشد قاضي القضاة أبو جعفر بيتاً من الشعر، فقال له أبو عمر: إني أحفظ هذا البيت بخلاف هذه الرواية، فصاح أبو جعفر عليه صيحة عظيمة، وقال: أسكت، إلي تقول هذا؟ أنا أحفظ لنفسى، من شعري خمسة عشر ألف بيت، وأحفظ للناس أضعاف ذلك، وأضعافه، وهنا استحي أبو عمر وسكت^(١).

وكان قاضي القضاة أبو جعفر واسعاً الحفظ للشعر القديم والمحدث، ينشد منه أيام المواكب في دار الخليفة المقتدر. كما كان واسع الحفظ للأخبار الطوال، وله مساجلات مع الطبري (ت ٣١٠/٩٢٢) في رواية الأخبار، وفي فنون كثيرة من الأدب والعلم^(٢)، وكانا يجتمعان في أثناء جنازة بعض أهل بغداد من الوجوه^(٣)، وتجري

(١) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٤ ص ١٥ - ١٦ . ياقوت الحموي : معجم الأدياء ج ١ ص ٨٣ .

(٢) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٤ ص ١٧ . ياقوت الحموي : معجم الأدياء ج ١ ص ٨٣ .

(٣) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٤ ص ١٧ .

المذاكرة بينهما في مكان الإجتماع لتشجيع الميت، وقد ظهر تفوق أبو جعفر علي الطبري في حفظ الشعر، بعد أن جلس إلى جانبه، فكلما جاء الى قصيدة ذكر الطبري فيها أبياتاً، فيمر أبو جعفر في جميعها حتى يسفها^(١). وكان قاضي القضاة أبو جعفر يقول الشعر تأديباً وتطرباً ولم يمدح أحداً بشيء منه، وقد حمل الناس عنه علماً كثيراً^(٢). كما ذكر له التنوخي وياقوت الحموي أبياتاً مختلفة من الشعر^(٣).

وحيثما استقال أبو جعفر من القضاء، تركه غير نادم، كأنه يترك نعيم الدنيا ليستعد للقاء ربه في الآخرة، فقال^(٤) :

تركت القضاء لأهل القضاء وأقبلت أسمو إلى الآخرة
فإن يك فخراً جليل الثناء فقد نلت منه يداً فاحرة
وإن كان وزراً فأبعد به فلا خير في إمرة وازرة.

وعندما رفض العودة إلى القضاء قيل له إعمل شيئاً حتى يخلفك إبنك في القضاء، فقال: ما كنت لأتحملها حياً وميتاً وقد خدم ابني السلطان وولاه الأعمال، فإن استوثق خدمته، قلده وإن لم يرتض مذهب، صرفه، وهذا يفتضح ولا يخفى، وأنشدهم^(٥) :

يقولون همّت بنت لقمان مرة بسوء وقالت: يا أبي ما الذي يخفى
فقال لها: ما لا يكون، فأمسكت عليه ولم تمدد لمنكرة كفاً
وما كل مستور تغلق دونه مصاريع أبواب ولوبلغت ألفاً
بمستتر والصائن العرض سالم وربما لم يعدم الدم والقرفا
على أن أثواب البريء نقيّة ولا يلبث الزور المفكك أن يطفأ.

ومن شعره ينصح فيه الوزير ابن الفرات بعدم تقلد الوزارة^(٦) :

قل لهذا الوزير قول محقّ بثه النصيح أيما ابثاث
قد تقلدتها مراراً ثلاثاً وطلاق البتات عند الثلاث.

(١) التنوخي: نشورا المحاضرة جـ ٤ ص ١٧ - ١٨. ياقوت الحموي: معجم الأدباء جـ ١ ص ٨٣.

(٢) التنوخي: نشورا المحاضرة جـ ٤ ص ٢٥ - ٢٦.

(٣) التنوخي: نشورا المحاضرة جـ ٤ ص ٢٥ - ٢٧. ياقوت الحموي: معجم الأدباء جـ ١ ص ٩١ - ٩٣.

(٤) التنوخي: نشورا المحاضرة جـ ٤ ص ٢٥.

(٥) التنوخي: الفرج بعد الشدة جـ ٥ ص ٥٩.

(٦) التنوخي: نشور المحاضرة جـ ٤ ص ٢٦.

وكان الأمر على ما قاله، فإن ابن الفرات قتل بعد الوزارة الثالثة في سجنه^(١) وله أيضاً:

ويجزع من تسليمنا فيردنا
وما ضره أن يجتبنسا ببشره
ومن شعره^(٢) :

رأيت العيب يلصق بالمعالي
ويخفي في الدنيء فلا تراه
وله شعر في الفرخ يقول فيه^(٣) :

وقد يأمل الانسان ما لا يناله
وقال أيضاً:

فصبراً واهالاً فكل ملمة
وانشد لنفسه :

إذا استصغرت من دنياك حالاً
وأحدث شكر من نجاك منها
كما كتب أبو جعفر بخطه لبعض الشعراء^(٤) :

الصبر مفتاح ما يرجئ
فاصبر وإن طالت الليالي
وربما ينل باصطبار
وقال أيضاً أبياتاً في الحكمة^(٥) :

أقبلت الدنيا وقد ولّى العمر
لله أيام الصببا إذ تعتكر
فما أذوق العيش إلا كالصبر.
لاقت لدينا لو تؤوب ما تسر.

(١) ابن مسكويه : تجارب الأمم ج ١ ص ١٣٧ .

(٢) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٤ ص ٢٦ .

(٣) التنوخي : الفرخ بعد الشدة ج ٥ ص ٥٩ .

(٤) المصدر نفسه ج ٥ ص ٦٧ .

(٥) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٤ ص ٢٦ .

وقال أيضاً^(١) :

أبعد الثمانين أفنيتها وخمساً وسادسها قد نما
ترجيّ الحياة وتسعى لها لقد كاد دينك أن يكلمنا .
كما قال^(٢) :

إلى كم تخدم الدنيا وقد جزت الثمانينا
لئن لم تك مجنوناً فقد فقت المجانينا .
لم يكن قاضي القضاة أبو جعفر، وحده يقول الشعر، فهناك قاضي القضاة أبو
عمر، وابنه قاضي القضاة أبو الحسين عمر، وحفيده قاضي القضاة أبو نصر يوسف بن
عمر. وكان قاضي القضاة أبو عمر يداعب حفيده أبا نصر يوسف بن عمر عندما كان
طفلاً يترعرع، فقال^(٣) :

إذا الرجال ولدت أولادها واضطربت من كبر أعضادها
وجعلت أعلالها تعتادها فهي زروع قد دنا حصادها .
وقد كتب الأمير أبو محمد جعفر بن ورقاء الشيباني شعراً يعاتب فيه أبا عمر وابنه
أبا الحسين لتأخرهما في تهنئته بقدمه من الحج^(٤)، فوصلت الأبيات إلى أبي عمر
وكان مشغولاً فطلب من ابنه أبو الحسين الذي أصبح قاضياً للقضاة فيما بعد أن يكتب
الجواب عنها، فكتب^(٥) :

تجنّ واطلم فلست منتقلا عن خالص الودّ أيها الظالم
ظننت بي جفوة عتبت لها فخلت أني لحبلكم صارم
حكمت بالظن والشكوك ولا يحكم بالظن في الهوى حاكم
تركت حق الوداع مطرّحا وجئت تبغني زيارة القادم
أمران لم يذهباً على فطن وأنت بالحكم فيهما عالم
وكل هذا مقال ذي ثقة وقلبه من جفائه سالم .

(١) التنوخي : نشوار المحاضرة ج٤ ص ٢٧ .

(٢) المصدر نفسه ج٤ ص ٢٧ .

(٣) التنوخي : نشوار المحاضرة ج٥ ص ٢١١ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج٣ ص ٤٠٤ .

(٤) التنوخي : نشوار المحاضرة ج٤ ص ٢٠٨ .

(٥) التنوخي : نشوار المحاضرة ج٤ ص ٢٠٩ ؛ ابن الجوزي : المنتظم ج٦ ص ٣٠٦ ؛ ياقوت الحموي :
معجم الأدباء ج٦ ص ٥٣ .

وكذلك أنشد قاضي القضاة أبو نصر يوسف بن عمر يقول^(١) :

يا محنة السله كفي ان لم تكفي فخفي
ما آن أن ترحمينا من طول هذا التشفي
ذهبت أطلب بختي فقييل لي قد توفي
ثور ينال الثريا وعالم متخفي
الحمد لله شكراً على نقاوة حرفي.

ولقاضي القضاة أبو محمد عبيد الله بن أحمد بن معروف شعر يقول فيه^(٢) :

يا بؤس للإنسان في ال دنيا وإن نال الأمل
يعيش مكشوف العلل فيها ومكتوم الأجل
بيننا يرى في صحة مغتبطاً قيل اعتل
وبينما يوجد في ها ثاورياً قيل انتقل
فأوفر الحظ لمن يتبعه حسن العمل.

وله شعر يردد إلى الآن :

احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة
فلربما انقلب الصيد ق فكان أعلم بالمضرة.

كما ان القاضي أبا خازم^(٣) معلم وصديق أبي جعفر، كان يقول الشعر وهو شاب وعندما كبر به السن ازداد تزمناً وتقشفاً وورعاً ولم يعد يقول الشعر، وهو يستغفر الله مما مضى^(٤)، أي من الشعر الذي قاله خاصة في زوجته التي أحبها فقال فيها^(٥) :

(١) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٤ ص ٢٥٦ ، ابن الجوزي : المنتظم ج ٧ ص ٤٢ .

(٢) التنوخي : نشورا المحاضرة ج ٦ ص ٢٥٥ ، الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١٠ ص ٣٦٧ .

(٣) أبو خازم عبد الحميد بن عبد العزيز : أصله من البصرة وسكن بغداد وولي القضاء بالشام والكوفة وبغداد . كان شديداً في إحقاق الحق حتى مع الوزير عبد الله بن سليمان ، والخليفة المعتضد الذي كان يرضخ لأحكامه . وكان أبو خازم يتأني في إصدار أحكامه التي أخذ القضاة يتدارسونها ويرجعون إليها . وكان يرجع إليه ترشيح القضاة زمن الخليفة المعتضد . وكان مترمناً عفيفاً ورعاً .

التنوخي : نشوار المحاضرة : ج ١ ص ٨٩ - ٩٠ و ٢٣٩ ، ج ٣ ص ١١ - ١٣ و ٤٧ و ١٤٠ ، ج ٤ ص ١٣٦ - ١٣٩ ، ج ٥ ص ٢٠٩ ، ج ٦ ص ١٧١ - ١٧٣ ، ج ٨ ص ٢٠ - ٢٢ .

ابن الجوزي : المنتظم ج ٦ ص ٥٣ - ٥٥ .

(٤) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ١ ص ٩٠ .

(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٨٩ .

أدَلْ فَأَكْرَمَ بِهِ مِنْ مَدَلْ وَمَنْ ظَالِمٌ لِدَمِي مُسْتَحَلْ
إِذَا مَا تَعَزَّزَ قَابَلْتُهُ بِذُلِّكَ وَذَلِكَ جَهْدُ الْمُقَلِّ .
ولقاضي قضاة بغداد ابن ماكولا (ت ٤٤٧/١٠٥٥) (١) شعر يقول فيه (٢):
تصابي برهةً من بعد شيب فما أغنى المشيب عن التصابي
وسود عارضيه بلون خضب فلم ينفعه تسويد الخصاب
وأبدى للأحبة كل لطف فما زادوا سوى فرط اجتناب
سلام الله عوداً بعد بدىء على أيام ريعان الشباب
تولى عزمه يوماً وأبقى بقلبي حسرةً ثم اكتئاب .
ومن شعر أبو حامد محمد بن محمد بن عبدالله، قاضي قضاة الموصل (٣):
قامت باثبات الصفات أدلةً قصمت ظهور أئمة التعطيل
وطلائع التنزيه لما أقبلت هرمت ذوي التشبيه والتمثيل
فالحق ما صرنا إليه جميعنا بأدلة الأخبار والتنزيل
من لم يكن بالشرع مقتدياً فقد ألقاه فرط الجهل في التليل .
وفي دمشق، كان قاضي القضاة عبدالله بن محمد بن أبي عصرون
(ت ٥٨٥/١١٨٩) يقول الشعر ومنه (٤):
أؤمل أن أحيا وفي كل ساعة تمر بي الموتى يهز نعوشها
وهل أنا إلا مثلهم غير أن لي بقايا ليالٍ في الزمان أعيشها .
ومن لطيف شعر قاضي قضاة دمشق صدرالدين سليمان الحنفي
(ت ٦٧٧/١٢٧٨)، في مملوك تزوج جارية للملك المعظم (٥):
يا صاحبي قفا لي وأنظرا عجباً أتى به الدهر فينا من عجائبه

(١) ابن ماكولا: (ت ٤٤٧/١٠٥٥) : الحسن بن علي بن جعفر بن علي بن محمد بن دلف العجلي : تولى القضاء بالبصرة . كان ديناً لا يقبل هدية من أحد ولا من الخليفة، وقد تولى قضاء القضاة ببغداد سنة ٤٢٠ في خلافة المقتدر وأقره انه القائم . استمر في القضاء ٢٧ سنة، أي حتى وفاته .

ابن كثير : البداية والنهاية ص ٦٧ .

(٢) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٦٧ .

(٣) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٣٤١ .

(٤) المصدر نفسه ج ١٢ ص ٣٣٤ .

(٥) المصدر نفسه ج ١٣ ص ٢٨١ - ٢٨٢ .

البدرُ أصبح فوق الشمس منزلةً وما العلو عليها من مراتبه
أضحى بمائلها حسناً وشاركها كفوا وسار إليها في مواكبه
فأشكل الفرقَ لولا وشى نممةً بصدغِه واخضرارٍ فوق شاربه .
ومن شعر قاضي قضاة دمشق شهاب الدين الخوي الشافعي
(ت ٦٩٣/١٢٩٤) (١) :

بخفيَ لطفك كل سوء أتقي فأمنن بارشادي إليه ووفقي
أحسنت في الماضي وإني واثق بك أن تجود علي فيما قد بقي
أنت الذي أرجو فما لي والورى إن الذي يرجو سواك هو الشقي .
وقال :

أما سواك فبابه لا أطرق حسبي كريمٌ جوده متدفقُ
ما إن يخاف بظل بابك واقفُ ظمأً وبحر نذاك طامٌ مغدقُ
بحبال جودك لا يزال تعلقني ما خاب يوماً من بها يتعلقُ
بشرى لمن أضحى رجاؤك كنزه وله الوثوق بأنه لا يملقُ .
وفي مصر كان قاضي القضاة أبو الحسن علي بن النعمان (ت ٣٧٤/٩٨٥) مفتناً
في عدة فنون منها علم الفقه والعربية والأدب والشعر وأيام الناس، وكان شاعراً مجيداً
في الطبقة العليا، ومن شعره في الصداقة (٢) :

ولي صديقٌ ما مسني عدم مذ وقعت عينه على عدمي
أغنى وأقنى وما يُكلفني تقبيل كف له ولا قَدَم
قام بأمري لما قعدتُ به ونمت عن حاجتي ولم يَنَم .
وقال أيضاً في هذا المعنى (٣) :

صديقٌ لي له أدب صداقةً مثله نَسَبُ
رعى لي فوق ما يُرعى وأوجب فوق ما يجبُ
فلو نُقِدَتْ خلائقه لبُهِرَجَ عندها الذهبُ .

(١) ابن شاعر الكتيبي : فوات الوفيات ج ٣ ص ٣١٣ - ٣١٤ .

(٢) الثعالبي : يتيمة الدهر ج ١ ص ٤٠٠ .

ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٥ ص ٤١٨ .

(٣) الثعالبي : يتيمة الدهر ج ١ ص ٤٠١ .

ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٥ ص ٤١٨ .

وله أيضاً^(١) :

رب خَوِّدِ عرْفَت في عرفات
حرَّمت حين أحرمت نوم عيني
وأفاضت مع الحجيج ففاضت
ولقد أضرمت على القلب جمرأً
لم أنل من ميني مئى النفس حتى
سلبتني بحسنها حسناتي
واستباححت حماتي باللحظات.
من جفوني سوابق العبرات.
محرقاً إذ مشت إلى الجمرات.
خِفْتُ بالخيف أن تكون وفاتي.

وأما شقيقه قاضي القضاة أبو عبد الله محمد بن النعمان (ت ٣٨٩/٩٩٩) فكان جيد المعرفة بالأحكام مفنناً في علوم كثيرة، حسن الأدب والدراية بالأخبار والشعر وأيام الناس. ومن شعره^(٢) :

أيامُ مُشَبِّه البدر بدرِ السماء
وبأ كامل الحسن في نعته
فهل لي من مطمع أرتجيه
ويشمت بي شامت في هواك
فإما مننت وإما قتلت
لسبع وخمس مضت واثنتين
شغلت فؤادي وأسهرت عيني.
وإلا انصرفت بخفي حنين
ويفصح لي ظلت صفر اليدين
فأنت القدير على الجاليتين

وقد كتب يرد على عبد الله بن الحسن الجعفري بعد مدح له، فقال^(٣) :

قرأنا من قريضك ما يروق
كأن سطورها روض أنيق
وإناتائقون إليك فاعلم
فواصلنا بها في كل يوم
بدائع حاكها طبع رقيق
تضوع بينها مسك فتيق
وأنت إلى زيارتنا تتوق
فأنت بكل مكرمة حقيق

وفي مصر أيضاً، كان قاضي القضاة ابن دقيق العيد (ت ٧٠٢/١٣٠٢)، أديباً وشاعراً، وشعره ما يمدح النبي ﷺ، فيقول^(٤) :

يا سائراً نحو الحجاز مشمراً
اجهد فديتك في المسير وفي السرى

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٥ ص ٤١٨ .

(٢) المصدر نفسه ج ٥ ص ٤٢٠ .

(٣) المصدر نفسه ج ٥ ص ٤٢١ .

(٤) ابن شاعر الكتبي : فوات الوفيات ج ٣ ص ٤٤٤ .

قف بالمنازل والمنازل من لادن
وتوَّخ آثار النبي فضع بها
وإذا رأيت مهابط الوحي التي
فاعلم بأنك ما رأيت شبيهاها
ومدحه أيضاً بقوله^(١) :

لم يبق لي أمل سواك فإن يفت
لا أستلذَّ لغير وجهك منظرًا
وقال أيضاً في الحذر من مخالطة الناس^(٢) :

قد جرحتنا يد أيامنا
فلا ترجِّ الخلق في حاجة
وإن تخالط منهم معشراً
يأكل بعض لحم بعضٍ ولا
فاهرب من الناس إلى ربهم
٢ - شعر الشعراء في قاضي القضاة :

كان منصب قاضي القضاة يجذب الشعراء لمدح صاحبه أملاً في التقرب منه أو
الحصول على المال، وقد دخل شاعر على قاضي قضاة بغداد أبي البختری وهب بن
وهب القرشي فأنشدته^(٣) :

إذا افتَر وهبٌ خلته بَرَقَ عارض
وما ضَرَّ وهباً ذمُّ من خالف الملا
لكل أناس من أبيهم ذخيرةٌ
وقد سُرَّ قاضي القضاة أبو البختری سروراً شديداً، وأعطاه صرة فيها خمسمائة
دينار.

(١) ابن شاکر الکتبی : فوات الوفيات جـ ٣ ص ٤٤٥ .

(٢) المصدر نفسه جـ ٣ ص ٤٤٧ .

(٣) ابن خلکان : وفيات الأعيان جـ ٦ ص ٣٨ .

ومدح عبدالله بن الحسن الجعفري السمرقندي قاضي قضاة مصر أبا عبدالله
محمد بن النعمان بقوله^(١) :

تعادلت القضاة علماً فأما أبو عبدالله الإله فلا عديلُ
وحيدٌ في فضائله غريبٌ خطيرٌ في مفاخرة جليلُ
تألق بهجةً ومضى اعتزاماً كما يتألق السيفُ الصقيلاً
فيقضي والسدادُ له حليفٌ ويعطي والغمام له رسيل
لو اختبرت قضاياه لقالوا يؤيده عليها جبرئيل
إذا رقي المنابر فهو قسٌ وإن حضر المشاهد فالخليل
ولقاضي قضاة دمشق شمس الدين الخويي (ت ٦٣٧/١٢٣٩)^(٢) مصنفات منها
عروض، قال فيه أبو شامة^(٣) :

أحمد بن الخليل أرشده الـ له كما أرشد الخليل بن أحمد
ذاك مستخرج العروض وهـ لذا مظهر السر منه والعود أحمد
وبعد عودة ابن خلكان الى قضاء قضاة دمشق سنة ٦٧٧/١٢٧٨، بعد عزل
استمر سبع سنوات، فرح الناس بذلك، وأنشد الفقيه شمس الدين محمد بن
جعفر^(٤) :

لما تولى قضاء الشام حاكمه قاضي القضاة أبو العباس ذو الكرم
من بعد سبع شداد قال خادمه ذا العام فيه يغاث الناس بالنعيم
وقال سعد الله بن مروان الفارقي^(٥) :
أذقت الشام سبع سنين جدياً غداة هجرته هجرأً جميلاً
فلما زرتّه من أرض مصر مددت عليه من كفيك نيلاً

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٥ ص ٤٢٠ .
(٢) شمس الدين الخويي (ت ٦٣٧/١٢٣٩) : أحمد بن خليل بن سعادة بن جعفر الخويي، قاضي قضاة دمشق
كان حسن الأخلاق جميل المعاشرة، وكان يقول لا أقدر على إيصال المناصب إلى مستحقها. وسنة ٦٢٩
عزل عن قضاء القضاة ليتولاه عماد الدين ابن الخريستاني .
ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص ١٣٢ و ١٣٥ .
(٣) المصدر نفسه ج ١٣ ص ١٣٥ .
(٤) المصدر نفسه ج ١٣ ص ٢٧٩ .
(٥) المصدر نفسه ج ١٣ ص ٢٨٠ .

وقال آخر^(١):

رأيت أهل الشام طراً ما فيهم قط غير راضٍ
وسرهم بعد طول غم بدور قاضي وعزل قاضي
وكلهم شاكر وشاكٍ بحالٍ مستقبلٍ وماضٍ
وعندما تقلد إمام الدين القزويني (ت ١٢٩٩/٦٩٩)^(٢) قضاء قضاة الشافعية
بدمشق، عوضاً عن بدرالدين بن جماعة، سنة ١٢٩٦/٦٩٦، جلس بالعدلية وحكم
بين الناس، وامتدحه الشعراء بقصائد، منها قصيدة مطلعها^(٣):

تبدلت الأيام من بعد عسرها يسرا فأضحت ثغور الشام تفتت بالبشرى
ومن جهة ثانية كان الشعراء يسلطون ألسنتهم في هجاء قاضي القضاة لأسباب
كثيرة مثل الرشوة والشرب والإعتزال . . . ، وقد ذكرنا بعض هذه الأبيات أثناء الحديث
عن قضاة القضاة في بغداد : يحيى بن أكثم وأحمد بن أبي دؤاد وأبي السائب عتبة بن
عبيد الله الهمداني وأبي الحسن محمد بن الحسن بن أبي الشوارب الأموي وشقيقه
أبي العباس عبد الله .

أما في دمشق فقد هجا ابن عنين قاضي القضاة جمال الدين المصري
(ت ١٢٢٣/٦٢٣) بقوله^(٤) :

ما أقصر المصري في فعله إذ جعل التربة في داره
أراح للأحياء من رجمه وأبعد الأموات من ناره
هذا فضلاً عن الأبيات التي ذكرناها أثناء الحديث عن ابن خلكان .

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣ ص ٢٨٠ .

(٢) إمام الدين القزويني (ت ١٢٩٩/٦٩٩) : إمام الدين أبو المعالي عمر بن القاضي سعد الدين أبي القاسم
عبد الرحمن بن الشيخ إمام الدين أبي حفص عمر بن أحمد بن محمد القزويني الشافعي ، قدم دمشق هو
وأخوه جلال الدين ، ثم انتزع إمام الدين قضاء القضاة بدمشق من بدر الدين بن جماعة سنة ٦٧٧هـ ، وناب
عنه أخوه . كان جميل الأخلاق ، كثير الإحسان . وقبل قدوم التتار سافر إلى مصر حيث توفي فيها عن ٤٦
سنة ، وتقلد القضاء بعده بدر الدين بن جماعة .

المصدر نفسه ج ١٤ ص ١٣ .

(٣) المصدر نفسه ج ١٣ ص ٣٤٩ .

(٤) المصدر نفسه ج ١٣ ص ١١٥ .

٣ - نوادر قاضي القضاة:

كان قاضي القضاة يتولى أعلى منصب قضائي في الدولة، لذلك عرف بتزمتته ووقاره وتحفظه بأبهة القضاء والجديّة التي تحيط بعمله. لكن ذلك لم يمنع أن تكون لديه بعض النوادر، أو القصص الطريفة، التي مرت به وهو يتولى منصبه.

فعندما تولى حفص بن غياث (ت ١٩٤/٨٠٩)^(١)، قضاء الكوفة، قال قاضي القضاة أبو يوسف (ت ١٨٢/٧٩٨): اكسروا دفتراً لتكتبوا فيه نوادر قضائيه، فمرت قضائيه وأحكامه كالقدح. فقالوا لأبي يوسف؛ أما ترى؟ قال؛ ما أصنع بقيام الليل. يريد أن الله وفقه بصلاة الليل في الحكم^(٢).

وكان أبو يوسف يحضر مجلس الغناء عند الرشيد وكذلك قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد (ت ٢٤٠/٨٥٤) يسمع الغناء في مجلس المعتصم، فيجعل كل منهما البكاء مكان السرور كأنهما يذكران به نعيم الآخرة^(٣).

ومن لطائف أبي يوسف، تحاكم إليه الرشيد وزبيدة في الفالوذج واللوزنج، أيهما أطيب، فقال: أنا لا أحكم على غائب. فأمر بتحضيرهما وتقديمهما إليه، فجعل يأكل من هذه مرة ومن تلك مرة أخرى حتى أكلهما. ثم قال؛ يا أمير المؤمنين، ما رأيت أجدل منهما، إن أردت أن أسجل لأحدهما أدلى الآخر بحجة^(٤).

وكان قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد يقول؛ الخبز ليومه والبطيخ لساعته، والنبيد لستته^(٥).

وكان قاضي القضاة يحيى بن أكثم (ت ٢٤٢/٨٥٧) لا يستخدم في داره إلا المرد الملاح ويقول: قد أكرم الله أهل الجنة بأن أطاف عليهم الولدان في وقت رضاه

(١) القاضي أبو عمر حفص بن غياث بن طلق النخعي الكوفي (ت ١٩٤/٨٠٩) : ولد سنة ١١٧ هـ، ولأه الرشيد قضاء بغداد سنة ١٧٧ هـ وبعد سنتين صرفه وقلده قضاء الكوفة فمكث فيها ١٣ سنة وتوفي. كان عفيفاً شديداً في إحقاق الحق.

الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٩١ .

(٢) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٦ ص ٩٤ .

(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٧ ص ٤ .

(٤) الثعالبي : لطائف اللطف ص ٨٥ .

(٥) المصدر نفسه ص ٦١ .

عنهم لفضلهم على الحور، فما الذي يمنعنا عاجلاً من ترك هذه الكرامة وتحصيل هذه الزلفى في دار الدنيا معهم^(١).

وسأله المأمون عن أظرف غلام مر به، فقال يحيى: تحاكم إلي غلام في نهاية الملاحاة والظرف، فأخذته عيني وتعلق به قلبي، فلم ينفصل أمره. ثم دخل علي فقال: أعني على خصمي، فقلت من يعينني على عينيك؟ قال: شفتاي، قلت: ما بال شفتيك منشقتين؟ قال: أحلى ما يكون التين إذا تشقق. فقلت: يا بني أما أنحفك، فقال: كلما دق قضب السكر كان أحلى^(٢).

وقد عرف قاضي القضاة أبو جعفر (ت ٣١٨/٩٣٠)، بتزمته فكان يصيح على حفيده^(٣) عندما يلعب أمامه وعمره عشر سنين، وما دخل حفيده إليه قط وهو مكشوف الرأس إلا ولبس القلنسوة إلى أن ينصرف فيضعها عن رأسه^(٤). ومع ذلك كانت له مواقف غلب عليها الضحك فلم يحكم على المرأة التي توفي زوجها، فأخفت ثيابه وجميع أغراضه ونسيت السراويلات، فادعى عليها أبناء عم زوجها مستغربين السبب في كثرة السراويلات وقلة الثياب، فقالت المرأة لأبي جعفر: «أعز الله القاضي أما سمعت ما حكاه الجاحظ من أن رجلاً كان يعشق الهواوين فجمع منها مائتي هاون، هذا كان يعشق السراويلات»^(٥). فضحك أبو جعفر وانفض المجلس دون أن يحكم لأحد.

ودخل أبو شهاب الصعلوكي على قاضي القضاة أبي الحسين عمر (ت ٣٢٨/٩٤٠)، في يوم بارد والنار توقد بين يديه فقال: أيها الفقيه إلى النار! فقال: أنت أولى بها صلياً^(٦)!

ومن نوادر قاضي القضاة أبي السائب عتبة بن عبيدالله الهمداني، أنه ترك

(١) الثعالي: لطائف اللطف ص ٨٥-٨٦. ثار القلوب ص ١٥٦.

(٢) الثعالي: لطائف اللطف ص ٨٦.

(٣) القاضي أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن إسحاق بن البهلول (٣٠١-٣٥٤ هـ).

(٤) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ١ ص ٤٧.

(٥) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٦٧-١٦٨.

(٦) الثعالي: لطائف اللطف ص ٩٠.

همذان قاصداً العراق وكان فقيراً، فزار قبر الحسين وانصرف يريد قصر ابن هبيرة، فقبل له إن الأرض مملوءة بالأسود، وأشير عليه أن يأوي إلى قرية فيها حصن قبل أن يهبط الليل، فلما وصل القرية وجد باب الحصن مغلقاً، فاضطر لدخول المسجد وجلس فيه. ثم دخل وراءه رجل بعد أن ربط حماره في الخارج، ثم جاء الأسد، فخاف الحمار ودخل المكان الذي يجلس فيه أبو السائب والرجل، ودخل الأسد^(١) وراءه، ثم خرج الحمار وجذب الباب بالرسن فأغلقه على أبي السائب والرجل والأسد، وكان المكان مظلماً بعد أن فني ما كان في السراج من الدهن. وكان أبو السائب يسمع نفس الأسد، وكاد أن يتلف من الفزع، وفي الصباح جاء المؤذن من الحصن، ودخل المسجد، فوثب الأسد عليه وقتله وحمله معه إلى الأجمة، وانصرف أبو السائب والرجل سالمين^(٢).

ويروى أن أبا السائب، حكى قصة رجل كان له على رجل دين، فهرب منه فلقبه صاحب الدين في الصحراء، فقبض عليه وقيدته. ثم وصل إلى قرية في المساء وقد أغلق باب سورها، فباتا في مسجد خراب على باب القرية، فجاء السبع وهما نائمان، وافترس صاحب الدين وانصرف، وترك المديون الذي جاء القرية وأخبرهم الخبر حتى حلّوا قيده^(٣).

ومن النوادر التي حصلت لقاضي القضاة مالك بن سعيد الفارقي في سنة ٤٠٥/١٠١٤ عندما منع الحاكم بأمر الله الفاطمي النساء في مصر من الخروج من منازلهن أو من الصعود إلى الأسطحة. وكانت امرأة عاشقة لرجل تريد الوصول إليه، فالتجأت لقاضي القضاة مالك واحتالت عليه بأنها تريد لقاء أخيها الوحيد قبل أن يفارق الدنيا، فرق قلبه وأرسل معها رجلين من رجاله حتى بلغت منزل عشيقها^(٤).

ومن طرائف تقليد قاضي القضاة، قدوم البريد من القاهرة ومعه تجديد توقيع

(١) التنوخي : الفرج بعد الشدة ج٤ ص ١٨٦ .

(٢) المصدر نفسه ج٤ ص ١٨٧ .

(٣) التنوخي : نشوار المحاضرة ج١ ص ٢٠٨ . الفرج بعد الشدة ج٤ ص ١٥٤ - ١٥٥ .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ج١١ ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .

القاضي شمس الدين الأذري الحنفي (ت ٧١٢/١٣١٢)^(١)، فظن الناس أنه بولاية القضاء لابن الحريري وذهبوا ليهنئوه مع البريد إلى الظاهرية، واجتمع الناس لقراءة التقليد على العادة، فشرع الشيخ علم الدين البزالي في قراءته فلما وصل إلى الإسم تبين له أنه للأذري، فبطل القارئ وقام الناس إلى الأذري. بعد أن أخرج موقف ابن الحريري^(٢).

وقيل أن قاضي قضاة تونس إبراهيم الربيعي^(٣) (ت ٧٣٤/١٣٣٤) كان يعرض الكلب.

ومن المصادفات تولى جلال الدين أبو العباس أحمد (ت ٧٤٥/١٣٤٤) قضاء قضاة الحنفية بدمشق، في الوقت الذي تقلد فيه أبوه حسام الدين الرومي الحنفي قضاء قضاة الحنفية بمصر زمن الملك المنصور لاجين^(٤).

ويذكر أرتاميدورس أن رؤية قاضي القضاة أو موضع الحكم والقضاة، يدل في الأحلام على اضطراب وحزن وتلف مال. وإذا كان الإنسان في خصومة، فرأى في منامه كأنه جالس مكان قاضي القضاة أو الحاكم فإنه لا يخسر، بحجة أن قاضي القضاة أو الحاكم لا يحكم نفسه لكن على غيره^(٥).

وهكذا لم يكن الشعر غريباً عن قضاة القضاة، فقد كان بعضهم من الشعراء، كما لم تكن مجالس الشعر والأدب غريبة عنهم، ومن تلك الأبيات التي وصلتنا لهم، فضلاً عن الأبيات التي قيلت في هجائهم أو مدحهم، نستطيع الحصول على صورة

(١) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن داود بن خازم الأذري الحنفي (ت ٧١٢/١٣١٢) : كان فاضلاً، درس وأفتى، وولى قضاء قضاة الحنفية بدمشق لمدة سنة، ثم عزل واستمر على تدريس الشبلية مدة. ثم سافر إلى مصر حيث توفي.

ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٤ ص ٦٨.

(٢) المصدر نفسه ج ١٤ ص ٤١.

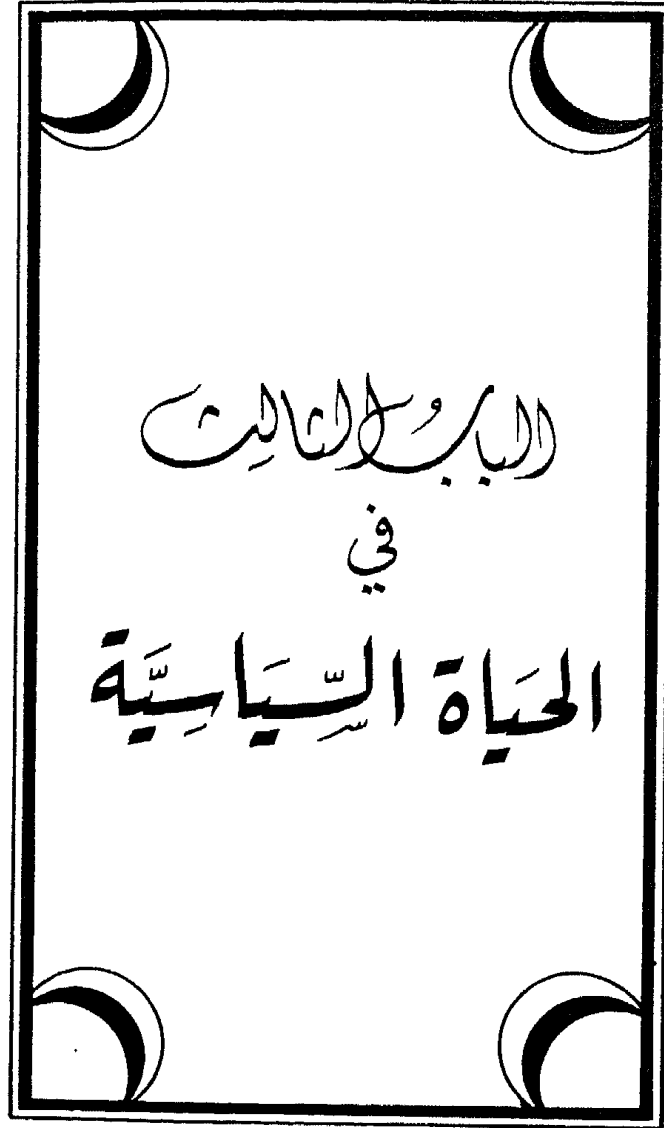
(٣) أبو إسحق إبراهيم بن حسن بن الرفيع الربيعي التونسي (٦٣٥ - ٧٣٤/١٢٣٨ - ١٣٣٤) : قاضي القضاة بتونس ألف كتاب معين الحكام في مجلدين والرد علي ابن حزم في اعتراضه على مالك، ومختصر التنوع في الفروع. الالصفدي : الوافي بالوفيات ج ٥ ص ٢٦ ؛ ابن تغري بردى : المنهل الصافي ج ١ ص ٤٥ و ٤٦ ؛ حاجي خليفة : كشف الظنون ص ٤٢٧ و ١٠٣٦ ؛ عمر كحالة : معجم المؤلفين ج ١ ص ٢٠

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢١٤.

(٥) أرتاميدورس الأفسسي : كتاب تعبير الرؤيا ص ٢٧٢ - ٢٧٣.

واضحة للعصر الذي عاشوا فيه، ومعرفة الكثير من عادات وأخلاق بعض قضاة القضاة الذين يمثلون السلطة القضائية. فكانت هذه المجالس صورة عن أحوال قاضي القضاة في حياته الخاصة، هذه الحياة التي قد تؤثر على طبيعة عمله في القضاء، خاصة وأن قاضي القضاة. إنسان ويتأثر بالعلاقات الشخصية التي قد تؤثر في علاقاته العامة. والنوادر التي ذكرناها، ليست إلا صورة طريفة عن قاضي القضاة في حياته الخاصة. ويخطيء من يظن أن قاضي القضاة هبة ووقار وحكم بين الناس فقط، لأنه يتوجب عليه البحث عن الوجه الآخر لقاضي القضاة، الذي يعيشه بعيداً عن مركز عمله، حيث يجتمع بالشعراء ويقول أو يُقال فيه الشعر، أما حضور مجالس اللهو والشرب، فقد يسيء إلى قاضي القضاة في حال عدم ضبط نفسه في الولع بالخمير والنساء والغلمان، فلا غرو أن يبتعد معظم قضاة القضاة عن مجالس اللهو والأنس والشراب، حتى يحافظوا على هيبتهم ووقارهم، فهم يمثلون أعلى منصب في السلطة القضائية، حتى أن صاحب الشرطة رفض مناداة الخليفة الوائق وقال جملة المشهورة: «مالي فيما عقده عليّ قلب أمير المؤمنين ذنب إذا كان يوقيني من امتهان العامة إياي»^(١). فإذا كان صاحب الشرطة يخاف سخرية الناس إذا ما تردد على مثل هذه المجالس، فكيف بقاضي القضاة؟.

(١) التنوخي: الفرج بعد الشدة ج ١ ص ٣٩٣.



الربيع والشتاء

في

الحياة السَّيَّاسِيَّة

كانت السلطة القضائية والوظائف الأخرى التي اضطلع بها قاضي القضاة، خير دليل على المكانة التي وصل إليها سواء في بغداد أو القاهرة أو دمشق أو قرطبة. . . هذه المكانة أتاحت له الفرصة ليلعب دوراً رئيساً في الحياة السياسية، فكان قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد من زعماء المعتزلة التي التمسست سطوة الدولة في سبيل فرض الاعتقاد بخلق القرآن الكريم عقيدة رسمية، مما أشعل الصراع بينها وبين أهل السنة الذين تزعمهم الإمام أحمد بن حنبل. وقد اشترك قاضي القضاة أبو جعفر في محاكمة الوزراء الذين كانوا في صراع دائم حول السلطة والنفوذ، هذا الصراع الذي شارك فيه أبو عمر من مؤامرة خلع المقتدر إلى محاكمة الحلاج، وهدفه الأول هو الحصول على منصب قاضي القضاة. وعندما دخل معز الدولة البويهبي إلى البصرة، كان أبو السائب في طليعة المهثين مما أتاح له تقلد منصب قاضي القضاة. في حين انبرى أفضى القضاة الماوردي مدافعاً عن الخلافة العباسية ضد النفوذ البويهبي، وضد الخلافة الفاطمية التي قامت في القاهرة والتي شارك قاضي القضاة النعمان بن محمد في تأسيس نظامها القضائي.

الفصل الأول

أحمد بن أبي دؤاد^(١) والمعتزلة (١٦٠ - ٧٧٦/٢٤٠ - ٨٥٤)

كان قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد أحد زعماء المعتزلة التي فرضها كعقيدة رسمية للدولة العباسية، بفضل تقربه من الخلفاء المأمون والمعتصم والواثق. وتعاظم نفوذه والمعتزلة، مما فجر الصراع الدامي بسبب مسألة خلق القرآن الكريم. وقد تصدى لهم الإمام أحمد بن حنبل، حتى كانت نكبة المعتزلة على يد المتوكل.

١ - نشأته وتقلده منصب قاضي القضاة:

هو أبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد فرج بن جرير بن مالك الأيادي، واسمه الفرج وقيل دعمى، والصحيح أن اسمه كنيته - الأيادي المعتزلي. ولد في البصرة سنة ٧٧٦/١٦٠، أصله من بلاد قنسرين، وكان أبوه تاجراً ينفذ إلى الشام ثم وفد إلى العراق وأخذه معه، فاشتغل بالعلم، وصحب هياج بن العلاء السلمي أحد أصحاب واصل بن عطاء فأخذ عنه الاعتزال^(٢). وذكر أنه كان يصحب قاضي القضاة يحيى بن

(١) له ترجمة في :

الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ٤ ص ١٤١ ؛ المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦١ - ٣٦٢
و ٣٩٩ - ٤٠٠ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ج ٢ ص ٩٣ ؛ ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٣٦٥ ،
الطبري : تاريخ الرسل ج ٩ ص ١٨٨ - ١٨٩ و ١٩٦ - ١٩٧ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٦٣ ؛
ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٠ ص ٣٠٥ - ٣٢٢ ؛ الزركلي : الأعلام ج ١ ص ١٢٠ ؛
E.L²: TIP 279 ؛ عصام شبارو : القضاء والقضاة ص ٢٤٣ - ٢٥٢ .

وأخباره منشورة في :

التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٢ ص ٧٣ - ٧٤ و ١٠١ - ١٠٣ ، ج ٣ ص ٦٧ - ٦٨ ، ج ٥ ص ٢٢٠
وج ٦ ص ١٠١ و ١٣١ و ١٤٦ و ١٦٩ ، ج ٧ ص ١٩١ - ١٩٢ و ٢١٢ - ٢١٥ و ٢٤٣ - ٢٤٧ .
الفرج بعد الشدة ج ١ ص ٩٩ و ٣٦١ و ٣٩٣ ، ج ٢ ص ٦٠ - ٧٥ و ٢٩٥ ، ج ٤ ص ١٧ -
١٨ و ٨٩ . المستجد ص ١١٧ - ١١٩ و ١٤١ - ١٤٤ و ١٤٨ - ١٤٩ و ١٥٩ - ١٦٠ و ٢٠١ - ٢٠٢
و ٢٠٦ - ٢٠٨ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٦٣ . ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٠ ص ٣١٩ .

أكثرهم ويأخذ عنه العلم، كما قيل أن يحيى بن أكثم هو الذي ساعده في الوصول إلى تقلد القضاء في بغداد، وأصبح له مكانته عند الخليفة المأمون الذي قربته منه وجعله من خاصته، ثم أوصى به أخاه المعتصم الذي بويع بالخلافة سنة ٢١٨/٨٣٣ بعد وفاة المأمون. فأخذ المعتصم يستشير ابن أبي دؤاد في جميع أموره وقلده منصب قاضي القضاة وارتفعت مكانة ابن أبي دؤاد عند المعتصم، فكان يسير إلى جانبه أيام المواكب^(١)، ويعتبره من «أكبر أهل مملكته»^(٢)، ويناديه أحياناً بـ«ابن قيار» لأن والده أبا دؤاد كان يعمل في طلي السفن بالقيروان^(٣)، كما يذكر التنوخي^(٤) واستمر في منصبه زمن الواثق حتى عزله المتوكل بسبب الاعتزال. فقد كان أحمد بن أبي دؤاد من زعماء المعتزلة التي ساعدها في السيطرة على الدولة زمن المأمون والمعتصم والواثق. فما هو جوهر الاعتزال؟.

٢ - جوهر الاعتزال :

نشأ الاعتزال في البصرة في أوائل القرن الثاني الهجري، ثم انتشر في العراق، واعتنقه من خلفاء بني أمية يزيد بن الوليد ومروان بن محمد. وفي العصر العباسي تكونت للاعتزال مدرستان كبيرتان: مدرسة البصرة، وتمثل المدرسة النظرية وفيها واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، وأبو الهذيل العلاف، والنظام، والجاحظ؛ ومدرسة بغداد، وتمثل المدرسة العملية لأنها تأثرت بالدولة وكانت قريبة من الخلفاء، وفيها بشر بن المعتمد، وأبو موسى المردار، وجعفر بن بشر، وجعفر بن حرب، وثمامة بن الأشرس، ثم قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد.

وكان الباعث على إنشاء الاعتزال، أن كثيراً ممن دخلوا الإسلام شكلاً وظاهراً

(١) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٧ ص ٢١٢ .

(٢) المصدر نفسه ج ٧ ص ٢١٤ .

(٣) القيروان : معدن أسود، دهني بطبيعته، تطل على البحر فيمنع تسرب الماء إليها ومنه ضرب تحشى به الخلائع والأسورة. ويستعمل القيروان الآن في تزفيت الطرق وفي أعمال البناء
ابن منظور : لسان العرب .

(٤) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٧ ص ٢١٥ .

من اليهود والنصارى والمجوس قد أثاروا الشكوك حول الإسلام وهاجموه، مستخدمين في ذلك الفلسفة اليونانية والمنطق اليوناني، فتسلح المعتزلة بسلاح خصومهم واستفادوا من الفلسفة اليونانية وصبغوها بصبغة إسلامية، وجادلوا خصومهم جدالاً علمياً.

وسبب تسميتهم بالمعتزلة أن واصل بن عطاء (ت ١٣١/٧٤٨)^(١) كان يجلس إلى الحسن البصري (ت ١١٠/٧٢٨)^(٢) فاختلف معه في مسألة «المسلم المرتكب الكبيرة»، ففرقة الأزارقة (نافع بن الأزرق) من الخوارج اعتبروه «كافراً»، والمرجئة اعتبرته «مؤمناً»، وسماه الحسن البصري «منافقاً»، في حين قال واصل بن عطاء أنه «فاسق»، أي لا مؤمن ولا كافر بل في منزلة بين المنزلتين، فاعتزله الحسن البصري أي منعه من حضور مجلسه، فأخذ واصل بن عطاء يجتمع مع أصحابه في موضع آخر فسموا بالمعتزلة. وهم يفضلون تسمية أنفسهم بـ «أصحاب العدل والتوحيد».

وجوهر الاعتزال يقوم على خمسة أصول تعتبر أصول الدين التي يجب على المكلف أن يؤمن بها قبل معرفة الفقه والشرع^(٣)، وهي:

(أ) التوحيد: وهو أهم أركان الإسلام «لا إله إلا الله وحده لا شريك له»، ومع ذلك

(١) أبو حذيفة واصل بن عطاء المعتزلي المعروف بالفزال (ت - ١٣١/٧٤٨): ولد في المدينة سنة ٨٠ هـ، وكان أحد الأئمة البلغاء المتكلمين في علوم الكلام وغيره، وكان يلغ بالراء فيجعلها غيناً فكان يتجنب الراء في كلامه فلا يفظل لذلك أحد لإقتداره على الكلام، وكان يجلس إلى الحسن البصري ثم اختلف معه فاعتزله فسمي وأصحابه بالمعتزلة. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٥ ص ٦٠. وله قصة في التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٢ ص ٢٠٥، ٢٠٦.

(٢) أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار المعروف بالحسن البصري (ت ١١٠/٧٢٨): من سادات التابعين وكبرائهم، عالم زاهد، ورع، عابد، فقيه، شجاع، فصيح. كان إمام أهل البصرة وحرر الأمة في زمه. ولد سنة ٢١ هـ.

ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٥٤، الزركلي: الاعلام ج ٢ ص ٢٤٢، وله أخبار في: التنوخي. الفرغ بعد الشدة ج ١ ص ٦٤ و ٦٨ و ١٧١ و ١٧١ و ١٨٩ - ١٩٠ و ٢٥٣، ج ٤ ص ٨٦.

(٣) الشهرستاني: الملل والحل ج ١ ص ٥٣ - ١٠٨.

عبد الجبار الهمداني. شرح الأصول الخمسة ص ١٢٢ - ١٢٤.

أحمد أمين: ضحى الإسلام ج ٣ ص ٢١ - ٢٠٧.

محمود كامل أحمد: مفهوم العدل ص ١١ - ١٨.

ت. ج دي بور: تاريخ الفلسفة ص ٩٧ - ١١٥.

فسره المعتزلة بطريقتهم الخاصة، أي أن الله تعالى قديم والقدم أخص وصف ذاته، مما يعني التنزيه المطلق لله من صفات المخلوقين ونفي رؤية الله^(١). وهذا كله طرح مسألة خلق القرآن، فاعتبرت المعتزلة أن القرآن محدث مخلوق وخصومها اعتبروه قديم غير مخلوق.

(ب) العدل: ويعني أن العبد قادر خالق لأفعاله خيرها وشرها، ومن أجل ذلك يعتبر مسؤولاً عن أعماله، فالله لم يخلق أفعال العباد ويريد خير ما يكون لخلقه^(٢)، لذلك كان الثواب والعقاب، في حين يرى خصوم المعتزلة أن الله يريد لجميع ما كان وغير مرید لما لم يكن، وبذلك يكون قد أراد كفر الكافرين. أما المعتزلة فيرون لو أن الله أراد كفر الكافرين ما استحقوا العقوبة، ولما كان ضرورة للأنبياء.

(ج) الوعد والوعيد: الوعد هو كل خبر يتضمن إيصال نفع إلى الغير أو دفع ضرر عنه في المستقبل، والوعيد هو كل خبر يتضمن إيصال ضرر إلى الغير أو تفويت نفع عنه في المستقبل. أي أن الإيمان بنظرهم ليس بالتصديق والإعتقاد القلبي بل هو أداء الواجبات والأعمال الخيرية أيضاً.

(د) المنزلة بين المنزلتين: قسم المعتزلة المعاصي التي يرتكبها الناس إلى كبائر وصغائر، والكبيرة عندهم ما أتى فيها الوعيد والصغيرة ما لم يأت فيها الوعيد، وبعض الكبائر يصل حد الكفر مثل تشبيهه الله بالخلق أو تكذيب الله في خبر. وهناك كبائر يسمى مرتكبها «فاسقاً» والفسق منزلة بين المنزلتين لا كفر (كما قالت الخوارج) ولا إيمان (كما قالت المرجئة). ويجوز عند المعتزلة أن يعفو الله عن

(١) وحجة المعتزلة في ذلك الآيات: «ليس كمثله شيء» «الله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله» «لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار» ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني» «فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم» أما الآيات التي تدل على تجسيم الله وجهته ومكانه ورؤيته فإن ظاهرها يدل على ذلك بنظر المعتزلة: «يد الله فوق أيديهم» «ثم استوى على العرش» «الرحمن على العرش استوى» «ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام» «وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة».

(٢) وحجة المعتزلة الآيات: «وما ربك بظلام للعبيد» «وما ربك بظلام للعبيد» «وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» «لا ظلم اليوم» «أن الله لا يغير بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» «من يعمل سوءاً يجزيه» «هل جزاء الإحسان إلا الإحسان» «فمن شاء فليؤس ومن شاء فليكفر» «وسارعوا إلى هفرة ربكم».

مرتكب الكبيرة إن تاب، وإن لم يتب يخلد في النار^(١).

(هـ) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: اشترك المسلمون في هذا الأصل «ولتكن أمة منكم يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون»، ومع ذلك اختلف المسلمون في كيفية تطبيق هذا الأصل، فمنهم من أراد استعمال القوة والسيف، ومنهم من أراد طريق القلب واللسان. والمعتزلة رأَت طريق القوة والسيف، وحجتها «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله» وعلى هذا الأساس وقفت المعتزلة بجانب علي في صراعه ضد معاوية.

٣ - نفوذ ابن أبي دؤاد والمعتزلة (٢١٢ - ٢٣٤ / ٨٢٧ - ٨٤٨) :

وهكذا نلاحظ أن الأصل الأول للمعتزلة وهو «التوحيد» طرح مسألة خلق القرآن، وقول المعتزلة «أن القرآن مخلوق» تبناه الخليفة المأمون^(٢) رسمياً سنة ٨٢٧/٢١٢، وكانت تلك المرة الأولى التي يعلن فيها الخليفة هذا القول، ثم اتبعه المعتصم والوائق، مما ساعد في تقوية المعتزلة. فقد قوي شأنهم وتقلد معظمهم القضاء خاصة قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد الذي يعتبر من أبرز رجال المعتزلة، ولعل المكانة التي وصل إليها منذ زمن المأمون وأيام المعتصم والوائق هي أنه اتفق وهؤلاء الخلفاء على أن القرآن مخلوق، فساعد أصحابه من المعتزلة في تقلد القضاء، وتوسط لدى المعتصم الذي قلده عبد الله بن محمد بن أبي يزيد الخلنجي قضاء همدان، وكان متجرداً للقول بخلق القرآن^(٣)، وكذلك قلده عبيد الله بن أحمد بن غالب القضاء في بغداد^(٤). كما أنقذ قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد أحد رؤساء المعتزلة وهو الجاحظ من السجن، بعد أن أمر بفك قيوده ودفع عشرة آلاف درهم لنفقاته،

(١) وحجة المعتزلة الآية: «بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئة فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» والآية «ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها».

(٢) التنوخي: الفرج بعد الشدة ج ٤ ص ٢٧٠.

(٣) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٦ ص ١٣١.

(٤) المصدر نفسه ج ٦ ص ١٤٦.

وتصدر الجاحظ في اليوم التالي مجلس ابن أبي دؤاد وعليه خلعة من ثيابه وطويلة من قلائسه^(١).

وكان ابن أبي دؤاد يزور الخليفة المعتصم باستمرار، ويستأذن إيتاخ (ت ٢٣٥/٨٤٩)^(٢) حاجب الخليفة في الدخول إليه ليتوسط في حاجات الناس، وكان المعتصم لا يرد له طلباً، ويقول عن ابن أبي دؤاد «والله لو سألني في مجلسي ما قيمته عشرة آلاف درهم، ما رددته عنها، فإنني أعلم أنه يكسبني في الدنيا جمالاً وحماً، وفي الآخرة ثواباً وأجرأ»^(٣). وفي مرة واحدة أجابه المعتصم إلى ثلاث عشرة حاجة طلبها منه، ومنها إعطاء خمسين ألف درهم لسليمان بن عبد الملك النوفلي الذي كان ميسوراً ثم «وطئه الدهر، فغير من حاله، وخشّن معيشته»^(٤)، واعتبار الضياع التي تعود إلى هارون بن المعمر ضياعاً من غير خراج^(٥). وجميع أخباره تدل على محاسنه وفضائله ومكارم أخلاقه ومروءته وأعماله الجليلة^(٦) ومساعدته للناس زمن المعتصم، وخاصة في حريق سوق الخزازين ببغداد والذي عرف «بحريق الجمل»^(٧)، وقصته عن جمل عليه قصب كان يجتاز السوق وكان رجل يثقب لؤلؤاً وبين يديه نار، فوقع طرف القصب على النار فاشتعلت وشعر الجمل بها فأخذ يجري ويحرق كل ما يجتاز به، حتى مات الجمل. واندلع الحريق في السوق فأصيب عدد كبير من الناس، وتهدمت

(١) التنوخي : الفرج بعد الشدة جـ ١ ص ٣٦١.

(٢) أبو منصور إيتاخ (ت ٢٣٥/٨٤٩) : من ممالك المعتصم، قدمه وقوده، وتقدم في عهد المتوكل فقلد الحجابة، والرید، والجيش، والأموال، والأترك والمغاربة، وكل من أراد المتوكل قتله وتعذيبه يجري ذلك على يد إيتاخ، ثم أمر المتوكل أمير بغداد إسحاق بن إبراهيم فاعتقله وقتله سنة ٢٣٥ هـ.

ابن مسكويه : تجارب الأمم جـ ٦ ص ٥٣٢ و ٥٤٢ - ٥٤٥.

ابن الأثير : الكامل جـ ٧ ص ١١ - ٤٧.

(٣) التنوخي : نشوار المحاضرة جـ ٧ ص ٢٤٥، المستجاد ص ٢٠٨.

(٤) التنوخي : نشوار المحاضرة جـ ٧ ص ٢٤٤، المستجاد ص ٢٠٧.

(٥) التنوخي : نشوار المحاضرة جـ ٧ ص ٢٤٥، المستجاد ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

(٦) التنوخي : نشوار المحاضرة جـ ٣ ص ٦٧ - ٦٨، جـ ٧ ص ١٩١ - ١٩٢ و ٢٤٣ - ٢٤٧. الفرج بعد الشدة:

جـ ٢ ص ٦٠ - ٧٥. المستجاد ص ١٤١ - ١٤٤ و ١٤٨ - ١٤٩ و ١٥٩ - ١٦٠ و ٢٠١ - ٢٠٢.

٢٠٦ - ٢٠٨.

(٧) التنوخي : نشوار المحاضرة جـ ٢ ص ١٠١ - ١٠٣.

الدور والعقارات وضاعت أموال التجار بعد أن احترقت البضائع الثمينة، فتوسط ابن أبي دؤاد عند المعتصم وأخذ منه خمسة آلاف درهم، ثم احتاج إلى أضعاف هذا المبلغ، وجلس في مجلسه واجتمع عليه الناس يوزع على المتضررين مساعدات الخليفة.

ويذكر أن هذا الحريق وقع بعد انتقال المعتصم إلى مدينة سامراء. ومن نتائج هذا الحريق أن الناس فكروا بالانتقال عن بغداد. فهل كان الحريق مقصوداً لتزدهر مدينة سامراء على حساب بغداد؟.

ومن مكارم ابن أبي دؤاد أيضاً إنقاذه خالد بن يزيد^(١) من عقاب المعتصم الذي اتهمه باختلاس الأموال، فقبض على أمواله وأملاكه وصرفه من العمل، وكان يريد تعذيبه، فأحضره وأحضر آلات العقوبة فشفع به ابن أبي دؤاد. ورد له المعتصم أمواله وأملاكه ومنصبه كعامل من عماله بعد أن فك قيوده^(٢)، وقال خالد بن يزيد: «سيد العرب والله ابن أبي دؤاد الذي طوّفتي هذه المكرمة التي لا تنفك من عنقي أبداً»^(٣).

ولقاضي القضاة ابن أبي دؤاد حيلة مشهورة أنقذت أبا دلف القاسم بن عيسى العجلي (ت ٢٢٦/٨٤٠)^(٤) من القتل على يد الأفشين. وكان أبو دلف صديقاً لابن

(١) أبو يزيد خالد بن يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني : أحد الأمراء الأجواد في العصر العباسي؛ مدحه أبو تمام. ولاء المأمون مصر ثم ولاء الموصل وديار ربيعة. ولما انتفضت أرمينية جهزه الوائق عليها فمات في طريقه إليها سنة ٢٣٠ هـ.

الزركلي : الأعلام ج٢ ص ٣٤٣.

(٢) التنوخي : نشوار المحاضرة ج٧ ص ١٩٠ - ١٩١ . الفرج بعد الشدة ج٢ ص ٦٠ - ٦١ . المستجد ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(٣) التنوخي : نشوار المحاضرة ج٧ ص ١٩٢ . الفرج بعد الشدة ج٢ ص ٦٢ . المستجد ص ١٦٠ .

(٤) أبو دلف القاسم بن عيسى بن ادريس بن معقل العجلي (ت ٢٢٦/٨٤٠) : أمير عربي قائد شجاع، جواد، شاعر، فارس، موسيقي، قلده الرشيد أعمال الجبل وارتفع شأنه في عهد المأمون والمعتصم وكانت بينه وبين الأفشين عداوة.

التنوخي : نشوار المحاضرة ج٧ ص ٢٤٦؛ الفرج بعد الشدة ج٢ ص ٦٩ و ٧٠ . المستجد ص ١٤٨ .

أبي دؤاد، وقد استدعاه الأفشين واحتال عليه حتى شهد عليه بجناية قتل، وأحضر السيف ليقتله^(١). فبلغ ابن أبي دؤاد الخبر وهو يعلم أن الأفشين يكره أبا دلف ويحسده على شجاعته وفروسيته، وأسرع في الحال ومعه بعض الشهود، ودخل مسرعاً على الأفشين وبدون إذن من الغلمان، وقال له: أيها الأمير أنا رسول أمير المؤمنين إليك، يأمرك أن لا تحدث في أمر القاسم حدثاً إلا بإذنه ثم التفت إلى الشهود، فقال: اشهدوا أنني قد بلغت رسالة أمير المؤمنين والقاسم حيّ معافى^(٢). والحقيقة أن ابن أبي دؤاد لم يكن رسول الخليفة، بل احتال على الأفشين ثم أخبر الخليفة المعتصم بما حدث^(٣). وبذلك أنقذ صديقه من القتل^(٤). كما أنقذ علي بن إسحاق^(٥) بعد أن أصيب بمس من الجنون في السجن، فأطلق سراحه^(٦).

وهكذا نلاحظ منزلة قاضي القضاة ابن أبي دؤاد عند الخليفة المعتصم الذي كان يجلسه إلى مائدته فيأكل مع ندماء الخليفة «أنظف أكل وأحسنه»^(٧)، ويترسل في الحديث فيسر به الخليفة ويقول عنه: «هذا والله الذي يتزين بمثله ويبتهج بقربه»^(٨). وكان يحضر المجالس التي يحاكم فيها المعتصم الخارجين على طاعته، فشاهد

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٨٢

(٢) التنوخي: نشوار المحاضرة جـ ٧ ص ٢٤٦-٢٤٧ الفرج بعد الشدة جـ ٢ ص ٦٨. المستجد ص ١٤٨.

(٣) التنوخي: نشوار المحاضرة جـ ٧ ص ٢٤٧، الفرج بعد الشدة جـ ٢ ص ٦٨ و٦٩ و٧٤، المستجد ص ١٤٨.

(٤) التنوخي: نشوار المحاضرة جـ ٧ ص ٢٤٧، الفرج بعد الشدة جـ ٢ ص ٧٥، المستجد ص ١٤٩.

(٥) علي بن إسحاق بن يحيى بن معاذ: كان يتقلد خلافة صول ارتكين على المعونة بدمشق، وكان رجاء بن أبي الضحاك متقلداً الخراج بدمشق وكانت بينهما عداوة انتهت بقتل علي بن إسحاق لرجاء بن أبي الضحاك ٢٢٦ هـ، فأدخل السجن ثم أصيب بالجنون فتكلم فيه أحمد بن أبي دؤاد فأطلق سراحه.

التنوخي: الفرج بعد الشدة جـ ٢ ص ٢٩٤ - ٢٩٥.

(٦) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٢٩٥

(٧) التنوخي: نشوار المحاضرة جـ ٧ ص ٢٤٤ والمستجد ص ٢٠٧.

(٨) التنوخي: نشوار المحاضرة جـ ٧ ص ٢٤٥ والمستجد من ٢٠٨.

تميم بن جميل السدوسي^(١) الذي خرج عن طاعة المعتصم، فجيء به إليه أسيراً^(٢)، لكن فصاحته أبكت^(٣) المعتصم، وجعلته يعفو عنه. وقد اعجب ابن أبي دؤاد من شجاعته أمام الموت^(٤). كما يذكر ابن أبي دؤاد قصة عمر بن فرج الرخجي^(٥) الذي غضب عليه المعتصم وهمّ بقتله، لكنه نجا من الموت بسبب خبيثته ومكره حتى أصبح من ندماء المعتصم^(٦). وقال فيه ابن أبي دؤاد: «ما صحب السلطان أرجل ولا أخبث من عمر بن فرج الرخجي»^(٧).

وقد اشتهر لابن أبي دؤاد غلام يدعى سلامة^(٨)، فكان يسبقه إلى دار الخليفة كلما فكر بزيارته.

وبعد وفاة المعتصم خلفه ابنه الواثق، فازدادت مكانه ابن أبي دؤاد في عهده، كما زاد الواثق تقرباً له وأخذ يستشيريه في الأمور ويأخذ برأيه فيها. واستمر ابن أبي دؤاد في أعماله الكريمة يشفع بالناس وينقذ المظلومين من السجن، فقد شفع

(١) تميم بن جميل السدوسي الخارجي : من عمال الخليفة المعتصم، لكنه خرج عن طاعته وسيطر على شاطئ الفرات فأسره المعتصم، وجيء به إليه مكبلاً بالحديد يريد قتله لكن تميم مشى إلى الموت غير مكترث به. وكان رجلاً جميلاً وسيماً جسيماً، بالإضافة إلى فصاحته وانشاده أبياتاً من الشعر حتى غفر له المعتصم هفوته وتركه لأطفاله وأمر بفك قيوده وخلع عليه، وعقد له ولاية شاطئ الفرات، وأعطاه خمسين ألف دينار

التنوخي : الفرغ بعد الشدة ج ٤ ص ٨٩ - ٩٠ . المستجاد ص ١١٧ - ١١٩ .

ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٢ ص ٢٧ - ٢٨ .

(٢) التنوخي : الفرغ بعد الشدة ج ٤ ص ٨٩ . المستجاد ص ١١٧ .

(٣) التنوخي : المستجاد ص ١١٩ وفي الفرغ بعد الشدة ج ٤ ص ٩٠ ورد «فتبسم المعتصم»

(٤) التنوخي : الفرغ بعد الشدة ج ٤ ص ٨٩ والمستجاد ص ١١٧ .

(٥) التنوخي : الفرغ بعد الشدة ج ٤ ص ١٧ - ١٨ .

(٦) المصدر نفسه ج ٤ ص ١٨ .

(٧) المصدر نفسه ج ٤ ص ١٧ .

(٨) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٧ ص ٢٤٣ .

في رجل من اليمامة وأسهب في شفاعته لدى الوراق لأنه يعتبر هذا الرجل صديقاً له^(١). وعندما وقع خلاف بين الوراق وصاحب الشرطة تدخل ابن أبي دؤاد لإصلاح ما بينهما، فقد كان الوراق يدعو صاحب الشرطة إسحاق بن ابراهيم المصعبي لمناذمته، وكان يمتنع عن المناذمة لأن ذلك بنظره يؤدي إلى «امتهان العامة إياه». فتدخل ابن أبي دؤاد يعلم الوراق أن إيجاد نديم أسهل بكثير من العثور على صاحب شرطة^(٢) جدير بمنصبه، ثم رضي الوراق عنه وأعفاه من المناذمة وصلحت الأمور بينهما.

وكان الوزير محمد بن عبد الملك الزيالي (ت ٢٣٣/٨٤٧)^(٣) قد قبض على بعض العمال والكتاب، وسجنهم وصادر أموالهم، وكان الوراق مريضاً^(٤)، مما يعني صعوبة إنقاذهم من السجن. لكن قاضي القضاة ابن أبي دؤاد دخل على الوراق رغم شدة مرضه، وبفصاحته أخبره أن وزيره ابن الزيالي ملأ السجون بالعمال والكتاب وإذا أمر باطلاقهم فإن «وراءهم ألف يد ترفع إلى الله تعالى بالدعاء له، فلعل الله يهب له العافية»^(٥)، وهكذا وقع الوراق بخط مضطرب إلى وزيره بإطلاقهم وإطلاق كل من في السجون^(٦)، ثم أعيدت إليهم ما صودر منهم من أموال وضياع، ومات الوراق بعد ثلاثة أيام^(٧)، مما يدل على وجود تنافر بين الوزير ابن الزيالي وابن أبي دؤاد في كثير من

(١) التوخي : المستجد ص ٢٠٢.

(٢) التوخي : الفرج بعد الشدة ج ١ ص ٣٩٣.

(٣) أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة المعروف بابن الزيالي (ت ٢٣٣/٨٤٧) : وزير المعتصم والوراق. كان المتوكل يحقد عليه أموراً فلما ولي الخلافة قبض عليه وعذبه بأن حبسه في تنور في باطنه مسامير من الحديد أطرافها إلى داخل التنور، وكان التنور ضيقاً بحيث أن الانسان كان يمد يديه إلى فوق رأسه ليتمكن من دخوله، ولا يقدر من يكون فيه أن يجلس. ولد سنة ١٧٣ هـ.

الزركلي : الأعلام ج ٧ ص ١٢٦، وأخباره كثيرة في مؤلفات التوخي :

نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٧، ج ٧ ص ٢١٢ و ٢١٥، ج ٨ ص ١٧ - ١٩.

الفرج بعد الشدة ج ١ ص ١٨٦ - ١٨٨ و ٢١٢، ج ٢ ص ٦٣ - ٦٦ و ٩٢ - ١٠٠ و ٢٥٩ - ٢٦١، ج ٣ ص ٢٢٠ و ج ٤ ص ١٨. المستجد ص ١٤١ - ١٤٤.

(٤) التوخي : نشوار المحاضرة ج ٢ ص ٧٣ والفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٦٣ والمستجد ص ١٤١.

(٥) التوخي : الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٦٣ والمستجد ص ١٤١.

(٦) التوخي . الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٦٤ والمستجد ص ١٤٢.

(٧) التوخي : الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٦٦ والمستجد ص ١٤٤.

المواقف^(١).

ولما مات الواثق وضعت جثته في مجلس في بستان^(٢)، وطلب ابن أبي دؤاد من أحمد بن محمد الواثق^(٣) أن يحرس الجثة إلى أن تدفن، لأنه كان مشغولاً منذ وفاة الواثق بعقد البيعة^(٤) للمتوكل، وقد أصر ابن أبي دؤاد على مبايعة المتوكل وألبسه الطويلة وعمه بيده^(٥)، وبعد إنتهاء المبايعة عاد ابن أبي دؤاد واهتم بغسل الواثق ودفنه^(٦).

ورغم أن ابن أبي دؤاد لعب دوراً رئيسياً في مبايعة المتوكل، فإن الخلاف بدأ بينهما خاصة وأن ابن أبي دؤاد كان من رعماء المعتزلة، والمتوكل أخذ يتعد عن المعتزلة منذ توليه الخلافة وتقرب من أهل السنة^(٧)، مما أدى إلى التباعد بينه وبين قاضي القضاة ابن أبي دؤاد بسبب مسألة خلق القرآن.

٤ - محنة خلق القرآن الكريم (٢١٨ - ٢٣٤ / ٨٣٣ - ٨٤٨):

تعتبر مسألة خلق القرآن^(٨) التي طرحتها المعتزلة من أكثر الموضوعات التي أثارت اختلافاً عنيفاً بين المعتزلة من جهة وبين أهل السنة من جهة أخرى، وهي أساس محنة خلق القرآن التي بدأها المأمون سنة ٢١٨ / ٨٣٣.

وأساس فكرة خلق القرآن تعود إلى أحد اليهود وهو إما لبيد بن الأعصم أو المغيرة بن سعيد العجلي، وقد قامت قياساً على خلق التوراة. وعند المسلمين كان الجعد بن درهم، أستاذ مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، أول من أظهر القول

(١) ابن عبد ربه - العقد الفريد ج ٣ ص ١٢٨ وج ٤ ص ١١٨

(٢) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٢ ص ٧٣ .

(٣) أحمد بن محمد بن يحيى الواثق : ولي البصرة سنة ٢٨٥ هـ، ثم ولي شرطة بغداد أيام المكتفي . وكان خبيراً في الكشف عن اللصوص وكان من خاصة الواثق حتى لقبه بالواثق باسمه، وعند وفاته حزن عليه .

المصدر نفسه ج ٢ ص ٧٣ - ٧٤ .

(٤) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٢ ص ٧٤ .

(٥) الطبري : تاريخ الرسل ج ٩ ص ١٥٧ .

(٦) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٢ ص ٧٤ .

(٧) E I² : TIP 279 .

(٨) الشهرستاني : المملل والنحل ص ٥٣ - ١٠٨ ، أحمد أمين : ضحى الإسلام ج ٣ ص ١٦١ - ١٨٦ ،

محمود كامل أحمد مفهوم العدل ص ٢٤٨ - ٢٨٩

بخلق القرآن، ثم أخذ عنه الجهم بن صفوان الترمذي . وورث المعتزلة القول عن الجعد والجهم وأدلتهم في ذلك أن القرآن معجزة النبي ، وهو عبارة عن سور وآيات وحروف منتظمة تقرأ باللسان وتحس باليد وتبصر بالعين وتسمع بالأذن ، وهو قرآن ومنزل وعربي وبشير ونذير، ومحال أن يكون هذا كله وصفاً لصفة الله ، والكلام الأزلي الذي هو صفة الله لا يوصف بمثل هذه الأوصاف ، ودعموا آراءهم هذه بالآيات :

— القرآن خلقه الله ثم أنزله : يريدون أن الله كتب القرآن في لوح محفوظ «بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ» . ثم أنزله إلى الرسول «إنا أنزلناه» «نزل عليك الكتاب بالحق» «كتاب أنزلناه إليك» «تنزيل من الرحمن الرحيم» «تنزيل الكتاب من الله» «تنزيل من رب العالمين» «إنا أنزلناه في ليلة القدر» «إنا أنزلناه في ليلة مباركة» «شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن» وبذلك يكون الله قد خلق القرآن ثم أنزله .

— القرآن سور وآيات وحروف محكمة ومفصلة وبتلك يكون مركب من أجزاء متعاقبة أي خلقه الله : «آل كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن خبير حكيم» «كتاب فصلت آياته» «يفصل الآيات لقوم يعلمون» «ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون» .

— القرآن عربي : «قرآناً عربياً» «إنا أنزلناه قرآناً عربياً» «إنا جعلناه قرآناً عربياً» .

— القرآن مسموع : «وان أحد من المشركين استجارك فاجرته حتى يسمع كلام الله» «وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه» والمسموع حادث لأنه لا يكون إلا حرفاً وصوتاً .

— القرآن بشير ونذير : «حمّ تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون . بشيراً ونذيراً فاعرض أكثرهم فهم لا يسمعون» .

— القرآن نوع من الكلام يخلقه الله في غيره فتصل إلى النبي عن طريق الوحي أو غيره وإنما سمي كلام الله لأنه خلق الله مباشرة «وما كان لبشر أن يكلمه الا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بأذنه ما يشاء» و«كلم الله موسى تكليماً» .

— القرآن يذكر بعض الأسماء والوقائع المعاصرة للنزول «تبت يدا ابي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب» مما يدل على أنه محدث وليس قديم .

— وقوع النسخ والتبديل في آيات القرآن يدل على خلق القرآن لأن كلام الله الأزلي لا

ينسخ ولا يبدل . « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير » وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم مما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون .

— القرآن معجزة النبي : الجميع متفقون على اعجاز القرآن فصاحة ونظماً والمعتزلة ترى أن المعجزة لا تكون قديمة بل محدثة والا لكانت معجزة سابقة على الدعوى فالقرآن معجز والمعجز محدث فالقرآن محدث .

وقد وصلت محنة خلق القرآن الكريم، إلى حد إراقة الدماء . وكان قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد يقف وراء ذلك مع جماعته المعتزلة، حيث التمسوا سطوة الدولة في سبيل فرض الاعتقاد بخلق القرآن عقيدة رسمية وحتى عن طريق القوة، فسجنوا وعذبوا كل من عارض موقفهم من أن القرآن مخلوق . وقد تصدى الحنابلة وغيرهم من أهل السنة للمعتزلة، وتبنوا الرأي أن القرآن كلام الله، وكلام الله غير مخلوق، وهذا يعني معارضتهم حق الدولة في فرض مذهب عقائدي على الناس .

وهنا أخطأ ابن أبي دؤاد والمعتزلة في إشراك العامة في مسألة خلق القرآن وهم أبعد الناس عن فهم علم الكلام، كما أخطأوا في حمل الحكومة على التدخل بسلطانها وسيوفها وجنودها وولاتها في هذه المسألة، ونسوا أن الإسلام لم ينتشر بالتعذيب بل بالإقناع والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة . والإسلام عماده « لا إله إلا الله محمد رسول الله »، ومن قالها عصم دمه وحسابه على الله . لذلك فإن قسوة المعتزلة كرسوا للإمام أحمد بن حنبل زعيماً للناس، بعد أن سجن وضرب زمن المعتصم بالسياط حتى سال منه الدم^(١) . سنة ٢٢٠ / ٨٣٥، لأنه أصر على رأيه بأن القرآن كلام الله وكلام الله غير مخلوق^(٢) . . وحرص قاضي القضاة ابن أبي دؤاد على قتله، لكن المعتصم أطلق سراحه خشية وقوع الفتنة، وبعد أن أعجب بشجاعته وثباته على ما يعتقد أنه الحق^(٣) .

(١) التميمي : المحن ص ٤٤٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٣٩ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٠ ص ٣٢٥ - ٣٤٢ .

التميمي : المحن ص ٤٣٨ - ٤٤٤ .

٥ - محاكمة أحمد بن نصر سنة ٢٣١/٨٤٥ :

كان أحمد بن نصر الخزاعي^(١) ، من أئمة السنة الأمرين بالمعروف والنهايين عن المنكر، وكان ممن يدعو إلى القول بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق. وكان الواثق من أشد الناس في القول بخلق القرآن^(٢)، فالتف الألوف من أهل بغداد حول أحمد بن نصر للخروج على الخليفة. لكن نائب السلطنة محمد بن إبراهيم بن مصعب قبض عليه وجماعة من رؤوس أصحابه، وأرسل بهم إلى الخليفة في سامراء أواخر شعبان سنة ٢٣١/٨٤٥^(٣)، فأحضر له جماعة من الأعيان وقاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي، وقال الواثق مخاطباً أحمد بن نصر: ما تقول في القرآن؟ فقال؛ هو كلام الله. قال؛ أمخلوق هو؟ فقال: هو كلام الله. فقال له: فما تقول في ربك، أتراه يوم القيامة؟ فقال: يا أمير المؤمنين قد جاء القرآن والأخبار بذلك، قال الله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ وقال رسول الله ﷺ: «إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته». فنحن على الخبر. فقال الواثق: ويحك! أيرى كما يرى المحدود المتجسم؟ ويحويه مكان ويحصره الناظر؟ أنا أكفر برب هذه صفته. ثم قال الواثق لمن حوله: ما تقولون في هذا الرجل؟ فقال عبدالرحمن بن إسحق وكان قاضياً على الجانب الغربي فعزل: يا أمير المؤمنين هو حلال الدم. وقال أبو عبدالله الأرميني صاحب أحمد بن أبي دؤاد: إسقني دمه يا أمير المؤمنين^(٤). فقال الواثق: لا بد أن يأتي ما تريد. وقال أحمد بن أبي دؤاد: هو كافر يستتاب لعل به عاهة أو نقص عقل. ثم نهض الواثق بالسيف فضربه على

(١) أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي (ت ٢٣١/٨٤٥) : كان جده مالك من أكبر الدعاة لدولة بني العباس. وكان أحمد من أهل العلم والديانة والعمل الصالح والاجتهاد في الخير. جمع الحديث من حماد بن زيد وسفيان بن عيينة، وهاشم بن بشير، وسمع من الإمام مالك بن أنس الحديث الجيد، وحدث عنه أحمد بن إبراهيم الدورقي وأخوه يعقوب ويحيى بن معين. وكان يناهض المعتزلة ويقول بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق مما أدى إلى محاكمته زين الواثق وضرب عنقه سنة ٢٣١/٨٤٥، فحمل رأسه إلى بغداد. ثم جمع بين رأسه وجثته ودفن بالجانب الشرقي من بغداد بالمقبرة المعروفة بالمالكية وذلك بأمر المتوكل. ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٠ ص ٣٠٣-٣٠٦.

(٢) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٣٠٣.

(٣) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٣٠٤.

(٤) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٣٠٥.

عائقه وهو مربوط بحبل، ثم ضربه على رأسه ثم طعنه في بطنه فسقط صريعاً. ثم انتضى سيما الدمشقي سيفه فضرب عنقه وحز رأسه. وحمل رأسه إلى بغداد. ثم أمر الواصل بتتبع رؤوس أصحابه فأخذ منهم نحواً من تسع وعشرين رجلاً، فأودعوا في السجون، وقيدوا في الحديد، ومنعوا أن يزورهم أحد^(١). وهكذا استولى أحمد بن أبي دؤاد على الواصل وحمله على التشديد في المحنة ودعا الناس إلى القول بخلق القرآن^(٢).

وقد استمرت محنة خلق القرآن الكريم حتى سنة ٢٣٤/٨٤٨، وشملت العراق ومصر والشام وفارس. ومن أشهر من تعرض لبطش المعتزلة إضافة للإمام أحمد بن حنبل، وأحمد بن نصر ثلاثة هم: محمد بن نوح بن ميمون الجنديسابوري الذي مات في الطريق، ونعيم بن حماد الخزاعي، وقد مات في السجن، وأبو يعقوب البويطي وقد مات في سجن الواصل^(٣).

٦ - نكبة المعتزلة وأحمد بن أبي دؤاد (٢٣٤ - ٢٤٠/٨٤٨ - ٨٥٤):

عندما تولى المتوكل الخلافة، ابتعد عن المعتزلة وحرم القول بخلق القرآن الكريم، وتقرب من أهل السنة. وهكذا بدأت النكبة التي حلت بالمعتزلة وبقاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد خاصة وأن الحكام المتسلطين يدعون أنهم جاؤوا إلى الحكم بتقدير من الله وليس لأحد أن يعترض سلطتهم لأنه بذلك يعارض رب العالمين، فلما ظهر المعتزلة وكان ابن أبي دؤاد منهم، خشي الحكام مغبة ذلك فحاولوا استئصالهم واتهموا بالزندقة^(٤)، وهي تهمة عامة اتهم بها كل من عارض سلطة الحكام.

ومما يذكره ابن كثير أن المتوكل أحسن الصنيع لأهل السنة، بخلاف أخيه الواصل وأبيه المعتصم وعمه المأمون، فإنهم أسأؤوا إلى أهل السنة وقربوا أهل البدع والضلال من المعتزلة. وكان المتوكل قد ساءه ما فعل الواصل، فعندما دخل عليه الوزير محمد بن عبد الملك بن الزيات سأله عن صحة قتل أحمد بن نصر فقال:

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٠ ص ٣٠٥

(٢) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٣٠٩

(٣) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٣٣٥

(٤) التميمي: المحض ص ٤٣٩.

يا أمير المؤمنين أحرقني الله بالنار إن قتله أمير المؤمنين الواثق إلا كافراً. ودخل عليه هرثمة فسأله أيضاً فقال: قطعني الله إرباً إرباً إن قتله إلا كافراً. ودخل عليه قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد فقال له مثل ذلك، فقال: ضربني الله بالفالج إن قتله الواثق إلا كافراً. لكن المعتصم كان في أشد المعارضين للمعتزلة، فلم يقتنع بصحة قتل أحمد بن نصر، كما كان يكرم الإمام أحمد بن حنبل إكراماً زائداً^(١). وفي سنة ٢٣٣/٨٤٧، أمر المتوكل بالقبض على الوزير ابن الزيات ثم قتله وأحرقه بالنار ودفعت جثته إلى أولاده فدفنوه، فنبشت عليه الكلاب فأكلت ما بقي من لحمه وجلده^(٢). أما هرثمة فقد هرب واجتاز بقبيلة خزاعة فعرفه رجل من الحي فقال: يا معشر خزاعة هذا الرجل قتل ابن عمكم أحمد بن نصر فقطعوه إرباً إرباً^(٣).

وأما قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد فقد أصيب بالفالج في جمادي الأولى سنة ٢٣٣/٨٤٧^(٤). وهذا يعني أن كلاً منهم أصيب كما دعا على نفسه حين سألهم المتوكل عن قتل أحمد بن نصر.

وعلى هذا الأساس أخذ ابن أبي دؤاد وأصحابه من المعتزلة يتعرضون لبطش المتوكل الذي عزل عبيدالله بن أحمد بن غالب^(٥) عن القضاء سنة ٢٣٤/٨٤٨، وكذلك عزل عبدالله بن محمد بن أبي يزيد الخلنجي^(٦). عن القضاء سنة

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٠ ص ٣٠٦.

(٢) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٣١١.

(٣) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٣٠٦.

(٤) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٣١١.

(٥) عبيد الله بن أحمد بن غالب: كان فقيهاً عالمياً على مذهب أهل العراق، وكان من أصحاب قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد. ولد سنة ١٨٠ هـ وتقلد قضاء الشرقية، ٢٢٨ هـ، ثم عزله المتوكل سنة ٢٣٤ هـ. التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٦ ص ١٤٦ و ١٦٩. الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١٠ ص ١١٩ و ج ١١ ص ٥٢.

(٦) عبد الله بن محمد بن أبي يزيد الخلنجي: أحد أصحاب الرأي، وكان حاذقاً بالفقه على مذهب أبي حنيفة، واسع العلم وقد ساعده قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد بتقلد القضاء زمن المعتصم، فولاه قضاء همذان لمدة عشرين سنة، ثم ولاء الواثق قضاء الشرقية ببغداد، وفي سنة ٢٣٧ هـ عزله المتوكل وأمر أن يكشف ليفضحه بسبب ما امتحن الناس في خلق القرآن، فقد كان متجرداً للقول بخلق القرآن.

التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٦ ص ١٣١ - ١٣٢. الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١٠ ص ٧٣.

٨٥١/٢٣٧، وهما من أصحاب ابن أبي دؤاد وذلك بعد أن ضجر أهل بغداد منهم بسبب تجردهم للقول بخلق القرآن الكريم^(١) :

كما ان أبا الحجاج الاعرابي هجا ابن أبي دؤاد بسبب ارتباطه بالمعتزلة، وقال فيه قصيدة^(٢) :

نكست الدين يا ابن أبي داؤد	فأصبح من أطاعك في ارتداد
زعمت كلام ربك كان خلقاً	أمالك عند ربك من معاد
كلام الله أنزله بعلم	وأنزله على خير العباد
ومن أمسى ببابك مستضيفاً	كمن حلّ الغلاة بغير زاد
لقد أطرفت يا ابن أبي دؤاد	بقولك إنني رجل أيادي

وهذا يدل على مدى انقسام الناس بين مؤيد للمعتزلة ومعارض لها.

لم يكتف المتوكل بعزل أصحاب ابن أبي دؤاد من القضاء بل انتهى الأمر إلى عزل قاضي القضاة ابن أبي دؤاد نفسه في صفر سنة ٨٥١/٢٣٧^(٣)، وولى المتوكل مكانه يحيى بن أكثم. ولم يكتف بذلك بل صادر ضياعه وضياع أولاده، وأجبرهم على الإقرار والإشهاد ببيعها، وسجن أولاد ابن أبي دؤاد ومنهم ابنه أبو الوليد محمد الذي كان يلي قضاء المظالم للمتوكل، وأمر بمصادرته فحمل مائة وعشرين ألف دينار، ومن الجواهر النفيسة ما قيمته عشرين ألف دينار، ثم صولح على ستة عشر ألف درهم. وقد نفى أهل ابن أبي دؤاد من سامراء إلى بغداد مهانين فأنشد أبو العتاهية^(٤) :

لو كنت في الرأي منسوباً إلى رشيد	وكان عزمك عزمياً فيه توفيق
لكان في الفقه شغلٌ لوقعت به	عن أن تقول كتاب الله مخلوق
ماذا عليك وأصل الدين يجمعهم	ما كان في الفرع لولا الجهل والموق

(١) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٦ ص ١٦٩ .

(٢) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٥ ص ٢٢٠ .

الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ٤ ص ١٥٣ .

(٣) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٦ ص ١٠١ .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٠ ص ٣١٦ .

وفي عيد الفطر سنة ٢٣٧/٨٥٢، أمر المتوكل بانزال جثة أحمد بن نصر الخزاعي والجمع بين رأسه وجسده، بعد أن ظل رأسه منصوباً من يوم الخميس ٢٨ شعبان سنة ٢٣١/٨٤٥، واجتمع في جنازته خلق كثير^(١) ثم أظهر المتوكل إكرام الامام أحمد بن حنبل واستدعاه من بغداد إليه .

أما ابن أبي دؤاد فلم يسجنه المتوكل لأنه كان مشلولاً طريح الفراش فتوفي ابنه ابو الوليد محمد سنة ٢٣٩/٨٥٣، ثم توفي قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد بعد وفاة ابنه بثلاثة أسابيع في شهر محرم سنة ٢٤٠/٨٥٤^(٢) . وقال بعضهم: رأيت في المنام قائلاً يقول: هلك الليلة أحمد بن أبي دؤاد فسئل عن السبب، فقال: إنه أغضب الله عليه فغضب عليه من فوق سبع سموات. وقال غيره: رأيت ليلة مات ابن أبي دؤاد كان النار زفرت زفرة عظيمة فخرج منها لهب، فقلت؛ ما هذا؟ فقيل هذا أنجزت لابن أبي دؤاد^(٣) .

وهكذا انتهى الأمر إلى عزل ابن أبي دؤاد عن القضاء وسجن أفراد عائلته ونفيهم ومصادرة أملاكهم، ثم موت ابنه وموته دون أن يجد من يقف إلى جانبه لينقذه من هذه النهاية المأساوية .

على أن التدابير التي اتخذها المتوكل لم تزل المعتزلة من الوجود، بل ظلت مذهباً قائماً، إلا أنهم انقسموا إلى فرق مختلفة، وضعف نفوذهم بعد أن كان الاعتزال المذهب الرسمي للدولة العباسية في خلافة المأمون. وقد ضعف المعتزلة بسبب حرب المتوكل عليهم، بالإضافة إلى الحرب التي شنّها علماء السنة أنفسهم مستخدمين أدلة المعتزلة للدفاع عن عقائد السنة، وهؤلاء هم علماء الكلام. وهكذا تسربت العقائد الفلسفية إلى السنة الإسلامية وبرز مذهب التصوف الذي أصبح له فلسفته الخاصة .

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٠ ص ٣٠٦ و ٣١٦ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٦٣ .

ابن كثير : الهداية والنهاية ج ١٠ ص ٣١٧ و ٣٢٢ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٠ ص ٣٢٢ .

الفصل الثاني

أبو جعفر (١)

في ظل الصراع بين الوزراء حول السلطة

(٢٣١ - ٣١٨ / ٨٤٥ - ٩٣٠)

كانت لقاضي القضاة أبو جعفر، مواقف رجولة سواء أثناء اشتراكه في محاكمة الوزير ابن الفرات أو في محاكمة الوزير علي بن عيسى، وهو يدرك حرج الموقف في ظل الصراع بين الوزراء حول السلطة. والذي قد يؤدي إلى فقدانه المنصب، فلم يخش في الحق لومة لائم وتصدى حتى للسيدة شغب أم الخليفة المقتدر.

١ - نشأته وتقلده منصب قاضي القضاة سنة ٢٩٦ / ٩٠٨ :

أبو جعفر أحمد بن إسحاق بن البهلول بن حسان بن سنان، ينتمي إلى القبيلة العربية تنوخ وأصلها من قوم قضاة وهو لقب والإسم عمرو بن مالك بن عمرو بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر، ويقال أنه النبي هود عليه السلام^(٢).

(١) له ترجمة في :

ياقوت الحموي : معجم الأدياء ج١ ص ٨٢ ؛ ابن الجوزي : المنتظم ج٦ ص ٣٩٢ ؛ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج١ ص ٢٧٨ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١١ ص ١٦٥ ؛ الزركلي : الأعلام ج١ ص ٩١ ؛ عصام شبارو : القضاء والقضاة ص ٢٥٣ - ٢٦٦ . وأخباره مثورة في :

التنوشي : نشوار المحاضرة ج١ ص ٤٧ و ١٦٢ - ١٦٤ و ٢٤٢ - ٢٤٤ و ٢٥٥ - ٢٦١ ، وج٢ ص ٥٨ و ٩٥ - ٩٦ و ١٦٧ - ١٦٨ ، ج٣ ص ١٣٦ - ١٣٨ و ٢٢٢ ، ج٤ ص ١٥ - ٣٤ و ٢٣٢ ، ج٥ ص ٢١٢ - ٢١٦ . الفرج بعد الشدة ج٥ ص ٥٩ .

(٢) التنوشي : نشوار المحاضرة ج٦ ص ٤٥ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج٧ ص ١٠٩ . المسعودي : مروج الذهب ج٢ ص ٥٥٨ .

ولد أبو جعفر في الأنبار^(١) في شهر محرم سنة ٢٣١/٨٤٥^(٢)، وكان لأبيه اسحاق مسند كبير حسن، وكان ثقة^(٣) استدعاه الخليفة المتوكل إلى بلاطه، وسمع منه الحديث في سامراء حيث نصب له منبراً يحدث عليه في المسجد الجامع^(٤) فيها وفي رحبة زيرك^(٥)، وأقطعه إقطاعاً في كل سنة إثنا عشر ألفاً، ورسم له صلة خمسة آلاف درهم في السنة، فكان يأخذها. وكان يحدث في بغداد من حفظه بخمسين ألف حديث^(٦) لم يخطيء في شيء منها. ولم يكن اسحاق المحدث الوحيد في عائلته، فقد كان والده البهلول بن حسان محدثاً^(٧) قبله، كما أصبح ولداه البهلول بن اسحاق (ت ٢٩٨/٩١٠)^(٨) وأبو جعفر أحمد بن إسحاق محدثين^(٩)، وكذلك حفيده داود بن

-
- (١) الأنبار: مدينة على الفرات غربي بغداد بناها سابور ذو الأكتاف، وجددها أبو العباس السفاح وأقام فيها حتى مات. وسميت الأنبار لأنها موضع أنابير الحنطة والشعير والتبن. فتحها خالد بن الوليد سنة ١٢ هـ. ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ١ ص ٣٦٧. حلت محل الأنبار الآن اللدة المسماة الفلوجة.
- (٢) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٥ ص ٢١٤ وج ٦ ص ١٠٤.
- (٣) المصدر نفسه ج ٥ ص ٢١٢.
- (٤) لم يبق من جامع سامراء الآن إلا سوره، ومنارته المسماة الملوية وتقع خارج سور الجامع قريباً من بابه، ولولا عناية مديرية الآثار القديمة تداركته لزال هذا الباقي. المصدر نفسه ج ٦ ص ٣٤.
- (٥) رحبة زيرك، هي ساحة واسعة قرب باب المراغة في سامراء (والفراغة جماعة من الترك ينسبون إلى فراغة وهي ولاية وراء الشاش من بلاد المشرق وراء نهر جيحون وسيحون)، ورحبة جامع القصر تقع خارج الجامع الذي كان الخلفاء العباسيون يقيمون فيه ببغداد صلاة الجمعة، يفدون إليه من قصر الخلافة عبر ممرات تحت الأرض، وما تزال إلى الآن رحبة جامع القصر، وهي رحبة يحتلها القصابون الذين يبيعون لحم البقر. المصدر نفسه ج ٦ ص ٣٥.
- (٦) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٦ ص ٣٥، الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٦ ص ٣٦٨.
- (٧) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٦ ص ٣٣، الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٦ ص ٣٦٧.
- (٨) البهلول بن اسحاق (ت ٢٩٨/٩١٠): ولد في الأنبار سنة ٢٠٤ هـ، وتقلد القضاء والخطبة على المنابر مدة طويلة، وكان حسن البلاغة كثير الحديث، ثقة فيه ضابطاً لما يرويه، وحدث بالأنبار. التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٦ ص ٤٦، الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٧ ص ١١٠.
- (٩) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٥ ص ٢١٢-٢١٣، ج ٦ ص ٤٦. الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٤ ص ٣١، ج ٧ ص ١١٠.

الهيثم (ت ٩٢٨/٣١٦)^(١)، وهذا ما قرب أبا جعفر من الخلفاء، فدعاه الخليفة الموفق (ت ٨٩١/٢٧٨) ليشارك في إعادة تنظيم قانون القبائل^(٢). وبعد أن استقرت له أحوال البلاد بقضائه على فتنة صاحب الزنج^(٣). سنة ٨٨٣/٢٧٠، أخذ الخليفة الموفق ينظر في كيفية تنظيم أحوال البلدان التي يحكمها، فأمر بتقليد القضاة في البلدان التي ينتمون إليها^(٤). وعندما وصل الأمر إلى قضاء الأنبار سمي له أبو جعفر أحمد بن إسحاق، فأمر بإحضاره وتقليده القضاء فيها^(٥). ولم يكن أبو جعفر يريد أن يصبح قاضياً، فقد كان يسكن بغداد ويعيش في بحبوحة مادية وأحواله طيبة، و«لا حاجة بي إلى تقلد القضاء»^(٦) كما يقول. لكن أحد أصدقائه نصحه بعدم رفض منصب قضاء الأنبار حتى لا يقال «طلب للقضاء فلما شوهد وجد لا يصلح فرد»^(٧). وهكذا أخذ القاضي اسماعيل بن إسحاق (ت ٨٩٥/٢٨٢)، إلى الوزر اسماعيل بن بلبيل^(٨)، الذي كتب له عهداً^(٩) عن الخليفة الموفق على قضاء الأنبار وهيئة^(١٠)،

(١) أبو سعد داود بن الهيثم بن اسحاق بن البهلول بن حسان بن سنان التنوخي (ت ٩٢٨/٣١٦). كان فصيحاً نحويّاً لغويّاً، حسن العلم بالمعروض صنف كتباً في اللغة والنحو، وله كتاب في خلق الانسان (أسماء الأعضاء). وكان كثير الحديث كثير الحفظ للأخبار والآداب. ولد بالأنبار سنة ٢٢٩ هـ ومات بها.

التنوخي : نشوار المحاضر ج ٦ ص ١٠٤ - ١٠٥، الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ٨ ص ٣٧٩.

MASSIGNON : LA Passion T1 P 485 (٢)

(٣) صاحب الزنج، علي بن محمد الوردزييني العلوي.

(٤) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ١ ص ٢٥٥.

(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٥٥ وج ٤ ص ٢٣.

(٦) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٥٦.

(٧) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٥٦.

(٨) إسماعيل بن بلبيل : استوزره الموفق طلحة لأخيه المعتمد، وبلغ من الوزارة مبلغاً عظيماً، وجمع له السيف والقلم، ومدحه الشعراء كالبحتري وابن الرومي وهجوه، فلما ولي المعتمد الخلافة حبسه ثم قتله واستصفى أمواله.

التنوخي : نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٥١.

ابن الطقطقي : الفخري ص ٢٥٢، المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٤٩٣.

(٩) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ١ ص ٢٥٧.

(١٠) هيت : مدينة على الفرات فوق الأنبار وقرب عانة مجاورة للبرية، ذات نخل كثير وخيرات واسعة.

ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٤ ص ٩٩٧.

والرحبة^(١)، وقرقيسيا^(٢)، وأعمال ذلك، سنة ٢٧٦/٨٨٩^(٣). واستمر في القضاء أربعين سنة (٢٧٦ - ٨٨٩/٣١٦ - ٩٢٨)، فقد تقلد القضاء زمن المعترض (ت ٢٨٩/٩٠٢)، كما تقلد سنة ٢٩٢/٩٠٤، قضاء بعض كور الجبل، وذلك زمن المكتفي (ت ٢٩٥/٩٠٧)^(٤). ثم قضاء طسوجي فطربل^(٥) ومسكن^(٦) والأنبار، وهيت، وطريق الفرات. ثم أضاف له بعد ذلك بسنين القضاء بكور الأهواز^(٧) عندما مات قاضيها إذ ذاك وكيع (ت ٣٠٦/٩١٨)^(٨)، وأصبح قاضياً للأهواز^(٩).

• لم يكن أبو جعفر الوحيد الذي تولى القضاء في عائلته، فقد كان أخوه الأكبر بهلول بن إسحاق التنوخي قاضياً على الأنبار^(١٠) قبله، ثم أصبح ابنه أبو طالب محمد

-
- (١) الرحبة : قرية بحذاء القادسية على مرحلة من الكوفة، وقد خربت بكثرة حروب العرب لأنها في ضفة البرية ليس بعدها عمارة.
ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٢ ص ٧٦٢.
- (٢) قرقيسيا : بلد على الخابور قرب رحبة مالك بن طوق وعندها مصب الخابور في الفرات.
المصدر نفسه ج٤ ص ٦٥.
- (٣) التنوخي : نشوار المحاضرة ج٥ ص ٢١٤ - ٢١٥.
- (٤) المصدر نفسه ج٥ ص ٢١٥.
- (٥) فطربل : قرية بين بغداد وعكبرا، وهي متزه البطالين وحانة الخمارين
ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٤ ص ١٣٣.
- (٦) مسكن : موضع قريب من أوانا على نهر دجيل عند دير الجائليق، به كانت الوقعة بين عبد الملك بن مروان ومصعب بن الزبير سنة ٧٢ هـ، وقتل مصعب وقبره هناك معروف.
المصدر نفسه ج٤ ص ٥٢٩.
- (٧) كور الأهواز : كور بين البصرة وفارس لكل كورة اسم يجمعهن الأهواز، وهي سوق الأهواز، رامهرمز، إيدج، عسكر مكرم، تستر، جنديسابور، سوس، سرق، نهري، مناذ.
المصدر نفسه ج١ ص ٤١١.
- (٨) وكيع القاضي (ت ٣٠٦/٩١٨) : أبو بكر محمد بن خلف بن حيان الضبي : كان عالماً فاضلاً فقيهاً، قارفاً نحوياً، تقلد القضاء بالأهواز، وله مصنفات منها أخبار القضاة.
ابن الجوزي : المنتظم ج٦ ص ١٥٢.
- (٩) التنوخي : نشوار المحاضرة ج٥ ص ٢١٦.
- (١٠) MASSIGNON : La Passion T1 P 485

(ت ٣٤٨/٩٥٩)^(١) ، قاضياً للأنبار والأهواز سنة ٣١٦/٩٢٨ ، كما أصبح حفيده علي بن محمد (ت ٣٥٤/٩٦٥)^(٢) قاضياً للأنبار. وكان لأبي جعفر ابن أخ يدعى أبو بكر الأزرق (ت ٣٢٩/٩٤٠)^(٣) ، وهو الذي أوصى لعمه أبي جعفر عند الموفق سنة ٢٧٦/٨٨٩ ، حتى جعله قاضياً على الأنبار^(٤) .
وقد أناب عنه القاضي أبا القاسم علي بن محمد التنوخي^(٥) في قضاء الأهواز

(١) أبو طالب محمد بن أحمد بن إسحاق بن البهلول التنوخي . كان يخلف والده قاضي القضاة أبو جعفر أحمد بن إسحاق بن البهلول على القضاء بمدينة المنصور إذا اعتلّ، وكان جميل الأمر، حسن المذهب، شديد التصوف، توفي سنة ٣٤٨ هـ.

ابن الجوزي : المنتظم ج ٦ ص ٣٩٢

(٢) أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن إسحاق بن البهلول التنوخي (ت ٣٥٤/٩٦٥) : ولد ببغداد في شوال سنة ٣٠١ هـ وتوفي بها. كان حافظاً للقرآن، وتفقه على مذهب أبي حنيفة، وحمل من النحو واللغة والأشعار عن جده القاضي أبي جعفر بن البهلول وغيره، وقال الشعر، وتقلد القضاء بالأنبار وهيت.

التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٧ ص ٤٦ - ٤٧ . ابن الجوزي : المنتظم ج ٧ ص ٣٠

الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١٢ ص ٨٢ .

(٣) أبو بكر يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن البهلول التنوخي الأباري (ت ٣٢٩/٩٤٠) . ولد بالأنبار سنة ٢٣٨ هـ، فكتب كثيراً من النحو واللغة والأخبار، وكان أزرق العينين لذلك لقب بالأزرق، وكان متخشناً في دينه كثير الصدقة أماراً بالمعروف .

التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٧ ص ١٤ - ١٥ ، ابن الجوزي . المنتظم ج ٦ ص ٣٢٥ .

الخطيب البغدادي . تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٣٢١ .

(٤) MASSIGNON · La Passion T1 P 485

(٥) أبو القاسم علي بن محمد بن أبي الفهم داود بن إبراهيم التنوخي (٢٧٨ - ٣٤٢/٨٩١ - ٩٥٣) : ولد في أنطاكية وشأ بها، ثم أتم دروسه في بغداد، وكان ذكياً قوي الذاكرة. تولى القضاء في الأهواز. وهو والد القاضي المحسن التنوخي صاحب نشوار المحاضرة، والفرج بعد الشدة والمستجاد في فعلات الأجواد .
أخباره في :

التنوخي : نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٧ - ٢٠ و ١٠١ و ٢١١ و ٢٢٠ و ٢٨٢ ، ج ٢ ص ١٤٠ - ١٤٢ و ٢٠٣ و ٢٢٤ و ٢٤٨ - ٢٥١ و ٢٧٠ - ٢٧١ و ٣٢٩ - ٣٣٠ و ٣٤٣ و ٣٤٩ ، ج ٣ ص ١٧ و ١٣٦ - ١٣٨ ، ج ٤ ص ١٣ و ٦٤ و ٧٥ - ٧٧ و ١٠٢ - ١٠٤ ، ج ٧ ص ٢٠٣ . الفرغ بعد الشدة ج ١ ص ٢٩ - ٣٣ و ١٠٩ ، ج ٤ ص ١٠٨ و ٢٣٤ - ٢٣٧ .

وله ترجمة في ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج ٥ ص ٣٣٢ ، والثعالبي . يتيمة الدهر ج ٢ ص ٣٣٦ والخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١٢ ص ٧٧ .

سنة ٩٢٣/٣١١، وكانت تجمعهما صلة النسب^(١)، وبذلك قلده القضاء بعسكر مكرم، وتستر، وحنديسابور^(٢)، والسوس^(٣)، وكان في الثانية والثلاثين من عمره. وعندما سلمه أبو جعفر عهد القضاء «أوصاه بتقوى الله عز وجل وبأشياء من أمور العمل، وسياسته في الدنيا والدين، وبأمر جاريه (راتبه) يتجزه (يحصل عليه) من العامل هناك»، كما نصحه بأن لا يبوح للناس عن حقيقة عمره، حتى يكون بمنأى عن شر الحساد الذين يستطيعون النيل منه، «بنسبته إلى الحدائث وقله حنكتها»^(٤)، أي أنه ما زال صغيراً على تولي القضاء وقليل الخبرة والتجربة. وفي طريقه إلى الأهواز لتسلم منصبه وجد شعرة بيضاء في لحيته، فلما دخل الأهواز عمل على إخراجها بالمشط ليبدو عليه الوقار والسن. وعندما وصل استقبله محمد بن جعفر بن معدان الشاهد، وكان يخلف قاضي القضاة أبا جعفر على الوقوف، فسأله عن حقيقة عمره، فأجاب كياً أوصاه أبو جعفر^(٥).

ثم أصبح أبو جعفر قاضي قضاة بغداد سنة ٩٠٨/٢٩٦، واستمر في منصبه عشرين سنة^(٦) حتى سنة ٩٢٨/٣١٦، وهي الفترة التي كان فيها المقتدر (ت ٩٣٢/٣٢٠) خليفة، مما يعني أن مكانة القاضي أبي جعفر قد ارتفعت كثيراً في دولة المقتدر، ففي جنازة واثق مولى المعتضد التي حضرها وجوه الدولة من القواد والكتاب والأشراف والقضاة وغيرهم، تقدم أبو جعفر جميع المصلين، ولما انقضت الصلاة غضب القاضي أبو عمر محمد بن يوسف الأزدي لتقديم أبي جعفر عليه، بينما فرح^(٧) هذا الأخير لأن الأمر يدل على ارتفاع مكانته في الدولة. وهذا يدل على مدى

(١) التنوخي . نشوار المحاضرة ج ٤ ص ٢٣

(٢) حنديسابور . مدينة بخوستان منسوبة إلى سابور بن أردشير

ياقوت الحموي . معجم البلدان ج ٢ ص ١٣٠ .

(٣) السوس : بلدة بخوستان فيها قبر النبي دانيال .

المصدر نفسه ج ٣ ص ١٨٨

(٤) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٣ ص ١٣٧ .

(٥) المصدر نفسه ج ٣ ص ١٣٧ - ١٣٨ .

(٦) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٤ ص ٢٣٢ و ج ٥ ص ٢١٣ ؛ ياقوت الحموي . معجم الأدباء ج ١ ص

٤٨٢ ؛ ابن الجوزي : المنتظم ج ٦ ص ٣٩٢ ؛ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ٤ ص ٣١ .

(٧) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ١ ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .

التنافس بين القضاة وخاصة فيما يتعلق بأعلى منصب وهو قاضي القضاة.

وفي ظل الصراع بين الوزراء على الحكم كان موقف القضاة حرجاً، فهم يخافون نقمة الوزراء عليهم إذا ما تسلموا الحكم ولم يكونوا راضين عنهم، ومع ذلك وقف أبو جعفر مواقف جريئة في الدفاع عن الوزير ابن الفرات عهد الوزير حامد بن العباس عندما اتهم بالسعي لتدبير مؤامرة ضد الدولة، ثم في عهد وزارة ابن الفرات الثالثة عندما وقف يدافع عن الوزير علي بن عيسى، الذي اتهم بمساعدة القرامطة، وقال الحق فيه كما قاله في ابن الفرات عندما كان متهماً.

٢ - محاكمة الوزير ابن الفرات سنة ٣٠٦/٩١٨^(١) :

اعتقل الوزير ابن الفرات^(٢) سنة ٣٠٦/٩١٨، بتهمة تدبير مؤامرة ضد الخليفة المقتدر. وقد جرت محاكمته بحضور الخليفة وقاضي القضاة أبي جعفر والقاضي أبو

(١) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٤ ص ٢٨ - ٣٤.

ياقوت الحموي : معجم الأدياء ج ١ ص ٨٧ - ٩١.

(٢) الوزير أبو الحسن علي بن محمد بن الفرات (ت ٣١٢/٩٢٤) تولى الوزارة ثلاث مرات للخليفة المقتدر، المرة الأولى سنة ٢٩٦ هـ والثانية سنة ٣٠٤ هـ، ووزر للمرة الثالثة سنة ٣١١ هـ، واستغل ولده المحسن سلطة أبيه فأذى وعذب الناس، فقبض المقتدر عليه وعلى ولده وقتلها.
إبن الأثير: الكامل ج ٨ ص ١٤٩؛ ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ١٩٢، إبن الطقطقي: الفحري ص ٢٦٥.

وله أخبار كثيرة في :

التنوخي : نشوار المحاضرة ج ١ ص ٢٢، ٣٠، ٣٣، ٤٢، ٤٣، ٤٩، ٥٢، ٥٧، ٥٩، ٦٥، ٦٦، ٩٣، ١١٧، ١٦٤، ١٩٩، ٢٠٧، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٤٣. ج ٢ ص ٢٩ - ٣٩، ٦٣، ١٠٥، ١٢٠، ١٥٢، ٢٢٠، ٢٥٣، ٢٨١، ٢٨٣. ج ٣ ص ٤٠، ٤١، ٤١، ١١٥، ١٧٨، ١٩٣، ٢٧٣. ج ٤ ص ١٩ - ٣٣، ٤٢، ٥٤. ج ٥ ص ٣٥ - ٥٠، ٥٢، ٥٤، ٥٧، ٥٩ - ٨٠، ٢٠٩. ج ٦ ص ٨٩، ٢٠٠، ج ٧ ص ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٦١، ٢٧٥. ج ٨ ص ٩، ١٢، ٢٣ - ٢٩، ٣٨، ٤٠، ٦٠، ٧٨، ٨٥، ٨٩، ٩٣، ١٠٦ - ١١٥، ١٢١ - ١٢٤، ١٣٣، ١٤٧، ١٥٦، ١٨١، ١٨٢، ١٩١ - ١٩٣.
الفرج بعد الشدة: ج ١ ص ١٨٦، ٢٠٧، ٢٢٦، ٢٣٢، ٢٨٤، ٣٢٢ - ٣٢٥. ج ٢ ص ٤٣ - ٥١، ١٠٠، ١١٤، ١٣١، ١٣٦، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٥٢، ١٧٢، ١٧٤، ٢١٦، ٢٩٢، ٢٩٣، ٣٠٤، ٣٦٤. ج ٣ ص ٢٣، ١٩٤، ٣٦٥. ج ٤ ص ١١٢، ٣٧٠. ج ٥ ص ٥٨.

عمر والوزير علي بن عيسى . فضلاً عن الوزير حامد بن العباس^(١) الذي وجه التهمة إلى ابن الفرات .

وقد ادعى الوزير حامد أن أحد الجنود العائدين من أربيل^(٢)، إلى قزوين ثم إلى أصبهان، ثم إلى البصرة . اعترف له من دون إرهاب ولا تعذيب، أنه رسول ابن الفرات، إلى ابن أبي الساج (ت ٩٢٧/٣١٥)^(٣)، في عقد الإمامة لرجل من الطالبين المقيمين بطبرستان، ليقويه ابن أبي الساج، ويسيره إلى بغداد، ويعاونه ابن الفرات بها . وقد اعترف هذا الرجل بذلك أمام الخليفة، وذكر أيضاً أن موسى بن خلف، كان يتجسس لابن الفرات لأنه من الدعاة الذين يدعون إلى الطالبين، وأنه كان يتردد إلى ابن أبي الساج، وبذلك اعتقل موسى بن خلف مع ابن الفرات، وسئل عن ودائع ابن الفرات، فأنكر معرفته بشيء منها، وادعى أنه كان يشرف على نفقات دار الوزير فقط، وشدد الوزير حامد بن العباس في المسألة، وضربه حتى مات تحت الضرب، وهو شيخ تجاوز التسعين^(٤) .

(١) أبو محمد حامد بن العباس، وزير المقتدر . كان يتولى أعمال السواد، وكان كريماً، سريع الطيش والحدة، ووزر للمقتدر سنة ٣٠٦هـ، ولما بانت قلة خبرته ضم إليه علي بن عيسى ليديره، ثم عزله المقتدر، وأعاد الوزير ابن الفرات، وسلم إليه حامد فقتله سراً .

ابن الطقطقي : الفخري ص ٢٦٨ ؛ ابن الحوزي : المتظم ج ٦ ص ١٨٠ وله أخبار كثيرة في :
التنوخي : تنوار المحاضرة ج ١ ص ٢٢ - ٢٤ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٣ ، ١٢٢ ، ١٥٩ ، ١٦٢ . ج ٢ ص ٣٢ - ٣٥ ، ٨٩ ، ٢١٣ . ج ٣ ص ٤٣ ، ١٨٤ - ١٨٦ ، ١٩٣ . ج ٤ ص ٢٢ ، ٢٨ - ٣٤ ، ٥٤ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٣ .
ج ٥ ص ٤٥ ، ٥٠ . ج ٦ ص ٧٩ - ٩٠ ، ١٧٢ ، ج ٧ ص ١٢٦ ، ١٢٧ . ج ٨ ص ١٧ ، ٤٨ ، ٦٣ ، ٧٤ ، ٨٥ - ٨٨ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٤ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٨١ .
الفرج بعد الشدة . ج ١ ص ١٧٦ ، ٢٠٧ ، ٣٢١ . ج ٢ ص ٤٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٧ . ج ٣ ص ١٩٤ .

(٢) أربيل . من أشهر مدن أذربيجان، كبيرة المساحة، كثيرة المياه، بينها وبين بحر الخزر مسيرة يومين، وبينها وبين تبريز مسيرة سبعة أيام .

ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ١ ص ١٩٧ .

(٣) الأمير يوسف بن أبي الساج (ت ٩٢٧/٣١٥) : من كبار رجال الدولة العباسية، قلده المقتدر سنة ٣١٤ هـ نواحي المشرق، وأمره بمحاربة أبي طاهر القرمطي، فقتله القرمطي . وكان ممدوح السيرة، مشهور بالدين والكرم .

ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٣٥٤ - ٣٨٥ .

(٤) ابن مسكويه : تجارب الأمم ج ١ ص ٦٥ .

وعندما سمع الخليفة كلام الرجل الجندي، اغتاض غيظاً شديداً، وسأل أبا عمر عن رأيه، فقال: لئن كان فعل ذلك، لقد أتى أمراً فظيماً، وأقدم على أمر يضر بالمسلمين جميعاً، واستحق كذا. . .

ثم سأل الخليفة قاضي القضاة أبا جعفر عن رأيه، فقال: إن رأى أمير المؤمنين، أن يعفني، لأن الجواب ربما أغضبت به من أنا محتاج إلى رضاه، أو خالف ما يوافقه من ذلك ويهواه، ويضر بي^(١). لكن الخليفة أصر على الجواب، فقال أبو جعفر: الجواب، ما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾^(٢)، ومثل هذا يا أمير المؤمنين لا يقبل فيه خبر واحد، والتمييز يمنع من قبول مثل هذا على ابن الفرات، أترأه يظن بين أنه رضي أن يكون تابعاً لابن أبي الساج، ولعله ما كان يرضى، وهو وزير، أن يتخذ حاجباً. ثم وجه أبو جعفر كلامه إلى الرجل الجندي وقال له: صف لي أردبيل، عليها سور أم لا؟ فإنك على ما تدعيه من دخولها، لا بد أن تكون عارفاً بها، واذكر لنا صفة باب دار الإمارة، هل هو حديد أم خشب؟ فاضطرب الرجل ولم يجب، فسأله أبو جعفر: كاتب ابن أبي الساج، ابن محمود، ما اسمه، وما كنيته؟ فلم يعرف ذلك ثم سأله أبو جعفر: فأين الكتب التي معك؟ فقال: لما أحسست بأني قد وقعت في أيديهم، رميت بها خوفاً من أن توجد معي فأعاقب. وعندها اتجه قاضي القضاة أبو جعفر نحو الخليفة، وقال: يا أمير المؤمنين، هذا جاهل، متكسب، مدسوس من قبل عدو. وتدخل علي بن عيسى مؤيداً كلام أبي جعفر قائلاً: قد قلت هذا للوزير، فلم يقبل قولي، وليس يهدد هذا، ففضلاً عن أن ينزل به مكروه، إلا أقر بالصورة^(٣). وعندها طلب الخليفة المقتدر من نذير الحرمي^(٤) أن يضرب الرجل مائة مقرعة - وهي العصا أو الخشبة يضرب بها -

(١) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٤ ص ٣١.

(٢) سورة الحجرات، آية ٤٩.

(٣) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٤ ص ٣٢.

(٤) نذير الحرمي: يدل لقبه على أنه كان مختصاً بخدمة الحرم في قصر الخليفة، وتدلل القصة أنه كان يقوم بتنفيذ أوامر الخليفة في عقاب من يأمر معاقبته. وقد قبض نذير الحرمي على الوزير ابن الفرات في نهاية وزارته الأولى سنة ٢٩٩ هـ.

الصابي: الوزراء ص ٢٩١. اس مسكويه: تجارب الأمم ج ١ ص ٢٩٥.

حتى يعترف بالحقيقة. وضُرب الرجل بحضرة الخليفة، دون العشرة، فصرخ قائلاً :
 عُمرت، وضمنت لي الضمانات، وكذبت، والله، ما دخلت أردبيل قط^(١). وبعد
 اعترافه، أمر الخليفة صاحب الشرطة نزار بن محمد الضبي^(٢)، بأن يضرب الرجل، مائة
 سوط، ويكبله بالحديد، ويسجنه في المطبق، أي السجن تحت الأرض. وهنا كاد
 الوزير حامد بن العباس أن يسقط، انخدالاً، وانكساراً، وصار من أعدى الناس لقاضي
 القضاة أبي جعفر، الذي كشف التهمة التي كاد أن يلبسها لابن الفرات. لكن أبا جعفر،
 تدخل لتخفيف العقوبة عن الرجل، خوفاً من أن يكون هو السبب في شدة العقوبة. وقد
 خففت العقوبة إلى خمسين مفرعة^(٣)، وأعفي من السياط^(٤).

ومع ذلك فقد قامت العداوة بين الوزير حامد بن العباس وقاضي القضاة أبي
 جعفر الذي تعرّض منه لكل بليّة، وكان خائفاً منه، وعندما تفرد علي بن عيسى
 بالأمور^(٥)! واشتغل حامد بن العباس بالضمآن^(٦)، ارتاح أبو جعفر. وزاد ارتياحه
 عندما عزل المقتدر حامد بن العباس عن الوزارة وأعاد إليها ابن الفرات سنة
 ٩٢٣/٣١١.

٣ - محاكمة الوزير علي بن عيسى سنة ٩٢٣/٣١١ (٧):

رغم أن الوزير علي بن عيسى (ت ٩٤٥/٣٣٤)^(٨)، وقف إلى جانب الوزير ابن

(١) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٤ ص ٣٣.

(٢) أبو معد نزار بن محمد الضبي . من عمال الدولة العباسية. كان عاملاً على البصرة سنة ٢٩٢ هـ وعلى الكوفة سنة ٢٩٤ هـ. ثم ولي شرطة بغداد، وعزل عنها سنة ٣٠٦ هـ.

الطبري : تاريخ الرسل ج ١ ص ٨٥ و ١١٨ و ١٣٥.

ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٥١٠، وج ٨ ص ١١٣.

(٣) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٤ ص ٣٤.

(٤) السوط ما يضرب به من جلد مضمفور أو نحوه، وسمي سوطاً لأنه يسوط اللحم بالدم أو يخالطهما

(٥) ابن مسكويه : تجارب الأمم ج ١ ص ٥٩.

(٦) المصدر نفسه ج ١ ص ٥٩ - ٦٠.

(٧) التنوخي . نشوار المحاضرة ج ٤ ص ١٩ - ٢٢.

ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج ١ ص ٨٥.

(٨) أبو الحسن علي بن عيسى الجراح (ت ٩٤٥/٣٣٤) : وزير المقتدر، شيخ من تسيوخ الكتاب، كان محمود

السيرة، زاهداً، عفيفاً. توفي سنة ٣٣٤ هـ في أيام معز الدولة

ابن مسكويه : تجارب الأمم ج ١ ص ٥٩.

الفرات ومؤيداً قول قاضي القضاة أبا جعفر أثناء محاكمته على يد الوزير حامد بن العباس، فإن ابن الفران أثناء وزارته الثالثة قد انقلب وحاكم علي بن عيسى بتهمة التعاون مع القرامطة^(١). وقد اجتمع في دار الخليفة المقتدر، يوم الخميس من أواخر شهر جمادى الثانية سنة ٩٢٣/٣١١، كل من الوزير ابن الفران. وقاضي القضاة أبي جعفر والقاضي أبي عمر، واستحضر ابن قليجة، رسول علي بن عيسى إلى القرامطة في وزارته الأولى (٣٠٠ - ٩١٢/٣٠٤ - ٩١٦)، فواجه علي بن عيسى في المجلس، بأنه وجّهه إلى القرامطة، فطلبوا منه بعض الحاجات، فأرسلها إليهم. ثم أحضر ابن الفران رسالة كتبها ابن ثوابه، إلى القرامطة، جواً على كتابهم، وقد أصلح علي بن عيسى فيها بخطه، ولم يقل إنكم خارجون عن ملّة الإسلام بعضيائكم

= الزركلي . الأعلام ج ٥ ص ١٣٣ .

وله أخبار كثيرة في :

التنويحي : نشوار المحاصرة : ج ١ ص ٢٢ ، ٢٥ ، ٤٢ - ٥٥ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١٠٠ ، ١١٧ ، ٢١٦ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٦ . ج ٢ ص ٢٩ - ٣٥ ، ٥٨ ، ٨٩ ، ١٣٤ ، ١٤٨ ، ١٥١ - ٢٤٣ - ٢٤٥ . ج ٣ ص ٣٥ ، ٤٠ - ٤١ ، ٤٢ ، ٧٢ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٧٨ . ج ٤ ص ١٩ - ٢٢ ، ٢٩ - ٣٤ ، ٤١ ، ٤٧ ، ٥٤ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٨٣ ، ١٠٧ ، ١٧٥ ، ١٧٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ . ج ٥ ص ٥٠ ، ٥٤ ، ٧٨ - ٨٤ ، ٢٠٩ . ج ٦ ص ٨٠ ، ٨١ . ج ٧ ص ٤٦ ، ٤٨ ، ٢٥١ ، ٢٥٥ . ج ٨ ص ١٠ ، ٣٥ ، ٣٢ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٥٤ ، ٦٠ ، ٨٥ - ٨٨ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ١٠٣ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١٢١ - ١٣٣ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٤٧ ، ١٨١ ، ١٩٠ ، ١٩٦ ، ١٩١ .

الفرج بعد الشدة : ج ١ ص ١٧٦ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٢ ، ٢٢١ ، ٢٢٦ ، ٢٣٢ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٥

ج ٢ ص ٤٥ ، ٤٨ ، ٥١ - ٥٦ ، ٦٣ ، ٧٦ ، ١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٤١ ، ٢٦٤ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٣٢٤ ، ٣٥٤ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ . ج ٣ ص ١٨٩ ، ١٩١ ، ١٩٤ ، ١٩٧ . ج ٤ ص ٣٥٢ ، ٣٦٤ ، ٣٧٠

(١) القرامطة : اختلف المؤرخون في القرامطة، فقال قوم إنهم باطنية، وقال آخرون إنهم من أتباع الفاطميين، وقال غيرهم، غير ذلك، وقالوا هم عن أنفسهم : إنهم مسلمون، وإنما أخرجهم اعتداء العمال عليهم، وقد عاثت القرامطة في جزيرة العرب والعراق والشام والحجاز عبثاً شديداً.

التنويحي : نشوار المحاصرة ج ١ ص ١٩٩ - ٢٠٠ ، ج ٤ ص ١٦٦ - ١٧١ . ج ٨ ص ١٧٨ - ١٧٩ .

الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ١٠٤ - ١٠٧ .

ابن الأثير: الكامل ج ٧ ص ٤٤٤ - ٥٥٣ ، ج ٨ ص ٦٦٥ - ٦٨٨

أمير المؤمنين، ومخالفتكم إجماع المسلمين، وشقكم العصا، ولكنكم خارجون عن جملة أهل الرشاد والسداد، وداخلون في جملة أهل العناد والفساد^(١).

وقد اتهم الوزير ابن الفرات؛ بهذا الكلام، علي بن عيسى قائلاً: ويحك، تقول القرامطة مسلمون، والإجماع قد وقع على أنهم أهل ردة لا يصلون، ولا يصومون، وتوجه إليهم الطلق^(٢)، وهو الذي إذا طلي به البدن أو غيره لم تعمل فيه النار.

فأجاب علي بن عيسى: أردت بهذا المصلحة، واستعادتهم إلى الطاعة بالرفق، وبغير حرب. فقال ابن ابن الفرات لأبي عمر القاضي: ما عندك في هذا يا أبا عمر؟ اكتب به. قاتجه أبو عمر نحو علي بن عيسى قائلاً: يا هذا لقد أقررت بما لو أقر به إمام لما وسع الناس طاعته. ثم قال أبو عمر لابن الفرات: قد غلط غلطاً، وما عندي غير ذلك فأخذ خطه بالشهادة عليه، بأن هذا كتابه.

ثم سأل ابن الفرات قاضي القضاة أبا جعفر: ما عندك في هذا؟ فقال أبو جعفر: صحّ عندي عن هذا الرجل - وأوماً إلى علي بن عيسى - أنه افتدى بكتابين كتبهما إلى القرامطة، في وزارته الأولى ابتداءً، وجواباً، ثلاثة آلاف رجل من المسلمين، كانوا مستبعبدين، وهم أهل نعم وأموال، فرجعوا إلى أوطانهم ونعمهم. فإذا فعل الإنسان مثل هذا الكتاب على جهة طلب الصلح، والمغالطة للعدو، لم يجب عليه بشيء. وسأله ابن الفرات: فما عندك فيما أقر به، إن القرامطة مسلمون؟ فقال أبو جعفر: إذا لم يصح عنده كفرهم، وكاتبوه بالتسمية بالله، ثم الصلاة على رسول الله محمد ﷺ، وانتسبوا إلى أنهم مسلمون، وإنما ينازعون في

(١) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٤ ص ٢٠.

ياقوت الحموي: معجم الأدياء ج ١ ص ٨٥.

(٢) الطلق: حجر براق يتحلل إذا دق إلى طاقات صغار دقاق، ويعمل منه مضايء للحمامات فيقوم مقام الزجاج.

ابن البيطار: مفردات الأدوية ج ٣ ص ١٠٣.

الإمامة فقط، لم يطلق عليهم الكفر^(١). وهنا صاح ابن الفرات على أبي جعفر قائلاً :
 فما عندك في الطلق، ينفذ إلى أعداء الإمام، فإذا طلي به البدن أو غيره، لم تعمل فيه
 النار؟ التفت أبو جعفر إلى علي بن عيسى قائلاً : أنفذت الذي هذا صفته إلى
 القرامطة. فقال علي بن عيسى : لا. فقال ابن الفرات لأبي جعفر : احفظ إقراره،
 بأن ابن قليجة ثقته ورسوله، وقد أقر عليه بذلك. فقال أبو جعفر : أيها الوزير، لا
 يسمى هذا مقراً، هذا مدعي، وعليه البيّنة، وإنما وثقه في حمل كتاب، فلا يقبل قوله
 عليه في غيره فقال ابن الفرات : يا أبا جعفر أنت وكيله، ومحتج عنه، لست حاكماً.
 وهنا قال أبو جعفر جملة المشهورة لابن الفرات : لا، ولكنني أقول الحق في هذا
 الرجل، كما قتلته في حق الوزير، أيده الله، لما أراد حامد بن العباس في وزارته،
 الحيلة على الوزير أعزه الله، بما هو أعظم في هذا الباب، فإن كنت لم أصب حينئذ،
 فلبست مصيباً في هذا الوقت^(٢).

وهكذا وقف قاضي القضاة أبو جعفر إلى جانب الحق، فوقف إلى جانب ابن
 الفرات عندما كان متهماً سنة ٩١٨/٣٠٦ وهو خارج الوزارة، كما وقف إلى جانب
 علي بن عيسى، وهو خارج الوزارة أيضاً، سنة ٩٢٣/٣١١، عندما اتهمه ابن الفرات
 نفسه. ويبدو أن ابن الفرات وابنه المحسن، قد تعرضا للناس بالأذى والتعذيب،
 فكانت نهايتهما السجن والقتل سنة ٩٢٤/٣١٢ على يد الخليفة المقتدر^(٣). وعلى
 كل يعتبر هذا من مواقف الرجولة لقاضي القضاة أبي جعفر دافع فيه عن الوزير علي بن
 عيسى، رغم أن هناك خلافاً بينهما^(٤) لأنه لا يخشى في الحق لوم لائم^(٥)، ولعل

(١) التنوخي . نشوار المحاضرة ج ٤ ص ٢١ .

ياقوت الحموي . معجم الأديان ج ١ ص ٨٥ .

(٢) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٤ ص ٢٢ .

ياقوت الحموي : معجم الأديان ج ١ ص ٨٥ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٤٩ .

ابن الطقطقي : الفخري ص ٢٦٥ .

(٤) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ١ ص ٢٥٩ .

(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٤٤ .

موقفه هذا رد على موقف سابق لعلي بن عيسى، الذي قدم أبا جعفر مكانه في الصلاة^(١) في جنازة واثق مولى المعتضد، فكأنه ساعده في تدعيم مكانته القضائية في دولة المقتدر. وهذا يدل على ورع أبي جعفر وتخشنه في الحكم^(٢). وله موقف آخر في مساعدة الوزير الحسين بن القاسم^(٣) الذي كثرت ديونه، ودعاه غرماؤه عند القاضي أبي عمر^(٤)، فالتجأ الوزير إلى أبي جعفر الذي احتال له بأن يثبت الوزير بأنه استدان المال من غير حاجة إليه وبذره، وهذا دليل على «السفه»، فيحجر القاضي عليه ويمنعه من التصرف في ماله ويتصرف في المدخول لإيفاء الدين دون أن يبيع أملاك الوزير، وبذلك صلحت حال الوزير^(٥)، ولم يصبح فقيراً.

٤ - مواجهة السيدة شغب أم المقتدر :

وبلغت ذروة مواقفه الرجولية في مواجهة السيدة شغب أم المقتدر، التي كانت تسيطر على أمور الدولة زمن ولدها المقتدر، فقد أرادت السيدة شغب تزوير كتاب وقف لضيعة كانت قد ابتاعتها^(٦)، وكان الكتاب عند أبي جعفر في ديوان القضاء، وعندما علم من أم موسى القهرمانة أن السيدة تريد أن تحتفظ بالكتاب رفض تسليمها الكتاب، وقال لأم موسى: «تقولين للسيدة أعزها الله، هذا والله ما لا طريق إليه أبداً، أنا خازن المسلمين على ديوان الحكم، فإما مكنتموني من خزنه كما يجب وإلا فاصرفوني وتسلموا الديوان دفعة، فاعملوا به ما شئتم وخذوا منه ما أردتم، ودعوا ما أردتم، أما أن يفعل شيء منه على يدي، فوالله لا كان هذا ولو عرضت علي السيف»^(٧). فشكته السيدة شغب إلى ولدها الخليفة المقتدر الذي سأله عن الأمر،

(١) التوخي: نشوار المحاضرة: ج١ ص ٢٥٨.

(٢) المصدر نفسه ج٥ ص ٢١٤.

(٣) الوزير الحسين بن القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب: وزير المقتدر. كان أبوه القاسم وزير المعتضد والمكتفي. ولم يكن مشكور السيرة في وزارته ولم تطل مدته حتى عجز واختلت الأحوال عليه، ولما ظهر للمقتدر عجزه ونقصه قبض عليه وصادره، فلما تولى ابن مقله الوزارة تقدم بقتله، وأرسل إليه مع قطع رأسه وحمله إلى دار الخلافة.

ابن الطقطقي: الفخري ص ٢٧٤، ابن مسكويه: تجارب الأمم ج١ ص ٢٠٤ - ٢٦٦.

(٤) التوخي: نشوار المحاضرة ج١ ص ٢٦٠.

(٥) المصدر نفسه ج١ ص ٢٦١.

(٦) المصدر نفسه ج١ ص ٢٤٢.

(٧) المصدر نفسه ج١ ص ٢٤٢ - ٢٤٣.

فأوضح له ما حدث، فقال له المقتدر: «مثلك يا أحمد يقلد القضاء، أقم على ما أنت عليه، بارك الله فيك ولا تخف أن يثلم ذلك عرضك عندنا»^(١)، فافتنعت السيدة بموقفه وفسخت شراء الضيعة، واسترجعت المال، وشكرت القاضي أبا جعفر^(٢).

وهكذا كان أبو جعفر لا يفرق بين صغير وكبير في سبيل تحقيق العدالة في أحكامه، فعندما تقدم إليه بتميم (كان في حجر أمين من أمناء القاضي ثم بلغ وفك حجره)، يشكو إليه أن الأمين أنفق عليه أكثر مما كان يحتاج إليه مما أدى إلى ضياع أموال هو بحاجة إليها الآن، استدعى أبو جعفر هذا الأمين الذي اعترف بذلك، فألزمه بدفع هذا المال لليتيم^(٣). وهكذا كان أبو جعفر يدافع عن حقوق اليتامى^(٤).

كان أبو جعفر ثباتاً في الحديث، ثقة، مأموناً، جيد الضبط لما حدث به، وكان متفنناً في علوم شتى منها الفقه على مذهب أبي حنيفة، مذهب أهل العراق^(٥)، وكان تام العلم باللغة وله كتاب ألفه في النحو^(٦).

تولى أبو جعفر منصب قاضي القضاة مدة عشرين سنة، حتى كبر به العمر وحل به الضعف وقد بلغ السادسة والثمانين من عمره. فطلب إعفائه من القضاء سنة ٣١٦/٢٨٩^(٧). وقال أبو جعفر في مناسبة تخليه عن القضاء هذا البيت^(٨):

(١) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ١ ص ٢٤٣.

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٤٤.

(٣) المصدر نفسه ج ٣ ص ٢٢٢.

(٤) MASSIGNON : La PASSION T I P 486

(٥) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٥ ص ٢١٢ و ٢١٤.

(٦) المصدر نفسه ج ٥ ص ٢١٤.

(٧) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٤ ص ٢٣ - ٢٥ و ٢٣٢، ج ٥ ص ٢٢٣ و ٢١٦.

ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ٣٩٢، ياقوت الحموي: معجم الأدباء ج ١ ص ٨٢

الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٤ ص ٣١.

(٨) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٥ ص ٢٠٩، الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ١٣١،

الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٣ ص ٤٠١. ابن مسكويه: تجارب الأمم ج ١ ص ١٩٤ و ٢٠١

ياقوت الحموي: معجم الأدباء ج ١ ص ٨٢.

أحب أن يكون بين الصدر والقبر فرجة
ولا أنزل من القلنسوة إلى الحفرة

ويقصد بالقلنسوة هنا، تولي القضاء، ومعنى ذلك أنه لا يريد أن يموت وهو
يمارس مهنة القضاء، وقد تحقق له ما أراد فمات في بغداد في شهر ربيع الثاني سنة
٣١٨ / ٩٣٠^(١). وقد خلفه ابنه أبو طالب محمد في مهنة القضاء فتولى قضاء الأنبار
والأهواز^(٢). وبذلك توفي أبو جعفر في الثامنة والثمانين من عمره بعد أن خدم القضاء
طيلة أربعين عاماً دون أن يعتاش منه بل من تجارته الخاصة^(٣).

(١) التنوخي: نشوار المحاصرة ج ٥ ص ٢١٤، ياقوت الحموي: معجم الأدياء ج ١ ص ٨٢.

الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٤ ص ٣١.

(٢) MASSIGNON .La Passion T1 P 485.

(٣) التنوخي: نشوار المحاصرة ج ٢ ص ٩٥ - ٩٦.

الفصل الثالث

أبو عمر^(١)
من مؤامرة خلع المقتدر إلى محاكمة الحلاج
(٢٤٣ - ٣٢٠/٨٥٧ - ٩٣٢)

كان منصب قاضي القضاة هدفاً يسعى إليه أبو عمر منذ أن تقلد القضاء، فاشترك في مؤامرة خلع الخليفة المقتدر عله يصل إلى مبتغاه، لكن المؤامرة فشلت ودخل السجن. وبعد العفو عنه عاد إلى القضاء وأخذ يتقرب من الوزراء واشترك في محاكمة الحلاج حيث أفتى بالقتل إكراماً لأصحاب النفوذ، وفي النهاية حصل على منصب قاضي القضاة.

١ - نشأته وتقلده القضاء سنة ٨٩٧/٢٨٤ :

أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب بن إسماعيل، ينتمي إلى عائلة «حماد» التي كانت من موالى جرير بن هزيم الجعدي «الأزدي»، (ت ٧٨٦/١٧٠)، وهو محدث معتزلي، كانت عائلة حماد تحت حمايته، ومن هنا تسميتها بالأزدي^(٢).

(١) له ترجمة في .

التوخي : سوار المحاضرة ج ٥ ص ٢٠٨ - ٢١٠ ، ابن الحوزي : المنتظم ج ٦ ص ٢٤٦ .
الحطيط النغدادى : تاريخ بغداد ج ٣ ص ٤٠١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١١ ص ١٥٩ ، ١٦٠ ،
١٧١ ، ١٧٢ ، ٢٣١ ، MASSIGNON: La Passion TIP 482 - 485 . عصام شبارو. القضاء والقضاة
ص ٢٦٧ - ٢٨٨ . وأخاره منثورة في :
التوخي : سوار المحاضرة ج ١ ص ٣٦ و ٥١ و ٦٠ و ٦٢ و ٨٢ و ١٦٢ و ١٦٤ و ٢٣٨ و ٢٤٠ - ٢٤١ و
٢٤٥ و ٢٥٨ - ٢٦١ ، ج ٢ ص ٥٥ - ٥٨ و ٨٣ - ٨٩ و ١٧٠ - ١٧١ ، ج ٣ ص ٥٧ و ٩٦ و
١٢٩ و ٢٢١ - ٢٢٢ و ٢٥١ ، ج ٤ ص ١٥ - ١٦ و ١٩ - ٢٢ و ٢٨ - ٤٣ و ١٧٤ و ٢٠٨ -
٢٠٩ ، ج ٥ ص ٢٠٨ - ٢١١ ، ج ٦ ص ٧٩ - ٩٢ ، ج ٨ ص ١٨٦ - ١٨٨ .
الفرج بعد السدة ج ٢ ص ١٣١ - ١٣٦ و ٢٦٨ - ٢٦٩ و ج ٣ ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

MASSIGNON : La Passion T 1 P 482 (٢)

ولد أبو عمر في البصرة في أول رجب سنة ٢٤٣/٨٥٧^(١)، وقد اشتغل الكثير من أفراد عائلته بالقضاء مما مهد له تولي القضاء، فجدّه يعقوب بن إسماعيل بن حماد (ت ٢٤٦/٨٦٠)^(٢) كان قاضياً على فارس، وعم أبيه إسحاق بن إسماعيل بن حماد له ولدين توليا القضاء في بغداد، وتبوءا المركز الأول فيها، وهما حماد وإسماعيل (ت ٢٨٢/٨٩٥)، وقد حظيا بثقة الخليفة الموفق. وكذلك تقلد شقيقه أبو يعلى الحسن بن يوسف القضاء بالأردن^(٣).

وعندما بلغ أبو عمر الثلاثين من عمره، كان لا يزال حاجباً عند ابن عم أبيه القاضي إسماعيل بن إسحاق، مما مهد له أن يتولى قضاء مدينة المنصور سنة ٢٨٤/٨٩٧ وحتى سنة ٢٩٢/٩٠٤^(٤).

أما والده يوسف بن يعقوب (ت ٢٩٧/٩٠٩)^(٥)، فقد كان قاضياً أيضاً وقد جعل منه خليفته على قضاء بغداد الشرقية سنة ٢٩٢/٩٠٤، حيث كان «يحكم بين أهل مدينة المنصور رياسة وبين أهل الجانب الشرقي خلافة»^(٦). وعندما توفي القاضي أبو

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج ٦ ص ٢٤٦ .

(٢) يعقوب بن إسماعيل بن حماد الأزدي (ت ٢٤٦/٨٦٠) : كان قاضي المدينة ثم أقام في مدينة سامراء وأصبح قاضي فارس حيث مات .

MASSIGNON : La Passion T 1 P 482

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١١ ص ١٢٩

(٤) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٥ ص ٢٠٩

ابن الجوزي : المنتظم ج ٦ ص ٢٤٦

(٥) يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن حماد الأزدي (ت ٢٩٧/٩٠٩) : ولد سنة ٢٠٨ هـ، من أكابر العلماء وأعيانهم . كان ثقة ولي قضاء البصرة وواسط والجانب الشرقي من بغداد، كان عفيفاً شديد الحرمة زهواً، وله قصة مشهورة مع أحد مماليك المعتضد الذي أجلسه مع حصمه وهدده ببيعه للحاس (بائع الرقيق) إن لم يمثل لأمر القضاء، وعندما نكح المملوك أمام المعتضد يشكوه حالة وقف المعتضد بحانب القاضي، كما استشار المعتضد القاضي يوسف بن يعقوب في قتل وريره إسماعيل بن بلبل فأخبره أنه راره ولم يشاهده يصلي ثم قتل الوزير.

التنوخي . نشوار المحاضرة ج ١ ص ٢٤٥ وج ٣ ص ٩٧، ٩٨ .

ابن كثير البداية والنهاية : ج ١١ ص ١١٢

(٦) التنوخي . نشوار المحاضرة ج ٥ ص ٢٠٨ و ٢٠٩ : ابن الجوزي . المنتظم ج ٦ ص ٢٤٦

خازم عبد الحميد بن عبد العزيز سنة ٢٩٢/٩٠٤، وكان قاضياً على الكرخ^(١) (الشرقية)، نقل أبو عمر عن مدينة المنصور إلى قضاء الشرقية فبقي فيها حتى سنة ٢٩٦/٩٠٨^(٢).

٢ - إشتراكه في مؤامرة خلع المقتدر ودخوله السجن سنة ٢٩٦/٩٠٨ :

صرف أبو عمر ووالده يوسف عن جميع ما كان إليهما من أمور القضاء لإشتراكهما في مبايعة ابن المعتز وخلع المقتدر، ففي سنة ٢٩٦/٩٠٨ اجتمع القواد والقضاة والكتاب مع الوزير العباس بن الحسن على خلع المقتدر والبيعة لابن المعتز، وراسلوا ابن المعتز في ذلك، فأجابهم على أن لا يكون فيه سفك دماء ولا حرب، فأخبروه باجتماعهم عليه وأنه ليس له منازع ولا محارب. ثم إن الوزير بدا له في ذلك فوثب به الآخرون فقتلوه، وخلع المقتدر، وبايع الناس لابن المعتز ولقب بالمرتضى بالله. واستوزر محمد بن داود الجراح، وقلد علي بن عيسى الدواوين، وكتب بذلك إلى البلاد، ووجه إلى المقتدر يأمره بالانتقال إلى دار ابن طاهر التي كان مقيماً فيها لينتقل هو إلى دار الخلافة. ثم أجمع رأي القواد الذين صبروا مع المقتدر على أن يقاتلوا ابن المعتز، وصعدوا إليه فهرب ابن المعتز وأتباعه، والتجأ هو إلى دار أبي عبد الله بن الجصاص الجوهري، ثم إن خادماً لابن الجصاص أخبر بأن ابن المعتز عند سيده، فكبست الدار وأخذ ابن المعتز منها، وحبس إلى الليل ثم قتل. وصور ابن الجصاص على مال كثير، وفشلت المؤامرة^(٣). وعزل أبو عمر ووالده عن القضاء، ونصب مكانه على قضاء الشرقية أبو جعفر بن البهلول، في حين أدخل أبو عمر إلى السجن^(٤).

(١) الكرخ : هناك أماكن عدة تسمى الكرخ وكرخ بغداد هو المقصود، وهو منطقة ضمن الجباب الغربي من بغداد، وكان وقت عمران بغداد وسط البلد، ثم حرب ما حولها وبقيت مفردة وسط الخراب. ويسمى الشرقية أيضاً، وقيل لها الشرقية لأنها شرق مدينة المنصور.

ياقوت الحموي معجم البلدان ج ٣ ص ٢٧٩ وج ٤ ص ٢٥٢ - ٢٥٧

أما الآن فإن اسم الكرخ يشمل الجزء العربي من بغداد بكامله، ويفصله عن الجزء الشرقي نهر دجلة.

(٢) التنوخي نشوار المحاضرة ج ٥ ص ٢٠٩.

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٤.

(٤) التنوخي : الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ١٣١.

ويروي أبو عمر لصهره أبي الحسين عبد الله بن عياش الخرزى، قصة سجنه^(١) مع زعماء المؤامرة محمد بن داود الجراح^(٢) وأبو المثنى القاضي^(٣)، و«ما في لحيته طاقة بيضاء»^(٤). كما يروى له مشاهدته تنفيذ حكم الإعدام ذبحاً فيهما من وراء شق الباب، ففي حين خاف ابن الجراح من الموت وطالب بأن يفتدي نفسه بالمال فقد تم ذبحه كما تذبح الشاة^(٥)، أما القاضي أبو المثنى فقد أصر على موقفه من خلع المقتدر «لعلمه أنه لا يصلح للإمامة»^(٦)، وواجه الموت بشجاعة فذبح أيضاً، وطرحت جثته في البئر، وأيقن أبو عمر أن مصيره الذبح مثلهما و«أقبل على البكاء والدعاء والتضرع إلى الله عز وجل»^(٧)، وكاد أبو عمر أن يقتل لولا أن تداركه الوزير ابن الضرات، وأنقذه من الموت^(٨)، بعد أن أقر بخطيئه وتوبته إلى الله من هذا الذنب، وهو واقف أمام الوزير في داره داخل دار الخلافة. وقد افتداه الوزير على مائة

(١) التنوخي: الفرج بعد الشدة جـ ٢ ص ١٣١-١٣٦.

(٢) أبو عبد الله محمد بن داود بن الجراح الكاتب: عم الوزير علي بن عيسى بن الجراح، قال عنه صاحب شذرات الذهب: «كان أوجد أهل زمانه في معرفة أيام الناس، وكان صديقاً لابن المعتز وتزعم المؤامرة التي قامت لاستخلافه وخلع المقتدر، واستورزه ابن المعتز فلما فشلت المؤامرة اعتقل وقتل».

التنوخي: الفرج بعد الشدة جـ ٢ ص ١٣٢. ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٢ ص ٢٢٥.

ابن مسكويه: تجارب الأمم جـ ١ ص ٥ و ٦ و ٩ و ١٠. الصابئ: الوزراء ص ٢٩-٣١ و ١٠٠ و ١٠٩ و ١٤٣ و ١٤٥ و ١٤٨ و ١٥٠ و ١٥٤ و ١٥٥ و ١٦٦ و ١٨٥ و ١٩١ و ٢٤٢ و ٢٤٤ و ٢٥٢ و ٢٥٦ و ٢٥٧ و ٢٧٨ و ٢٨٤ و ٢٨٦-٢٨٧. الزركلي: الأعلام جـ ٦ ص ٣٥٥.

(٣) أبو المثنى أحمد بن يعقوب القاضي: اشترك في السنة ٢٩٦ هـ في خلع المقتدر وبإيعاب ابن المعتز بالخلافة، ولما فشلت المؤامرة اعتقل، وأرادوه أن يقر على نفسه بأنه أخطأ فأبى، وأدى إصراره إلى قتله. قال عنه صاحب شذرات الذهب: «إنه أحد من قام في خلع المقتدر تديناً وذبح صبراً، وهو أول قاض قتل صبراً في الإسلام».

التنوخي: الفرج بعد الشدة جـ ٢ ص ١٣٢-١٣٣، ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٢ ص ٢٢٤.

(٤) التنوخي: الفرج بعد الشدة جـ ٢ ص ١٣١.

(٥) المصدر نفسه جـ ٢ ص ١٣٢.

(٦) المصدر نفسه جـ ٢ ص ١٣٣.

(٧) المصدر نفسه جـ ٢ ص ١٣٣.

(٨) التنوخي: الفرج بعد الشدة جـ ٢ ص ١٣٤-١٣٦؛

ابن مسكويه: تجارب الأمم جـ ١ ص ٧

ألف دينار أدى منها أبو عمر ثلاثة وثلاثين ألف دينار^(١). وبعد نجاته نظر أبو عمر في المرأة «فإذا طاقات شعر قد ابيضت في مقدم لحيته، فإذا هو قد شاب في تلك الليلة الواحدة»^(٢). ثم توسط له ابن الفرات فلم يدفع أبو عمر باقي الغرامة.

٣ - عودته إلى القضاء سنة ٩١٣/٣٠١ :

شعر أبو عمر بضائقة مالية شديدة، فقد أقام في داره في الفترة (٢٩٦/٣٠١ - ٩١٣)^(٣)، و«بأبه مسدود لا يرى أحداً إلا في الشاذ»^(٤)، كما أنه «أصبح يوماً وما عنده درهم فما فوق وكان الوقت شتاء والمطر يجيء»^(٥). وزاد الأمر سوءاً زيارة صديق له ليقيم عنده، فاحتار كيف يقوم بواجب الزيارة أمامه حتى جاءه الفرج بشكل صرة فيها مائة دينار^(٦) أعطاه إياها أبو الأغر خليفة بن المبارك السلمي^(٧)، فخفف ذلك من ضائقته. كما انصرف في تلك الفترة إلى «دراسة الفقه والنظر في العلم»^(٨)، إلى أن تقلد الوزير علي بن عيسى وزارة المقتدر سنة ٩١٣/٣٠١^(٩)، فكلم المقتدر في شأنه حتى رضي عنه وقلده^(١٠) الجانب الشرقي، والكرخ (الشرقية)، والكوفة، في شهر جمادى الأولى سنة ٩١٣/٣٠١، كما قلده عدة نواح من الشام، والحرمين (مكة والمدينة)، واليمن سنة ٩١٧/٣٠٥، ثم ترشح

-
- (١) التنوخي : الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ١٣٦
 - وجاء في ابن مسكويه : تجارب الأمم ج ١ ص ١٤ : «أنه أدى من المال تسعين ألف دينار».
 - (٢) التنوخي : الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ١٣٥.
 - (٣) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٥ ص ٢٠٩.
 - (٤) التنوخي : الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ١٣٦.
 - (٥) المصدر نفسه ج ٣ ص ٢٢٨.
 - (٦) المصدر نفسه ج ٣ ص ٢٢٨ - ٢٢٩.
 - (٧) أبو الأغر خليفة بن المبارك السلمي : أحد الأمراء القواد في دولة المعتضد والمكتفي، وكان مظفراً في كثير من المعارك التي شارك فيها.
 - الطبري: تاريخ الرسل ج ١٠ ص ٧٤ و ٨٠ و ٩٤ و ٩٧ و ١٠٤ و ١٤٣.
 - (٨) التنوخي : الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ١٣٦.
 - (٩) التنوخي . نشوار المحاضرة ج ٥ ص ٢٠٩، ابن مسكويه : تجارب الأمم ج ١ ص ٢٦، الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ٣ ص ٤٠١.
 - (١٠) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٥ ص ٢٠٩، الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ٣ ص ٤٠١.

لمنصب الوزارة سنة ٩١٨/٣٠٦^(١) . واشترك في محاكمة الحلاج سنة ٩٢١/٣٠٩ .
٤ - محاكمة الحلاج^(٢) سنة ٩٢١/٣٠٩ :

كان للصوفية الفضل في إبراز ظاهرة الحلاج، فقد كان القاضي أبو الحسن محمد بن عبيد الله المعروف بابن نصروية، صغيراً ويذهب برفقة خاله إلى جامع البصرة حيث يشاهد الحلاج وهو يتعبد ويتصوف ويقريء ولم يكن مشهوراً بعد^(٣)، وكانت الصوفية تدّعي له المعجزات من طرائق التصوف، وكان القاضي ابن نصرويه يستمع إلى الحديث بين خاله والحلاج الذي تجتمع حوله الصوفية، وعندما يخرجون يقولون: «الحلاج مجاب الدعوة وله معونات قد تمت على يده والطف وإذا ضرب يده إلى التراب صار في يده دراهم»^(٤). وكان الحلاج في البصرة يُظهر أنه متضايق من هذه الأقوال، ويقول: من أنا حتى يكون لي هذا؟. ولكن بعد خروجه من البصرة انتشرت أخباره، مما يعني أنه كان يعرف كيف يشق طريقه بين الناس، فيخاطب كلاً منهم حسب فهمه وعقله^(٥). وكان القصري غلام الحلاج قد تزوج من أخت أبي الفرج بن روحان الصوفي، مما يدل على الرابطة بينه وبين الصوفية^(٦). وعندما وضع كتبه المصنفة في مذاهبه سلك في كلامه فيها مذاهب الصوفية في الهوس^(٧). وكان

(١) MASSIGNON La Passion T I P 483

(٢) أبو المغيث الحسين بن منصور الحلاج (ت ٩٢١/٣٠٩) : من أهل فارس، نشأ بتستر ثم قدم بغداد، وكثر شغف الناس به وميلهم إليه حتى كانت العامة تستشفي ببوله، فأمر المقتدر وزيره حامد بن العباس بإحصاره ومناظرته، فأحضره الوزير وجمع له القضاة والأئمة وناظره، فأفنى أحد القضاة باحلال دمه، فضرب ألف سوط، ثم بترت يده ورجلاه وحز رأسه وأحرقت جثته وكان ذلك سنة ٣٠٩ هـ، ودفن في الجانب الغربي من بغداد.

التنوحي : نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٥٩ - ١٦٩ و ١٧٢ - ١٧٦، ج ٢ ص ٢٩٠ و ٢٩١؛ ج ٦ ص

٧٦ - ٧٩. ابن الطقطقي : الفخري ص ٢٦٠.

ابن كثير : البداية والنهاية ج ١١ ص ١٣٢ - ١٤٤.

(٣) التنوحي : نشوار المحاضرة ج ٢ ص ٢٩٠.

(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٩١.

(٥) المصدر نفسه ج ٦ ص ٨٣.

(٦) المصدر نفسه ج ١ ص ١٥٩.

(٧) المصدر نفسه ج ١ ص ١٦٩.

الحلاج يدعو الناس على أنه نائب الإمام أو الإمام أو النبي أو الله تعالى^(١)، وذلك حسب ما يستبلة طائفة طائفة، مما يدل على ذكائه المفرط في علاقته بالناس ليستغويهم إليه.

وقد استطاع الحلاج أن يجمع حوله كثيراً من الناس والرؤساء في بغداد^(٢) والأهواز^(٣) وغيرها، وذلك بواسطة انتشار أصحابه وتفرق دعائه في مختلف المناطق^(٤). وكان يرسل إليهم الكتب ويردون عليه بمثلها، فقد كتب إلى أحد دعائه يقول له: «وقد آن الآن أوانك، للدولة الغراء، الفاطمية الزهراء، المحفوفة بأهل الأرض والسماء. وأذن للفئة الظاهرة، مع قوة ضعفها في الخروج إلى خراسان، ليكشف الحق قناعه، ويبسط العال باعه»^(٥). كما كتب إليه بعض دعائه يقولون: «وقد بذرنا في كل أرض ما يزكو فيها، وأجاب قوم إلى أنك الباب (يعنون الإمام)، وآخرون أنك صاحب الزمان (يعنون الإمام الذي تنتظره الإمامية)، وقوم إلى أنك صاحب الناموس الأكبر (يعنون النبي ﷺ)، وقوم إلى أنك أنت هو هو (يعنون الله عز وجل)^(٦). وقد وضع لدعائه مرتبة ينتقلون منها إلى مرتبة أعلى حتى يبلغوا الغاية القصوى^(٧). واستطاع الحلاج أن يستغوي نصر القشوري (ت ٩٢٨/٣١٦)^(٨)، حاجب الخليفة المقتدر، الذي كان يسميه «العبد الصالح»^(٩). وعندما أصيب المقتدر

(١) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٦١ و ١٦٢.

(٢) المصدر نفسه: ج ١ ص ١٦١ وج ٦ ص ٨٠.

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ١٧٢.

(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ١٦٢ وج ٦ ص ٧٩.

(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ١٦٩.

(٦) المصدر نفسه ج ١ ص ١٦٢.

(٧) المصدر نفسه ج ٦ ص ٨٣.

(٨) نصر القشوري (ت ٩٢٨/٣١٦): حاجب المقتدر، وكان عظيم التأثير عليه، واشتهر بأنه دافع دفاعاً عنيفاً عن الحلاج لما أريد قتله، وكانت خصومته لابن الفرات السبب الأقوى في قتل ابن الفرات وقتل ولده، كما أنه هو الذي توسط لابن مقله في الوزارة ولما اشتدت وطأة القرامطة على الدولة خرج للقائهم وأنفق على الحملة من ماله مائة ألف دينار إضافة إلى ما أعطاه السلطان، فاعتل في الطريق وتوفي

ابن الجوزي: المنتظم ج ٦ ص ٢٢٠.

(٩) التنوخي نشوار المحاضرة ج ٦ ص ٨٠.

بعلة في معدته جاء الحاجب بالحلاج الذي وضع يده على الموضع الذي كانت فيه العلة وقرأ عليه فاتفق أن زالت العلة^(١). وكذلك لحق بالسيدة شغب أم المقتدر مثل تلك العلة، وفعل بها مثل ذلك فزال ما وجدته، وارتفعت مكانة الحلاج عند الخليفة ووالدته والخدم والحاشية، وذلك بفضل الحاجب نصر.

وقد سخر القاضي أبو علي المحسن التنوخي من الحلاج، ووصف معجزاته بأنها «مخاريق^(٢) يستغوي بها جهلة الناس»^(٣)، ويغلب عليها طابع الحيلة، ومنها أن الحلاج اتفق مع أحد أصحابه فبعث به إلى بلد حيث أقام يظهر النسك والعبادة وقرأ القرآن والصوم حتى عرف به أهل البلد، ثم ظهر لهم أنه قد عمي وأصابه مرض مزمن^(٤). فمضت سنة ثم قال لهم أنه شاهد النبي في منامه يخبره بقدم عبد صالح يكون شفاؤه على يده، ثم قدم الحلاج إلى البلد حسب الإتفاق، وحمل الناس الأعمى إليه فمسح يده عليه ودعا له، فقام من مرضه وشفى من عماه وأصبح مبصراً^(٥). ثم خرج الحلاج من البلد بعد أن كثر أتباعه، وبعد أشهر لحق به صاحبه بعد أن أعطاه الناس ألوف الدنانير والدرهم، فتقاسمها مع الحلاج^(٦).

كما اشتهر الحلاج بصبره على الجوع وأنه لا يأكل شيئاً نحو الشهر^(٧)، وقد كشف هذه الحيلة القصريّ غلام الحلاج الذي كان يصبر على الجوع خمسة عشر يوماً، وحتى يصمد هذه الفترة الطويلة يتفق مع أحد أصحابه فيدس له ورقة فيها مسحوق الزبيب واللوز فيأكله سراً ويشرب الماء وهو يتمضمض لصلاة الظهر^(٨).

ومن مخاريق الحلاج إظهار الأطعمة والأشربة في غير أوانها، وكذلك إخراج

(١) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٦ ص ٨٠.

(٢) مخاريق: جمع مخارقة وهي التمويه والكذب والتخرق الكذب والاختراف والاختلاق والافتراء بمعنى واحد. (ابن منظور: لسان العرب).

وعامة بغداد يكون عن المخارقة بأنها بهلوانيات أو حنقازيات وعن المخرق بأنه بهلوان أو حنقاز.

(٣) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٦٥.

(٤) المصدر نفسه ج ٦ ص ٧٦.

(٥) المصدر نفسه ج ٦ ص ٧٧.

(٦) المصدر نفسه ج ٦ ص ٧٨.

(٧) المصدر نفسه ج ١ ص ١٥٩.

(٨) المصدر نفسه ج ١ ص ١٦٠.

الدراهم النبي سماها دراهم القدرة^(١)، وكان يخدع الناس بهذه الحيل، ففي بيته باب سرّي يطل على دار كبيرة فيها «بستان عظيم فيه صنوف الأشجار والثمار والنوّار والريحان التي هي في وقتها وما ليس هو في وقته مما قد عتق وغطي واحتيل في بقائه، وخزائن مليحة فيها أنواع الأطعمة المفروغ منها، والحوائج لما يعمل في الحال إذا طلب، وبركة كبيرة في الدار مملوءة سمكاً كبيراً وصغاراً»^(٢). وكان الحلاج يضع مالاً تحت الحصر المصنوعة من القصب، وعندما يجتمع حوله الناس يخرج الدراهم ويعطيهم إياها^(٣)، فيقال إن التراب يصير في يده دراهم.

وهذه الأعمال التي يقوم بها الحلاج انطلت على الكثير من الناس فصدقوها وافتتنوا بها، ولكن من كان فطناً وحاذقاً لا تنطلي عليه مثل هذه الحيل فيكشفها، ويُخرج الحلاج فيضطر إلى ترك هذا المكان. ففي الأهواز افتتن الناس بالحلاج فكشفه أبو علي الجبائي (ت ٣٠٣/٩١٥)^(٤) الذي قال: «إن هذه الأشياء محفوظة في منازل يمكن الحيل فيها، ولكن ادخلوه بيتاً من بيوتكم لا منزله هو وكلفوه أن يخرج منه خرزتين سوداء وحمراء فإن فعل فصدقوه»، فبلغ الحلاج قوله فخرج عن الأهواز^(٥).

وكذلك كشف أحدهم، وكان مشهوراً «بالحذق والفراهة»، كيف يخرج الحلاج السمك وفيه حياة في أماكن جبلية لا توجد فيها أنهار^(٦)، فعلم أنه يخفي في داره بركة مملوءة سمكاً^(٧)، وهدده بالقتل إن أفشى هذا السر^(٨). وقد حاول الحلاج استغواء الرافضة، ولكنه كان يفشل في استغواء المثقفين والأذكىاء منهم،

(١) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٧٢

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٦٧.

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٩١ وج ٦ ص ٨٢.

(٤) أبو علي الجبائي (ت ٣٠٣/٩١٥)، محمد بن عبد الوهاب بن سلام، المتكلم إمام المعتزلة ولد سنة ٢٣٥ هـ. كان إماماً في علم الكلام، وجبى مدينة في خوزستان.

ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٥ ص ٥٧٩

(٥) التنوخي نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٧٢.

(٦) المصدر نفسه ج ١ ص ١٦٥.

(٧) المصدر نفسه ج ١ ص ١٦٧.

(٨) المصدر نفسه ج ١ ص ١٦٨.

فعندما حاول استغواء اسماعيل النوبختي^(١)، وكان هذا مبتلياً بالصلع ويصنع لحيته بالسواد ليخفي الشيب، اشترط عليه أن يعيد له شعر رأسه، ويرد له لحيته سوداء حتى يؤمن بدعوته، فلما سمع الحلاج ذلك ابتعد عنه ويأس من انضمامه إليه^(٢).

وأخذ أمر الحلاج يفتضح يوماً بعد يوم، حتى كشف أمره أحد الذين آمنوا بدعوته ويعرف بالدباس^(٣)، بعد أن تبين له مخاريق الحلاج. وكذلك فضحه أبو علي هارون بن عبد العزيز الأوراجي، وهو كاتب أنباري ألف كتاباً ذكر فيه مخاريق الحلاج وحياله فيها^(٤). وانتشر كلام الدباس وأبي علي الأوراجي في الحلاج، فأمر الخليفة المقتدر وزيره حامداً بن العباس بإحضار الحلاج ومناظرته^(٥)، فقبض الوزير على الحلاج كما قبض على بعض أصحابه مثل حيدرة، والسمري، ومحمد بن علي القنائي المعروف بأبي المغيث الهاشمي. وهرب المعروف بابن حماد^(٦)، وقد اقتحم منزله وأخذت منه «دفاتر كثيرة في ورق صيني، وبعضها مكتوب بماء الذهب، مبطنة بالديباغ والحريز، مجلدة بالأديم الجيد»^(٧). وهكذا بدأت محاكمة الحلاج^(٨)، التي استمرت أياماً، وكانت برئاسة الوزير حامد بن العباس وحضور قاضي القضاة أبي جعفر أحمد بن إسحاق بن البهلول التنوخي^(٩)، والقاضي أبي عمر محمد بن يوسف الأزدي^(١٠). والقاضي أبي الحسين عمر بن الحسن بن علي بن مالك الشيباني المعروف بابن

(١) أبو سهل إسماعيل بن علي النوبختي. من الكتاب المعروفين في الدولة العباسية. من كبار الشيعة وكان فاضلاً عالماً متكلماً وله مجلس يحضره جماعة من المتكلمين، وله رأي في القائم من آل محمد

ابن النديم : المهرست ص ١٧٦

(٢) التنوخي : نشور المحاضرة ج ١ ص ١٦١ .

(٣) المصدر نفسه ج ٦ ص ٧٩ .

(٤) المصدر نفسه ج ٦ ص ٨٠ .

(٥) المصدر نفسه ج ٦ ص ٨٠ - ٨١ .

(٦) المصدر نفسه ج ٦ ص ٨٢ .

(٧) المصدر نفسه ج ٦ ص ٨٣ .

(٨) المصدر نفسه ج ١ ص ١٦٢ - ١٦٤ وج ٦ ص ٧٩ - ٩٢

(٩) المصدر نفسه ج ١ ص ١٦٣ .

(١٠) المصدر نفسه ج ١ ص ١٦٣ وج ٦ ص ٨٧ .

الاشناني^(١) . وكانت التهم الموجهة إليه موجودة ضمن الكتب والدفاتر التي عشروا عليها في منازل أصحابه، وفيها أنه الإمام المهدي المنتظر، والنيبي، وإدعاء الألوهية^(٢) . وقد تم استجواب أصحابه، ومنهم السمرقي، الذي ذكر للوزير أنه كان مع الحلاج في يوم ممطر فاشتبهى خياراً، فأدخل الحلاج يده في سفح جبل ثلج، وأخرج منه خيارة خضراء فأكلها. فقال له الوزير: كذبت يا ابن مائة ألف زانية في مائة ألف زانية^(٣) . ثم جيء بقدر وقوارير اعترف السمرقي بأن فيها رجيح وبول الحلاج وكان يستشفي به^(٤) ، وأنكر الحلاج معرفته بهذا الأمر^(٥) .

ثم وجهت إليه تهمة أخرى وهي أن الإنسان إذا أراد الحج ولم يتمكن منه فإنه يستغني عنه بأن يعمد إلى غرفة في داره فيعمل فيها محراباً ويغتسل ويحرم، فإذا حضرت أيام الحج طاف حوله طوافه حول البيت الحرام في مكة^(٦) ، ثم يجمع ثلاثين يتيماً يحضرهم إلى هذه الغرفة ويطعمهم ويكسوهم ويعطي كل منهم سبعة دراهم^(٧) . فإن فعل ذلك فقد سقط عنه الحج إلى بيت الله الحرام^(٨) ، وقام له مقام الحج^(٩) . وهذا شيء معروف عند الحلاجية، وعندما سئل الحلاج عنه أقر به، فالتفت إليه القاضي أبو عمر وقال له: من أين لك هذا؟، فقال الحلاج: من كتاب الإخلاص للحسن البصري. فقال له أبو عمر: كذبت يا حلال الدم، قد سمعنا كتاب الإخلاص للحسن البصري بمكة وليس فيه شيء مما ذكرته^(١٠) هذه زندقة، يجب عليه القتل بها، لأن الزنديق لا يستتاب^(١١) . وهنا تدخل قاضي القضاة أبو جعفر وقال: لا يجب عليه

(١) التنوخي: نشوار المحاضرة ج٦ ص ٨٧.

(٢) المصدر نفسه ج٦ ص ٨٢ و ٨٣.

(٣) المصدر نفسه ج٦ ص ٨٤.

(٤) المصدر نفسه ج٦ ص ٨٥.

(٥) المصدر نفسه ج٦ ص ٨٥.

(٦) المصدر نفسه ج١ ص ١٦٢ وج٦ ص ٨٧.

(٧) المصدر نفسه ج٦ ص ٨٧.

(٨) المصدر نفسه ج١ ص ١٦٣.

(٩) المصدر نفسه ج٦ ص ٨٧.

(١٠) المصدر نفسه ج٦ ص ٨٧.

(١١) المصدر نفسه ج١ ص ١٦٣.

القتل إلا أن يقر بأنه يعتقد هذا، لأن الناس قد يروون الكفر ولا يعتقدونه، فإن أخبر أن هذا شيء رواه وهو يكذب به فلا شيء عليه، وإن أخبر أنه يعتقد، استتيب منه فإن تاب فلا شيء عليه وإن لم يتب وجب عليه القتل^(١).

ثم عمل على فتوى القاضي أبي عمر الذي كتب بإحلال دم الحلاج^(٢)، ووقع بعده على الكتاب كل من حضر المجلس، والحلاج يقول: ظهري حمي ودمي حرام وما يحل لكم أن تأولوا عليّ بما يبئحه، واعتقادي الإسلام ومذهبي السنة وتفضيل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبي عبيدة بن الجراح (هم العشرة المبشرة)، ولي كتب في السنة موجودة في الوراقين، فآله الله من دمي^(٣).

ويعتبر ابن كثير أن فتوى أبا عمر بقتل الحلاج هي من أكبر صواب أحكامه^(٤). وصدر الحكم عن المقتدر بالله بتسليم الحلاج إلى صاحب الشرطة محمد بن عبد الصمد «أبو طاهر» وضربه ألف سوط، فإن لم يمت يضرب عنقه وذلك بعد أن أفتى القضاة قتله وأباحو دمه^(٥). وكان الحلاج أثناء المحاكمة وقبل صدور الحكم بإعدامه يقول دائماً: «سبحانك، لا إله إلا أنت، عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»^(٦). وفي يوم الثلاثاء الأخير من شهر ذي القعدة سنة ٣٠٩/٩٢١ أخرج الحلاج إلى مجلس الشرطة في الجانب الغربي من بغداد، واجتمع من العامة خلق كثير لا يحصى عددهم، فضرب ألف سوط ثم قطعت يداه ورجلاه وحز رأسه وأحرقت جثته ولما صارت رماداً ألقيت في نهر دجلة^(٧). ونصب رأسه يومين في بغداد على الجسر، ثم حمل إلى خراسان وطيف به في مختلف النواحي. وزعم بعض أصحاب

(١) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٦٣.

(٢) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٦ ص ٨٧؛ الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٣٣.

(٣) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٦ ص ٨٨.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١١ ص ١٧٢.

(٥) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٦ ص ٨٩.

(٦) المصدر نفسه ج ٦ ص ٨٥.

(٧) التنوخي: نشوار المحاضرة، ج ٦ ص ٩١؛ الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٣٣.

الحلاج أن الذي قتل هو عدو الحلاج ألقى شبهه عليه^(١)، وقال البعض الآخر أن الذي قتل هو دابة حوّلت في صورته^(٢)، وهو يعود إلينا بعد مدة، فصارت هذه الجهالة مقالاً لطائفة منهم^(٣).

٥ - تقلده منصب قاضي القضاة سنة ٩٢٩/٣١٧ :

خلال ستة عشر عاماً (٣٠١/٣١٦/٩١٣ - ٩٢٨) كان أبو عمر يتضايق في كونه في المرتبة الثانية في ترتيب القضاة بعد أبي جعفر قاضي القضاة الذي استقال من القضاء سنة ٩٢٨/٣١٦، فمهد بذلك الطريق لأبي عمر بأن يحقق أمنيته الرئيسية وهي الحصول على منصب قاضي القضاة، وكان له ذلك سنة ٩٢٩/٣١٧^(٤). وإذا علمنا أن أبا جعفر حصل على هذا المنصب سنة ٩٠٨/٢٩٦، وهي السنة التي اشترك فيها أبو عمر في المؤامرة ضد المقتدر، ندرك أنه كان يطمع في الحصول على منصب قاضي القضاة في حال نجاح المؤامرة، لكن فشل المؤامرة عزز موقف قاضي القضاة أبي جعفر الذي بقي في منصبه عشرين عاماً^(٥)، ولم يفسح المجال لأبي عمر إلا عندما استقال هو من منصبه. ولعل أيضاً هذا التنافس على المنصب هو الذي جعل أبا عمر يختلف مع أبي جعفر في كثير من المواقف^(٦)، أبرزها موقف كل منهما من محاكمة الحلاج. ومن مظاهر الخلاف بين أبي جعفر وأبي عمر ظهور الغضب على أبي عمر في جنازة واثق مولى المعتضد، فبعد انقضاء الصلاة «اسود وجهه غماً بتقديمهم أبا جعفر عليه»^(٧). وقد صاح أبو جعفر ذات مرة صيحة

(١) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٦ ص ٩١

(٢) المصدر نفسه ج ٦ ص ٩٢ .

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ١٦٤ .

(٤) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٥ ص ٢٠٩، ابن الجوزي، : ج ٦ ص ٢٤٦، ابن مسكويه : تحارب الأمم ج ١ ص ١٩٤ و ٢٠١، الخطيب البغدادي . تاريخ بغداد ج ٣ ص ٤٠١ .

(٥) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٤ ص ٢٣٢ وج ٥ ص ٢١٣، ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج ١ ص ٨٢، ابن الجوزي : المنتظم ج ٦ ص ٣٩٢، الخطيب البغدادي . تاريخ بغداد ج ٤ ص ٣١ .

(٦) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٦٢ - ١٦٤ - ٢٥٨ - ٢٦١، ج ٤ ص ١٥ - ١٦ و ١٩ - ٢٢ و ٢٨ - ٣٤، ج ٦ ص ٧٩ - ٩٢، الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٣١ . ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج ١ ص ٨٣ و ٨٥ و ٨٧ - ٩١ .

(٧) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ١ ص ٢٥٩ .

عظيمة على أبي عمر الذي علق على بيت أنشده بأنه يحفظ هذا البيت بخلاف رواية أبو جعفر له^(١). كما ظهر التباين في موقفهما من الوزير ابن الفرات عند اتهامه بتدبير مؤامرة ضد الخلافة، فقد كتف أبو جعفر عن براءة الوزير^(٢)، في حين كان أبو عمر قد اعتبره «أتى أمراً فظيماً وأقدم على أمر يضر بالمسلمين جميعاً»^(٣).

كل هذه الأمور تثبت أن منصب قاضي القضاة كان هدفاً يسعى إليه أبو عمر، وكان أبو جعفر هو العقبة الوحيدة أمامه، وهذا ما يبرر المنافسة بين أبناء المهنة الواحدة وما يدخلها من مكر وحبث^(٤) حتى يحصل المرء على غايته. وقد حقق أبو عمر هدفه في الحصول على منصب قاضي القضاة سنة ٣١٧/٩٢٩، عندما خلع المقتدر وبويع القاهر بالخلافة، وقد ألزم المقتدر أن يكتب على نفسه كتاباً بالخلع من الخلافة، وسلم الكتاب إلى أبي عمر الذي قال لولده أبي الحسين: احتفظ بهذا الكتاب فلا يرينه أحد من خلق الله. ولما أعيد المقتدر إلى الخلافة بعد يومين رده إليه، فشكره على ذلك وولاه قضاء القضاة^(٥).

وقد وصف طلحة بن محمد بن جعفر الشاهد (ت ٣٨٠/٩٩٠) أبا عمر بقوله^(٦): «أبو عمر محمد بن يوسف، من نصح أحبار الناس لم يخف عليه موضعه، وإذا بالغنا في وصفه كنا إلى التقصير فيما نذكره من ذلك أقرب، ومن سعادة جدّه، أن المثل ضرب بعقله وحلمه، وانتشر على لسان الخطير والحقير ذكر فضله، حتى إن الإنسان كان إذا بالغ في وصف رجل، قال: كأنه أبو عمر القاضي، وإذا امتلأ الإنسان غيظاً قال: لو أني أبو عمر القاضي ما صبرت. سوى ما انضاف إلى ذلك من الجلالة والرياسة، والصبر على المكاره، واحتمال كل جريرة إن لحقته من عدوّه، وعلط إن جرى من صديقه، وتعطفه بالإحسان إلى الكبير والصغير، واصطناع المعروف عند

(١) التنوخي - نشوار المحاصرة ج ٤ ص ١٥ - ١٦، ياقوت الحموي - معجم الأدباء ج ١ ص ٨٣.

(٢) التنوخي - نشوار المحاصرة ج ٤ ص ٣٢ - ٣٣.

(٣) المصدر نفسه ج ٤ ص ٣١.

(٤) MASSIGNON . La PASSION T I P 484

(٥) ابن كثير . البداية والنهاية ج ١١ ص ١٥٩ و ١٦٠.

(٦) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٥ ص ٢٠٨، الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ٣ ص ٤٠١.

ابن الجوزي : المنتظم ج ٦ ص ٢٤٦.

الداني والقاصي، ومداراته للنظير وللتابع، ولم يزل على طول الزمان يزداد جلاله ونبلاً».

وكذلك مدح التنوخي قاضي القضاة أبا عمر بقوله^(١): «حمل الناس عه علماء واسعاً من الحديث... وعمل مسنداً كبيراً قرأ أكثره على الناس. ولم ير الناس في بغداد أحسن من مجلسه لما حدث، وذلك إن العلماء وأصحاب الحديث، كانوا يتجملون بحضور مجلسه، حتى إنه كان يجلس للحديث وعن يمينه أبو القاسم عبيد الله بن بنت منيع (ت ٣١٧/٩٢٩) وأبو محمد يحيى بن صاعد (ت ٣١٨/٩٣٠) عن يساره، وأبو بكر عبد الله بن محمد النيسابوري (ت ٣٢٤/٩٣٥) بين يديه وسائر الحفاظ حول سريره». ففي حين أثنى طلحة الشاهد والتنوخي على أبي عمر ثناء بالغاً نجد أن معاصريه أظهروا فساد أخلاقه، فكان أبو خازم القاضي يقول: «إن القاضي أبو عمر ليس عفيفاً»^(٢)، كما قال قاضي القضاة أبو جعفر سنة ٣٠٥/٩١٨ أن «أبا عمر حمل نفسه كثيراً في صدقه وشرفه»^(٣). فأين الحقيقة من مديح طلحة والتنوخي لأبي عمر، ومن فساد أخلاقه كما أظهره بعض معاصريه؟.

كان أبو عمر وعائلته على المذهب المالكي^(٤)، في حين كان المذهب الحنفي مذهب أهل العراق. ومع ذلك كان أبو عمر لا يعرف سوى الشيء القليل عن المذهب المالكي، ولكنه كان يخفي بذلك هذا النقص^(٥). وكان يظهر نفسه بمظهر المحدث ويجبر نفسه على القراءة في مجالسه وهو مستند إلى مسند كبير. لقد نجح أبو عمر في تحليل القضايا الصعبة ليأخذ منها الأشياء التي يريدونها بدون إثارة أي شك، فقد كان أقدر الناس على أن يتكلم دائماً في الأمور بما يحتمل معنيين، ويحتاج إلى تفسير للمقصد توكيلاً منه ودهاء^(٦). وعلى هذا الأساس عزل القاضي سعيد بن أحمد بن حنبل، وكان قد عينه خليفته على قضاء الكوفة، وقد عزله دون أن يتهمه أو يعتبره مذنباً

(١) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٥ ص ٢٠٨

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٣٩

(٣) MASSIGNON : La Passion T I P 485

(٤) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٦ ص ١٦١

(٥) MASSIGNON . La Passion T I P 484

(٦) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ١ ص ٦١

ولكن لأن البعض قال فيه شناعات افتراء وكذباً. ولما عوتب أبو عمر على عزله قال^(١): «أليس قد احتمل عرضه أن يقال فيه مثل هذا، وتشبهت صورته بصورة من إذا رمي بهذا جاز أن يتشكك فيه، والقضاء أرق من هذا».

واعترف أبو عمر بصحة رقعة زورها أحدهم بتوقيع أبي عمر إلى أبي القاسم علي بن محمد المعروف بابن الحواري، يسأله المساعدة لحامل الرقعة. وقد اعترف بذلك حتى لا يقال إن إسمه زور ببساطة ومع ذلك عندما ضبط أبو عمر الرجل قال له: ويلك أتزور علي خطي وأنا حاكم وخطي ينفذ في الأموال والفروج والدماء، ما كان يؤمنك أن أعرف أبا القاسم أمرك فتصير نكالاً، فبكى الرجل وعلل فعلته بالفقر والثقة بكرم أبي عمر. فبكى أبو عمر وأعطاه صرة فيها مائة دينار وبعض الثياب^(٢). وقد تحسنت حال هذا الرجل وكان دائماً يدعو لأبي عمر.

وقبل أبو عمر بإعلان الوزير الحسين بن القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب غير مسؤولاً (الحجر)، وذلك لتهديبه من دفع ديونه ودون أن يبيع أملاكه^(٣)، والقاضي لا يحجر على شخص إلا إذا ثبت سفهه وتبذيره للمال مما يعني أنه كان يستدين المال من غير حاجة به إليه، وبذلك حافظ الوزير على أملاكه. كما قبل بعرقلة وكيل دعاوي لقضية إرث شهراً حتى دفع الورثة أجرة الوكيل كاملة^(٤).

كانت غريزة أبو عمر القوية تساعد له لمعرفة أسرار الرجال ليأخذ منهم الكثير من وراء معرفته بأسرارهم، فالوزير أبو الحسن علي بن عيسى كان يحب أن يبين فضله على كل أحد، وعندما دخل عليه أبو عمر ذات يوم وكان يرتدي قميصاً فاخراً سأله الوزير عن ثمنه، فأجابه بمائتي دينار، فقال الوزير أنه قد اشترى القميص الذي يلبسه بعشرين ديناراً فرد أبو عمر جملة المشهورة: «الوزير أعزه الله يجمل الثياب ولا يحتاج إلى المبالغة فيها، ونحن نتجمل بالثياب فنحتاج إلى المبالغة فيها لأننا نلبس العوام ومن نحتاج إلى التفخم عليه وإقامة الهيبة في نفسه بها، والوزير أيده الله يخدمه

(١) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ١ ص ٢٣٨.

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٦١-٦٢.

(٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٦٠-٢٦١.

(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٢١-٢٢٢.

الخواص، أكثر من خدمة العوام ونعلم أنه يدع هذا عن قدرة»^(١) وهكذا بدل من أن ينجح الوزير في إحراج أبي عمر نجد أن جواب القاضي قد أسكت الوزير. وعندما تسلم أبو علي محمد بن علي بن الحسين بن مقله الوزارة دخل أبو عمر عليه وكان الوزير السابق علي بن عيسى جالساً عنده، فطلب ابن مقله من أبي عمر أن يجلس متقدماً عن ابن عيسى، فامتنع وجلس دونه وبعد أن انصرف الحاضرون أرسل الوزير يسأل أبا عمر عن سبب مخالفته أمره وجلوسه دون ابن عيسى، فكان جواب أبو عمر^(٢): «هذا رجل رأس علي، ثم أдал الزمان منه، فكرهت أن ارتفع عليه، فيتصورني الوزير بصورة من يرتفع على رؤسائه، وما فعلت ذلك إلا لك وإعظماً للرياسات»، فسر الوزير من ذلك.

وكان رئيس خدم الخليفة المقتدر غاضباً من القاضي أبي عمر لأنه توسط لديه في قضية ولم يجبه إليها^(٣)، فكان أبو عمر كلما دخل دار الخلافة يقف له جماعة من الخدم يشتمونه بأقبح الألفاظ ويقولون له: «يا ظالم، يا مرتشي، وهو مطرق إلى الأرض»^(٤)، وعندما يخرج من الدار يخاطبه أولئك الخدم بأقبح من المرة الأولى. وفي الحال أرسل القاضي أبو عمر ثياباً فاخرة وطيباً بقيمة خمسمائة دينار إلى رئيس الخدم، وأرسل كذلك يعتذر منه عن القضية السابقة. وعندما قصد دار الخلافة في المرة الثانية كان الخدم أنفسهم يدعون له ويشكرونه ويقولون^(٥): «يا عفيف يا نظيف، يا مأمون يا ثقة، يا جمال الإسلام، يا تأريخ القضاة». وحتى يستميل رئيس الخدم أكثر لم يكتف أبو عمر بالهدية، فاتفق مع أحد خدمه بأن يلتجأ إلى رئيس الخدم ويبكي بين يديه، ويطلب منه أن يشفعه عند القاضي أبي عمر في أمر وصايته على أخ له توفي ويعطيه مقابل ذلك مائتي دينار^(٦)، وهكذا توسط رئيس الخدم عند أبي عمر في قضية

(١) التنوخي · نشوار المحاضرة ج ١ ص ٥١.

الثعالبي · لطائف اللطف ص ٨٦.

(٢) التنوخي : نشوار المحاضرة : ج ٣ ص ٩٦.

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٨٤.

(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ٨٣.

(٥) المصدر نفسه ج ٢ ص ٨٤.

(٦) المصدر نفسه ج ٢ ص ٨٧.

لا يعرف أنها من تدبير القاضي الذي أوهمه أنه استجاب لطلبه . فسر رئيس الخدم وأصبح صديقاً لأبي عمر^(١) . وهذه الأمور تدل على حكمة أبي عمر ووفور عقله من جهة، فهو يعرف كيف يستميل الوزير أو الخادم حتى لا يكثر أعداءه و«تخرق هيئته ويبطل جاهه ويطمع كل أحد فيه ويجر عليه ذلك أموراً كباراً»^(٢) ، كما تدل من جهة ثانية على خداع ورياء أبي عمر حتى يصل إلى مبتغاه، حتى إن الطبري كانت له الشجاعة أن يكتب سنة ٣٠٢/٩١٤ ، مبيناً خداع ورياء أبي عمر في شهر رمضان سنة ٢٨٩/٩٠٢ ، عندما قبل أن يحمل للأمير بدر صاحب شرطة المعتضد كتاب الأمان ، حتى يجذبه إلى كمين حيث أقدم الخليفة على قتله^(٣) . وأثناء محاكمة الوزير علي بن عيسى^(٤) في شهر جمادى الثانية سنة ٣١١/٩٢٣ ، اعتبر أبو عمر أن الوزير «قد غلط غلطاً»^(٥) ، و«قد أقر بما لو أقر به إمام لما سمع الناس طاعته»^(٦) ، في حين دافع قاضي القضاة أبو جعفر عنه حتى أنقذه . ومن الأدلة على فطنة القاضي أبي عمر وتلطفه في الجواب أنه كان في طريقه إلى الجامع عندما اعترضه أحدهم وكان له حاجة عنده لم يجبه إليها ، فأخذ يعرض به وبموقفه من مبايعة ابن المعتز ، فقال له أبو عمر^(٧) : «يا هذا إن أمير المؤمنين أعزه الله قد عفا عن هذا الذنب ، فإن رأيت أن تعفو فعلت» وبذلك خجل الرجل .

كما كان أبو عمر يظهر الكرم لشهوده وخلفائه ، فقد كان بعضهم في مجلسه فأحضر ثوباً جميلاً من القماش الفاخر ثمنه خمسون ديناراً وقد استحسنته جميع الحاضرين ، فقال لهم أبو عمر^(٨) : «إنكم استحسنتموه بأجمعكم ولو استحسنته واحد لوهبته له فلما اشتركتم في استحسانه لم أجد طريقاً إلا أن يحصل لكل واحد منكم

(١) التنوخي : نشوار المحاضرة جـ ٢ ص ٨٨ .

(٢) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٨٥ .

(٣) ابن الحوزي : المنتظم جـ ٦ ص ٣٦ .

(٤) راجع بشأن المحاكمة . التنوخي : نشوار المحاضرة جـ ٤ ص ١٩ - ٢٢ .

(٥) المصدر نفسه جـ ٤ ص ٢١ .

(٦) المصدر نفسه جـ ٤ ص ٢٠ .

(٧) المصدر نفسه جـ ٢ ص ٨٩ .

(٨) المصدر نفسه جـ ٣ ص ١٢٩ .

واحدة منها»، وهكذا أمر القلانسي بقطع الثوب وصنع قلنسوة لكل واحد من الحاضرين .

وقد أنقذ أبو عمر شخصاً من الغرق عند شاطيء نهر عيسى^(١)، وهو في طريقه إلى ضيعته الصالحية، فنزل عن حماره وخلع عمامته ورمى بها إلى الرجل وأخذ طرفها بيده وأمسك بيده الأخرى شجرة كانت هناك حتى جذب الرجل إلى الشاطيء فنجا^(٢). وكان يخدمه أيضاً أبو الربيع سليمان بن داود البغدادي ومعه جدته سمسة القهرمانة، وقد أنقذه أبو عمر من السلطان^(٣). وكان أبو عمر قد وطد علاقاته مع التجار والأمراء إضافة إلى الخليفة والوزراء والخدم، فكان أبو عمر يزور أبا عبد الله بن الجصاص (ت ٩٢٧/٣١٥)، وهو من أكبر تجار بغداد وأغناهم^(٤)، وكان يدافع عنه في مجالسه^(٥)، وكانت صداقته وطيدة بالأمير أبو محمد جعفر بن ورقاء الشيباني (ت ٩٦٣/٣٥٢)، وتجلت هذه الصداقة بمعاينة الأمير له بعد عودته من الحج وتأخر أبو عمر عن قدومه لتهنئته بالعودة فكان العتاب شعراً^(٦) والجواب بالشعر أيضاً^(٧).

كما أن أبا عمر قام بعقد زواج ابن الأمير أبو بكر محمد بن رائق (ت ٩٤١/٣٣٠) على ابنة قيصر الكبرى بحضور الخليفة المقتدر، وكان اليوم حاراً، فلما انتهى طلب منه عقد زواج الابن الآخر على البنت الأخرى فقرأ آية من القرآن وأسرع في عقد الزواج حتى لا يضر الخليفة، وكان أبو عمر يريد التقرب منه، فنهض المقتدر بسرعة لشدة الحر وقد استحسن إيجاز أبي عمر في عقد الزواج، وأمر

(١) نهر عيسى : مأخذه من نهر الفرات عند قنطرة دمجا حتى إذا بلغ المحول تفرع إلى عدة أنهار تخترق مدينة السلام، ثم يصب في دجلة عند قصر عيسى بن عبد الله العباسي .

ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٤ ص ٨٤٢ .

(٢) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٣ ص ٥٧ .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٦٨ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٤ .

التنوخي : نشوار المحاضرة ج ١ ص ٢٥ - ٣٧ وج ٢ ص ٣١٢ - ٣١٧ .

(٥) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ١ ص ٣٦ .

(٦) المصدر نفسه ج ٤ ص ٢٠٨ .

(٧) المصدر نفسه ج ٤ ص ٢٠٩ .

بأن يكرم أبو عمر في رزقه وعمله^(١). وهذا يدل على فطنة أبي عمر الذي يعرف كيف يوظف الأمور لصالحه.

وكان أبو عمر يعرف القليل من الأمور الفقهية ومع ذلك كان لا يخطيء في الأحكام فيحكم بما يفتي به الفقهاء^(٢)، ولعل تبرير ذلك أن أبا عمر اشتهر بمجالسه التي يرتادها العلماء وأصحاب الحديث، مثل المناظرة بين أبو بكر محمد بن داود بن علي بن خلف الظاهري (ت ٢٩٧/٩٠٩) وأبو العباس أحمد بن عمر بن سريج في مجلس أبي عمر حول بعض الأمور الفقهية^(٣). كما كان أبو عمر يناظر قاضي أبا جعفر في الشعر والأدب والعلم^(٤) في دار الخليفة المقتدر.

وبعد هذا العرض كله لشخصية أبي عمر، هل استغل ذكائه وغريزته القوية وتملقه وتزلفه للأمرء والوزراء من أجل الحصول على منصب قاضي القضاة الذي ناله سنة ٣١٧/٩٢٩. ولكن أبا عمر لم يبق في منصبه طويلاً فقد توفي في ٢٥ من شهر رمضان سنة ٣٢٠/٩٣٢^(٥) وله ثمانية وسبعون سنة، تاركاً منصب قاضي القضاة لابنه أبي الحسين عمر الذي بقي فيه مثل أبيه إلى حين وفاته.

(١) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٢ ص ٥٥ - ٥٦ .

(٢) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٤ ص ١٧٤ ، ابن الجوزي : المنتظم ج ٦ ص ٢٤٧ .

(٣) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٨ ص ١٨٦ - ١٨٨ .

(٤) المصدر نفسه ج ٤ ص ١٥ - ١٦ .

(٥) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٥ ص ٢١٠ ، ابن الجوزي : المنتظم ج ٦ ص ٢٤٦ .

ابن مسكويه : تجارب الأمم ج ١ ص ٢٢٩ . الخطيب الغدادي : تاريخ بغداد ج ٣ ص ٤٠١ .

الفصل الرابع

(١) النعمان بن محمد (ت ٣٦٣/٩٧٤)

ودعم الخلافة الفاطمية «الشيعة»

يعتبر النعمان بن محمد أحد دعاة الدولة الفاطمية، وقد عاصر أربعة خلفاء، المهدي والقائم، ثم المنصور الذي قلده القضاء، فالمعز الذي قامت معه الخلافة الفاطمية في القاهرة وقد عينه قاضي قضائه فوضع الكتب الكثيرة في الفقه والتاريخ والسير، حتى اعتبر مؤسس النظام القضائي الفاطمي.

١ - نشأته وتقلده القضاء :

النعمان بن أبي عبد الله محمد بن منصور بن أحمد بن حيون التميمي، أحد الأئمة الفضلاء، من أهل العلم والفقه والدين والتاريخ. كان على المذهب الحنفي لأن المغرب الإسلامي كان يغلب عليه مذهب أبي حنيفة إلى أن تحول إلى مذهب مالك، فأصبح النعمان على المذهب المالكي^(٢)، ثم كان التحول الكبير عندما ابتعد عن المذهب السني ليصبح من أبرز دعاة الدعوة الفاطمية القائمة على أساس المذهب الشيعي الإسماعيلي، والتي تدعو إلى قيام خلافة فاطمية جديدة تحل مكان الخلافة العباسية. ومن أجل ذلك عمل في خدمة المهدي بالله (٢٩٧ - ٣٢٢/٩٠٩ - ٩٣٤)،

(١) ترجمته في :

النعمان · المجالس والمسرات ص ٦٩، ٧٠، ٣٤٨، ٣٤٩

ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٥ ص ٤١٥، ٤١٦، ٤١٧ .

ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٠٦، ١٠٧ .

الكندي : الولاة والقضاة ص ٢٨٦، المقرئ : اتعاظ الخنفاص ١٤٩ .

ابن العماد : شذرات الذهب ج ٣ ص ٤٧؛ ادريس عماد الدين . تاريخ العلماء الفاطميين

ص ٤٩٠ - ٤٩٥، ٥٢٦، ٥٥٦ - ٥٧٠، ٧٣٥

(٢) النعمان : المجالس والمسرات ص ٣٤٨ .

ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٠٦، ١٠٧ .

لكنه لم يقلده القضاء عندما أسس عاصمته المهديّة. بل عين أحد دعائه ويدعى أفلح بن هارون الملوسي^(١) للظفر في القضاء في المهديّة ورفادة وغيرها من الأعمال، فكان المهدي سماء قاضي القضاة.

ثم عمل النعمان في خدمة القائم بأمر الله (٣٢٢ - ٣٣٤/٩٣٤ - ٩٤٦) (٢) حتى تقلد القضاء زمن المنصور بالله (٣٣٤ - ٣٤١/٩٤٦ - ٩٥٣)، وقد استقضاء المنصور على مدينة طرابلس الغرب، وفي سنة ٩٤٨/٣٣٧ طلبه للقضاء في عاصمته الجديدة «المنصورية»^(٣) فوصل إليها غداة يوم الجمعة فخلع عليه وقلده القضاء، وأمره بالسير في نفس اليوم إلى المسجد الجامع بالقيروان لإقامة صلاة الجمعة والخطبة إذ لم يكن يومئذ بالمنصورية جامع، وأمر المنصور جماعة من حراسه ومعهم السلاح بمرافقه النعمان حتى إقامة الصلاة والخطبة^(٤). وفي اليوم التالي خرج توقيع المنصور بالله الفاطمي إلى ديوان الرسائل بأن يكتب عهد القاضي النعمان بالقضاء بمدن المنصورية والمهديّة والقيروان وسائر مدن إفريقية وأعمالها، وذلك لإقامة الحق على الشريف والمشروف والعدل بين القوي والضعيف^(٥). فكان بمثابة قاضي جميع المناطق التي سيطرت عليها الدعوة الفاطمية، وأصبح القضاة في هذه المناطق تابعين له^(٦).

وكان النعمان قاضي الدولة الفاطمية يجلس للنظر بين الناس في سقيفة قصر المنصور بالله وذلك تكريماً له. لكن هذا الأمر جعل النساء والضعفاء ومن يتهيب

(١) القاضي أفلح بن هارون الملوسي : كان تقياً ورعاً عفيفاً، فيه حس صوت وجودة قراءة. تقلد قضاء طرابلس الغرب قبل ثورتها على المهدي. ثم تقلد قضاء المهديّة ورفادة وغيرها. وكان من دعاة المهدي ينظم محالس لدعوه النساء. وقد نسخ الكثير من كتب الفقه والآثار والفضائل وحطب الإمام علي ادريس عماد الدين : تاريخ الحلفاء الفاطميين ص ١٩٢ و ٢١١ - ٢١٣

(٢) المصدر نفسه ص ٣٤٤.

(٣) المنصورية : مدينة بالغرب الإسلامي أمر ببنائها المنصور الفاطمي في صفر سنة ٩٤٧/٣٣٥ وجعلها عاصمة جديدة له ليستقر فيها في شوال ٩٤٩/٣٣٧. وهي حسنة عجيبة الأبنية، واسعة الأبنية.

ابن حوقل : صورة الأرض ص ٧٤.

(٤) إدريس عماد الدين : تاريخ الخلفاء الفاطميين ص ٤٩٢ - ٤٩٣.

(٥) المصدر نفسه ص ٤٩٣.

(٦) المصدر نفسه ص ٤٩٠.

الدخول من باب قصر المنصور لا يمثلون أمام القضاء، مما جعل السصور يوقع له
بناء موضع خاص يجلس فيه للقضاء، ويصل إليه كل الخصوم^(١).

وأثناء تقلده القضاء للمنصور، ازدادت علاقة العمان بالمعز لدين الله ولي العهد
والخليفة من بعد المنصور، والذي كان يقف دائماً إلى جانبه. وخاصة عندما تعرض
العمان لحملة شنيعة من الحساد الذين يطمعون في الرئاسة مكانه، فضاق صدره بها
وكتب رقعة إلى المعز يشكوه فيها، فكتب المعز في ظهرها كلمات عطف وتأييد:

« . . . ولقد كان الواجب عليك أن تسأل الله الزيادة لك من هذا الحسد، فإنك لا
تزداد بقربنا رفعة إلا زدت من كثرة الحاسد وكيد الكائد. فإن كنت تسأل الله رفع ذلك
عنك في حين ضيق صدرك فاستقل الآن! فقد كان بعض الحكماء إذا دعا الله لنفسه
قال: رب اجعلني محسوداً ولا تجعلني مرحوماً! . . . »^(٢)

٢ - قاضي قضاة المعز لدين الله:

ارتفعت مكانة العمان زمن المعز لدين الله (٣٤١/٣٦٥ - ٩٥٣/٩٧٦)، فكان
يرافقه في أسفاره^(٣)، وقد جعله قاضي قضاة، وجعل إليه إزالة المظالم، وأمضى
حكمه على كل حاكم^(٤). وقد رافقه أثناء دحوله مصر سنة ٩٧٣/٣٦٢. كما دخل
الفاطميون دمشق سنة ٩٧٤/٣٦٣، وبذلك تأسست الخلافة الفاطمية في القاهرة مع
المعز لدين الله. وكان العمان أول قاضي قضاة فيها وأبرز الدعاة الفاطميين. ويعتبر
بحق مؤسس النظام القضائي الفاطمي على أساس المذهب الشيعي الإسماعيلي، وقد
أغنى القضاء ودعم الخلافة الفاطمية «الشيعية» التي اتخذت مظهر العداء للخلافة
العباسية «السنية» بواسطة كتبه الكثيرة في الفقه والتاريخ والسير. . .

(١) العمان : المجالس والمساربات ص ٦٩ - ٧٠

إدريس عماد الدين : تاريخ الخلفاء الفاطميين ص ٤٩١ - ٤٩٢.

(٢) العمان : المجالس والمساربات ص ٣٤٨ - ٣٤٩.

إدريس عماد الدين : تاريخ الخلفاء الفاطميين ص ٤٩٤ - ٤٩٥.

(٣) إدريس عماد الدين : تاريخ الخلفاء الفاطميين ص ٥٢٦.

(٤) المصدر نفسه ص ٥٥٦.

٣ - دور كتبه في دعم الخلافة الفاطمية :

أضاف المعز لدين الله الدعوة الفاطمية إلى قاضي القضاة النعمان، وأسماه في مراتب الدعوة إلى أسمى ذروة. وأمره «بقراءة كتب الأئمة من آبائه، ونشر علومهم على أتباعه وأوليائه»^(١). فكان النعمان يقرأ كتباً في علم الباطن، كل يوم جمعة، في مجلس في قصر المعز، حيث يكثر ازدحام الناس على اختلاف عقولهم ومقدار فهمهم للدعوة التي يعمل على نشرها^(٢).

وقد لعبت الكتب الكثيرة التي وضعها دوراً بارزاً في نشر الدعوة، فقد كان النعمان من أهل العلم والفضل، وقد اعترف الذين لا يوافقونه في الدعوة بفضله واتساع علمه في الفقه والتاريخ والسير.

(أ) في الفقه :

تكثرت التآليف التي وضعها النعمان في الفقه على المذهب الإسماعيلي وأشهرها^(٣):

- الإيضاح : وهو في إيضاح ما أجمع عليه الرواة في الفقه، وهو مفقود.
- مختصر الإيضاح : وهو مفقود أيضاً، وقد بدأ في تأليفه زمن المهدي بالله .
- الاتفاق والافتراق : فيما اختلف فيه الفقهاء ووافق قول أهل البيت .
- المقتصر : وقد اختصره عن الاتفاق والافتراق.
- دعائم الإسلام في الحلال والحرام والقضايا والأحكام : وسبب تأليف هذا الكتاب أن المعز لدين الله اجتمع بالنعمان وجماعة من الدعاة، فذكروا الأقاويل التي اخترعت والمذاهب والآراء التي افتترقت بها فرق الإسلام وما اجتمعت، ثم نظر المعز إلى النعمان وطلب منه تأليف الكتاب تحت إشرافه فكان يعرضه عليه فصلاً فصلاً وباباً وباباً حتى أتمه . وفيه أن الإسلام بني على سبع دعائم هي : الولاية والطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد .
- اختصار الآثار فيما روي عن الأئمة الأطهار : وضعه بناء لرغبة بعض القضاة

(١) إدريس عماد الدين : تاريخ الخلفاء الفاطميين ص ٥٥٦ .

(٢) المصدر نفسه ص ٥٥٧ .

(٣) المصدر نفسه ص ٥٥٩ - ٥٦٥ .

والحكام والطلبة في بسط كتاب مختصر من قول أهل البيت يقرب معناه ويسهل حفظه بسعر زهيد لا يزيد عن الدينار الواحد، لذلك سماه «كتاب الدينار»، ثم طلب منه المعز تسميته بكتاب الاختصار لصحيح الآثار عن الأئمة الأطهار.

هذا فضلاً عن الكتب الأخرى وهي كثيرة، مثل كتاب «يوم وليلة» في الصلاة و«الطهارة والصلاة وفروضها وسننها» و«الأخبار» و«التقريع والتصنيف لمن لم يعلم العلم فتعاطى التصنيف» و«الرسالة المصرية» في الرد على الشافعي و«الرد على ابن سريج البغدادي» و«رسالة البيان» في الرد على ابن قتيبة و«الأرجوزة المختارة» في الإمامة الحجة فيمن يستحقها ومن ادعاها وليست له.

(ب) في التاريخ والسير:

وكذلك تكثر الكتب التي وضعها النعمان في الأخبار وتتعلق بالتاريخ والسير وأشهرها^(١):

- شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار.
- افتتاح الدعوة وابتداء الدولة^(٢): وقد وضعه بناء لأمر أمير المؤمنين بجمع أخبار الدولة ومن قام فيها وسعى في إقامتها من الدعاة، حتى يعرف ذلك أعقابهم من بعدهم. وهو محاولة تأريخ الدعوة الفاطمية، وابتداء الدولة الفاطمية ذاتها في اليمن وشمال افريقية حتى تأسيس الخلافة.
- مناقب بني هاشم ومثالب بني أمية.
- التوحيد والإمامة: وهو من خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.
- أساس التأويل: وفيه تأويل الولاية وقصص الأنبياء.
- رسالة إلى مرشد: الداعي في مصر، في تربية المؤمنين.
- الأرجوزة الموسومة بـ «ذات المنن» في سيرة المعز.
- الأرجوزة الموسومة بـ «ذات المحن» في سيرة مخلد بن كيداد المارق الدجال.
- المجالس والمسائرات^(٣) مع المعز لدين الله.

(١) إدريس عماد الدين: تاريخ الخلفاء الفاطميين ص ٥٦٦ - ٥٦٨.

(٢) نشرة الكتاب باسم «رسالة افتتاح الدعوة» تحقيق وداد القاضي عن دار الثقافة - بيروت سنة ١٩٧٠.

(٣) نشرت كلية الآداب بتونس هذا الكتاب سنة ١٩٧٨.

ويضاف إليها كثير من الرسائل إلى القضاة وكثير من الكتب مثل «تأويل الدعائم» و«الشروط» و«الحلي والثياب» و«الهمة في اتباع الأئمة» و«اثبات الحقائق في معرفة توحيد الخالق» و«الدعاء» و«تأويل الرؤيا» و«منامات الأئمة» و«معالم المهدي» و«الموجز في الرد على العتقي» و«التعقب والانتقاه».

وكثير من هذه الكتب لا يزال مفقوداً، ولكنها وضعت جميعاً في خدمة نشر الدعوة الفاطمية، حتى قال المعز لدين الله: «من أتى بعشر عشر ما أتى به النعمان، ضمنت له على الله الجنة، وأما جعفر فلنا فيه قول آخر»^(١). ويقصد جعفر بن الحسن منصور اليمن^(٢)، الذي بلغ منزلة رفيعة لدى المعز لدين الله جعلته وحده متقدماً على النعمان، بدليل أن النعمان مرض ذات يوم فزاره جميع الدعاة وأولياء الدولة وقوادها ما عدا جعفر. وكان النعمان لا يعرف مقدار منزلة جعفر إلا عندما قرأ له كتاب «سر النطقاء» عند المعز، فقصده على الفور ليخرج إليه جعفر مرحباً به إجلالاً، لكن النعمان وقع على رجليه يقبلهما، اعترافاً بالفضل وتواضعاً^(٣).

وكانت وفاة النعمان بمصر في جمادي الثانية سنة ٣٦٣/ آذار ٩٧٤^(٤)، بعد أن لعب دوراً بارزاً في دعم الخلافة الفاطمية «الشيعة» التي قامت في القاهرة مهددة بالقضاء على الخلافة العباسية «السنية» في بغداد والتي تعرضت لخطر آخر تمثل بالنفوذ البويعي داخل بغداد نفسها، وهذا ما دعا أقصى القضاة «الماوردي» للدفاع عن الخلافة العباسية، فوضع الكتب المختلفة في السياسة والفقه والدين واللغة والأدب، وكأنه يرد بذلك على النعمان وجميع الخصوم.

(١) إدريس عماد الدين : تاريخ الخلفاء الفاطميين ص ٥٦٩.

(٢) جعفر بن الحسن منصور اليمن : كان أبوه من أكبر الدعاة وأفضلهم، وقد هجر مملكة أبيه وترك حطام الدنيا وهاجر إلى المهدي بالله في أفريقية حتى بلغ مع المعز لدين الله مبلغاً عظيماً، وصار في الفضل والزهد علماً مفرداً. وله كتب كثيرة في علم أهل البيت وقصص الأنبياء، وعلم الملائكة، وذكر فرائض الشريعة، وله سيرة في ذكر أبيه المنصور وافتتاحه اليمن.

المصدر نفسه ص ٧٨ و٥٧٠ و٥٧١.

(٣) المصدر نفسه ص ٥٧٠.

(٤) المصدر نفسه ص ٧٣٥.

الفصل الخامس

الماوردي^(١)

والدفاع عن الخلافة العباسية «السنية»

(٣٦٤ - ٩٧٤/٤٥٠ - ١٠٥٨)

استحدث لقب «أقضى القضاة» سنة ١٠٣٨/٤٢٩، ويكون صاحبه دون منزلة قاضي القضاة وينوب عنه. وإذا كان أبو يوسف أول قاضي قضاة في الإسلام، فإن الماوردي كان أول أقضى قضاة في الإسلام^(٢). ورغم أن موضوع البحث هو قاضي القضاة، فقد ارتأيت الحديث عن الماوردي نظراً لأهمية منصبه من جهة، وللدور السياسي والديني الذي لعبه من جهة ثانية، حيث نشأ والنفوذ البويهري في أوج قوته في بغداد، في حين اتخذ النفوذ الفاطمي شكل خلافة جديدة في القاهرة، فنصب نفسه للدفاع عن الخلافة العباسية ضد الدعوات التي حاولت القضاء عليها.

١ - نشأته وتقلده القضاء في ظل النفوذ البويهري:

ولد أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب في البصرة سنة ٩٧٤/٣٦٤ وعرف

(١) ترجمته في:

ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٣ ص ٢٨٢ - ٢٨٤، السبكي: طبقات الشافعية ج٣ ص ٣٠٣ - ٣٠٤؛ ابن الجوزي: المنتظم ج٩ ص ١٩٩.

ابن العماد: شذرات الذهب ج٣ ص ٢٨٥؛ الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد: ج١ ص ٥٣ - ٥٤ وج١٢ ص ١٠٢؛ محمد بن علي الداودي المالكي: طبقات المفسرين ج١ ص ٤٢٣ - ٤٢٥، ابن كثير: البداية والنهاية ج١٢ ص ٣٣ و٤٠ و٨٠؛ عصام شارو: القضاء والقضاة ص ٣٢٣ - ٣٣٣.

(٢) في بغداد، تقلد أبو الفضل عبد الرحمن اللمعاني الحنفي (ت ١٢٥١/٦٤٩) منصب أقضى القضاة سنة ١٢٣٥/٦٣٣. وفي دمشق تقلد هذا المنصب كل من ولي الدين بن بهاء الدين السبكي الشافعي وشمس الدين العزي وبدر الدين بن وهبة.

ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣ ص ١٨١ - ١٨٢ وج١٤ ص ٣١١.
ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٣ ص ٢٨٤.

بالموردي نسبة إلى صنع ماء الورد وبيعه.
 درس الماوردي الفقه عن أبي القاسم عبد الواحد بن الحسين الصيمري
 بالبصرة، ثم عن الشيخ أبي حامد أحمد بن أبي طاهر محمد الإسفرائيني وعن الشيخ
 أبي محمد عبدالله البافي ببغداد، وهذا ما ساعده في تقلد القضاء في بلدان كثيرة.
 وعندما عاد إلى بغداد سكن في درب الزعفراني^(١)، وأخذ يدرس بها ويروي الحديث
 عن شيوخه، أمثال الحسن بن علي بن محمد الجبلي ومحمد بن عدي بن زحر
 البصري ومحمد بن المعلي الأزدي وجعفر بن محمد بن الفضل البغدادي وغيرهم.
 وقد تفقه الكثيرون على الماوردي، وبرز من تلامذته الخطيب البغدادي صاحب كتاب
 تاريخ بغداد، وابن خيرون، وعبد الملك بن إبراهيم أبو الفضل الهمداني المعروف
 بالمقدسي، وأبو الفضائل محمد بن أحمد الربيعي الموصلي.
 وفي تلك الأثناء كان النفوذ البويهني في أوج قوته بعد أن تولى الحكم عز الدولة
 بختيار^(٢)، منذ سنة ٩٦٧/٣٥٦ هـ، ثم ما لبث وأن قبض على وزيره أبي الفضل^(٣) وقتله
 أواخر سنة ٩٧٣/٣٦٢ هـ، فتولى الوزارة ابن بقية^(٤)، الذي استبد في وزارته فقتل

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٣ ص ٢٨٤.

(٢) المصدر نفسه ج٣ ص ٢٨٢.

(٣) عز الدولة بختيار بن معز الدولة أبي الحسين أحمد بن بويه (ت ٩٧٧/٣٦٧ هـ) : ولي الملك بعد وفاة والده
 معز الدولة في السنة ٣٥٦ هـ، وهو ابن خمس وعشرين سنة، وكان جميل الصورة قوي البدن، إلا أنه
 ضعيف الرأي، وكان مثلاً في سوء التصرف وقلة الوفاء، حاربه ابن عمه عضد الدولة وانتصر عليه وقتله
 وعمره ٣٦ سنة.

ابن الجوزي : المنتظم ج٧ ص ٨٩، ابن مسكويه : تجارب الأمم ج٢ ص ٢٥٩ و ٣٠٧؛
 الزركلي . الاعلام ج٢ ص ١١.

(٤) أبو الفضل العباس بن الحسين الشيرازي (ت ٩٧٣ / ٣٦٢ هـ) : وهو زوج زينة ابنة الوزير أبي محمد الحسن
 ابن محمد المهلب، تولى الوزارة سنة ٣٥٧ هـ، ثم اعتقل سنة ٣٥٩ هـ، وعزل عن الوزارة ثم أعيد سنة
 ٣٦٠ هـ، ثم قبض عليه في نهاية سنة ٣٦٢ هـ، وقتل بالسهم.
 التنوخي : نشوار المحاضرة ج٢ ص ٢١٩ - ٢٢٠.

ابن مسكويه : تجارب الأمم ج٢ ص ٢٣٨ و ٢٤١ و ٢٦٩ و ٢٨٣ و ٣١٣.

(٥) ابن مسكويه : تجارب الأمم ج٢ ص ٣١٣.

(٦) أبو طاهر محمد بن محمد بن بقية بن علي (ت ٩٧٧/٣٦٧ هـ) . الوزير الناصح، نصير الدولة، خدم معز
 الدولة، ولما خلفه ولده عز الدولة بختيار استوزره سنة ٣٦٢ هـ، ثم نقم عليه، فاعتقله سنة ٣٦٦ هـ،
 وسلمه لعضد الدولة فطرحه تحت أرجل الفيلة، ثم صلبه.

الزركلي . الاعلام ج٧ ص ٢٤٤.

وصادر ونفى وشرد، حتى أصبحت البطيحة^(١) ملجأ لكل خائف ومأوى لكل مطرود^(٢).

ثم استولى عضد الدولة^(٣) على العراق سنة ٩٧٦/٣٦٦، ودخل بغداد فاتحاً سنة ٩٧٧/٣٦٧، وقتل ابن عمه عز الدولة بختيار، وطرح وزيره ابن بقية تحت أرجل الفيلة.

واستطاع عضد الدولة نشر النفوذ البويهى، وإقامة إمبراطورية تشمل ثلثي فارس وبلاد ما بين النهرين، واتخذ لقب شاهنشاه - أي ملك الملوك - لأول مرة في الإسلام، وظل هذا اللقب لمن جاء بعده من ملوك بني بويه. وفقد الخليفة العباسي كل سلطان حتى وصل الأمر إلى خلع الطائع لله (ت ٣٩٣/١٠٠٢) على يد بهاء الدولة بن عضد الدولة في سنة ٩٩١/٣٨١ وسلمه إلى خلفه القادر بالله، فأقام عنده إلى حين وفاته^(٤).

٢ - قيامه بمهام سياسية دعماً للخلافة العباسية:

عاصر المارودي الخليفة القادر بالله (٩٩١/٤٢٢ - ١٠٣١) الذي دامت خلافته ٤١ سنة، ثم الخليفة القائم بأمر الله (٤٢٢ - ٤٦٧/١٠٣١ - ١٠٧٤) الذي حكم ٤٥ سنة، وعمل في خدمتهما في فترة حرجة من تاريخ الخلافة العباسية اتسمت

(١) البطيحة - جمعها بطائح، وهي أرض واسعة بين واسط والحصرة كانت قديماً قرى متصلة وأراضي عامرة، فاتفق أيام كسرى أبرويز أن زاد دجلة والفرات بخلاف العادة، وتبطح الماء في تلك الديار والعمارات والمزارع، فطرد أهلها منها.

ياقوت الحموي: معجم البلدان ج ١ ص ٦٦٨

(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ٤١٥.

(٣) عضد الدولة، أبو شجاع فناخسرو بن أبي علي الحسن ركن الدولة بن بويه (ت ٩٨٢/٣٧٢) أحد المتغلبين على الملك في عهد الدولة العباسية، تولى ملك فارس ثم ملك الموصل وبلاد الجزيرة ودخل بغداد فاتحاً ٣٦٧ هـ فاستقبله الخليفة الطائع وطوقه وسوره ولقب به شاهنشاه وعضد الدولة وتاج الملة توفي بعلة الصرع ببغداد.

ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ١١٣. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٣ ص ٢١٨.

الزركلي: الاعلام ج ٥ ص ٣٦٤ وج ٧ ص ٢٤٤.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم ج ٧ ص ٢٢٤.

بالنفوذ البويهى، ومع ذلك استمر الماوردي على ولائه للخلافة العباسية ونصب نفسه للدفاع عنها ضد الدعوة الإمامية التي أيدها البويهيون من داخل بغداد نفسها، وضد الدعوة الإسماعيلية التي قامت على أساسها الخلافة الفاطمية في القاهرة والتي تحاول القضاء على الخلافة العباسية. وهكذا كانت للماوردي مكانة خاصة عند القادر بالله الذي كان واسع الإطلاع في فقه المذاهب الأربعة عند أهل السنة. كما ازدادت مكانته زمن القائم بأمر الله العباسي^(١)، لذلك لم ينقطع الماوردي عن الخليفة القائم حتى في أواخر أيامه. وقد عهد الخليفة إليه مهمات سياسية للتوسط بينه وبين ملوك بني بويه، فازدادت مكانته، مثبتاً قدرة في الوقوف بشجاعة أمام الخليفة العباسي أو الملك البويهى، وإبداء النصح وقول الحق حتى لو أدى ذلك إلى إغضاب أحدهما. وقد شارك الماوردي في المفاوضات مع السلطان أبي كاليجار في الأهواز سنة ٤٢٣/١٠٣٢، والتي انتهت بموافقة الخليفة القائم على منح السلطان لقب ملك الدولة مقابل مبلغ كبير من المال. وكذلك شارك في فض الخلاف بين الخليفة العباسي والسلطان البويهى جلال الدولة في عكبرا في نفس العام دون جدوى. وعندما طلب جلال الدولة بن بويه في سنة ٤٢٩/١٠٣٨ من الخليفة القائم لقب «شاهنشاه الأعظم»، أي ملك الملوك، أجابه إلى طلبه، وأفتى بعض الفقهاء بجواز هذا اللقب الجديد حرصاً على إسترضاء البويهيين. في حين أثار هذا اللقب إعتراض البعض الآخر، ومنهم الماوردي، الذي أفتى بالمنع رغم أنه من المقربين إلى جلال الدين بن بويه، ولم يكتف بذلك بل انقطع الماوردي عن زيارة الملك البويهى الذي سرعان ما استدعاه إليه شاكراً له موقفه وإيثاره الحق^(٢)، وارتفعت بذلك مكانة الماوردي عند جلال الدولة بن بويه. وهذا ما يوضح أن النفوذ البويهى على الخلفاء العباسيين، قد أخذ يتزعزع منذ بداية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي بسبب

(١) أبو جعفر عبد الله بن أحمد القائم بالله (ت ٤٦٧/١٠٧٤). بويغ بالخلافة بمدينة السلام يوم ١٣ ذي الحجة سنة ٤٢٢ هـ، وأمه بدر الدجى الأرمينية، وقيل اسمها قطر الندى. وفي أيامه انقضت دولة البويهيين من بغداد وقامت دولة السلاجقة بعد أن دخل طغرل بك السلجوقي بغداد وقبض على الملك الرحيم آخر ملوك بني بويه، وانقذ القائم بالله من السجن وتوفي القائم يوم الخميس ١٣ شعبان سنة ٤٦٧ هـ، ودفن في داره بالقصر الحسيني بعد أن حكم ٤٥ سنة، وبويغ بعده المقتدي بالله.

الصفدي: الوافي بالوفيات ج ١٧ ص ٢٠ - ٢٣.

(٢) ياقوت الحموي: معجم الأدباء ج ٥ ص ٤٠٧.

الخلافات الداخلية وثورات العجد، إضافة إلى محاولات الخليفة العباسي القادر ثم ابنه القائم في إستعادة الحكم العباسي، وقيامهما بخطوات تجريبية لتأكيد مطالبهما^(١).

٣ - أول «أقضى قضاة» في الاسلام سنة ١٠٣٨/٤٢٩ :

وهكذا تبوأ الماوردي مكانة عالية زمن القادر والقائم، فلعب دوراً سياسياً حيث كان بمثابة سفير الخليفة في المفاوضات، فضلاً عن وضع الكتب المختلفة دعماً للخلافة العباسية، مما جعل الخليفة القائم بأمر الله يكرمه بلقب «أقضى القضاة» لأول مرة في الإسلام وذلك سنة ١٠٣٨/٤٢٩ .

وكانت للماوردي، بسبب تقلده القضاء في أماكن مختلفة إضافة إلى لقب «أقضى القضاة»، نظرة خاصة في القضاء نابعة من العلم والثقافة الغزيرة ومن التجربة العملية في ميدان القضاء^(٢). وقد أعتبر القضاة طبقة أساسية لا يستغني عنها الملك في حكمه لأنهم موازين العدل وحراس السنة^(٣) باتباعها في أحكامهم، وبهم ينتصف المظلوم من الظالم في رد ظلامته، والضعيف من القوي في استيفاء حقه.

٤ - دور كتبه في الدفاع عن الخلافة العباسية :

امتاز الماوردي بغزارة الانتاج، فله تصانيف كثيرة ضاع معظمها^(٤) ولا يعرف

(١) هاملتون جب : حضارة الإسلام ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

(٢) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ٦٥ - ٦٦ . أدب القاضي ج١ ص ٦١٨ - ٦٤٣ .

(٣) الماوردي : تسهيل النظر ص ٢٠٤ .

(٤) قيل أن الماوردي لم يظهر شيئاً من تصانيفه في حياته، ويذكر ابن خلكان : أن الماوردي جمع تصانيفه كلها في موضع، ولما دنت وفاته قال لمن يثق به : الكتب التي في المكان الفلاني كلها تصنيفي، وإنما لم أظهرها لأنني لم أجد نية خالصة، فإذا عانيت الموت ووقعت في النزاع، فأجعل يدك في يدي فإن قبضت عليها وعصرتها فاعلم أنه لم يقبل مني شيء منها، فاعمد إلى الكتب وألقها في دجلة، وإن بسطت يدي ولم أقبض على يدك فاعلم أنها قد قبلت، وإني قد ظفرت بما كنت أرجوه من النية قال ذلك الشخص : فلما قارب الموت وصعت يدي في يده، فبسطها ولم يقبض على يدي، فعلمت أنها علامة القول، فأظهرت كتبه بعده وعليها خطه . وينفي السبكي هذه الرواية .

ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

السبكي : طبقات الشافعية ج٣ ص ٣٠٣ .

منها إلا نحواً من إثني عشر مؤلفاً هي أربعة في السياسة وخمسة في الدين وثلاثة في اللغة والأدب.

(أ) في السياسة :

تعتبر كتبه في السياسة: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، وتسهيل النظر وتعجيل الظفر، وأدب الوزير، ونصيحة الملوك، ذات أهمية خاصة ميزت الماوردي عن غيره من المؤلفين، فلكل كتاب موضوعه المستقل عن الآخر، وإن كانت هناك بعض الأمور المشتركة وهو ما يتصل بالأمور الدستورية والاقتصادية والاجتماعية. كما أن الماوردي بحكم تقربه من الخليفة العباسي والملك البويهي، وبذل النصح لهما بسبب الوضع السياسي المضطرب، لم يكن نظرياً كما هو شأن الفقهاء بل كان تجريبياً أغنى التشريعات بما إستنبطه من أحكام للحوادث التي طرأت، كما كان واسع الثقافة وظهر أثر ذلك في تصانيفه. وهنا لا بد من وقفة أمام كتبه السياسية لارتباطها بالواقع السياسي الذي عاشه الماوردي.

- الأحكام السلطانية والولايات الدينية :

بالنسبة لكتابه الأحكام السلطانية^(١)، فقد أشار في مقدمته بعد الفاتحة المألوفة إلى السبب الذي من أجله وضع هذا الكتاب بقوله: «ولما كانت الأحكام السلطانية بولاة الأمور أحق، وكان امتزاجها بجميع الأحكام يقطعهم عن تصفحها مع تشاغلهم بالسياسة والتدبير، أفردت لها كتاباً امتثلت فيه أمر من لزمت طاعته، ليعلم مذاهب الفقهاء، فيما له منها فيستوفيه، وما عليها منها فيوفيه، توخياً للعدل في تنفيذه وقضائه، وتحريراً للنصفة في أخذه وعطائه^(٢)».

وهكذا أشار الماوردي إلى أنه أفرد كتاب الأحكام السلطانية بالتأليف امتثالاً لأمر من لزمت طاعته، ولكنه لم يبين ذلك الذي لزمت طاعته، والمعروف أن الماوردي كان سفير الخليفة العباسي القادر ثم ابنه القائم، والناطق بإسميهما في المفاوضات الجارية بينهما وبين البويهيين، لذلك يبدو أن كتابه الأحكام السلطانية قد وضع

(١) تعتبر طبعة الأحكام السلطانية التي نشرها انجر Enger في بون ١٨٥٣ من أفضل الطبقات لأنها تقترب من حدود الصحة أما الطبقات الأخرى فقد شوهتها كثرة الأخطاء المطبعية والحذف.

(٢) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ٣.

تلبية لرغبة أحدهما^(١)، وإن كان من المحتمل أنه وضعه بناء لرغبة القادر^(٢). خاصة وأن هذا الخليفة كان يأمل في استعادة مجد الخلافة العباسية بعد أن تزعزعت أوضاعها بدخول البويهيين وقيام الإمارات المستقلة في أرجائها، والماوردي رأى بعينه الأوضاع السياسية السيئة التي مرت بها الدولة العباسية، والتمزق الذي أصابها، والصراع الكبير على السلطة بين تلك الإمارات، فرأى أن يضع كتبه السياسية ليبين لكل شخص مسؤول حدوده التي يقف عندها، فلا يتجاوزها، وليعيد الحق إلى نصابه بعد الضياع. وكان في تقلده منصب أفضى القضاة ومنصب السفارة بين الدول ما جعله يطلع على أحوال الملوك وسيرهم إطلاعاً عميقاً، فجاء كتابه مستخرجاً مما خبره ورآه. وعلى هذا الأساس قسم الماوردي كتابه الأحكام السلطانية إلى عشرين باباً^(٣)، دون أن يترك جانباً من جوانب الحكم ولا ركناً من أركان نظام الدولة إلا عالجه، وقرر قواعده وحدد أصوله ووضح شروطه وفصل حقوقه وواجباته.

وهكذا نجد أن الباب الأول من الأحكام السلطانية يتعلق بنظرية الماوردي في الخلافة^(٤)، وقد وضعت أساساً لتدعيم الخليفة العباسي، كما تعتبر أفضل عرض معتمد للنظرية السنية السياسية، أي رأي أهل السنة في الخلافة، فاعتبر الماوردي أن الخلافة تنعقد باختيار أهل العقد والحل وللخليفة أن يحدد هذا الاختيار فيحصره بعد وفاته في بضعة نفر، كما له أن يسمي أهل الشورى الذين يختارون، وهذا ما فعله عمر بن الخطاب. وأصر الماوردي على عدم شرعية قيام خليفتين، مما يصور رفض العباسيين وأتباعهم التسليم بدعوى الفاطميين منافسيهم الخطرين، وإخراج أموي

(١) هاملتون جب : حضارة الاسلام ص ٢٠٠ .

(٢) الماوردي تسهيل النظر ص ٣١

(٣) الباب الأول في عقد الإمامة، والثاني في تقليد الوزارة، والثالث في تقليد الإمارة على البلاد، والرابع في تقليد الإمارة في الجهاد، والخامس في الولاية على الحروب والمصالح، والسادس في ولاية القضاء، والسابع في ولاية المظالم، والثامن في ولاية النقابة على ذوي الأنساب، والتاسع في الولاية على إمارة الصلوات، والعاشر في الولاية على الحج، والحادي عشر في ولاية الصدقات، والثاني عشر في قسم الفيء والغنيمية، والثالث عشر في رضع الجزية والمخراج، والرابع عشر فيما تختلف أحكامه من البلاد، والخامس عشر في أحياء الموات واستخراج المياه، والسادس عشر في الحمى والافاق، والسابع عشر في أحكام الاقطاع، والثامن عشر في وضع الديوان وذكر أحكامه، والتاسع عشر في أحكامه الجرائم، والعشرون في أحكامه الحسبية.

(٤) راجع في نظرية الماوردي في الخلافة: - محمد جلال شرف: نشأة الفكر السياسي ص ٢١٨-٢٢٧،

هاملتون جب : حضارة الاسلام ص ١٩٨-٢١٢ .

الأندلس من هذا الحق . ورغم أنه حدد شروطاً تؤدي إلى فقدان الخليفة لخلافته، مثل الجرح في عدالته أو النقص في العقل والجسم مما يحول دون القيام بواجباته الدينية والقضائية والإدارية، فإن الماوردي يبرر عجز الخلفاء العباسيين من القيام بواجباتهم إلى الحجر والقهر اللذين عاشوا فيهما طوال قرن أو نحوه، بعد أن سيطر عليهم أعوانهم وإستبدوا بتنفيذ الأمور من غير تظاهر بمعصية وخاصة الأمراء البويهيين، واعتبر أن الحجر أو القهر لا يؤديان إلى فقدان الخليفة لخلافته مادامت أفعال المستبدين على الحكم جارية على أحكام الدين ومقتضى العدل، أما إذا خرجت أفعالهم عن حكم الدين ومقتضى العدل لزم الخليفة أن يستنظر من يقبض يد المستولي عليه ويزيل تغلبه . وهذا يعني في النهاية دعم موقف الخليفة العباسي في صراعه ضد البويهيين وغيرهم، كما يعني الوعيد للبويهيين إذا ظلت أعمالهم تثير الاعتراض .

وبذلك نلاحظ أن الخليفة العباسي كان يمثل رمز السلطة الرسمية، في حين كانت السلطة الفعلية بيد البويهيين، وقبلهم الفرس والأتراك، مما أدى لظهور دعوة تنادي بتنصيب خليفة من أصل غير عربي، ومن هنا ظهرت دعوة الماوردي المناقضة والتي تشترط في الخليفة أن يكون عربياً قرشياً، وهذا يعتبر سنداً رئيسياً لتدعيم مركز الخليفة العباسي .

- تسهيل النظر وتعجيل الظفر :

يعتبر كتاب «تسهيل النظر وتعجيل الظفر»^(١) كتاب تبصير ونصح في وقت عز فيه

(١) ورد ذكر كتاب تسهيل النظر في كثير من المؤلفات، وقد اختلفت في تسميته، فقد ذكره ياقوت الحموي والصفدي باسم «تعجيل النصر وتسجيل الظفر»، وذكره حاجي خليفة باسم «تسهيل النصر وتعجيل الظفر»، أما إسماعيل باشا البغدادي فقد ذكره باسم «تسهيل النظر وتعجيل الظفر» وتابعه على هذه التسمية سائر المحدثين، واكتفى الزركلي باسم «تسهيل النظر» فقط .

ولكتاب تسهيل النظر وتعجيل الظفر نسختان خطيتان، الأولى مودعة في مكتبة مدينة «عوتا» في ألمانيا الغربية وهي نسخة كاملة للكتاب تقع في ٦٥ ورقة بخط نسخ جميل في كل صفحة ١٩ سطراً بمعدل ١٣ كلمة في السطر، والثانية مودعة في مكتبة كلية الآداب في طهران وهي مختصرة من الكتاب اختصاراً شديداً إلا أنها شملت أغلب مواضيعه وتقع في ١٢ صفحة بمعدل ٣٢ سطراً في الصفحة، وبمعدل ١٦ كلمة في السطر الواحد وبخط فارسي .

ياقوت الحموي : معجم الأدباء ج ١٥ ص ٥٢؛ الصفدي . الوافي بالوفيات ج ١٢ ص ١٥٤؛ حاجي خليفة : كشف الظنون ج ١ ص ٤٠٨؛ إسماعيل باشا البغدادي : هدية العارفين ج ١ ص ٦٨٩؛ الزركلي : الأعلام ج ٥ ص ١٤٦ .

الماوردي . تسهيل النظر، مقدمة المحقق ص ٣٥ - ٣٧ .

الناصحون وكثر فيه المتملقون واضطربت فيه نار الفتنة بين أجزاء الدولة العباسية التي تحولت إلى دويلات صغيرة متنافرة ومتنافسة، فكان كتابه خير ناصح ومعين ليصلح ما فسد، وكلماته أقوالاً حكيمة وتجارب نافعة تصلح ما إعووج من سير الملوك والأمراء. ويعتبر الكتاب أيضاً تأليف أديب شغفه الأدب، فكان كثيراً ما يستشهد بالأبيات ذات التعبير الجميل والكلام الغزلي الرقيق ولو كان المقام مقام فقه وأحكام. ولقد دفعه حب الأدب إلى أن يدون نصوصاً شعرية ونثرية ذات قيمة في تاريخ الأدب. ولم يشر الماوردي إلى سبب تأليفه الكتاب الذي تبدو قيمته وأهميته في كونه تأليف رجل واسع الثقافة غزير المادة، فقد استشهد بالآيات القرآنية والكثير من الحديث النبوي، وبأقوال بعض الأنبياء السابقين كسليمان وعيسى، واقتبس كثيراً من الآثار والأخبار الموقوفة على الصحابة والتابعين، وذكر الكثير من الأبيات الشعرية وأقوال الحكماء والفلاسفة من العرب والفرس واليونان.

وبذلك ضم الكتاب ٣٧٨ حكمة، و١١٤ بيتاً من الشعر، و٥٦ حديثاً مرفوعاً إلى النبي، و١٤ قولاً من أقوال الصحابة، و١٣ قولاً للتابعين، و٢ من الأمثال نسبتها إلى العرب، وقد جمعها كلها ورتبها وبوّبها في بابين^(١)، الأول في أخلاق الملك والثاني في سياسة الملك، وهو بذلك يمثل لنا مقدرة الفكر العربي الإسلامي على هضم المادة الحضارية وإظهارها بقالب جديد بعد نقدها ومعرفة حقيقتها. وقد استهل الماوردي كتابه بالبسملة وحمد الله والصلاة على النبي ثم ختمه بحمد الله^(٢).

وله كتاب «قوانين الوزارة وسياسة الملك»، وكتاب «نصيحة الملوك».

(١) الباب الأول في أخلاق الملك، ويتحدث في ثمانية عشر فصلاً عن أخلاق الذات - أوائل الفضائل وأواخرها - أفعال الارادة - الكرم والمروءة - السجايا والأخلاق - الأفعال الشريفة بالأخلاق الشريفة - شواهد الفضل - الصدق - توقي الغضب - الصبر - كتمان السر - المشورة - الأخلاق المتقابلة في الملوك - الوفاء بالعهد - الحسد - تصفح الأعمال - الطيرة والفأل - الملوك قدوة للناس - أما الباب الثاني ففي سياسة الملك، ويتحدث في ثمانية فصول عن: أن يكون الملك أفضل الناس ديناً - قواعد الملك - سياسة الملك - أصل ما تبنى عليه السياسة العادلة - تهذيب الأعوان والحاشية - أشد ما يمني به الملك في سياسة الملك - سياسة الملك وأحواله - دوام تفقد الملك الأحوال العامة.

(٢) الماوردي: تسهيل النظر ص ٣٥ - ٣٦.

(ب) في الفقه والدين :

كان الماوردي على مذهب الشافعي ، وعندما ارتفعت مكانته وحمل لقب «أقضى القضاة» كانت زعامة الشافعية في عهده، ونظر إليه الفقهاء نظرة إجلال فأغنى المذهب الشافعي بالكثير من اجتهاده وعلمه وآرائه الكثيرة على أساس تحكيم العقل، وهذا ما جعل البعض يوجه إليه تهمة الإعتزال، وقد دافع السبكي عن الماوردي ونفى عنه هذه التهمة في كتابه طبقات الشافعية^(١).

أما كتبه الدينية فهي : تفسير القرآن ويسمى «النكت والعيون»، و«الحاوي الكبير في الفقه الشافعي»، ويعتبر الحاوي الكبير موسوعة ضخمة في فقه الشافعية تقع في ثلاثين جزءاً، ومازال مخطوطاً، طبع منه كتاب «أدب القاضي». وله أيضاً كتاب «الإقناع في الفقه الشافعي»، وهو مختصر لكتاب الحاوي الكبير ومازال مفقوداً، وسبب تأليف كتاب الإقناع أن الخليفة القادر عهد إلى أربعة من أئمة المسلمين في المذاهب الأربعة بأن يصنف له كل واحد منهم مختصراً على مذهبه فصنف له الماوردي الإقناع وعندما عرضت الكتب الأربعة على الخليفة قال للماوردي : «حفظ الله عليك دينك كما حفظت علينا ديننا» وله أيضاً كتاب «البيوع» وهو مفقود أيضاً، و«أعلام النبوة».

(ج) في اللغة والأدب :

أما كتبه في اللغة والأدب فهي كتاب «النحو»، وكتاب «الأمثال والحكم» الذي يضم ثلاثمائة حديث وثلاثمائة حكمة وثلاثمائة بيت شعر، والكتابان مفقودان. وله كتاب «أدب الدين والدنيا» الذي يعتبر من أهم مؤلفات الماوردي الأدبية، ففيه يستخرج ما في القرآن الكريم من آيات وما في السنة من حديث تحث على الفضائل وتنهي عن الرذائل.

وهكذا يمكن القول أن الخليفة القادر بالله ومن بعده القائم بالله، حاولا إعادة عظمة ومجد الخلافة العباسية عن طريق التخلص من النفوذ البويهي، وقد ساعدهما أقضى القضاة الماوردي في هذه المحاولة بسبب ولائه لهذه الخلافة، فشارك في المفاوضات بين الخليفة العباسي والسلطان البويهي، كما شارك بواسطة كتبه السياسية

(١) السبكي : طبقات الشافعية جـ ٣ ص ٣٠٣.

والفقهية في نصرة الخلافة والدفاع عنها. وبتزايد النفوذ السلجوقي كان الماوردي أيضاً رسول الخليفة العباسي إلى السلطان طغرل بك سنتي ٤٣٥ - ٤٣٦/١٠٤٣ - ١٠٤٤، حيث عمل جاهداً لتأمين الخليفة والرعية على أرواحهم وممتلكاتهم.

ومنذ سنة ٤٣٧/١٠٤٥ توقف الماوردي عن العمل السياسي دفاعاً عن الخلافة العباسية، حيث انتقل هذا الدور إلى ابن المسلمة (٣٩٧ - ٤٥٠/١٠٠٧ - ١٠٥٨) وهو وزير الخليفة، ومع ذلك لم يعتزل الماوردي المشاركة في الحياة العامة والكتابة، وقد وضع لهذا الوزير كتاب «قوانين الوزارة وسياسة الملك» ويعرف أيضاً باسم «أدب الوزير».

وكان من حسن حظ الماوردي أن يشاهد نهاية النفوذ البويهبي على يد السلاجقة. فعندما سجن الخليفة القائم بأمر الله العباسي على يد الملك الرحيم البويهبي، دخل طغرل بك السلجوقي بغداد سنة ٤٤٧/١٠٥٥، وقبض على الملك الرحيم الذي يعتبر آخر ملوك بني بويه. وبذلك انقذ الخليفة العباسي من السجن ليعيش في ظل النفوذ السلجوقي.

وهكذا كان الماوردي فقيهاً، مفسراً، أصولياً، أديباً، شاعراً، لغوياً، مؤرخاً، مربياً، قاضياً، سياسياً، جغرافياً، فيلسوفاً، محدثاً، كما كان أول من لقب بأقضى القضاة. وقد توفي يوم الثلاثاء ٣٠ ربيع الأول سنة ٤٥٠/٢٧ حزيران ١٠٥٨، ودفن في مقبرة باب حرب ببغداد^(١).

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٣ ص ٢٨٤.

الخاتمة

يمكن القول أن نشوء منصب قاضي القضاة في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة/ النصف الثاني من القرن الثامن للهيلاد، كان البداية الحقيقية لظهور السلطة القضائية المستقلة عن السلطة التنفيذية، رغم أن جذور هذا الاستقلال تعود إلى الخليفة عمر بن الخطاب الذي عين أول قضاة في الإسلام. وقد توج هارون الرشيد هذا الاستقلال عندما عين أول قاضي قضاة في الإسلام ليستقل في أمور القضاء والقضاة بعد تنظيم السلطة القضائية، فكانت محاولة جديدة ذات أهمية كبرى في الفصل بين السلطين القضائية والتنفيذية.

ركانت سلطة قاضي القضاة تتسع أو تنكمش حسب قوة أو ضعف شخصيته، فامتد نفوذ بعض قضاة القضاة أحياناً إلى الحسبة والنظر في المظالم والشرطة وغيرها... حتى تقلد البعض الآخر الوزارة... ومع ذلك فإن سلطة قاضي القضاة لم تشمل السلطة التنفيذية مما يؤكد محاولة الفصل بين السلطين القضائية والتنفيذية.

منذ نشأته، لم يستطع منصب قاضي القضاة الإفلات من المذاهب. فقد ظهرت المذاهب الأربعة عند أهل السنة وهي مذاهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل، كما ظهر المذهب الشيعي الإسماعيلي مع قيام الخلافة الفاطمية في القاهرة.

وهكذا أصبح القضاء تابعاً للمذاهب المدونة، ولم يعد لقاضي القضاة حاجة للعودة إلى المصادر الأصلية واكتفى بما قدمه مدونو المذهب من أدلة تقنع الباحث والقاضي. وقد أغنت هذه المذاهب، رغم الفوارق بينها، التشريع الإسلامي الذي يعتبر بمثابة القوانين والأحكام التي تتقيد بها السلطة القضائية سواء في بغداد، حيث نجح أبو يوسف، (ت ١٨٢/٧٩٨) وهو أول قاضي قضاة في الإسلام، في جعل مذهب استاذه أبي حنيفة مذهب أهل العراق في العصر العباسي، أو في القاهرة حيث يعتبر قاضي القضاة النعمان بن محمد (ت ٣٦٣/٩٧٤) مؤسس النظام القضائي الفاطمي على أساس المذهب الشيعي الإسماعيلي، أو في قرطبة مقر قاضي الجماعة الأموي على أساس المذهب المالكي...

ولم يغب قاضي القضاة عن الصراع السياسي الدائر داخل الخلافة العباسية في

بغداد، فقد نجح قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد (ت ٢٤٠/٨٥٤) في جعل الإعتزال عقيدة رسمية للدولة العباسية زمن الخلفاء المأمون والمعتصم والواثق، واختلط القضاء بالفكر الفلسفي للمعتزلة، وبذلك أخطأ ابن أبي دؤاد في استغلال نفوذه الكبير لدى هؤلاء الخلفاء في حمل الناس على الإعتزال وإكراههم على القول بخلق القرآن الكريم فكانت المحنة (٢١٨ - ٢٣٤/٨٣٣ - ٨٤٩) حينما تعرض للإضطهاد كل من خالف المعتزلة وخاصة الإمام أحمد بن حنبل الذي تزعم أهل السنة، ووقف بجرأة وشجاعة في وجه المعتزلة وقاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد، ممهداً بذلك الطريق أمام الخليفة المتوكل للقضاء عليهما (٢٣٤ - ٢٣٧/٨٤٩ - ٨٥٢)، فانقلبت المحنة على الإعتزال نفسه حيث أبعث كل معتزلي عن القضاء، وغابت المعتزلة عن المسرح السياسي.

وشارك قاضي القضاة في الصراع بين الوزراء حول السلطة والنفوذ، فقاضي القضاة أبو جعفر (ت ٣١٨/٩٣٠) لم يخشى في الحق لومة لائم أثناء محاكمة الوزير ابن الفرات سنة ٣٠٦/٩١٨ أو محاكمة الوزير علي بن عيسى سنة ٣١١/٩٢٣، في حين اتخذ أبو عمر (ت ٣٢٠/٩٣٢) الموقف الذي تقتضيه المصلحة من أجل الحصول على منصب قاضي القضاة، فلم يتورع عن الإشتراك في مؤامرة خلع المقتدر سنة ٢٩٦/٩٠٨، ثم في محاكمة الحلاج سنة ٣٠٩/٩٢١ حتى أفتى بقتله إرضاء لثوي السلطة والنفوذ. ولم يجد قاضي القضاة أبو السائب (ت ٣٥٠/٩٦١) ما يمنعه من محاكمة المتصوفة، رغم ميله إليهم، وذلك إكراماً للوزير أبو محمد المهلب الذي تقلد الوزارة سنة ٣٣٩/٩٥٠.

ويبدو أن المكانة العالية التي وصل إليها قاضي القضاة، جعلته معرضاً لحمولات الإفتراء والتشويه من قبل الحساد والطامعين في منصبه. فهو قاضي الخليفة وقاضي الدولة، يلازم الخليفة والوزراء ويتوسط لديهم ويعين القضاة ويعزلهم، ولا تعقد بيعة وخلع الخلفاء من دونه. نجده في المواكب الرسمية وأثناء عقد خطبة وزواج الخلفاء والأمراء، ويستعان به في محاكمة الوزراء والأشخاص الذين يهددون الحكم. فلا غرو أن يتعرض لمثل هذه الحملات التي وصلت إلى حد إنهام قاضي القضاة يحيى بن أكثم (ت ٢٤٢/٨٥٧) بشرب الخمر واللواط في بغداد، وقاضي القضاة ابن خلكان (ت ٦٨١/١٢٨٢) بالولع بالغلغان في دمشق والقاهرة، وقد اشتكى قاضي القضاة

النعمان بن محمد (ت ٣٦٣/٩٧٤). نفسه إلى الخليفة الفاطمي من لسان الحساد في المنصورية. . . .
والواقع، أن هناك قلة قليلة من القضاة تأثرت بمجالس اللهو والشرب والرقص، وهي إستثناء، وقاضي القضاة كان يبتعد عن مثل هذه المجالس ويحافظ على تعاليم القرآن الكريم، وآداب المنصب الذي تقلده من هيبة ووقار وأخلاق رفيعة، فكان يحضر مجالس الشعر والأدب، ويميل إلى أهل العلم والتأليف حتى وضعت على يديه أشهر الكتب في القضاء والتشريع مثل «الخراج» و«اختلاف أبي حنيفة وابن أبي ليلى» لقاضي القضاة أبي يوسف، و«الفرج بعد الشدة» لقاضي القضاة أبي الحسين عمر (ت ٣٢٨/٩٤٠)، و«دعائم الإسلام في الحلال والحرام والقضايا والأحكام» و«افتتاح الدعوة وابتداء الدولة» و«المجالس والمسائرات» لقاضي القضاة النعمان بن محمد و«الأحكام السلطانية والولايات الدينية» و«تسهيل النظر وتعجيل الظفر» و«قوانين الوزارة وسياسة الملك» و«الحاوي الكبير» لأقضى القضاة الماوردي (ت ٤٥٠/١٠٥٨)، و«وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» لقاضي القضاة ابن خلكان ورغم هذا كله، لم يتمتع قاضي القضاة بحصانة معينة، فهو غير معصوم من الخطأ، لذلك كان يتعرض للإهانة والضرب والمحاكمة والعزل وحتى السجن. وهو في أكثر الأحيان يدفع في ذلك ثمن عداوة أصحاب السلطة والنفوذ، أو ثمن الصراع فيما بينهم.

والحقيقة أن منصب قاضي القضاة عرف عصره الذهبي في النصف الثاني من القرن الثاني حتى الثلث الأول من القرن الرابع للهجرة/النصف الثاني من القرن الثامن حتى النصف الأول من القرن العاشر للميلاد. لكن هذا العصر لم يدم طويلاً، فبدأ منصب قاضي القضاة في الانحدار في الفترة (٣٣٣ - ٣٥٢/٩٤٤ - ٩٦٣) حيث تقلده أناس غير جديرين به أمثال الشقيقان أبو الحسن وأبو العباس بن أبي الشوارب الأموي وأبو السائب عتبة بن عبيد الله الهمداني. وقد تميزت هذه الفترة بالرشوة والفساد وإدخال نظام الإلتزام في القضاء الذي يعني الحصول على منصب قاضي القضاة مقابل مبلغ معين من المال وصل إلى مائتي ألف درهم سنوياً في سنة ٣٥٠/٩٦١. كما تميزت هذه الفترة بسيطرة النفوذ البويهني على الخلافة العباسية داخل بغداد نفسها، وبالتالي على القضاء ومنصب قاضي القضاة الذي جعل القضاة يتنافسون في التودد إلى

البويهيين من أجل الحصول عليه، فقد شهد أبو السائب بداية هذا النفوذ عندما خرج إلى البصرة مهنتاً الأمير معز الدولة البويهي مما فتح له الطريق أمام تقلد منصب قاضي القضاة سنة ٣٣٨/٩٤٩.

وكان لقيام قاضي قضاة آخر في القاهرة، مع قيام الخلافة الفاطمية في مصر والشام (٣٦٢ - ٩٧٣/٥٦٧ - ١١٧١)، دور في تقليص نفوذ قاضي قضاة بغداد، خاصة وأن التباين واضح بين مذهب وسياسة الخلافة التي يتبعها كل منهما. لذلك لم يغيب قاضي القضاة عن الصراع المذهبي والسياسي بين الخلافة العباسية في بغداد والخلافة الفاطمية في القاهرة، فقد وضع قاضي القضاة النعمان بن محمد، كتبه الكثيرة من أجل تأسيس النظام القضائي الفاطمي على أساس المذهب الشيعي الإسماعيلي، مما أخذ يهدد النظام القضائي العباسي القائم على مذاهب أهل السنة، هذا فضلاً عن تهديد الخلافة العباسية نفسها التي حاول الفاطميون القضاء عليها.

وإزاء النفوذ البويهي والخطر الفاطمي على الخلافة العباسية داخل بغداد وخارجها، انبرى أقضى القضاة الماوردي في النصف الأول من القرن الخامس للهجرة/ النصف الأول من القرن الحادي عشر للميلاد، يعمل ويضع كتبه الكثيرة للدفاع عن الخلافة العباسية «السنية» ضد الخلافة الفاطمية «الشيعية»، وضد النفوذ البويهي الذي شهد خلاصها منه على يد السلاجقة، لكنه لم يشهد خلاصها من خطر الخلافة الفاطمية التي قضى عليها فيما بعد صلاح الدين الأيوبي سنة ١١٧١/٥٦٧، حيث أقام الدولة الأيوبية، (٥٦٧ - ١١٧١/٦٤٨ - ١٢٥٠) ولم يعد هناك قاضي قضاة فاطمي في القاهرة. فأعاد الوحدة المذهبية في الخلافة والقضاء، وأصبح المذهب الشافعي هو مذهب قاضي القضاة في الدولة الأيوبية يعاونه نائب قاضي قضاة على المذهب الحنبلي.

وكان أهم تطور لمنصب قاضي القضاة، في زمن المماليك (٦٤٨ - ١٢٥٠/٩٢٢ - ١٥١٦)، عندما أوجد الظاهر بيبرس قاضي قضاة لكل مذهب من المذاهب الأربعة عند أهل السنة، سواء في القاهرة سنة ١٢٦٥/٦٦٣ حيث عين تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز للشافعية وشرف الدين السبكي للمالكية وشمس الدين سليمان للحنفية وشمس الدين محمد المقدسي للحنابلة، أو في دمشق سنة ١٢٦٦/٦٦٤، حيث عين شمس الدين ابن خلكان للشافعية وزين الدين عبد السلام

الزواوي للمالكية وشمس الدين عبد الله بن محمد بن عطاء للحنفية وشمس الدين عبد الرحمن بن الشيخ أبي عمر للحنابلة. ثم أصبح لكل نيابة من نيابات مصر والشام أربعة قضاة يمثلون هذه المذاهب، مع الإشارة بأنه لا تقبل شهادة أحد ولا يرشح لوظائف القضاة أو الخطابة أو الإمارة أو التدريس والحسبة والمظالم وغيرها، إلا إذا كان من أتباع أحد هذه المذاهب الأربعة.

بالرغم من ذلك، لم يسترجع قاضي القضاة الهالة والسلطة التي كانت له في العصر الذهبي للتشريع والقضاء، فبعد أن كان قاضي قضاة الدولة العباسية بأسرها، أصبح هناك قاضي قضاة في بغداد والقاهرة ودمشق، فضلاً عن قاضي الجماعة في قرطبة، وغيرها من العواصم العربية الإسلامية، حتى انحصر نفوذه في مذهب معين مع المماليك.

وبسيطرة الأتراك المسلمين على الخلافة العربية الإسلامية (١٥١٦ - ١٩١٨)، استرد المذهب الحنفي مكانته ليصبح المذهب الرسمي مع استمرار المذهب المالكي والشافعي. ثم وحد محمد علي باشا (١٨٠٧ - ١٨٤٠) القضاء في مصر على المذهب الحنفي.

وكانت الضربة القاضية من المستعمر الأوروبي، الذي حمل معه القوانين الأجنبية وأنشأ محاكم جديدة زاحمت المحاكم الشرعية لتسلبها الصلاحيات الرئيسية، حتى اقتصر دورها على الأحوال الشخصية من خطبة وزواج وطلاق ونفقة وحضانة وحجر ووقف... فتحوّلت إلى محاكم الأحوال الشخصية التي تفصل في القضايا العائلية، بعد أن كانت تفصل في كل القضايا. وورثت البلاد العربية المسلحة من دولة الأتراك المسلمين هذا الواقع الجديد المتكرر للتراث الإسلامي، فضيقت الخناق بدورها على المحاكم الشرعية. وهكذا كان تطور مؤسسة قاضي القضاة إلى مؤسسة مشيخة الإسلام. وأصبحت المحاكم الشرعية برئاسة المفتي، وعلى المذهب الحنفي في معظم الدول العربية، في حين اقتصر المذهب الجعفري على الشيعة أينما وجدوا وخاصة في لبنان. ولم يعد لمنصب قاضي القضاة من وجود، فقد توزعت مهامه الصغيرة على المفتي والمحاكم التابعة له، في حين تولى وزير العدل والمحاكم التابعة له المهام الرئيسية والأساسية التي كان يضطلع بها قاضي القضاة، والتي كانت أساس السلطة القضائية في الإسلام.

المصادر والمراجع

المصادر العربية

- ١ - ابن أبي أصيبعة
أبو العباس موفق الدين أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس
السعدي الخزرجي المعروف بـ ابن أبي أصيبعة.
* عيون الأنبياء في طبقات الأطباء.
شرح وتحقيق نزار رضا.
مكتبة الحياة - بيروت ١٩٦٥.
- ٢ - ابن الأثير
عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري
(ت ٦٣٠/١٢٣٣).
* الكامل في التاريخ ١٣ ج
عن طبعة المستشرق تورنبيرغ - دار صادر بيروت ١٩٦٦.
جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٥/١٤٧٠)
* النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٦ ج
الطبعة الأولى - القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٧٢.
- ٣ - ابن تغري بردى
أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧/١٢٠١)
* المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ١٠ ج
الطبعة الأولى - حيدرآباد الدكن - دائرة المعارف العثمانية
(١٣٥٧ - ١٣٥٨ هـ).
* أخبار الحمقى والمغفلين
بيروت (لا.ت).
- ٤ - ابن الجوزي
* تهذيب التهذيب ١٢ ج
دائرة المعارف العثمانية. حيدرآباد الدكن.
الهند (١٣٢٥ - ١٣٢٧ / ١٩٠٧ - ١٩٠٩)
- ٥ - ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢/١٤٤٨).
* تهذيب التهذيب ١٢ ج
دائرة المعارف العثمانية. حيدرآباد الدكن.
الهند (١٣٢٥ - ١٣٢٧ / ١٩٠٧ - ١٩٠٩)

- * الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ٤ جـ
دائرة المعارف العثمانية حيدرآباد الدكن
الهند (١٣٤٨ - ١٣٥٠/١٩٢٩ - ١٩٣١).
الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني الوائلي
(ت ٢٣١/٨٥٥).
* الزهد ٢ جـ
تحقيق محمد جلال شرف. بيروت ١٩٨١.
* المقدمة
بيروت (لا.ت).
شمس الدين أبو العباس أحمد (ت ٦٨١/١٢٨٢)
* وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٨ جـ
تحقيق إحسان عباس
بيروت (١٩٧٠ - ١٩٧٢)
محمد بن شاکر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاکر الملقب
بصلاح الدين.
* فوات الوفيات ٥ جـ
تحقيق إحسان عباس
دار صادر - بيروت ١٩٧٣.
رضي الدين أبو القاسم علي بن موسى ابن جعفر بن محمد
بن طاووس الحسيني الحسيني (ت ٦٦٥/١٢٦٦).
* فرج المهموم في تاريخ علماء النجوم
النجف - المطبعة الحيدرية (١٣٦٨ هـ)
أبو جعفر محمد بن علي بن محمد بن طباطبا العلوي
المعروف بابن الطقطقي (ت ٧٠٩/١٣٠٩)
* الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية.
دار صادر - بيروت (لا.ت).
* قضاة دمشق «الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام»
١٢ - ابن طولون

- تحقيق صلاح الدين المنجد.
دمشق ١٩٥٦ .
- ١٣ - ابن طيفور أبو الفضل أحمد بن علي بن ثابت (ت ٢٨٠/٨٩٣)
* تاريخ بغداد ١٤ ج
بيروت (لا.ت).
- ١٤ - ابن عبد ربه أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨/٩٣٩)
* العقد الفريد ٨ ج
تحقيق محمد سعيد العريان
الطبعة الثانية - القاهرة سنة ١٩٥٣ .
- ١٥ - ابن العماد أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد الحنبلي (ت ١٠٨٩/١٦٧٩)
* شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٨ ج
مكتبة القدس - القاهرة ١٣٥٠ - ١٣٥١ هـ .
- ١٦ - ابن قتيبة أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦/٨٨٩)
* عيون الأخبار ٤ ج
- ١٧ - ابن كثير عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي
(ت ٧٧٤/١٣٧٢)
* البداية والنهاية ١٤ ج
القاهرة (١٣٥١ - ١٣٥٨/١٩٣٢ - ١٩٣٩)
ومكتبة المعارف - بيروت طبعة رابعة (١٤٠١/١٩٨١) .
- ١٨ - ابن مسكويه أبو علي أحمد بن محمد بن مسكويه (ت ٤٢١/١٠٣٠)
* تجارب الأمم ج ١ و ٢
تحقيق أمدروز - مصر ١٩١٤ .
- ١٩ - ابن منظور أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي بن أحمد الأنصاري
(ت ٧١١/١٣١١)
* لسان العرب ١٥ ج
دار صادر بيروت (١٣٧٤ - ١٣٧٦/١٩٥٥ - ١٩٥٦) .

- ٢٠ - ابن النديم أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد بن إسحاق (ت ٣٨٣/٩٩٢)
* الفهرست
تحقيق رضا تجدد - طبع طهران (لا . ت)
- ٢١ - أبو شامة المقدسي الشافعي الدمشقي (ت ٦٦٠/١٢٦١)
* تراجم رجال القرنين السادس والسابع
(المعروف بالذيل على الروضتين)
عني بنشره عزت العطار الحسيني .
القاهرة ١٩٤٧ .
- ٢٢ - ادريس عماد الدين (ت ٨٧٢/١٤٦٨)
* تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب
القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار
تحقيق محمد اليعلاوي
دار الغرب الإسلامي - بيروت ١٩٨٥ .
- ٢٣ - الأصفهاني أبو الفرج علي بن الحسين الأموي (ت ٣٥٦/٩٦٧)
* الأغاني ٢٠ ج
طبعة بولاق - مصر (١٢٨٥/١٨٦٩)
- ٢٤ - الأفسسي أرطا ميدورس
* كتاب تعبير الرؤيا
دمشق ١٩٦٤ .
- ٢٥ - البغدادي أبو منصور
* الفرق بين الفرق
القاهرة (١٣٢٨/١٩١٠) .
- ٢٦ - التميمي أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمي (ت ٣٣٣/٩٤٥)
* كتاب المحن .
تحقيق يحيى وهيب الجبوري
بيروت ١٤٠٣/١٩٨٣ .

٢٧ - التنوخي القاضي أبو علي المحسن بن علي بن محمد التنوخي (ت ٣٨٤/٩٩٤).

* نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ٨ جـ
تحقيق المحامي عبود الشالجي
دار صادر بيروت (١٩٧١ - ١٩٧٣).

* الفرج بعد الشدة ٥ جـ
تحقيق المحامي عبود الشالجي
دار صادر بيروت (١٩٧٨).

* المستجاد من فعلات الأجواد.
نشر وتحقيق محمد كرد علي
دمشق ١٣٦٥/١٩٤٦.

٢٨ - الشعالي أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري (ت ٤٣٠/١٠٣٨).

* يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ٤ جـ
تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد
القاهرة ١٩٥٦.

* لطائف اللطف

تحقيق عمر الأسعد
دار المسيرة - بيروت. طبعة أولى ١٤٠٠/١٩٨٠.

* ثمار القلوب

تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم
مصر ١٩٦٥.

٢٩ - حاجي خليفة مصطفى بن عبد الله (ت ١٠٦٧/١٦٥٧)

* كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ج ٢

تحقيق محمد شرف بالتقايا ورفعت بليكه الطليسي
استانبول ١٩٤١ - ١٩٤٣.

- ٣٠ - الحصري
 أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني
 (ت ٤٥٣/١٠٦١)
 * جمع الجواهر في الملح والنوادر.
 القاهرة ١٣٥٣ هـ.
- ٣١ - الخطيب البغدادي
 أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (ت ٤٦٣/١٠٧١)
 * تاريخ بغداد أو مدينة السلام ١٤ جـ
 الطبعة الأولى القاهرة ١٣٤٩/١٩٣١.
- ٣٢ - الذهبي
 شمس الدين
 * العبر في خبر من غير ٥ جـ
 تحقيق صلاح الدين المنجد وفؤاد سيد.
 الكويت ١٩٦٠ - ١٩٦٦.
- ٣٣ - السبكي
 تاج الدين
 * طبقات الشافعية الكبرى ٦ جـ
 تحقيق محمود محمد الطامي وعبد الفتاح الحلو
 القاهرة ١٩٦٤ - ١٩٦٨.
 (ت ٩٠٢/١٤٩٦).
- ٣٤ - السخاوي
 * الضوء اللامع لأهل القرن التاسع
 أبو المظفر عبد الكريم بن منصور (ت ٦١٥/١٢١٨).
 * الأنساب
 نشر المستشرق د. س. مرجليوت - لندن ١٩١٣
- ٣٦ - السيد الشريف
 الجرجاني
 علي بن محمد بن علي (ت ٨١٦/١٤١٣)
 * التعريفات
 طبعة اسطنبول (١٢٨٣ - ١٨٦٦)
- ٣٧ - السيوطي
 جلال الدين
 * حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ٢ جـ
 القاهرة (لا. ت).

- ٣٨ - الشافعي الإمام محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع
(ت ٢٠٤/٨٢٠)
* الأم
مطبعة دار الشعب (١٣٨٨/١٩٦٨).
- ٣٩ - الشهرستاني أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد
* الملل والنحل (هامش على الملل والنحل لابن حزم)
طبعة الخانجي - القاهرة ١٣٢١ هـ.
- ٤٠ - الصابي أبو الحسن هلال بن المحسن (ت ٤٤٨/١٠٥٦)
* تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء (الوزراء)
تحقيق عبد الستار أحمد فراج
القاهرة ١٩٥٨.
- ٤١ - الصابي أبو الحسن محمد بن هلال بن المحسن بن إبراهيم
الصابي (ت ٤٨٠/١٠٨٧)
* الهفوات النادرة
تحقيق صالح الأشر -
دمشق ١٩٦٧.
- ٤٢ - الصفدي صلاح الدين خليل بن أيبك
* الوافي بالوفيات ٢٢ ج
فيسبادن (١٣٨٢ - ١٤٠٤/١٩٦٢ - ١٩٨٤)
- ٤٣ - صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي
* مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ٣ ج
القاهرة ١٩٥٤.
- ٤٤ - الضبي أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة
* بغية الملبتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس
مكتبة المثني بغداد
(وهي صورة لطبعة رونخس، مجريط ١٨٨٤).

- ٤٥ - الطبري الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠/٩٢٣)
* تاريخ الرسل والملوك ١٠ ج.
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم
دار المعارف بمصر (١٩٦٠ - ١٩٦٨).
- ٤٦ - العمري شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري (ت ٧٤٩/١٣٤٩)
* التعريف بالمصطلح الشريف.
مصر ١٣١٢/١٨٩٤.
- ٤٧ - الغزولي علاء الدين علي بن عبد الله البهائي (ت ٨١٥/١٤١٢)
* مطالع البدور في منازل السرور ٢ ج.
مصر (١٢٩٩/١٨٨١).
- ٤٨ - الغزي الشيخ نجم الدين
* الكواكب السائرة بمناقب أعيان المئة العاشرة.
تحقيق جبرائيل جبور
بيروت (لا. ت).
- ٤٩ - القرطبي عريب بن سعد القرطبي
* صلة تاريخ الطبري (ضمن كتاب ذيول تاريخ الطبري)
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.
دار المعارف. مصر ١٩٧٧.
- ٥٠ - القلقشندي أبو العباس أحمد (ت ٨٢١/١٤١٨)
* صبح الأعشى في صناعة الإنشا ١٤ ج.
القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٩.
- ٥١ - الكندي أبو عمر محمد بن يوسف الكندي (ت ٣٥٠/٩٦١)
* الولاة والقضاة
تحقيق رفن كست
بيروت ١٩٨٠.
- ٥٢ - مالك الإمام مالك بن أنس الحميري الأصبحي (ت ١٧٩/٧٩٥)

- * الموطأ
 مطبعة السعادة (١٣٣٢/١٩١٣).
 ٥٣ - الماوردي أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري (ت ٤٥٠/١٠٥٨)
 * الأحكام السلطانية والولايات الدينية.
 تصحيح محمد بدر الدين النفساني
 القاهرة ١٩٠٩ م.
 * تسهيل النظر وتعجيل الظفر.
 تحقيق محي هلال السرحان
 دار النهضة بيروت ١٩٨١.
- ٥٤ - المبرد أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الله الأكبر التمالي الأزدي
 * الكامل في اللغة والأدب ٢ ج
 مطبعة التقدم بالقاهرة - مصر (١٣٢٣/١٩٠٥)
- ٥٥ - مجهول * الف ليلة وليلة ٤ م
 طبعة ثانية - بيروت ١٩٨١.
- ٥٦ - المحبي محمد أمين (ت ١١١١/١٦٩٩)
 * خلاصة الأثر في تراجم أهل القرن الحادي عشر
 مكتبة خياط - بيروت (لا . ت)
- ٥٧ - المرادي محمد خليل
 * سلك الدور في أعيان القرن الثاني عشر
 مكتبة المثني - بغداد (لا . ت)
- ٥٨ - المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦/٩٥٧)
 * مروج الذهب ٤ ج
 تحقيق محي الدين عبد الحميد -
 القاهرة ١٩٦٦
- ٥٩ - المقرئ تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٤٥/١٤٤١)
 * المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ٢ ج

- طبعة بولاق - القاهرة ١٢٧٠ هـ
- * السلوك لمعرفة دول الملوك
تحقيق محمد مصطفى زيادة - القاهرة ١٩٣٤ .
- * اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ٣ جـ
تحقيق جمال الدين الشيال ومحمد حلمي محمد أحمد
القاهرة ١٩٦٧ - ١٩٧٣ .
- ٦٠ - المنذري * التكملة لوفيات النقلة ٤ جـ
تحقيق بشارة عواد معروف
بيروت ١٩٨١ .
- ٦١ - النباهي ابن الحسن
* المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا
(تاريخ قضاة الأندلس)
نشر ليفي بروفنسال القاهرة ١٩٤٨ .
- ٦٢ - النعمان قاضي القضاة النعمان بن محمد بن منصور بن احمد بن حيون
التميمي (ت ٩٧٤/٣٦٣)
* رسالة افتتاح الدعوة
تحقيق وداد القاضي
دار الثقافة - بيروت ١٩٧٠ .
- * المجالس والمسائرات
نشر كلية الآداب - تونس ١٩٧٨ .
- ٦٣ - النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب
(ت ١٣٣١/٧٣٢)
* نهاية الأرب في فنون الأدب
دار الكتب - القاهرة .
- ٦٤ - الهمداني عبد الجبار (قاضي القضاة)
* شرح الأصول الخمسة

- تحقيق عبد الكريم نعمان
القاهرة ١٩٦٥ .
- ٦٥ - وكيع القاضي
أبو بكر محمد بن خلف بن حيان الضبي (ت ٣٠٦/٩١٨)
* أخبار القضاة ٣ ج
صححه عبد العزيز مصطفى المراغي
القاهرة ١٩٤٧ .
- ٦٦ - ياقوت الحموي
شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي
البغدادى (ت ٦٢٦/١٢٢٩)
* معجم البلدان ٦ ج .
تحقيق فرديناند وستنفلد - ليبزيغ بروكهاوس
(١٨٦٦ - ١٨٧٣)
* معجم الأدباء ٧ ج
(يعرف أيضاً بـ «إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب»
وـ «طبقات الأدباء»)
تحقيق د. س. مرجليوت - القاهرة (١٩٢٣ - ١٩٢٦)
- ٦٧ - اليونيني
قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد .
* ذيل مرآة الزمان
حيدر آباد الدكن . مطبعة مجلس دائرة المعارف
العثمانية ١٩٥٤ .
- المراجع العربية
- ١ - ابن الأخوة
محمد بن محمد بن أحمد القرشي
* معالم القرية في أحكام الحسبة
تحقيق لوبن ليوي - طبع دار الفنون بكمبرج ١٩٣٧ .
- ٢ - ابن البيطار
ضياء الدين عبد الله بن أحمد الأندلسي المالقي .
* الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٤ ج
طبعة بولاق - مصر ١٢٩١ هـ

- ٣ - أبو زهرة محمد
* ابن حنبل حياته وعصره
دار الفكر - القاهرة (لا . ت)
- ٤ - أمين أحمد
* ضحى الإسلام ٣ ج
طبعة رابعة - القاهرة ١٩٤٩
- ٥ - الأنباري عبد الرزاق علي
* منصب قاضي القضاة في الدولة العباسية منذ نشأته حتى
نهاية العهد السلجوقي .
رسالة ماجستير - جامعة بغداد - كلية الآداب ١٩٧١ .
- ٦ - البغدادي إسماعيل باشا
* هدية العارفين ، أسماء المؤلفين ، وآثار المصنفين
طبعة اسطنبول ١٩٥٥ .
- ٧ - البهسي أحمد فتحي
* العقوبة في الفقه الإسلامي
طبعة رابعة - بيروت ١٩٨٠
* الجرائم في الفقه الإسلامي
طبعة رابعة - بيروت ١٩٨١
- ٨ - الزركلي خير الدين
* الأعلام (قاموس تراجم) ١٤ ج
طبعة ثانية القاهرة ١٩٥٤ - ١٩٥٩ .
- ٩ - الزيات حبيب نقولا
* الخزانة الشرقية ٤ م
(أبحاث وأمالي في تاريخ الشرق وآدابه وحضارته في عهد
العباسيين بالاستناد إلى الأصول العربية المخطوطة) .
بيروت ١٩٣٧ .

- ١٠ - سر كس
 يوسف إهان .
 * معجم المطبوعات العربية والمعربة ٢ ج
 القاهرة ١٩٢٨ .
- ١١ - شبارو
 عصام محمد
 * القضاء والقضاة في الإسلام «العصر العباسي» .
 دار النهضة العربية - بيروت ١٩٨٣
 * تاريخ بيروت منذ أقدم العصور حتى القرن العشرين .
 دار مصباح الفكر - بيروت ١٩٨٧
 محمد جميل
- ١٢ - الشطي
 * مختصر طبقات الحنابلة
 دمشق ١٣٣٩ هـ .
- ١٣ - العسلي
 كامل جميل
 * مخطوطات فضائل بيت المقدس
 طبعة أولى - عمان ١٩٨١ .
 عمر رضا
- ١٤ - كحالة
 * معجم المؤلفين (تراجم مصنفي الكتب العربية) ١٥ ج
 دمشق ١٩٥٧ - ١٩٦١ .
- ١٥ - مختار باشا
 اللواء محمد (ت ١٣١٥/١٨٩٧)
 * التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنيين
 الأفرنكية والقبطية (من سنة ١ إلى سنة ١٥٠٠ هجرية) ٢م .
 دراسة وتحقيق محمد عمارة .
 المؤسسة العربية للدراسات والنشر طبعة أولى
 ١٩٨٠/١٤٠٠ .
- المراجع المعربة
 ١ - جب
 هاملتون
 * دراسات في حضارة الإسلام
 تعريب إحسان عباس ومحمد نجم ومحمود زايد .
 بيروت ١٩٦٤ .

- ٢ - دوزي رينهارت
* المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب
تعريب أكرم فاصل ١٩٧١ .
ت . ج .
- ٣ - دي بور
* تاريخ الفلسفة في الإسلام
تعريب محمد عبد الهادي أبو ريده .
طبعة خامسة - بيروت ١٩٨١ .
- ٤ - لويس برنارد
* أصول الإسماعيلية والفاطمية والقرمطية
تعريب حكمت تلحوق عن كتاب Bernard Lewis:
The Origins of Ismaillism A Study
of Historical Background of the
Fatimia Caliphate Cambridje 1940.
دار الحدائة - بيروت ١٩٧٩ .
- ٥ - متز آدم
* الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ٢ جـ
تعريب محمد عبد الهادي أبو ريده .
طبعة رابعة بيروت ١٣٨٧/١٩٦٧ .

المراجع الأجنبية

1 - MASSIGNON; LOUIS

^La Passion de Husayn Ibn Mansûr Hallaj
T I GALLIMARD 1975.

^Salman Pak et les Prémices
Spirituelles de l'Islam Iranien
Paris 1934.

2 - Sourdél, Dominique:

^Visirat Abbaside 2 T.
Damas 1959.

3 - K. V Zettersteen et Ch. Pellat.
Encyclopédie de L' Islam²
Leyde, 1960.

فَهْرِسُ الْأَعْلَامِ وَالْأَمَاكِنِ

١ - أعلام القضاة

(أ)

- إبراهيم بن حسن بن الرفيع التونسي، أبو إسحاق (ت ١٣٣٤/٧٣٤) ٣٠، ٢٢١.
ابن أبي عصرون، عبد الله بن محمد بن هبة الله، أبو سعد شرف الدين
(ت ١١٨٩/٥٨٥) ٤٠، ٤١، ١٣٨، ٢١٢.
ابن أبي ليلى، محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى يسار بن بلال الأنصاري الكوفي،
٣٤، ١٥٢، ١٥٧، ١٥٨، ٣٠٣.
ابن الأشناني، أبو الحسين عمر بن الحسن بن علي بن مالك الشيباني ٢٧٠، ٢٧١.
ابن الأكفاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم (ت ١٠١٤/٤٠٥)
٢٣.
ابن البارزي، شرف الدين هبة الله بن عبد الرحيم بن إبراهيم الحموي
(ت ١٣٣٨/٧٣٨) ١٣٨.
ابن جملة الشافعي ١٤٤.
ابن الحرستاني ٤١.
ابن الحريري الحنفي، شمس الدين محمد بن صفى الدين عثمان بن عبد الوهاب
الأنصاري (ت ١٣٢٧/٧٢٧) ١٣١، ٢٢٢.
ابن خطيب جسر بن الشافعي، فخر الدين عثمان بن الزين علي بن عثمان الحلبي (ت
١٣٣٨/٧٣٩) ٤٧.
ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن
خلكان الإربلي الشافعي (ت ١٢٨٢/٦٨١) ٢٧، ٤٥، ١٢٠، ١٧٦، ١٩٩ -
٢٠٥، ٢١٦، ٢١٧، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤.
ابن دقيق العيد، تقي الدين محمد بن علي بن وهب بن مطيع الشافعي
(ت ١٣٠٢/٧٠٢) ٤٤، ٥٧، ١٢٦، ١٤٣، ٢١٤، ٢١٥.
ابن الزكي، أبو المعالي محمد بن علي بن محمد بن يحيى بن عبد العزيز
(ت ١٢٠١/٥٩٨) ٤٠.

- ابن صصري ١٤٠ .
- ابن العديم، جمال الدين إبراهيم بن أبي جرادة ٤٧، ٩٩ .
- ابن العديم الحنفي، مجد الدين عبد الرحمن بن جمال الدين عمر بن أحمد (ت ١٢٧٧/١٢٧٨) ٥٠، ١٢٠ .
- ابن ماسكولا، الحسن بن علي بن جعفر بن علي بن محمد بن دلف العجلي (ت ٤٤٧/١٠٥٥) ٢١٢ .
- ابن المجد الشافعي، شمس الدين محمد بن عيسى بن محمود البعلبكي (ت ٧٢٩/١٣٢٨) ٤٧ .
- ابن مخلوف، زين الدين علي بن مخلوف بن ناهض المالكي (ت ٧١٨/١٣١٨) ٤٨ .
- ابن مسلم الحنبلي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن مسلم بن مالك (ت ٧٢٦/١٣٢٦) ٥٢، ١٣١ .
- ابن نصرويه، أبو الحسن محمد بن عبيد الله ٢٦٦ .
- ابن النقيب ٤٧ .
- أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل الحمادي الأزدي ٢٢ .
- أبو البخترى وهب بن وهب القرشي (ت ٢٠٠/٨١٥) ٢٠، ١٦١، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢١٥ .
- أبو البركات الثقفي، جعفر بن عبد الواحد بن أحمد (ت ٥٦٣/١١٦٧) ٢٤، ١٣٦ .
- أبو بشر عمر بن أكثم بن أحمد بن حيان بن بشر الأسدي ٢٢، ٢٣، ١٩١ .
- أبو بكر الشاشي ٢٤ .
- أبو بكر محمد بن خلف بن حيان الضبي، وكيع القاضي (ت ٣٠٦/٩١٨) ٢٤٨ .
- أبو جعفر أحمد بن إسحاق بن البهلول بن حسان بن سنان التنوخي (ت ٣١٨/٩٣٠) ٢١، ٥٧، ١٠٩، ١٤٣، ١٤٦، ٢٠٧، ٢١١-٢١٩، ٢٢٥، ٢٤٥-٢٦٠، ٢٦٣، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٨، ٢٨٠، ٣٠٢ .
- أبو جعفر حمدين بن محمد بن علي الثعلبي القرطبي (ت ٥٤٨/١١٥٣) ٢٩، ٥٤ .
- أبو جعفر الثقفي، عبد الواحد بن أحمد بن محمد بن حمزة (ت ٥٥٥/١١٦٠) ٢٤، ٥٧، ١٣٦ .
- أبو الحسن أحمد بن إسحاق الخرقى ٢٢ .

أبو الحسن، محمد بن الحسن بن عبد الله بن علي بن محمد بن عبد الملك بن أبي
 الشوارب الأموي (ت ٩٤٦/٣٣٥) ١٨٧ - ١٩١، ١٩٥ - ١٩٧، ٢١٧، ٣٠٣.
 أبو الحسين عمر بن محمد بن يوسف بن يعقوب بن إسماعيل الحمادي الأزدي
 (ت ٩٤٠/٣٢٨) ٢٢، ٥٧، ٥٨، ١٢٤، ١٢٦، ١٣٤، ١٣٥، ١٧٩، ١٨٥،
 ١٨٩، ٢١٠، ٢١٩، ٢٧٤، ٢٨٠، ٣٠٣.
 أبو خازم عبد الحميد بن عبد العزيز (ت ٩٠٤/٢٩٢) ٢١١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٧٥.
 أبو الدرداء، عويمر بن مالك بن قيس بن أمية ٩.
 أبو الربيع الحنفي ٥٧.
 أبو السائب عتبة بن عبيد الله بن موسى بن عبيد الله الهمداني (ت ٩٦١/٣٥٠) ٢٢،
 ٣٩، ٥٧، ١٠٩، ١١٠، ١٨٨ - ١٩٧، ٢١٧، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٥، ٣٠٢، ٣٠٣.
 أبو طالب محمد بن أحمد بن إسحاق بن البهلول التنوخي (ت ٩٥٩/٣٤٨) ٢٤٨،
 ٢٤٩، ٢٦٠.
 أبو طاهر محمد بن أحمد بن عبد الله بن نصر بن بجير بن صالح بن أسامة الذهلي
 البغدادي (ت ٩٧٨/٣٦٧) ٢٥، ٣٧، ١٨٤، ١٨٩.
 أبو العباس أحمد بن محمد بن الحسن بن الغماز (ت ١٢٩٤/٦٩٣) ٣٠.
 أبو العباس، عبد الله بن الحسن بن عبد الله بن علي بن محمد بن عبد الملك بن أبي
 الشوارب الأموي الملقب بحدندل، ٢٢، ١٣٠، ١٨٧، ١٨٨، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧،
 ٢١٧، ٣٠٣، ٣٠٤.
 أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب بن إسماعيل الحمادي الأزدي (ت ٩٣٢/٣٢٠)
 ٢١، ٥٧، ١٠٩، ١١٤، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٤٣، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٩، ١٨٠،
 ١٨٤، ١٨٩، ٢٠٧، ٢١٠، ٢٢٥، ٢٥٠، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٨،
 ٢٦١ - ٢٨٠، ٣٠٢.
 أبو الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري (ت ١٢٠٢/٥٩٩)
 ٢٤.
 أبو القاسم الزيني، علي بن الحسين بن محمد بن علي (ت ١١٤٨/٥٤٣) ٢٤،
 ٦٢، ١٢٤.
 أبو القاسم بن أبي الوليد القرطبي الأموي ٢٩.
 أبو القاسم القرطبي الجياني، صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن (ت ١٠٦٩/٤٦٢)
 ٢٩، ٥٤.

- أبو المثني أحمد بن يعقوب (ت ٢٩٦/٩٠٨) ٢٦٤ .
- أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة بن محمد الأسدي (ت ٦٣٢/١٢٣٤) ٤٢ .
- أبو محمد الحسين بن عمر بن محمد بن يوسف بن يعقوب بن إسماعيل الحمادي الأزدي ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٨٥ ، ٢٧٤ .
- أبو محمد الناصحي ١١٨ .
- أبو المعالي عبد الرحمن بن مقبل بن علي الواسطي الشافعي (ت ٦٣٩/١٢٤١) ٤٠ ، ١١٩ .
- أبو موسى الأشعري ١٠ .
- أبو نصر يوسف بن عمر بن محمد بن يوسف بن يعقوب بن إسماعيل الحمادي الأزدي (ت ٣٥٦/٩٦٧) ٢٢ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ٢١٠ ، ٢١١ .
- أبو الوليد بن أبي عمر بن محمد بن عبد الله القرطبي ٢٩ ، ٥٤ .
- أبو الوليد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد الأيادي المعتزلي (ت ٢٣٩/٨٥٣) ٢٤٣ ، ٢٤٤ .
- أبو اليسر بن الصائغ، محمد بن محمد بن عبد القادر (ت ٧٣٩/١٣٣٨) ٤٧ ، ١٣٧ .
- أبو يعقوب يوسف بن عبد الله بن عمر الرازي (ت ٦٨٣/١٢٨٤) ٤٨ ، ١٤٥ .
- أبو اليمن مجير الدين عبد الرحمن بن محمد المقدسي الحنبلي (ت ٩٢٧/١٥٢٠) ٥٣ .
- أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن حنيس بن سعد بن حسنة الأنصاري (ت ١٨٢/٧٩٨) ١١ ، ١٥ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٣٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٨٥ ، ١٠٧ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٣١ ، ١٥١ ، ١٦١ ، ٢١٨ ، ٢٨٧ ، ٣٠١ ، ٣٠٣ .
- أحمد البرقي (ت ٢٨٠/٨٩٣) ١٧٥ .
- أحمد بن أبي دؤاد فرج بن جرير بن مالك الأيادي المعتزلي (ت ٢٤٠/٨٥٤) ٢١ ، ٩٢ ، ٩٨ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، ١١٧ ، ١٢٤ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ - ٢٤٤ ، ٣٠٢ .
- أحمد بن عبد الله بن إسحاق الخرقبي، أبو الحسن (ت ٣٣٤/٩٤٥) ١٣٧ .
- الأحوس، قطب الدين أبو الفضائل محمد بن عمر بن الفضل الشافعي (ت ٧٣٦/١٣٣٥) ١١٩ .

إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل الحمادي الأزدي (ت ٢٨٢/٨٩٥) ١٣٣ ، ١٣٥ ، ٢٤٧ ، ٢٦٢ .
إسماعيل بن حماد الأزدي ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٥ .
أفلق بن هارون الملوحي ٢٨٢ .
أكثم بن صيفي ٩ ، ١٦٣ .
إمام الدين القزويني، أبو المعالي عمر بن عبد الرحمن بن عمر الشافعي
(ت ٦٩٩/١٢٩٩) ٢١٧ .

(ب)

بدر الدين بن جماعة (ت ٧٣٩/١٣٣٨) ١٢١ ، ١٣١ .
بدر الدين بن جماعة، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن سعد الله الشافعي
(ت ٧٣٣/١٣٣٢) ٤٤ ، ٢١٧ .
بدر الدين السنجاري ١٩٩ .
برهان الدين الخضر بن الحسين بن علي السنجاري ٤٤ ، ١٢٠ .
بشر بن الوليد الكندي، أبو الوليد (ت ٢٣٨/٨٥٢) ١٧٣ .
بهاء الدين أبو البقاء السبكي الشافعي ١٤٤ ، ١٤٥ .
بهاء الدين بن شداد ١٩٩ .
بهاء الدين علم الدين الإخنائي الشافعي ١٤٣ .
بهاء الدين يوسف بن محيي الدين بن الزكي الشافعي (ت ٦٨٥/١٢٨٧) ٤٥ .
البهلول بن إسحاق بن البهلول بن حسان بن سنان التنوخي (ت ٢٩٨/٩١٠) ٢٤٦ ، ٢٤٨ .

(ت)

تاج الدين السبكي الشافعي ١٢٢ ، ١٤٤ ، ١٤٥ .
تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز خلف بن رشيد الدين بن محمود بن بدر العلائي
الشافعي ٢٦ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ١١٢ ، ١١٥ ، ١١٩ ، ٣٠٤ .
تقي الدين أبو العباس أحمد بن عمر بن عبد الله المقدسي الحنبلي ٥١ ، ٥٢ .
تقي الدين الإخنائي المالكي ٤٨ ، ٤٩ .
تقي الدين بن شمس الدين محمد بن عيسى بن محمود البعلبكي ٤٧ .

- تقي الدين السبكي الشافعي ١١٧، ١٤١ .
تقي الدين سليمان بن حمزة بن أحمد بن عمر المقدسي الحنبلي (ت ١٣١٥/٧١٥)
.٥٢
تقي الدين عبد الرحمن بن بنت الأعز الشافعي ٤٤، ١٤٣ .
تقي الدين محمد بن الحسين بن رزين الشافعي، أبو عبد الله (ت ١٢٨١ / ٦٨٠)
.٤٣، ١٢١، ١٢٢ .

(ج)

- جعفر بن عبد الواحد الهاشمي ١٧٧ .
جعفر بن محمد بن عمار البرجمي الكوفي (ت ٨٦٤/٢٥٠) ٢١ .
جلال الدين أبو العباس أحمد الحنفي (ت ١٣٤٤/٧٤٥) ٢٢١ .
جلال الدين بن حسام الدين الرازي الحنفي ٥٠ .
جلال الدين بن عبد الرحمن القزويني (ت ١٣٣٨/٧٣٩) ٤٤ .
جلال الدين المسلاتي المالكي ٤٩، ١١٢ .
جمال الدين الأذري (الزرعي) الشافعي، سليمان بن عمر بن سالم
(ت ١٣٣٣/٧٣٤) ٤٦، ١٢١ .
جمال الدين بن السراج الحنفي ١٤٤ .
جمال الدين بن عبد الحي بن إدريس الحنبلي ١١٥ .
جمال الدين عبد القاهر التبريزي ٢٠٤ .
جمال الدين عبد الله الأفقي المالكي، ٤٩ .
جمال الدين محمد بن سليمان بن يوسف الزواوي المالكي (ت ١٣١٧/٧١٧) ٤٩ .
جمال الدين محمود القيسري العجمي ٥٠ .
جمال الدين يوسف البساطي المالكي، أبو المحاسن، ٤٩، ٧٧، ٧٩، ٨١ .
جمال الدين يونس بن بدران بن فيروز المصري (ت ١٢٢٦/٦٢٣) ٤١، ٢١٧ .

(ح)

- حبان بن بشر ١٧٧ .
حسام الدين الحسن بن أحمد بن الحسن الرازي الحنفي (ت ١٢٩٨/٦٩٨) ٥٠،
.١٢٣

- حسام الدين الرومي الحنفي ٢٢١ .
حسام الدين الغوري حسن بن محمد ٥٠ .
الحسن بن عبد الله بن علي بن محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب الأموي
(ت ٩٣٦/٣٢٥) ١٨٨ .
الحسن بن عثمان الزياتي، أبو حسان (ت ٨٥٦/٢٤٢) ١٥٦ .
الحسن بن محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب الأموي (ت ٨٧٤/٢٦١) ٢٢ ،
١٣٢ .
الحسن بن يوسف بن يعقوب بن إسماعيل الحمادي الأزدي ٢٦٢ .
الحسين بن علي بن النعمان (ت ١٠٠٥/٣٩٥) ٢٥ ، ٣٧ ، ١٣٦ ، ١٤٢ .
حفص بن شيث (ت ٨٠٩/١٩٤) ٢١٨ .
حماد بن إسحاق بن إسماعيل الحمادي الأزدي ٢٦٢ .

(ز)

- زكي الدين أبو العباس الشافعي الطاهر بن محمد بن علي (ت ١٢٢٠/٦١٧) ٤١ ،
١٣٦ ، ١٤٣ .
زكي الدين علي بن محمد القرشي الشافعي ١٣٦ .
زين الدين بن مخلوف المالكي ١١٢ .
زين الدين عبد السلام بن الزواوي المالكي (ت ١٢٨٢/٦٨١) ٢٧ ، ٤٩ .

(س)

- سراج الدين أبو حفص عمر بن موسى السراج الحمصي ١١٢ .
سعيد بن أحمد بن حنبل ٢٧٥ .
سليمان بن ربيعة الباهلي ٩ ، ١٠ .
سوار بن عبد الله ١٧٧ .

(ش)

- شرف الدين أحمد شهاب الدين العراقي البغدادي المالكي ١٤٤ .
شرف الدين أبو الفضل الحسين بن عبد الله بن أبي عمر المقدسي (ت ١٢٩٥/٦٩٥)
١٢٦ .

شرف الدين أبو محمد عبد الغني بن يحيى بن محمد بن عبد الله الحراني الحنبلي
(ت ١٣٠٩/٧٠٩) ٥١.

شرف الدين بن الحافظ عبد الله بن الحسن المقدسي الحنبلي (ت ١٣٣٥/٧٣٦)
٥٣.

شرف الدين السبكي المالكي (ت ١٢٦٩/٦٦٨) ٢٦، ٤٨، ١٣٠، ١٤٤، ٣٠٤.
شرف الدين الكفري الحنفي ١٤٤.

شريح بن الحارث بن قيس، أبو أمية (ت ٧٠٧/٧٨) ١٠، ٣٢.
شريك بن عبد الله بن الحارث النخعي، أبو عبد الله (ت ٧٩٣/١٧٧) ١٧٤.
شمس الدين أحمد بن إبراهيم بن عبد الغني السروجي الحنفي (ت ١٣١٠/٧١٠)
٥٠.

شمس الدين الخوي الشافعي، أحمد بن خليل بن سعادة بن جعفر بن عيسى
(ت ١٢٣٩ / ٦٣٧) ٤١، ١٣٧، ٢١٦.

شمس الدين سليمان الحنفي ٢٦، ٤٩، ٨٤، ٣٠٤.
شمس الدين عبد الرحمن بن الشيخ أبي عمر المقدسي الحنبلي ٢٧، ٥٢، ١٤٤،
٢٠٠، ٣٠٥.

شمس الدين عبد الله بن محمد بن عطاء الأزرعي الحنفي ٢٧، ٥٠، ٢٠٠، ٣٠٥.
شمس الدين محمد بن إبراهيم بن داود بن خازم الأزرعي الحنفي (ت ١٣١٢/٧١٢)
٢٢١.

شمس الدين محمد بن عبد الوهاب بن منصور، أبو عبد الله الحراني الحنبلي
(ت ١٢٧٦/٦٧٥) ٤٠.

شمس الدين محمد بن علي بن عمر الصفدي ١١٢.
شمس الدين محمد بن محمد بن بهرام الشافعي، أبو عبد الله (ت ١٣٠٥/٧٠٥)
٤٦.

شمس الدين محمد المقدسي الحنبلي (ت ١٢٧٧/٦٧٦) ٢٦، ٥١، ١٣٠، ٣٠٤.
شهاب الدين محمد بن شمس الدين الخوي الشافعي، ذو الفنون (ت ١٢٩٤/٦٩٣)
٤٥، ٤٦، ١١٨، ١٣١، ١٣٧، ٢١٣.

شهاب الدين محمد بن مجد بن عبد الله الإربلي الشافعي (ت ١٣٣٥/٧٣٦) ١٢٢.

(ص)

- صدر الدين بن سني الدولة الشافعي، أحمد بن يحيى (ت ١٢٦٠/٦٥٨) ٤٢.
صدر الدين سليمان بن أبي العز بن وهيب الحنفي (ت ١٢٧٩/٦٧٧) ٥٠، ١١٨،
١٢١، ٢١٢.
صدر الدين عمر بن تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز الشافعي (ت ١٢٨١/٦٨٠)
٤٤.
صدر الدين المالكي ١٢٠.

(ع)

- عبد الجبار بن محمد بن عبد الجبار الهمذاني، أبو الحسين (ت ١٠٢٥/٤١٥) ١٢٥.
عبد الرحمن بن إسحاق ٢٤٠.
عبد العزيز بن محمد بن النعمان، أبو القاسم (ت ١٠١١/٤٠١) ٢٥، ٢٦، ٣٨،
١١٤، ١١٥، ١٢٥، ١٣٦.
عبد الله بن الحسن بن عبد الله بن علي بن محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب
الأموي ١٣٣.
عبد الله بن محمد بن أبي يزيد الخلنجي ٢٣١، ٢٤٢.
عبيد الله بن أحمد بن غالب ٢٣١، ٢٤٢.
عبيد الله بن أحمد بن معروف، أبو محمد (ت ٩٩١/٣٨١) ٢٣، ١١٣، ١٢٤،
٢١١.
عتاب ابن أسيد ٩، ١٦٤.
عز الدين أبو عبد الله بن محمد بن تقي الدين سليمان بن حمزة المقدسي الحنبلي
(ت ١٣٣٠/٧٣١) ٥٣.
عز الدين بن الصائغ، ٤٥، ٢٠١، ٢٠٥.
عز الدين بن بهاء الدين أبي البقاء الشافعي ١٤٥.
عز الدين عبد العزيز بن بدر الدين بن جماعة الشافعي ١٤٥.
عز الدين عمر بن عبد الله بن عمر بن عوض المقدسي الحنبلي (ت ١٢٩٦/٦٩٦)
٥١.
عز الدين محمد بن شرف الدين عبد القادر الدمشقي، أبو المفاجر (ت ١٢٨٤/٦٨٣)
٤٥.
علاء الدين بن التركماني الحنفي ٥٠.

- علاء الدين بن الشيخ زين الدين بن المنجا (ت ١٣٤٩/٧٥٠) ٥٣ ، ٩٧ .
علاء الدين القونوي الشافعي ، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن يوسف
(ت ١٣٢٨/٧٢٩) ١٢١ .
- علم الدين المصري الشافعي ، أبو عبد الله محمد بن شمس الدين (ت ١٣٣١/٧٣٢) ٤٦ .
- علي بن أبي طالب ٩ ، ١٠٥ ، ١٢٨ ، ١٧١ ، ١٨١ ، ١٩٢ ، ٢٠٣ ، ٢٣١ ، ٢٧٢ ، ٢٨٥ .
- علي بن أحمد بن علي الدامغاني ، أبو الحسن (ت ١١٨٧/٥٨٣) ٢٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ .
علي بن ظبيان بن هلال بن قتادة العبيسي الكوفي ، أبو الحسن (ت ٨٠٧/١٩٢) ٢٠ ، ١٢٣ .
- علي بن عبد الله بن سليمان الجبلي ، أبو الحسن ١٩٦ .
علي بن محمد بن أبي الفهم داود بن إبراهيم التنوخي ، أبو القاسم (ت ٩٥٣/٣٤٢) ٢٤٩ .
- علي بن محمد بن أحمد بن إسحاق بن البهلول التنوخي ، أبو الحسن
(ت ٩٦٥/٣٥٤) ٢٤٩ .
- علي بن محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب الأموي (ت ٨٩٦/٢٨٣) ٢٢ ، ١٣٢ ، ١٣٣ .
- علي بن محمد الدامغاني ، أبو الحسن «تاج الإسلام» ١٣٥ .
علي بن النعمان ، أبو الحسن (ت ٩٨٥/٣٧٤) ٣٧ ، ٥٨ ، ١٢٤ ، ١٣٦ ، ٢١٣ .
علي بن الوليد الإشبيلي ٣٧ .
- علي بن يوسف بن عبد الله بن بندار الدمشقي ، أبو الحسن (ت ١٢٢٥/٦٢٢) ٤٠ .
عماد الدين الطرسوسي الحنفي ٥٠ .
عياض ٧٩ .
- عيسى بن أبان بن صدقة ، أبو موسى (ت ٨٣٦/٢٢١) ١٦٥ .

(ق)

قيس بن العاص ١٠

(ك)

كعب بن سور ١٦٤

- كعب بن يسار بن ضنة ١٠ .
 كمال الدين أبو الفتح عمر بن بندار بن عمر بن علي التفليسي الشافعي
 (ت ١٢٧٣/٦٧٢) ٤٢ .
 كمال الدين أحمد بن محمد بن عبد الله الشيرازي الدمشقي (ت ١٣٣٥/٧٣٦)
 ١٢٠ .
 كمال الدين الشهرزوري، أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم (ت ١١٧٦/٥٧٢)
 ٤٠ ، ١٢٢ .
 كمال الدين عمر بن جمال الدين إبراهيم بن أبي جرادة الحنفي ٤٧ ، ١٠٢ .
 كمال الدين موسى بن شمس الدين ابن خلكان ١٢٠ ، ٢٠١ .

(م)

- مالك بن سعيد بن مالك الفارقي، أبو الحسن ٢٦ ، ٢٢٠ .
 الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت ١٠٥٨/٤٥٠) ٢٢٥ ، ٢٨٦ -
 ٢٩٧ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ .
 محمد بن صالح بن علي بن يحيى الهاشمي، أبو الحسن (ت ٩٧٩/٣٦٩) ٢٣ ،
 ٦٠ ، ١٣٠ .
 محمد بن عبد الواحد بن أبي الهاشم الزاهد «غلام ثعلب» (ت ٩٥٦/٣٤٥) ١٨٠ .
 محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب الأموي ١٣٢ .
 محمد بن علي بن محمد القرشي الشافعي، أبو المعالي ١٣٦ .
 محمد بن علي بن محمد بن حسن بن عبد الوهاب بن حسنوية، أبو عبد الله الدامغاني
 (ت ١٠٨٥/٤٧٨) ٢٣ ، ١١٤ ، ١٢٥ ، ١٣١ ، ١٣٥ .
 محمد بن عمران بن زياد بن كثير الضبي الكوفي، أبو جعفر ١٠٨ .
 محمد بن محمد بن عبد الله، أبو حامد ٢١٢ .
 محمد بن معين الدين أبي بكر بن ظافر بن عبد الوهاب المالكي (ت ١٣٤٧/٧٤٨)
 ٤٩ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٣٧ .
 محمد بن النعمان، أبو عبد الله (ت ٩٩٩/٣٨٩) ٢٥ ، ٣٧ ، ٥٨ ، ١١٣ ، ١١٤ ،
 ١٢٥ ، ١٢٦ ، ٢١٤ ، ٢١٦ .
 محمد بن يحيى بن فضلان، محيي الدين أبو عبد الله ٢٤ ، ٧١ .

محيي الدين الأسدي الشافعي ، محمد بن محمد بن عبد الرحمن (ت ١٢٧٣/٦٧٢) . ٤٦

محيي الدين بن عبد الظاهر ٧٦ .

معاذ بن جبل ٩ .

معين الدين أبي بكر بن ظافر بن عبد الوهاب المالكي ٤٩ ، ١٣٧ .

منذر البلوطي (ت ٩٧٦/٣٦٦) ٢٨ .

موفق الدين بن نجا المقدسي الحنبلي ٥٢ .

(ن)

ناصر الدين ابن الشثائي ٩٥ .

ناصر الدين محمد بن إسماعيل اللخمي الأندلسي المالكي ١١٢ .

نجم الدين بن سني الدولة ، أبو بكر بن أحمد بن يحيى الشافعي (ت ١٢٨١/٦٨٠) . ٢٠٠ ، ٢٠١ .

نجم الدين بن الشيخ شمس الدين بن أبي عمر (ت ١٢٩٠/٦٨٩) ٥٢ ، ١٢٤ .

نجم الدين بن صصري ، أبو العباس أحمد بن محمد بن سالم التغلبي الشافعي

(ت ١٣٢٣/٧٢٣) ٤٦ ، ٢٠٢ .

نجم الدين الحنفي ٥٠ .

النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون التميمي (ت ٩٧٤/٣٦٣) ٢٥ ، ٣٧ ،

٥٨ ، ١٣٢ ، ١٣٦ ، ٢٢٥ ، ٢٨١ - ٢٨٦ ، ٣٠١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ .

نور الدين بن الصائغ محمد بن محمد بن عبد القادر الشافعي (ت ١٣٤٨/٧٤٩) ٤٧ ،

١٣٧ .

(ي)

يحيى بن أكثم بن محمد بن قسطن التميمي الأسيدي المروزي ، أبو محمد

(ت ٨٥٧/٢٤٢) ٢١ ، ١٠٧ ، ١٢٣ ، ١٤٢ ، ١٦٣ ، ١٧٧ ، ١٩٧ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ،

٢١٩ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٤٣ ، ٣٠٢ .

يوسف بن إسماعيل الحمادي الأزدي (ت ٨٦٠/٢٤٦) ٢٦٢ .

يوسف بن يعقوب بن إسماعيل الحمادي الأزدي (ت ٩٠٩/٢٩٧) ١٣٥ ، ٢٦٢ ،

٢٦٣ .

يوسف بن يعقوب بن حبيب الأنصاري (ت ٨٠٧/١٩٢) ١٦١ .

٢ - أعلام غير قضاة:

(أ)

- إبراهيم بن عبد الملك بن صالح ١١٤ .
إبراهيم الموصللي ١٥٩ .
إبراهيم النخعي ٣٢ .
ابن أبي الدنيا، أبو بكر عبدالله بن
محمد بن سفيان ١٨١ .
ابن أبي الساج، أبو القاسم يوسف
١٩٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ .
ابن أبي عمرو الشرايبي، أبو منصور عبد
العزیز بن عثمان ١٩٤ .
ابن بقیة، أبو طاهر محمد بن محمد بن
بقیة بن علي ٢٨٨ ، ٢٨٩ .
ابن ثوبة ٢٥٥ .
ابن جامع المغني السهمي،
إسماعيل بن جامع بن إسماعيل بن
عبدالله ١٥٩ ، ١٦٠ .
ابن الجصاص الجوهري، أبو عبدالله
٢٦٣ ، ٢٧٩ .
ابن الجلاب ٨٠ .
ابن الحاجب ٨٠ .
ابن حباب الجوهري ١٨٣ .
ابن حبيب ٧٩ .
ابن حماد ٢٧٠ .
- ابن الجواربي، أبو القاسم علي بن
محمد ٢٧٦ .
ابن خيرون ٢٨٨ .
ابن زبرج الهاشمي ٣٧ .
ابن الزيات، محمد بن عبد الملك بن
أبان بن حمزة، أبو جعفر ١١٨ ، ٢٣٦ ،
٢٤١ ، ٢٤٢ .
ابن سريج البغدادي ٢٨٥ .
ابن سكرة الهاشمي، أبو الحسن
محمد بن عبدالله بن محمد ١٨٨ ،
١٨٩ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٦ .
ابن السلعوس ١٤٣ .
ابن سيرين ٧٩ .
ابن طاهر ٢٦٣ .
ابن عبد الحكم ٧٩ .
ابن عبد السلام ٧٩ .
ابن عمر ١٣٩ .
ابن غنين ٢١٧ .
ابن عوف ٧٩ .
ابن الفرات، أبو الحسن علي بن محمد
١٠٩ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢٤٥ ، ٢٥١ ،
٢٥٢ - ٢٥٧ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٧٤ .

- ٣٠٢ . ابن القاسم ٧٩ .
ابن قتيبة ٢٨٥ .
ابن القطان، أبو بكر أحمد بن علي
الذهبي ١٩٤ .
ابن قليجة ٢٥٥ ، ٢٥٧ .
ابن قيم الجوزية، الشيخ شمس الدين
١٤١ .
ابن المديني ١٥٩ .
ابن المسلمة ٢٩٧ .
ابن المعتز ٢٦٣ ، ٢٧٨ .
ابن مقلة، أبو علي محمد بن علي بن
الحسين ٢٧٧ .
ابن وهب ٧٩ .
ابن يونس ٧٩ .
أبو إسحاق بن ثابت ٨٥ ، ١١٠ .
أبو الأعز خليفة بن المبارك السلمي
٢٦٥ .
أبو بكر الأزرق، يوسف بن يعقوب بن
إسحاق بن البهلول التنوخي ٢٤٩ .
أبو بكر الصديق ٩ ، ١١١ ، ٢٧٢ .
أبو بكر الصولي، محمد بن يحيى بن
عبدالله بن العباس بن محمد بن صول
١٨٢ .
أبو بكر عبد الكريم بن المطيع لله
١١٣ .
أبو بكر محمد بن رائق ١١٤ ، ٢٧٩ .
أبو جعفر المنصور ١٩١ .
- أبو الحجاج الأعرابي ٢٤٣ .
أبو الحسن بن القصار ٧٩ .
أبو الحسين بن عياش ١٨٤ .
أبو الحسين الثوري ١١٠ .
أبو حنيفة النعمان بن ثابت ١٥ ، ٣٢ ،
٣٣ ، ٣٤ ، ٧٥ ، ٨٥ ، ١٣٩ ، ١٥١ ،
١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ،
١٦١ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ،
١٧٤ ، ٢٥٩ ، ٢٨١ ، ٣٠١ ، ٣٠٣ .
أبو الخطاب ٣٥ .
أبو دلف القاسم بن عيسى بن
إدريس بن معقل العجلي ١١٧ ، ١٧٣ ،
٢٣٣ ، ٢٣٤ .
أبو زرعة ١٥٩ .
أبو شامة ٢١٦ .
أبو شهاب الصعلوكي ٢١٩ .
أبو عبدالله الأرمني ٢٤٠ .
أبو عبدالله الشيعي ٣٦ .
أبو عبدة بن الجراح ٢٧٢ .
أبو العتاهية ٢٤٣ .
أبو علي الجبائي، محمد بن عبد
الوهاب بن سلام المعتزلي ٢٦٩ .
أبو الفرج بن روحان الصوفي ٢٦٦ .
أبو الفضل العباس بن الحسين
الشيرازي ٢٦٣ ، ٢٨٨ .
أبو الفضل الهمداني، عبد الملك بن
إبراهيم المعروف بالمقدسي ١٤٠ ، ٢٨٨ .
أبو قلابة ١٣٩ .

- أبو كالجار ٢٩٠ .
أبو لهب ٢٣٨ .
أبو محمد بن عياش ١٨٣ .
أبو محمد بن هبة الله بن مكرم الصوفي ، ١٩٩ .
أبو المغيث الهاشمي ، محمد بن علي
القنائي ٢٧٠ .
أبو موسى المردار ٢٢٨ .
أبو نمى ١١٨ ، ١١٩ .
أبو نواس ١٦٨ .
أبو الهذيل العلاف ٢٢٨ .
أبو يعقوب البويطي ٢٤١ .
أبو يعقوب الخزيمي ١٦١ .
أحمد بن أبي طاهر محمد الاسفرائيني ،
أبو حامد ٢٨٨ .
أحمد بن أبي نعيم ١٧٢ .
أحمد بن حنبل ، الإمام أبو عبدالله
أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني
الوائي ٣٣ ، ٥١ ، ٧٥ ، ٨٧ ، ٩٨ ،
١٥٩ ، ١٧٠ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ٢٢٥ ،
٢٢٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ،
٣٠١ ، ٣٠٢ .
أحمد بن عمر بن سريج ، أبو العباس
٢٨٠ .
أحمد بن محمد بن يحيى الواثقي
٢٣٧ .
أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم
الخرزاعي ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ .
- أحمد بن هشام ١٧٣ .
الأخشيذ ١٤٦ .
ارطاميدورس ٢٢١ .
إسحاق بن إبراهيم المصعبي ٢٣٦ .
إسحاق بن إسماعيل بن حماد الأزدي
٢٦٢ .
إسحاق بن البهلول بن حسان بن سنان
التنوخي ٢٤٦ .
إسماعيل بن بلبل ٢٤٧ .
إسماعيل بن جعفر الصادق ٣٥ ، ٣٦ .
إسماعيل النوبختي ٢٧٠ .
أشهب ٧٩ .
الأعشى ١٦٨ .
الأفشين ، أبو الحسن خيدر بن كاوس
١٠٨ ، ١١٧ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ .
أم موسى القهرمانة ١٤٦ ، ٢٥٨ .
الأوزاعي ، عبد الرحمن بن عمرو بن
محمد ٥٤ ، ١٥٧ .
إيتاخ ٢٣٢ .
- (ب)
بجير بن معاوية ١٥١ .
بدر ٢٧٨ .
بدر الدين بكتوت الدوباسي ١١٨ .
بدر الدين بيليك الخازندار ٢٠٣ .
برسبائي ، الأشرف ١١٣ .
برهان الدين ، أبو إسحاق إبراهيم
الفرزاري ١٤٠ .
بشر بن المعتمد ٢٢٨ .

- البلخي ٨٥ .
 بهاء الدولة بن عضد الدولة ٢٨٩ .
 بهاء الدين بن حنا ٢٠٣ .
 البهلول بن حسان بن سنان التنوخي ٢٤٦ .
 بوران بنت الحسن بن سهل ١٦٥ .

(ت)

تميم بن جميل السدوسي الخارجي ٢٣٥ .

(ث)

ثمامة بن الأشرس ٢٢٨ .

(ج)

- الجاحظ ٢١٩ ، ٢٢٨ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ .
 جبير بن مطعم ١٢٨ .
 جرير بن هزيم الجعدي الأزدي ٢٦١ .
 الجعد بن درهم ٢٣٧ ، ٢٣٨ .
 جعفر بن بشر ٢٢٨ .
 جعفر بن حرب ٢٢٨ .
 جعفر بن محمد التنوخي ١٣٩ .
 جعفر بن محمد بن الفضل البغدادي ٢٨٨ .
 جعفر بن ورقاء الشيباني، أبو بكر ٢٧٩ .
 جعفر بن ورقاء الشيباني، أبو محمد ٢١٠ .
 جعفر الصادق ٣٤ ، ٢٠٥ .
 جلال الدولة البويهبي ٢٩٠ .

- جلال الدين عبد الرحمن البلفيني ٨١ .
 جمال الدين أبو بكر محمد ١٤٠ .
 جمال الدين أيدغدي بن عبدالله العزيزي ٤٣ .
 جنكيزخان ٢٠٣ .
 جوهر الصقلي ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٧ ، ١١٤ .

(ح)

- الحاكم بأمر الله الفاطمي ٢٥ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ١١٥ ، ١٢٦ ، ١٣٦ ، ١٤٢ ، ٢٢٠ .
 حامد بن العباس، أبو محمد ١٦٧ ، ١٦٨ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ .
 الحسن البصري ٢٢٩ ، ٢٧١ .
 الحسن بن سهل ١٦٥ ، ١٧٣ .
 الحسن بن علي بن محمد الجبلي ٢٨٨ .
 الحسن بن وهب ١٧٢ .
 الحسين بن القاسم بن عبدالله بن سليمان بن وهب ٢٥٨ ، ٢٧٦ .
 الحصري ٨٥ .
 الحكم بن هشام ٥٤ .
 الحلاج، أبو المغيث الحسين بن منصور ١٠٩ ، ١١١ ، ٢٢٥ ، ٢٦١ ، ٢٦٦ - ٢٧٣ ، ٣٠٢ .
 حماد بن أبي سليمان الأشعري ٣٢ .
 حيدرة ٢٧٠ .

(خ)

- خالد بن أسيد الأموي ١٩٥ .
خالد بن يزيد بن يزيد بن زائدة
الشيباني ١١٧ ، ٢٣٣ .
خديجة بنت طغرل بك ١١٤ .
الخطيب البغدادي ٢٨٨ .
الخليل بن أحمد ٢١٦ .

(د)

- داود - النبي - ٦٦ .
داود بن سالم ١١١ .
داود بن علي ١٧٦ .
داود بن الهيثم ٢٤٦ ، ٢٤٧ .
الدبّاس ٢٧٠ .
دعبل الخزاعي ١٧٣ .
ديسان بن سعيد بن غضبان ٣٨ .

(ر)

- الراشد ٢٤ ، ١٢٤ .
الراضي ٥٧ ، ٥٨ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ،
١٣٤ ، ١٦٦ ، ١٧٩ ، ١٨٤ ، ١٨٥ .
رجاء بن أبي الضحاك ١٧٣ .
الرحيم البوهبي ٢٩٧ .

(ز)

- زبيدة - زوجة الرشيد - ٢١٨ .
الزبير ٢٧٢ .
زفر ١٥٢ .

زياد بن عبد الرحمن القرطبي «شبطون»
٥٤ .

زيدان القهرمانه ١٤٦ .

زيدان الكاتب ١٧٢ .

(س)

- سحنون ٧٩ .
السري الرفاء، أبو الحسن السري بن
أحمد ١٦٧ .
سعد بن حسنة ١٥١ .
سعد الله بن مروان الفارقي ٢١٦ .
سفيان الثوري ١٣٩ .
سلامة ٢٣٥ .
سلموية بن بنان ١٢٥ .
سليمان بن الحسن بن مخلد، أبو
القاسم ١٨٨ .
سليمان بن داود البغدادي، أبو الربيع
٢٧٩ .

- سليمان بن عبد الملك النوفلي ٢٣٢ .
سماية القهرمانه ١٤٦ .
السمري ٢٧٠ ، ٢٧١ .
سمسة القهرمانه ٢٧٩ .
سنجر الحلبي ٢٠١ .
سنقر الأشقر ٢٠١ .
سيد تيم ٩٢ ، ٩٨ .

- سيف الدين بردبك بن عبدالله الخليلي
«قصقا» ١١٢ ، ١١٣ .
سيف الدين بن فضل العرب ١٤١ .
سيما الدمشقي ٢٤١ .

(ش)

الشافعي، الإمام أبو عبدالله محمد بن

(ظ)

الظاهر بالله الفاطمي ٣٨ ، ٤٠ .
الظاهر برقوق ٥٠ .
الظاهر بيبرس البندقداري ٢٦ ، ٢٧ ،
٤٢ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٧٥ ،
١١٢ ، ١١٨ ، ١٢٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ،
٢٠٣ ، ٣٠٤ .
الظهير الشيخ ١٤٤ .

(ع)

عائشة أم المؤمنين ١٣٩ .
العاقد الفاطمي ٣٩ .
عباد بن أسيد الأموي ١٩٥ .
عبد الرحمن الأول، الداخل ٢٧ ، ٥٤ .
عبد الرحمن الثاني ٢٨ .
عبد الرحمن الثالث - الناصر لدين الله -
٢٨ ، ٣٦ .
عبد الرحمن بن عوف ٢٧٢ .
عبد الرحمن الشيرازي ١٩٠ .
عبدالله الباقي، أبو محمد ٢٨٨ .
عبدالله بن بنت منيع، أبو القاسم ٢٧٥ .
عبدالله بن الحسن الجعفري
السمرقندي ٢١٤ ، ٢١٦ .
عبدالله بن عامر بن كرز ١٢٨ .
عبدالله بن عياش الخزري، ٢٦٤ .
عبدالله بن محمد النيسابوري، أبو بكر
٢٧٥ .
عبدالله بن مسعود ٣٢ .

إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع
الهاشمي ٢٦ ، ٣٣ ، ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٣ ،
٤٤ ، ٧٥ ، ١٠٢ ، ١٣٨ ، ١٧٠ ،
١٧٤ ، ١٩٠ ، ٢٨٥ ، ٢٩٦ ، ٣٠١ ،
٣٠٤ .
شرف الدولة بن عضد الدولة ١٢٤ .
شعب أم المقتدر ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٨٣ ،
٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٨ .
شمس الدين بن السلعوس ١١٨ .
شهاب الدين محمود الحلبي ٩٣ .
شيركوه ٣٩ .

(ص)

صاحب الزنج، علي بن محمد
الورزيني العلوي ٢٤٧ .
صرغتمش ١٤٤ .
صعصعة بن سلام ٥٤ .
صلاح الدين الأيوبي ٢٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ،
٤٤ ، ٣٠٤ .

(ط)

الطائع لله ١٢٤ ، ١٩١ ، ٢٨٩ .
الطبري ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٧٨ .
الطحاوي ٨٥ .
طغرل بك ١١٤ ، ١٢٥ ، ٢٩٧ .
طلحة ٢٧٢ .
طلحة بن محمد بن جعفر الشاهد
- غلام ابن مجاهد - ١٨٢ ، ٢٧٤ ،
٢٧٥ .

- عبدالله بن ميمون القداح ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ .
عبدالله المخرمي ، أبو محمد ١٣٩ .
عبدالله المهدي ٣٨ .
عبد الملك بن أبي الشواري الأموي ٢٢ .
عبد الملك بن مروان ١٠ .
عبد الواحد بن الحسين الصيمري ، أبو القاسم ٢٨٨ .
عبيدالله بن يحيى بن خاقان ١٣٢ .
عتبة ١١٨ .
عثمان بن عفان ١٠٥ ، ١١١ ، ١١٧ ، ٢٧٢ .
عثمان الدكاكي ١١١ .
عز الدولة بختيار ٢٨٨ ، ٢٨٩ .
عز الدين أيدير ٢٠١ .
العزيز بالله الفاطمي ٢٥ ، ٣٧ ، ٥٨ ، ١١٣ .
عضد الدولة ، أبو شجاع فناخسرو ، ركن الدولة بن بويه ١٦٦ ، ٢٨٩ .
علقمة بن قيس ٣٢ .
علم الدين البزالي ٢٢١ .
علي بن أبي الفضل بن محمد بن كثير ١١١ .
علي بن إسحاق بن يحيى بن معاذ ٢٣٤ .
علي بن عيسى ، أبو الحسن ١٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٥١ - ٢٥٨ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ .
- ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٣٠٢ .
علي بن نقلة ١٤٣ .
علي بن هشام ١٧٣ .
عمر بن الخطاب ٩ ، ١١١ ، ١٦٤ ، ٢٧٢ ، ٢٩٣ ، ٣٠١ .
عمر بن فرج الرخجي ٢٣٥ .
عمرو بن عبيد ٢٢٨ .
عمرو بن مالك بن عمرو بن مرة ٢٤٥ .
عيسى بن جعفر ١٥٥ .
- (غ)
الغالية - ابنة الرشيد - ١١٤ ، ١٥٥ .
- (ف)
الفضل بن سهل ١٧٣ .
- (ق)
القائم بأمر الله العباسي ١١٤ ، ١٢٥ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ .
القائم بأمر الله الفاطمي ٢٨١ ، ٢٨٢ .
القادر بالله ٢٨٩ - ٢٩٣ ، ٢٩٦ .
القاسم بن الرشيد ٢٠٤ ، ٢٠٥ .
القاهر ١٨٣ ، ٢٧٤ .
القدوري ٨٥ .
القصري ٢٦٦ ، ٢٦٨ .
قلاوون - المنصور - ١٢٤ ، ٢٠١ .
- (ك)
كمال الدين بن يونس ١٩٩ .

محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق
٣٥ ، ٣٦ .

محمد بن جعفر بن معدان ١٩٢ ،
٢٥٠ .

محمد بن جعفر، شمس الدين ٢١٦ .
محمد بن الحسن ٨٥ ، ١٥٢ ، ١٥٨ .
محمد بن داود بن الجراح الكاتب
٢٦٣ ، ٢٦٤ .

محمد بن داود بن علي بن خلف
الظاهري ٢٨٠ .

محمد بن عبد الصمد، أبو طاهر ٢٧٢ .
محمد بن عدي بن زحر البصري ٢٨٨ .
محمد بن المعلي الأزدي ٢٨٨ .

محمد بن نوح بن ميمون الجنديسابوري
٢٤١ .

محمد الحاجب ١٩٢ .

محمد علي باشا ٣٠٥ .

محمود بن إبراهيم الشيرازي ١١١ .

مخلد بن كيداد المارق الدجال ٢٨٥
المدائني، أبو الحسن علي بن محمد
بن عبد الله ١٨١ .

مروان بن محمد الأموي ٢٢٨ ، ٢٣٧ .
المريسي ٩٢ ، ٩٨ .

المسترشد بالله، عبد الله أبو منصور
الفضل ٦٢

المستكفي ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩١ .

المستنصر بالله الفاطمي ٣٨ .

(ل)

لاجين - المنصور - ٢٢١ .

ليبد بن الأعصم ٢٣٧ .

لقمان ٢٠٨ .

(م)

المازري ٧٩ .

المأمون ٩٢ ، ٩٨ ، ١٠٧ ، ١٢٣ ،

١٣٠ ، ١٤١ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ،

١٦٨ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ،

١٧٦ ، ١٧٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ،

٢٣١ ، ٢٣٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٣٠٢ .

مالك، الإمام أبو عبد الله مالك بن

أنس بن مالك الأصبغي الحميري ٣٣ ،

٤٨ ، ٧٥ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٩٤ ، ١١٧ ،

١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٧٠ ، ١٧٤ ، ١٨٢ ،

٢٨١ ، ٣٠١ .

المبارك ٣٥ .

المتقي ٢٢ ، ١٣٧ .

المتوكل ١٢٤ ، ١٤٢ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ،

١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ،

٢٣٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ،

٣٠٢ .

المحسن بن الوزير ابن الفرات ٢٥٧ .

محمد بن إبراهيم بن مصعب ٢٤٠ .

محمد بن أحمد الربيعي الموصلي، أبو

الفضائل ٢٨٨ .

- المسعود ٢٠٤ ،
المطيع لله ٢٣ ، ٦٠ ، ١١٣ ، ١٤٦ ،
١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٤ ، ١٩٦ .
معاوية بن أبي سفيان ١١١ ، ٢٣١ .
المعتز ٢٢ ، ١٠٨ ، ١٣٢ .
المعتصم ٢١ ، ٩٣ ، ٩٨ ، ١٠٨ ،
١١٧ ، ١٢٥ ، ١٤١ ، ١٦٥ ، ١٧٥ ،
٢١٨ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣١ - ٢٣٥ ،
٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٣٠٢ .
المعتضد ١٨٣ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٧٨ .
المعتمد ١٣٢ .
معز الدولة ، أحمد بن بويه ١٣٠ ،
١٨٧ ، ١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ، ٢٢٥ ،
٣٠٤ .
المعز لدين الله الفاطمي ١٠ ، ٢٤ ،
٢٥ ، ٣٧ ، ٢٨١ - ٢٨٦ .
المعظم ٤١ ، ١٤٣ ، ٢١٢ .
المغيرة بن سعيد العجلي ٢٣٧ .
المقتدر بالله ٢٣ ، ١٠٩ ، ١١٤ ، ١٣١ ،
١٤٦ ، ١٦٦ ، ١٧٩ ، ١٨٣ ، ٢٠٧ ،
٢٢٥ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ،
٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ،
٢٦٤ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ،
٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٣٠٢ .
المقتدي ١٤٠ .
المكتفي ٢٤٨ .
المنصور العباسي ١٨ ، ٣٣ .
المنصور بالله الفاطمي ٢٨١ ، ٢٨٢ ،
- ٢٨٣ .
منصور اليمن ٣٦ ، ٢٨٦ .
المهتدي ٢٢ ، ١٣٢ .
المهدي العباسي ١٣٩ ، ١٥٥ ، ١٥٦ .
المهدي بالله الفاطمي ٢٨١ ، ٢٨٢ .
المهليبي ، أبو محمد الحسن بن محمد
١٠٩ ، ١١٠ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٩٣ ،
١٩٤ ، ٣٠٢ .
المؤيد ، أبو النصر شيخ ١١٢ .
موسى بن خلف ٢٥٢ .
موسى الكاظم ٣٤ .
الموفق ١٣٥ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٦٢ .
ميمون القداح ٣٥ ، ٣٨ .
(ن)
ناصر الدولة الحسن بن عبدالله بن
حمدان ١٢٤ .
ناصر الدين حسن بن المنصور ٥٣ .
الناصر لدين الله ، أبو العباس أحمد
٧١ .
الناصر فرج بن الظاهر برقوق ٤٩ .
الناصر محمد بن المنصور قلاوون ٥٣ .
نافع بن الأزرق ٢٢٩ .
نذير الحرمي ٢٥٣ .
نزار بن محمد الضبي ، أو معد ٢٥٤ .
نصر القشوري ٢٦٧ ، ٢٦٨ .
النظام ٢٢٨ .
نعيم بن حماد الخزاعي ٢٤١ .
نور الدين محمود بن زنكي ٤٠ .

١٤١ ، ١٧٥ ، ٢٢٢ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ،
٢٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠ ،
٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٣٠٢ .
واصل بن عطاء ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ .
وجيه الدين بن سويد ٢٠٠ .

(ي)

يحيى بن ذي النون، المأمون ٢٩ .
يحيى بن صاعد، أبو محمد ٢٧٥ .
يحيى بن الليثي ٢٨ .
يحيى بن معين ١٥٩ .
يزيد بن عمر بن هبيرة ٣٣ .
يزيد بن معاوية ١١١ .
يزيد بن الوليد الأموي ٢٢٨ .
يزيد المائي ١٨٣ .
يلبغا اليحيوي ١٤٥ .

(هـ)

الهادي ١٥٦ .
هارون بن عبد العزيز الأوراجي ٢٧٠ .
هارون بن المعمر ٢٣٢ .
هارون الرشيد ١٠ ، ١٥ ، ١٨ ، ٢٠ ،
٣١ ، ٣٤ ، ٥٥ ، ١٠٧ ، ١١٤ ، ١١٦ ،
١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٣١ ، ١٥١ ، ١٥٣ -
١٦١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢١٨ ، ٣٠١ .
هرثمة ٢٤٢ .
هشام الأول بن عبد الرحمن ٥٤ .
هود ٢٤٥ .
هياج بن العلاء السلمي ٢٢٧ .

(و)

واثق - مولى المعتضد - ٢٥٠ ، ٢٥٨ ،
٢٧٣ .
الواثق بالله ٩٢ ، ٩٨ ، ١١٣ ، ١١٧ ،

٣ - الأماكن

- (أ)
- أذربيجان ١٩٠ .
إربيل ١٩٩ .
أردبيل ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ .
الأردن ٦١ ، ٢٦٢ .
الأزهر ٣٧ ، ١٢٢ .
الإسكندرية ٦١ ، ١٤٣ .
أصبهان ٢٥٢ .
أفريقيا ٣٦ ، ٢٨٢ ، ٢٨٥ .
الأنبار ٢٤٦ - ٢٤٩ ، ٢٦٠ .
الأندلس ١١ ، ٢٠ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٦ ،
٣٨ ، ٥٤ ، ٢٩٤ .
الأهواز ١٩١ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ،
٢٦٠ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٩٠ .
الإيغاران ١٩٥ .
- (ب)
- باب حرب ٢٩٧
باب الشام ١١٠ .
باب الصغير (بدمشق) ١١٧ .
باب العامة (ببغداد) ١٠٩ .
بابل ١٩٣ ، ١٩٥ .
البصرة ١٠ ، ١٣٤ ، ١٣٩ ، ١٦٤ ،
١٧٧ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٩١ ، ٢٢٥ ،
٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٥٢ ، ٢٦١ ، ٢٦٦ ،
٢٨٨ ، ٣٠٤ .
- البطيحة ٢٨٩ .
بعلبك ١١١ .
بغداد ١٠ ، ١١ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ،
٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٦ ،
٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦٢ ،
١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ،
١١٩ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ ،
١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ،
١٤٢ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ،
١٦١ ، ١٦٥ ، ١٦٨ ، ١٧٥ ، ١٨٣ ،
١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٩٠ ، ١٩١ ،
١٩٣ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٢ ،
٢١٧ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ،
٢٣٣ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ،
٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٦٠ ،
٢٦٢ ، ٢٦٧ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥ ، ٢٧٩ ،
٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ،
٢٩٧ ، ٣٠١ - ٣٠٥ .
بلاد ما بين النهرين ٢٨٩ .
بيروت ٥٤ ، ١٢٢ ، ١٢٣ .
- (ت)
- تستر ٢٥٠ .
تكريت ١٩٥ .

٤١، ٤٣، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٩، ٥٠،
٥٢، ٥٧، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٩٣، ٩٥،
٩٨، ١١١، ١١٧، ١١٨، ١٢٠،
١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٦، ١٢٩،
١٣٦، ١٤٠، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥،
١٦٤، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٣،
٢١٢، ٢١٦، ٢١٧، ٢٢١، ٢٢٥،
٢٨٣، ٣٠٢، ٣٠٤، ٣٠٥.

ديار بكر ٦١

ديار ربيعة ٦١.

ديار مضر ٦١، ١٩٠.

(ر)

رأس بعلبك ١١١.

الربذة ١٧٧.

الرحبة ٢٤٨.

رحبة زيرك ٢٤٦.

رقادة ٢٨٢.

الري ١٢٥.

(س)

سامراء ٢١، ١٣٢، ١٤٢، ١٦٥،

١٨٩، ٢٣٣، ٢٤٠، ٢٤٣، ٢٤٦.

سقي الفرات ١٩٠.

سوراء ١٩٣، ١٩٥.

السوس ٢٥٠.

سوق الخزازين (بيغداد) ٢٣٢.

سوق الخيل (بدمشق) ١١١، ١١٢،

١٢٦.

(ج)

الجامعين ١٩٥.

الجبل ١٩١، ٢٤٨.

جنديسابور ٢٥٠.

(ح)

الحجاز ٤٨، ١٧٠.

حريستا ١٤٥.

الحرمين ٦١، ١٨٩، ٢٦٥.

حلب ٤٦، ٤٧، ٦٠، ٩٩، ١٠٢،

١٩٩، ٢٠١.

حلولان ٦١.

حماء ١٣٨.

حمص ٤٧، ٦١.

(خ)

خانيجار ١٩٥.

خراسان ٦١، ١٦٤، ١٧١، ١٧٣،

٢٦٧، ٢٧٢.

خطرنية ١٩٥.

(د)

دار الحديث ٥٩، ١٢٠.

دار السعادة ٥٩، ١١١، ١٤٠، ١٤٤.

دار العدل ٤٣، ١١١، ١١٢.

دجلة ٦١، ٢٧٢.

درب الرياح ٤٣.

درب* الزعفران ٢٨٨.

دقوقا ١٩٥.

دمشق ٩، ١٥، ٢٠، ٢٧، ٣٧، ٤٠،

(ش)

الشام ٢٦، ٣٦، ٤٣، ٥٤، ٩٤، ٩٨،
١٢٤، ١٣٠، ١٣٩، ١٧٧، ١٩٠،
٢١٧، ٢٢٧، ٢٤١، ٣٠٥.

الشرقية ١٨٩.

الشماسية ١٧٦.

(ص)

الصالحية ٢٧٩.

صفد ١١٣.

(ط)

طبرستان ٢٥٢.

طرابلس ٤٧، ١٠٢، ١١٢، ١١٣،
١٢٤، ١٤٥.

طرابلس الغرب ٢٨٢.

طريق الفرات ٢٤٨.

طسوجي قطربل ٢٤٨.

طليطلة ٢٩.

(ع)

العراق ٣٢، ٣٣، ٣٦، ٣٩، ٥٦،
٦٠، ١٧٠، ١٧٥، ٢٢٠، ٢٢٧،
٢٢٨، ٢٤١، ٢٥٩، ٢٧٥، ٢٨٩،
٣٠١.

عسكر مكرم ٢٥٠.

عكبرا ٢٩٠.

(ف)

فارس ٢٤١، ٢٦٢، ٢٨٩.

الفرات ٦١.

فلسطين ٦١.

فم الصلح ١٢٣، ١٦٥.

(ق)

القادسية ١٠.

قاسيون ٢٠٥.

القاهرة ١٠، ١٥، ٢٠، ٢٤، ٢٥،

٢٨، ٣٤، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٣، ٤٥،

٥٨، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٢٠، ٢٢٥،

٢٨١، ٢٨٣، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٩٠،

٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٤، ٣٠٥.

قبر الحسين ٢٢٠.

القدس ٥٣

قرطبة ١١، ١٥، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٥٤،

٢٢٥، ٣٠١، ٣٠٥.

قرقيسيا ٢٤٨.

قزوين ٢٥٢.

القصر ١٩٣.

قصر بن هبيرة ١٩٥.

قصر المنصور ٢٨١، ٢٨٢.

قلعة دمشق ١١١، ١٤٤.

قلعة القاهرة ١٢٢.

قنسرين ٦١، ٢٢٧.

القيروان ٢٨٢.

(ك)

الكرخ ١٨٥، ٢٦٣، ٢٦٥.

كوخي ٦١.

- الكوفة ١٠، ٣٢، ٦١، ١٣٩، ١٥١، ١٥٣، ١٥٧، ٢٦٥، ٢٧٥.
- (م)
- مازر ٧٩.
- المدائن ١٠.
- مدينة السلام ٦١، ٦٢، ٧١، ١٨٤.
- المدينة الشرقية ٦٠، ٦١.
- مدينة المنصور ٦٠، ١٣٤، ١٧٣، ١٨٠، ١٨٥، ١٨٩، ١٩١، ٢٦٢، ٢٦٣.
- المدينة المنورة (دار الهجرة) ٩، ٤٨، ٨٠، ٩٣، ١٠٤، ١٣٩، ١٥٩، ١٦٠، ١٧٧، ١٨٢، ٢٦٥.
- مراغة ١٩٠.
- مراكش ٢٩.
- مرو ١٦٣.
- مسكن ٢٤٨.
- مصر ١٠، ١٥، ٢٥، ٢٦، ٣٤، ٣٦، ٤٠، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦١، ٧٥، ٨٢، ٩٣، ١١٢، ١١٥، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٦، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٦، ١٤٠، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٩، ٢٠١، ٢١٣، ٢١٦، ٢٢١، ٢٤١، ٢٨٣، ٢٨٥، ٢٨٦، ٣٠٤، ٣٠٥.
- المغرب ١١، ٢٠، ٢٩، ٣٦، ٣٧، ٥٤، ٢٨١.
- مكة ٩، ١١٨، ١٣٩، ١٤٢، ١٦٠، ١٧٧، ٢٦٥، ٢٧١.
- ملطية ٥٠.
- المنصورية ٢٨٢، ٣٠٣.
- المهدية ٢٨٢.
- الموصل ٥٧، ٦١، ١٢٤، ١٨٤، ١٩٩، ٢١٢.
- (ن)
- نهر دجلة ٦١، ٢٧٢.
- نهر عيسى ٢٧٩.
- نهر الفرات ٦١.
- (هـ)
- همدان ١٩٠، ٢٢٠، ٢٣١.
- هيت ٢٤٧، ٢٤٨.
- (و)
- وادي الخزندار ١٢٣.
- وادي سلمية ١٢٣.
- واسط ٦١، ١٣٤، ١٨٥، ١٨٩.
- الوجه البحري ٤٥.
- (ي)
- اليمامة ١١٧، ٢٣٦.
- اليمن ٩، ٣٦، ٦١، ١٨٩، ٢٦٥، ٢٨٥.

٤ - الجوامع

- الجامع الأموي ٥٩ ، ١١١ .
- جامع البصرة ٢٦٦ .
- جامع الرصافة ١٨٤ .
- جامع سامراء ٢٤٦ .
- جامع القاهرة ٥٨ ، ١٢١ .
- جامع القيروان ٢٨٢ .
- جامع المدينة ببغداد ١٠٩ .
- الجامع المظفري ١٢٦ .

٥ - المدارس

- الإقبالية ١٢٠ ، ٢٠١ .
- الأمينية ٢٠٥ .
- البادرائية ١٢٠ .
- البهنسية ١٢٠ ، ٢٠١ .
- الجوزية ٦٠ .
- الركنية ٥٩ ، ١٢٠ ، ٢٠١ .
- الشامية ١٢٠ ، ١٢١ .
- الصالحية ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ .
- الظاهرية ١٢١ ، ٢٢١ .
- العادلية ٦٠ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢١٧ .
- الفدراوية ١٢٠ ، ٢٠١ .
- الفلكية ١٢٠ ، ٢٠١ .
- القيمرية ١٢١ .
- المستنصرية ١١٩ .
- الناصرية ١٢٠ ، ١٢١ ، ٢٠١ .
- النجيبية ١٢٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٥ .
- النورية ٥٩ ، ٢٠٥ .

٧ - الحيوان

- أسد ٢٢٠ .
- بغل ٥٨ ، ١٢٩ ، ٢٠٣ .
- جمل ٢٤ ، ٥٩ ، ١٦٤ ، ٢٣٢ .
- حمار ٢٢٠ ، ٢٧٩ .
- حمام ١١٧ .
- سمك ٢٦٩ .
- شاة ٢٦٤ .
- غراب ١٨٤ .
- فيل ٢٨٩ .
- كلب ١١٧ ، ١٦٠ ، ٢١٥ ، ٢٢١ ، ٢٤٢ .

٨ - النبات

- بطيخ ٢١٨ .
- تمر ١٧٠ .
- تين ٢١٩ .
- حشيشة ٢٠٣ .
- حنطة ١٧٠ .
- خبز ٢١٨ .
- خمر ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٤ ، ٢٠٣ ، ٢٢٢ .
- خيار ٢٧١ .
- ذرة ١٧٠ .
- زبيب ١٧٠ ، ٢٦٨ .
- شعير ١٧٠ .
- عنب ١٦٩ ، ١٧٠ .
- فستق ١٥٢ ، ١٥٣ ، ٢١٨ .
- قصب السكر ٢١٩ ، ٢٣٢ ، ٢٦٩ .
- لوز ٢٦٨ .
- نبيذ ١٧٠ ، ١٧١ ، ٢١٨ .
- ورد ٢٨٨ .

فهرس الكتاب

الصفحة

المقدمة	٧-٥		
تمهيد	١١-٩		
الباب الأول			
في الحياة القضائية			
الفصل الأول	نشوء منصب قاضي القضاة	٣٠-١٧	
١- في بغداد	٢٤-٢٠		
٢- في القاهرة	٢٧-٢٤		
٣- في قرطبة	٣٠-٢٧		
الفصل الثاني		مذهب قاضي القضاة	٥٤-٣١
١- المذهب الحنفي	زمن الدولة العباسية	٣٤-٣٢	
٢- المذهب الشيعي	الإسماعيلي زمن الدولة الفاطمية	
٣- المذهب الشافعي	زمن الدولة الأيوبية	٣٨-٣٤	
٤- المذاهب الأربعة	عند أهل السنة زمن دولة المماليك	
(أ) المذهب الشافعي	٥٣-٤٢	
(ب) المذهب المالكي	٤٧-٤٣	
(ج) المذهب الحنفي	٤٩-٤٨	
(د) المذهب الحنبلي	٥٠-٤٩	
.....	٥٣-٥١	

الصفحة

٥٤	٥ - مذهب الأوزاعي ثم المذهب المالكي في الأندلس
١٠٥ - ٥٥	الفصل الثالث تقليد قاضي القضاة
٥٨ - ٥٥	١ - شروط اختيار قاضي القضاة
٦٠ - ٥٨	٢ - احتفال التقليد
٧٥ - ٦٠	٣ - في بغداد
٩٣ - ٧٥	٤ - في القاهرة
٧٧ - ٧٥	(أ) تقليد قاضي قضاة الشافعية
٨٤ - ٧٧	(ب) تقليد قاضي قضاة المالكية
٨٧ - ٨٤	(ج) تقليد قاضي قضاة الحنفية
٨٨ - ٨٧	(د) تقليد قاضي قضاة الحنابلة
٩٣ - ٨٩	(هـ) وصية جامعه قاضي قضاة من أي مذهب كان
٩٩ - ٩٣	٥ - في دمشق :
٩٥ - ٩٣	(أ) تقليد قاضي قضاة المالكية
٩٧ - ٩٥	(ب) تقليد قاضي قضاة الحنفية
٩٩ - ٩٧	(ج) تقليد قاضي قضاة الحنابلة
١٠٢ - ٩٩	٦ - في حلب
١٠٤ - ١٠٢	٧ - في طرابلس
١٠٥ - ١٠٤	٨ - في المدينة المنورة
١٢٦ - ١٠٧	الفصل الرابع مهام قاضي القضاة
١١٧ - ١٠٧	١ - مهام قضائية :
١٠٨ - ١٠٧	(أ) تعيين وعزل القضاة
	(ب) محاكمة الوزراء والأشخاص الذين يهددون
١١٣ - ١٠٨	الخلافة والدين
١١٣	(ج) عقد بيعه وخلع الخلفاء
١١٤	(د) عقد خطبة وزواج الخلفاء والأمراء
١١٥ - ١١٤	(هـ) الحسبة

- (و) النظر في المظالم ١١٥ - ١١٦
- (ز) الفتيا ١١٦ - ١١٧
- ٢ - مهام غير قضائية : ١١٧ - ١٢٦
- (أ) التوسط عند الخليفة أو الوزير ١١٧ - ١١٨
- (ب) مرافقة موكب الحج ١١٨ - ١١٩
- (ج) التدريس والخطابة والنظر في الجوامع ومشيخة الشيوخ ١١٩ - ٢٢٢
- (د) دار الضرب والأسوار ووكالة بيت المال ١٢٢
- (هـ) الجهاد في سبيل الله ١٢٢ - ١٢٣
- (و) ملازمة الخليفة ١٢٣ - ١٢٦
- الفصل الخامس خصائص ومميزات قاضي القضاة ١٢٧ - ١٤٦
- ١ - الزي الخاص بقاضي القضاة ١٢٧ - ١٣٠
- ٢ - رواتب قاضي القضاة ١٣٠ - ١٣١
- ٣ - تقلد بعض أفراد العائلة الواحدة لمنصب قاضي القضاة ١٣١ - ١٣٨
- ٤ - تقلد بعض العميان لمنصب قاضي القضاة ١٣٨
- ٥ - رفض البعض تقلد منصب قاضي القضاة ١٣٩ - ١٤٠
- ٦ - الخلاف بين قضاة القضاة ١٤٣ - ١٤١
- ٧ - محاكمة وسجن وعزل ونفي قاضي القضاة ١٤١ - ١٤٦
- الباب الثاني
- في الحياة الإجتماعية ١٤٧ - ٢٢٢
- الفصل الأول أبو يوسف ١٤٧ - ٢٢٢
- من الفقر وملازمة أبي حنيفة ١٤٧ - ٢٢٢
- إلى أول قاضي قضاة وملازمة الرشيد ١٤٧ - ٢٢٢
- (١١٣ - ١٨٢ / ٧٣١ - ٧٩٨) ١٥١ - ١٦١
- ١ - نشأته فقيراً وتلمذه على الإمام أبي حنيفة ١٥١ - ١٥٣
- ٢ - تحسن أحواله بعد تقربه من الرشيد ١٥٣ - ١٥٥
- ٣ - أول قاضي قضاة في الإسلام ١٥٥ - ١٥٦

- ٤ - تنظيم القضاة على مذهب أستاذه أبي حنيفة ١٥٧ - ١٥٩
- ٥ - موقفه من ابن جامع المغربي ١٥٩ - ١٦١
- الفصل الثاني يحيى بن أكثم ومجالس اللهو والشرب والغلمان
..... (١٥٩ - ٢٤٢/٧٧٥ - ٨٥٧)
- ١ - نشأته وتقلده قضاء القضاة ١٦٣ - ١٦٥
- ٢ - مجالس الأنس والشراب وموقف الإسلام ١٦٦ - ١٧١
- ٣ - اللواط وموقف الإسلام ١٧١ - ١٧٥
- ٤ - الدفاع عن التهم المنسوبة إليه ١٧٥ - ١٧٧
- الفصل الثالث أبو الحسين عمر
..... أصغر قاضي قضاة وحظوته عند الراضي
..... (٢٩١ - ٣٢٨/٩٠٤ - ٩٤٠)
- ١ - نشأته وتقلده القضاء سنة ٩٢٢/٣١٠ ١٧٩ - ١٨٠
- ٢ - أصغر قاضي قضاة في الإسلام سنة ٩٣٢/٣٢٠ ١٨٠
- ٣ - كتاب الفرج بعد الشدة ١٨٠ - ١٨٢
- ٤ - حبه أهل العلم ١٨٣ - ١٨٤
- ٥ - مرضه ووفاته سنة ٩٤٠/٣٢٨ ١٨٤ - ١٨٥
- الفصل الرابع قاضي القضاة والرشوة والفساد
..... (٣٣٣ - ٣٥٢/٩٤٤ - ٩٦٣)
- ١ - أبو الحسن محمد بن أبي الشوارب الأموي
..... (٣٣٣ - ٣٣٥/٩٤٤ - ٩٤٦) ١٨٨ - ١٩٠
- ٢ - أبو السائب عتبة بن عبيد الله الهمذاني
..... (٣٣٨ - ٣٥٠/٩٤٩ - ٩٦١) ١٩٠ - ١٩٥
- ٣ - أبو العباس عبد الله بن أبي الشوارب الأموي
..... (٣٥٠ - ٣٥٢/٩٦١ - ٩٦٣) ١٩٥ - ١٩٧
- الفصل الخامس ابن خلكان
..... من كتاب وفيات الأعيان إلى الولع بالغلمان
.....

- ٢٠٥ - ١٩٩ (١٢٨٢ - ١٢١١/٦٨١ - ٦٠٨)
- ٢٠١ - ١٩٩ ١٢٦٦/٦٦٤ سنة ١٢٦٦/٦٦٤ - نشأته وتقلده قضاء قضاة الشافعية سنة
- ٢٠٣ - ٢٠١ ... ١٢٥٦/٦٥٤ - كتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان سنة
- ٢٠٥ - ٢٠٣ ٣ - إتهامه بتعاطي الحشيشة والولع بالغلما ن
- ٢٢٢ - ٢٠٧ الفصل السادس مجالس الشعر والنوادر
- ٢١٥ - ٢٠٧ ١ - شعر قاضي القضاة
- ٢١٨ - ٢١٥ ٢ - شعر الشعراء في قاضي القضاة
- ٢٢٢ - ٢١٨ ٣ - نوادر قاضي القضاة

الباب الثالث

- ٢٩٧ - ٢٢٣ في الحياة السياسية
- الفصل الأول أحمد بن أبي دؤاد والمعتزلة
- ٢٤٤ - ٢٢٧ (١٦٠ - ٢٤٠/٧٧٦ - ٨٥٤)
- ٢٢٨ - ٢٢٧ ١ - نشأته وتقلده منصب قاضي القضاة
- ٢٣١ - ٢٢٨ ٢ - جوهر الاعتزال :
- ٢٣٠ - ٢٢٩ (أ) التوحيد
- ٢٣٠ (ب) العدل
- ٢٣٠ (ج) الوعد والوعيد
- ٢٣١ - ٢٣٠ (د) المنزلة بين المنزلتين
- ٢٣١ (هـ) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- ٢٣٧ - ٢٣١ (٢١٢ - ٢٣٤/٨٢٧ - ٨٤٩) ٣ - نفوذ ابن أبي دؤاد والمعتزلة
- ٢٣٩ - ٢٣٧ ٤ - محنة خلق القرآن الكريم (٢١٨ - ٢٣٤/٨٣٣ - ٨٤٨)
- ٢٤١ - ٢٤٠ ٥ - محاكمة أحمد بن نصر سنة ٨٤٥/٢٣١
- ٢٤٤ - ٢٤١ .. ٦ - نكبة المعتزلة وابن أبي دؤاد (٢٣٤ - ٢٤٠/٨٤٨ - ٨٥٤)
- الفصل الثاني أبو جعفر في ظل الصراع بين الوزراء حول السلطة
- ٢٦٠ - ٢٤٥ (٢٣١ - ٣١٨/٨٤٥ - ٩٣٠)

الصفحة

- ١ - نشأته وتقلده منصب قاضي القضاة سنة ٢٩٦/٩٠٨ ٢٤٥ - ٢٥١
- ٢ - محاكمة الوزير ابن الفرات سنة ٣٠٦/٩١٨ ٢٥١ - ٢٥٤
- ٣ - محاكمة الوزير علي بن عيسى سنة ٣١١/٩٢٣ ٢٥٤ - ٢٥٨
- ٤ - مواجهة السيدة شغب أم المقتدر ٢٥٨ - ٢٦٠
- الفصل الثالث أبو عمر من مؤامرة خلع المقتدر إلى محاكمة الحلاج
(٢٤٣ - ٣٢٠/٨٥٧ - ٩٣٢) ٢٦١ - ٢٨٠
- ١ - نشأته وتقلده القضاء سنة ٢٨٤/٨٩٧ ٢٦١ - ٢٦٣
- ٢ - إشتراكه في مؤامرة خلع المقتدر ودخوله السجن
سنة ٢٩٦/٩٠٨ ٢٦٣ - ٢٦٥
- ٣ - عودته إلى القضاء سنة ٣٠١/٩١٣ ٢٦٥ - ٢٦٦
- ٤ - محاكمة الحلاج سنة ٣٠٩/٩٢١ ٢٦٦ - ٢٧٣
- ٥ - تقلده منصب قاضي القضاة سنة ٣١٧/٩٢٩ ٢٧٣ - ٢٨٠
- الفصل الرابع النعمان بن محمد (ت ٣٦٣/٩٧٤)
ودعم الخلافة الفاطمية «الشيعية» ٢٨١ - ٢٨٦
- ١ - نشأته وتقلده القضاء ٢٨١ - ٢٨٣
- ٢ - قاضي قضاة المعز لدين الله ٢٨٣
- ٣ - دور كتبه في دعم الخلافة الفاطمية : ٢٨٤ - ٢٨٦
- (أ) في الفقه ٢٨٤
- (ب) في التاريخ والسير ٢٨٤ - ٢٨٦
- الفصل الخامس الماوردي والدفاع عن الخلافة العباسية «السنية»
(٣٦٤ - ٤٥٠/٩٧٤ - ١٠٥٨) ٢٨٧ - ٢٩٧
- ١ - نشأته وتقلده القضاء في ظل النفوذ البويهي ٢٨٧ - ٢٨٩
- ٢ - قيامه بمهام سياسية دعماً للخلافة العباسية ٢٨٩ - ٢٩١
- ٣ - أول «أقضى قضاة» في الإسلام سنة ٤٢٩/١٠٣٨ ٢٩١
- ٤ - دور كتبه في الدفاع عن الخلافة العباسية ٢٩١ - ٢٩٧
- (أ) في السياسة : ٢٩٢ - ٢٩٥

.....	- الأحكام السلطانية والولايات الدينية
.....	- تسهيل النظر وتعجيل الظفر
٢٩٦	(ب) في الفقه والدين
٢٩٧- ٢٩٦	(ج) في اللغة والأدب
٣٠٥ - ٢٩٩	الخاتمة
٣٢٣- ٣٠٧	المصادر والمراجع
٣١٩- ٣٠٩	١ - المصادر العربية
٣٢١- ٣١٩	٢ - المراجع العربية
٣٢٢- ٣٢١	٣ - المراجع المعربة
٣٢٣- ٣٢٢	٤ - المراجع الأجنبية
٣٢٥	فهرس الأعلام والأماكن
٣٢٨- ٣٢٧	١ - أعلام القضاة
٣٤٨- ٣٢٩	٢ - أعلام غير قضاة
٣٥٢- ٣٤٩	٣ - الأماكن
٣٥٣	٤ - الجوامع
٣٥٥	٥ - المدارس
٣٥٧	٦ - دول وحركات ومذاهب
٣٥٩	٧ - الحيوان
٣٦١	٨ - النيات
٣٦٩- ٣٦٣	فهرس الكتاب

